

دليل الحيران وأنيس السهران
في أخبار مدينة وهران

تأليف
الشيخ العلامة محمد بن يوسف الزياني

تحقيق وتقديم
الشَّيخ المهدي البوعبدلي

اعتنى به
عبد الرحمن دويب

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الخمسين لاستقلال الجزائر

دليل الحيران وأنيس السهران

في أخبار مدينة وهران

تأليف

الشيخ العلامة محمد بن يوسف الزياني

تحقيق وتقديم

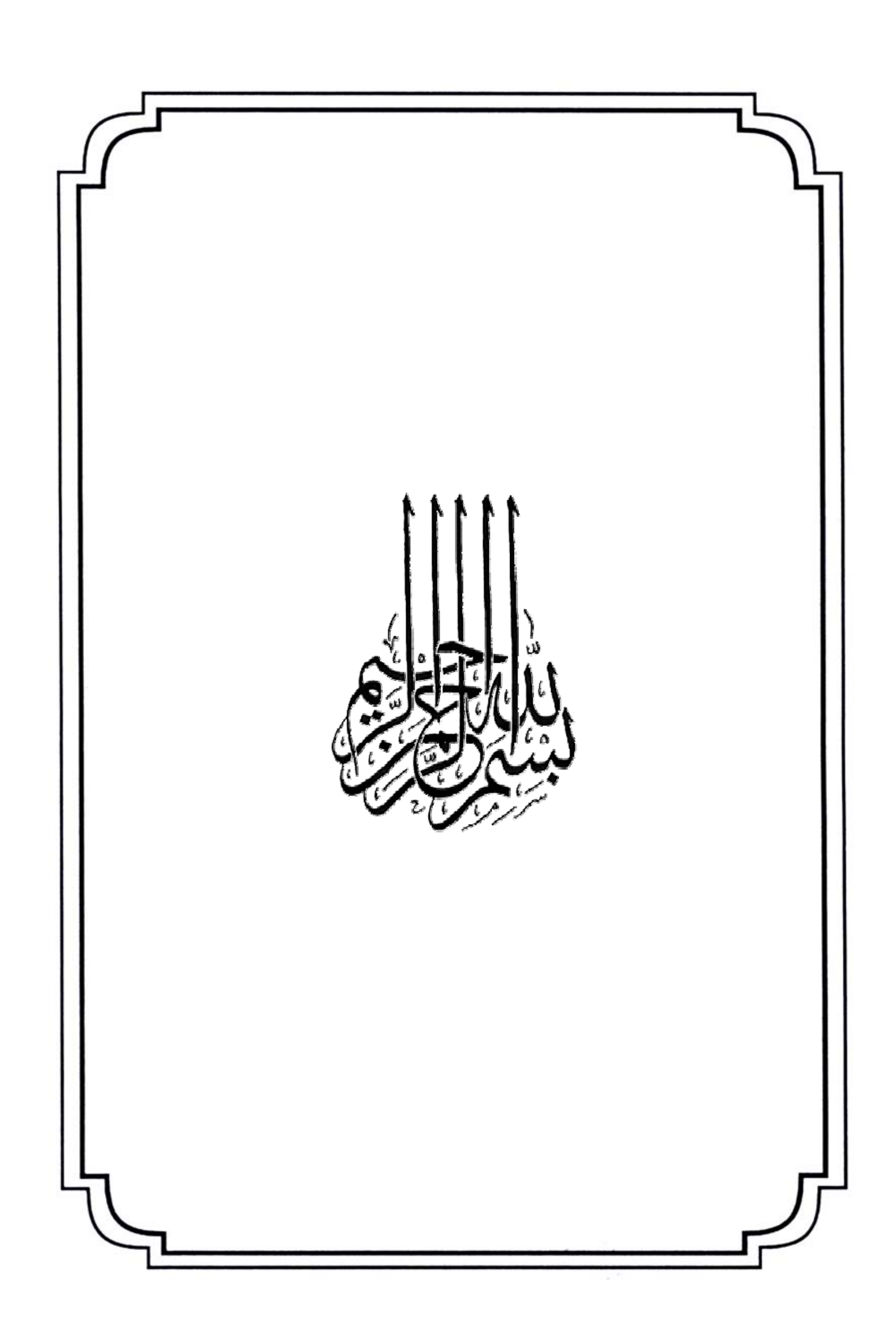
الشَّيخ المهدي البوعبدلي

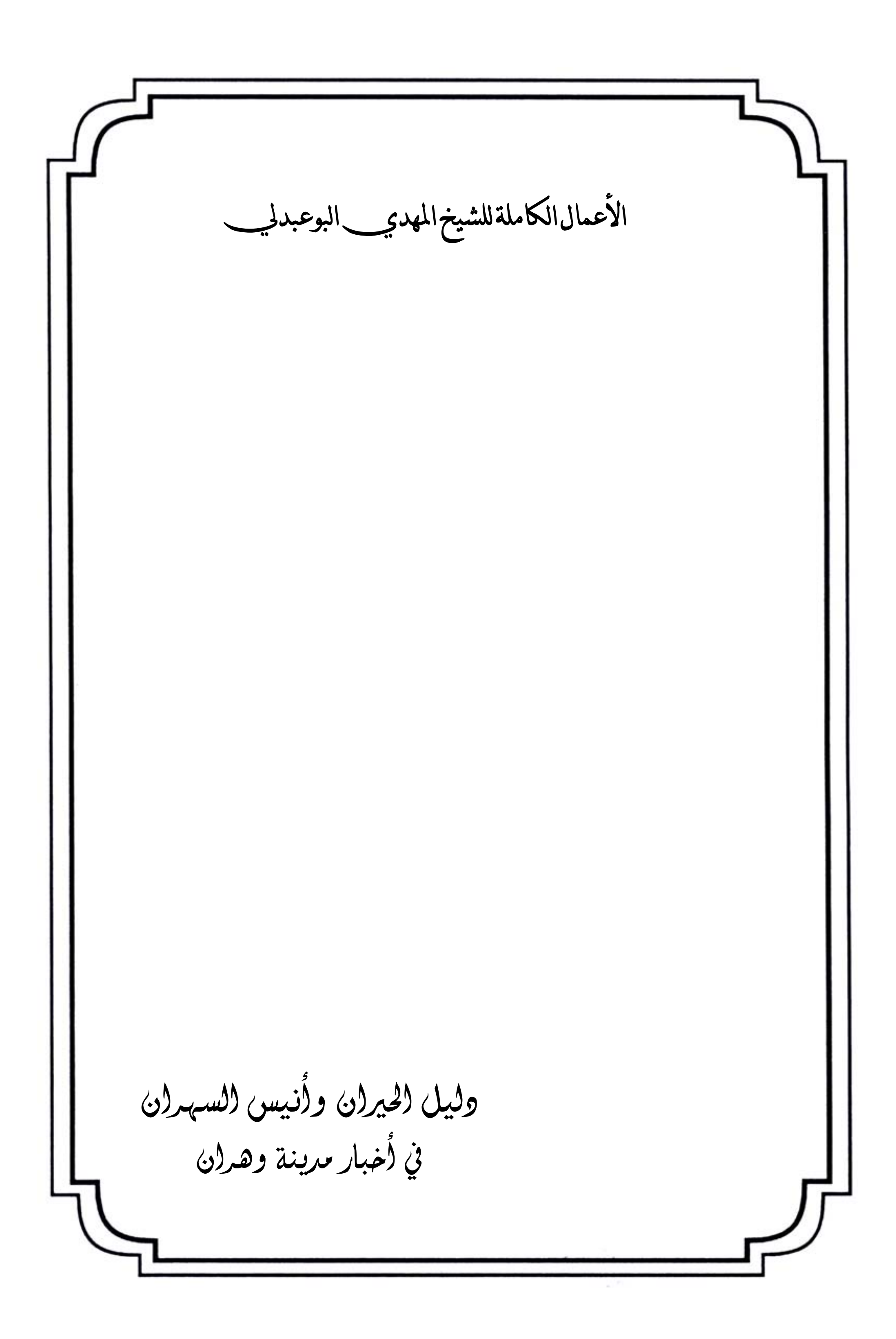
اعتنى به

عبد الرحمن دويب

عالم المعرفة

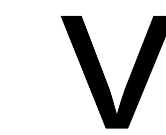
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي

دليل الحيران وأنيس السهران
في أخبار مدينة وهران



الطبعة الأولى

2013

الإيداع القانوني: 2012-4290

ردمك: ISBN 978-9947-912-44-7

عالم المعرفة
للنشر والتوزيع

حي باحة 02، فيلا رقم 07، تماريس المحمدية / الجزائر

هاتف/ فاكس: 96 -92-21-021

البريد الإلكتروني: alemelmaarifa@yahoo.fr

مقدمة الناشر

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وبعد.

فقد اشتهر عند كثير من الباحثين أنَّ كتاب: (**دليل الحيران**) تأليف الشيخ **محمَّد بن يوسف الزِّياني البرجي** الذي قام بتقديمه ونشره الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** (رحمه الله تعالى) يمثِّل جميع الكتاب، أو قِسما كبيرا منه، غير أنَّه بعد أن وقفنا على نسخته المخطوطة الموجودة بقسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية (رقم: 3324، 3325) تبيَّن لنا أنَّ القسم المنشور منه لا يتجاوز نصف أصله المخطوط، وأنَّه تُصرِّف فيه فاختُصرت منه أبواب وحذفت أخرى، كما تُصرِّف في كثير مِن فقرات النصِّ حذفا وترتيبا، وقد أُشير إلى بعضها دون بعض، وعليه فكان الأولى أن يعنوَن لَه: بـ: (**مختصر دليل الحيران**) أو (**تهذيب دليل الحيران**) أو ما شابه ذلك.

مثال ذلك ما ورد في فصل (**الدولة الثانية العبيديون**)، حيث جاء في هامش (ص: 79)، ما يلي: «قام المحقِّق باختصار هذا القسم من الكتاب. (الناشر العلمي)»، وفي فصل: (**الدولة السادسة بنو مرين**)، ورد في هامش (ص: 107): «يوجد هنا بترٌ هامٌّ يشمل: القسم الأخير مِن الجزء الأول، والقسم الأول من الجزء الثاني، وهو يهم الدول التالية: المرابطون، والموحِّدون، وبنو زيان، وقسم مِن دولة بني مرين. (**الناشر العلمي**)».

وهذا الاختصار كنا نظنُّه عبارة عن حذف لفصول فقط، وبعد مقارنة الكتاب المنشور بالأصل المخطوط لاحظنا أنَّ الشيخ **المهدي** تصرَّف في أصل الكتاب فحذف من الفصول المنشورة فقرات كثيرة، وقصائد طويلة.

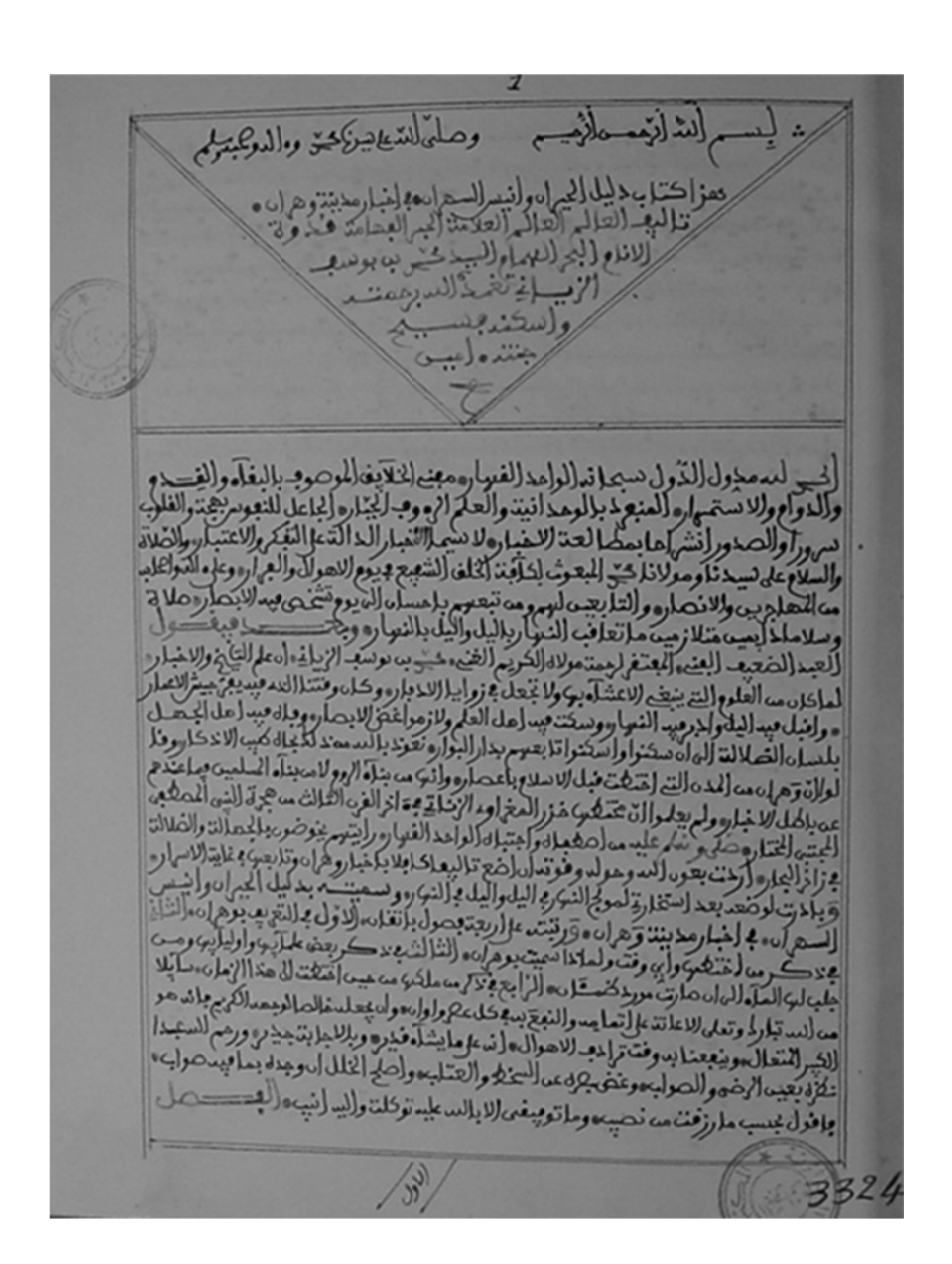
ونحن في هذه الطبعة بذلنا جهدنا في تصحيح ما نشره الشيخ **المهدي** (رحمه الله تعالىٰ)، وقابلناه بأصلِه المخطوط، ونعمل حثيثا لإخراج الكتاب كامِلا مع تحقيق نصِّه، لإعادة نشره قريبا ـ إن شاء الله ـ.

ملاحظتان:

1) لما بلغ المؤلِّف إلىٰ الدولةالتاسعة المتعلِّق بدولة الفرنسيس جمح قلمه عن التصريح بالكتابة فيه، واستعاض بذلك تحرير رسالة مُفردة بعنوان: (**أقوال التَّأسيس عمَّا وقع وسيقَع مِن الفرنسيس**) نسَبها للحافظ **أبي راس** المتوفَّىٰ قبل الاحتلال الفرنسي بأزيد مِن عشر سنوات، علىٰ أن ذلك صدر عنه بطريق الكشف المتعارف عليه عند الصوفية، وهي كما حقَّق القول فيها الشيخ **المهدي** (رحمه الله تعالىٰ) مِن إنشاء الزياني صاحب دليل الحيران، وعليه فإننا في طبعتنا القادمة ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ لكتاب (**دليل الحيران**) سنذيِّله بهذه الرِّسالة بعدما وقفنا علىٰ (3) نسخ منها.

2) نسخة كتاب (**دليل الحيران**) المخطوط الموجود بالمكتبة الوطنية الجزائرية كان بِحوزة الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالىٰ)، وعليه بعض تعليقاته، وهو الذي اعتمده في نشرته، ثمَّ انتقل منه إلىٰ المكتبة المذكورة عن طريق الإهداء.

عبد الرحمن دويب



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

هذا كتاب دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران
تأليف العالم العلامة الحبر الفهامة قدوة
الأنام البحر الهمام السيد محمد بن يوسف
الزياني تغمده الله برحمته
وأسكنه فسيح
جنته آمين

صورة عن الصفحة الأولى من مخطوط (دليل الحيران)

الموجود بالمكتبة الوطنية الجزائرية

مقدِّمة المحقِّق

الشيخ المهدي البوعبدلي

مقدِّمة المحقِّق

الشيخ المهدي البوعبدلي



إنَّ هذا التَّأليف الذي خصَّصه صاحبه لتاريخ مدينة **(وهران)** كما يشير إليه العنوان، يشمل تاريخ العهد التُّركي بـ **(الجزائر)** بصفة إجمالية، ويشمل الفترة الأخيرة منه بصفة خاصَّة، تحدَّث المؤلِّف عن **(وهران)** والبايات الذين تداولوا حكمَها، وأهمِّ الأحداث التي وقعَت في عهدهم بكامل القُطر.

وميزتُه هو تحدُّث المؤلِّف عن الفترة الأخيرة مِن الحكم التُّركي، التي تعدُّ حلقة مفقودة، إذ معظم المؤرِّخين توقَّفوا عن الكتابة بعد فتح **(وهران)** الأخير سنة (1206هـ).

كما يمتاز التَّأليف بتعرُّضه لذكر **(ثورة درقاوة)** المندلِعة سنة (1220هـ) عشرين ومائتين وألف، بمَزيدٍ من التَّفصيل، وعرض الأحداث بصفة جليَّة، غير متحيِّز إلى وجهة نظر المؤرِّخين الرَّسميِّين الذين خصَّصوها بتآليف، ولا إلى المؤرِّخين المنتصرين للثُّوار الذين سجَّلوا أحداثها في قصائدهم ـ الشِّعر الشَّعبي ـ.

أشار كثيرٌ من المؤرِّخين إلى **(ثورة درقاوة)** ولم يعطوها ما تستحقُّ مِن الأهميَّة، فتحدَّثوا عنها كحديثهم عن بقيَّة التَّمرُّدات والانتِفاضات التي كانت تتجدَّد المرَّة بعد المرَّة في العهد التُّركي، ثمَّ يخبو لهبها، أمَّا هي فقَد نشَبت سنة (1220هـ) وبقيت

مستمرَّةً ومتواصلةً طيلةَ عهدِ الحكم التُّركي، وإن كانت تختلف قوَّةً وضعفا.

لم يكتفِ المؤلِّف في عرضِه لأحداث (**ثورة درقاوة**) بالنَّقل عن المصادر التي اشتهر أصحابها بمُوالاتهِم لحكمِ الأتراك، كـ : **حسن خوجة** صاحب: (**درّ الأعيان في أخبار مدينة وهران**)، والكاتب الخبير **مسلم بن عبد القادر الحميري** (**باش دفتر بايات وهران**)، الذي ترجم كتابَه إلى الفرنسية **أدريان دلبيش** (Adrien delpech)، ونشره فصولاً في (**المجلَّة الإفريقية**) لسنة 1874م، والمؤرِّخ **أبي راس النَّاصري** الذي أصيب بشَظاياها وألَّف فيها تأليفا سمَّاه: (**درء الشَّقاوة في فتنة درقاوة**)، وغيرهم، بل عزَّزها ببعضِ انطباعاتِ شهود عيان، وما تَناقلته الرُّواة، وسجَّله الشُّعراء الشَّعبيُّون الذين كان جلُّهم ينتصرون للثُّوار، وعلى سبيل المثال نذكُر أبياتا مِن قصيدةٍ لشاعر شعبي[1] سجَّل فيها أوَّل معركة وقعَت بين **عبد القادر بن الشَّريف** (قائد الثّوار، و**باي وهران مصطفى منزالي** بـ (**فرطاسة**)، وهُزِم فيها **الباي**، ولم ينج بانفراده إلاَّ متسلِّلا على حين غَفلة، ممتطيا جَواده مِن دون سرج قاصِدا (**معسكر**) إلاَّ بشقِّ الأنفس، قال الشَّاعر:

كي قصَّة الأجواد مع أتـراك النُّوبـه	يوم أن فزعهم ابن الشريف اوجـاوا
ذوك أتراك الكرسي دهر فـاتو رهبـه	قـالوا الأجـواد عـلى حرمنـا نزكـاوا
انعقد غاشي الأحـرار[2] عقـد امحبـه	في فرطاســة شــاو انهــار واتلاقــوا
بالسيف أونـار المشـط اودق الحربـه	ماهيـه اومنـا عيطـا أعقيـد أفنـاروا

(1) قيل إنَّ الشَّاعر الشَّعبي هذا، هو: أبو علام الطيّب السَّجراري، وقد نسبها بعض النَّاقلين إلى غيره.

(2) **الأحرار**: قبيلة عربية في الجنوب [الجزائري] انتصرت للثائر.

اك امقعشـــم ذاك يهـــوم بالحربابـــه   وأفرايس الأتراك اعلىٰ الطريق ابقاوا

اتغلبوا الأتراك او سلموا في الضـربه   أهــل العـدة البيضــا كامــل اتعــراوا

دار الذيب العوله من لحم الأتراك. اهـ

ثم استرسل الشَّاعر في الإشادة بابن الشَّريف والثّوار، وأضفىٰ علىٰ الثَّورة الصِّبغة الدِّينيَّة والنَّصر الإلهي، ثمَّ ذكر كيف دخلَ **ابن الشَّريف** علىٰ رأسِ الثّوار المنتصرين إلىٰ مدينة (**معسكر**)، وكيف تتبَّع جنود الباي **مصطفى** وحاصَرهم بـ (**وهران**)، وقد استولىٰ الهلع علىٰ الباي **مصطفى**، فأمرَ بغلقِ الأبوابِ بالبناء، واستغاث بـ (**باشا الجزائر**) الذي أمدَّه بالجيش والعتاد والأسطول، إلاَّ أنّه عزله وعيَّن في مكانه **محمَّد بن عثمان الصَّغير** [1]، وفي هذه المعركة مات الكاتب الشَّهير **أحمد بن هطَّال التِّلمساني** [2].

إنَّ هذه الثَّورة التي كانت مِن أسباب انهيار دولة الأتراك بـ (**الجزائر**)، حيث إنَّها فقدت ثقة معظم السُّكان الذين ينطبق عليهم ما قاله **ابن عميرة المخزومي** [3] في رسالته

---

(1) **محمَّد بن عثمان الصَّغير**: أخو الباي الفاتح محمَّد الكبير، كان مقيما بـ (البُلَيدة) صحبة ابن أخيه عثمان، الذي عزِل من (**وهران**) وعيِّن بـ (**قسنطينة**)، وقتل في معركة مع الثَّائر ابن الأحرش، وقد لقِّب بالصَّغير تفرقة بينه وبين أخيه ابن عثمان الكبير.

(2) **أحمد بن هطَّال**: كان كاتِبا عند الباي محمَّد بن عثمان الكبير، ورافقه إلىٰ غزوة (**الأغواط**) و(**عين ماضي**)، وسجَّل تلك الغزوة التي اشتهرت بـ (**رحلة الباي محمَّد بن عثمان الكبير**)، وقد نشرها أخيرا، د. محمَّد بن عبد الكريم الزَّموري.

(3) **أبو المطرِّف أحمد بن عميرة المخزومي**: الكاتب الأندلسي الشَّهير في رسالة كتبها لمواطنه الحافظ ابن الأبَّار يصِف فيها حالة (**بلنسية**)، وظروف احتلالها مِن العدوِّ في أوائل القرن السَّابع.

لابن الأبَّار: «ففي كلِّ جانب عَويل وزفرة، وبكلِّ صدر غليل وحسرة».

لم نتَّصل بالمؤلَّفات الخاصَّة بها لنقارن بينها وبين (**دليل الحيران**) موضوع هذا التَّقديم، اللَّهم إلاَّ كتاب (**المرآة**) لـ : **حمدان بن عثمان خوجة**، الذي تعرَّض فيه للفترة الأخيرة من العهد التُّركي، و**حمدان** نفسه لم يعط أهمِيَّة كبرىٰ لـ (**ثورة درقاوة**) في تأليفه، وإنَّما تحدَّث عنها كما تحدَّث عن غيرها مِن الأحداث في العهد التُّركي عرَضا ليتوصَّل إلىٰ المقارنة بين العهدَين، أي: التُّركي والفرنسي إثر احتلال (**الجزائر**)، ومع هذا الفارق نجِده يتفق مع (دليل الحيران) في تدهور الحكم التركي إذ ذاك، وإنما يختلف معه في أسبابه.

وهناك مؤلِّف آخَر تعرَّض بمزيد مِن التَّفصيل لـ (**ثورة درقاوة**)، وهو المؤرِّخ المغربي **أبو القاسم الزيَّاني** (1147ـ 1249هـ)، صاحب التَّآليف القيِّمة التي من جملتها: (**التُّرجمان المعرِب عن دول المشرق والمغرب**)، إذ (**ثورة درقاوة**) ترتبطُ بتاريخ دولة الملك سليمان العلوي الذي تدخَّل للتَّوفيق بين الثّوار، والباي **محمَّد بن عثمان الصَّغير**[1].

وهذه وجهة نظر المؤرِّخ **أبي القاسم الزّيَّاني**: «وفي عام 1220هـ وقعت فتنة بين التُّرك والعرب أهل الواسطة، بسبب بعض فقراء (**درقاوة**) قتلَهم **الباي** ووجَّه في طلبِ شَيخهِم **عبد القادر بن الشَّريف** خليفة الشَّيخ الأكبر سيِّدنا ومولانا **العربي الدَّرقاوي** (رحمه الله) بـ (**المغرب**)، ففرَّ سيِّدي **عبد القادر بن الشَّريف** عن وطنِه ونزلَ بوطن

(1) كان الملك سليمان من أصدقاء الباي محمَّد بن عثمان الكبير، ولهذا كان لتدخله صبغة شخصيَّة، وقد عثرنا علىٰ عدَّة رسائل كتبها للباي محمَّد الصَّغير، يخاطبه فيها بالولد الصَّالح، ويقدِّم له فيها نصائحه، ويحذِّره من عاقبة التَّهوُّر.

(**الأحرار**)، واجتمعَ عليه فقراء (**درقاوة**)، وامتعَضوا لمن قُتل منهم، ونفي شيخهم **ابن الشَّريف** عن زاويته ووطنِه، وتذمَّر لذلك عشائرهم، وقاموا على التُّرك وحزَّبوا لحربهم، ولماَّ قدمت محلَّة **التُّرك** من (**الجزائر**) على عادتها ولقيها **الباي** على عادته، قصدها العربُ وأحلافُهم، ووقع القتالُ فانهزم **الأتراك**، وقتلوا منهم ونهبوا محلَّتهم، ودخلوا لـ (**وهران**) مفلولين، فقصدَهم العربُ وحاصروهم بـ (**وهران**)، فكتب **الباي** للسُّلطان يَستنصِر في رقع هذا الخرق، وينتظر الفرج مِن جِهته» اهـ [1].

ويرى **حمدان بن عثمان خوجة** أنَّ تلك الثَّورة كانت نتيجة لتسرُّب الانحِلال والضّعف في الحكومة المركزيَّة، التي صارت ألعوبةً لخليطِ الجيش المرتَزق، المتغلِّب عليه اللَّفيف الأَجنبي، فكان هذا الجيش يثور ويتمرَّد المرَّة بعد المرَّة، حسب الأهواء والمطامع، وتحت تأثير المصطادين في الماء العكر، وكانت بداية ذلك ـ التي ظهرت بصفة جليَّة ـ التَّمرُّد على أمثل وأصلح حاكم، وهو **مصطفى باشا**، الذي تآمر عليه المتمرِّدون مِن اللَّفيف الأجنبي، وقتلوه، ثمَّ نصَّبوا مكانه **أحمد خوجة** سنة (1220هـ/ 1805م)، إلاَّ أنَّنا نجد بعضَ المؤرِّخين الأجانب المتأخِّرين، مثل: **كاط** (E.Cat) [2]، و(**مذكِّرات**) الماريشال **دو بورمون**[3] (قائد جيش الاحتلال الفرنسي) يخالفان **حمدان** في تزكيَّته لـ : **مصطفى باشا**، ويذكران أنَّ بداية تدهوُر الحكم التُّركي بـ (**الجزائر**) كان بعدَ موتِ

---

(1) **الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب** (مخطوط)، ذكر ذلك في ترجمة الملك سليمان العلوي.

(2) له تأليف سمَّاه: (**التاريخ الصَّغير للجزائر والمغرب وتونس**)، طبع في الجزائر سنة 1891م.

(3) نشرها سنة 1965م بيير سيرفال (P.Serval) في كتابٍ سمَّاه: (**المجهولون في التَّاريخ**) الماريشال **دوبورمون**.

الباشا حسن (1798م)، وتولية صهره الخزناجي **مصطفى باشا** (1798 ـ 1805م) الذي كان كنَّاسًا في بادئ أمره بشوارع العاصِمة، جهولا فظًّا، وهو مَدينٌ بمنصبه لليهودي **بوشناق**، فلهذا كان لليهود في عهدِه التصرُّف المطلَق في شؤون البلاد، فبسبب تدخُّلهِم في شؤون الدولة وقعَت مُصادرات لا نهاية لها، كما وقع عزلُ كثير مِن البايات، ثمَّ إجراءات استثنائية ضدَّ القناصل الأوربيِّين، فغصبت أموالهم وأهين كثير منهم ... الخ، وقد عقد المؤرِّخان فصولا ذكرا فيها أنَّ جميع ما أصابَ (**الجزائر**) في الفترة الأخيرة مِن العهد التُّركي كان بسببِ تداخل (**شركة بوشناق وبكري**)[1] التاجرين المشهورين، وقد تعرَّضت لها بتفصيل في مقالٍ خاصٍّ نُشر في مجلَّة: (**الأصالة**) التي تصدرها (وزارة التَّعليم الأصلي والشُّؤون الدِّينيَّة)، بعدَديها: (14 و15).

وعلىٰ كلٍّ فتدهور العهد التُّركي في فترته الأخيرة محلّ اتِّفاق بين المؤرِّخين الذين ذكرناهم ووصلتنا تآليفهم، وأيَّدت وجهات نظر بعضهم المذكِّرات والكُتب الأجنبيَّة التي نشرت بعد الاحتلال الفرنسي، والتي كانت تعتمد علىٰ وثائق رسميَّة، وكلُّ ما نجده مِن الخلاف بينها هو في الأسباب.

ولنرجع إلىٰ مُواصلة حديث **حمدان بن عثمان خوجة** الذي قال بعد أن ذكر **مصطفى باشا**، قال مباشرة عن خلفه **أحمد خوجة**: «إنَّه ارتكبَ سلسلةً كبيرة مِن الجرائم أثناء حكمِه، وقد زاد في أجور الجنود مكافأة لهم، بيد أنَّه راح يعزل البايات مِن مَناصبهِم

(1) تعرَّض كثيرٌ من المؤرِّخين لقضيَّة شركة اليهوديَين، واتِّصالها بـ (**طاليران**) وزير **نابليون**، والأدوار التي لعباها، وتسمَّم الجوُّ بسببها، وثار السُّكَّان علىٰ اليهود، وقتلوا **بوشناق**، ثمَّ قتلوا حاميه الباشا **مصطفى**، رغم انضمامه للثَّوار، وتظاهره بقمع اليهود.

ويقتلهم ليستولي علىٰ **أرزاقِهم** وثَرواتهم...»، إلىٰ أن يقول: «... ومَن أراد في هذا العصر أن يكونَ **بايا** فما عليه إلاَّ أن يتَّصل بأقرباء **أحمد باشا** الذين يتعهَّد لهم بدفع الثَّمن عِندما يصبحُ **بايا**، وعلىٰ هذا فإنَّ وظائف البايات قد أصبحت وظائف تجاريَّة، تُباع وتشترىٰ، وهذه التِّجارة توافقُ مَيل أصحابِ السُّلطة الذين استمرَّت اغتصاباتهم وابتزازاتهم خارجة عَن القوانين »[1] .

ثم تعرَّض **حمدان** لأسبابِ **(ثورة درقاوة)**، فقال: «وأكبر المظالم التي حدثَت بـ **(الجزائر)** قد نجمت عن إسنادِ مَناصب البايات إلىٰ أشخاصٍ ليسوا ذوي جَدارة ولا كَفاءة، ومن هؤلاء الأشخاصِ شخصٌ يسمَّىٰ: **مصطفى**[2]، قد كان صنيعا للخزناجي[3]، ومحبوبا لدَيه، فقد عيَّن **باشا** لـ **(وهران)** بعدما التزم بدفع مِقدارٍ كبير مِن المال في مقابَل هذا التَّعيين، وليس لهذا الباي أيَّة علاقة، ولا أدنىٰ ارتباطٍ مع شيوخ القبائل، ولم يكُن يَعرف أبدا هذا الإقليم، بل لم تظهر عبقريَّته إلاَّ في سلبِ أموال الرَّعيَّة وإرسالها إلىٰ حاميه » اهـ. ثمَّ يذكر **حمدان** خلفاءَ الباشا **أحمد خوجة** واحدا واحدا، ومِن بينهم الحاج **علي باشا** الذي تولَّىٰ سنة 1224هـ/ الموافق لسنة 1809م، والذي وقعت في عهدِه الحربُ مع **(تونس)**، وقد كلَّف هذا الباشا الباي **محمَّد ابن عثمان الصَّغير** بعد انتصاراته علىٰ **(درقاوة)**، بالذَّهاب إلىٰ **(تونس)** علىٰ رأسِ جيشه الذي برهَن علىٰ

---

(1) **المرآة**، ترجمة ونشر، د. محمَّد بن عبد الكريم الزَّمُّوري.

(2) هو مصطفىٰ منزالي، الذي ثار عليه ابن الشَّريف وهزمه في أوَّل معركة بينهما بـ **(فرطاسة)**، وهو صديق المؤرِّخ **أبي راس** وممدوحه.

(3) **الخزناجي**: مدير الماليَّة والضرائب، كانت له سلطة قويَّة في العهد التُّركي.

بَسالته، إلاَّ أنَّ الباي ولَّى وجهتَه إلى (**المغرب**) بدلا مِن (**تونس**) بعدَ قتلِ أنصار **الباشا**، لخبر يطول، ثمَّ إنَّ أعوانَ **الباشا** ومؤيِّديه ألقَوا عليه القبضَ قبلَ وصوله إلى هدفِه.

ثمَّ استرسل **حمدان** في حديثه فقال: «.. ثمَّ عوقب بالإعدام، وأصبحت زوجته وأولاده عُرضةً للمعاملة الفَظيعة، ونقلت جميع ثروته إلى (**الجزائر**)، ثمَّ خلفه **باي** آخر، وهكذا تتابعت تَسميات البايات بالإقليم الوهراني، إلى أن جاء الباي **حسن القاري حسن** الذي سلَّم (**وهران**) إلى الفرنسيِّين »[1].

وليتصوَّر القارئ حالة البلاد إذ ذاك، وأثر التَّمرُّدات والانقلابات التي لا مبرِّر لها، ففي مدَّة (12) سنة ـ أي: ما بين سنوات (1220هـ/ 1805م) إلى (1232هـ/ 1817م) ـ تداولَ الحكمَ خمسة باشاوات، قتِل منهم أربعة، ومات واحدٌ منهم مَوتا طبيعيا، ونجِد صاحب (**دليل الحيران**) يخالف **حمدانَ** في بعضِ الأسباب، حيث حمَّل المسؤوليَّة للبايات بدلا مِن الباشوات، فهو يرى أنَّ البايات بالغوا في الظُّلم والتَّعدِّي، واتَّخذوا قمع (**ثورة درقاوة**) وسيلةً للرّشى والانتقامات الشَّخصيَّة، ففتحوا باب الوِشايات والارتشاء على مِصراعَيه، وعلى سبيلِ المثال نذكُر ما حكاه عن بايَين اثنين، أي: **الأوَّل** الذي تولَّى بعد اندلاع (**ثورة درقاوة**)، والأخير الذي وقعَ في عهده الاحتلال الفرنسي.

قال عن **الأوَّل** (وهو: محمَّد بن عثمان الصَّغير الذي تولَّى بعد عزل **مصطفى منزالي**): «... ولمَّا تولَّى اشتغلَ في أيَّامه بطلب **الدَّرقاوي** وقصم محاله، وقطع آثاره ومعالمه، وبغاته ومظالمه، حتَّى إنَّ مَن حسدَ أحدا وشَّى به عنده، وادَّعى عليه محبَّة

(1) **المرآة**، المترجِم السَّابق.

الدَّرقاوي، بادر للانتقام منه بأيِّ نوع شاءه، ولا يقبلُ منه شفاعةَ شفيع، وابتدعَ قتلا لم يبتَدِعه أحدٌ مِن الملوك قبله، وهو فعلٌ شَنيع، ونوَّعَ عذابَ مَن يظفر به إلى أنواع، فمِنهم مَن يأمر بإِخراجِه إلى السُّوق، ودقِّ أعضائه حيًّا، شيئا فشيئا، بالمعاول إلى أن يموت بانفظاع (كذا)، ومنهم مَن يأمر بإقلاع عَينَيه ويتركُه أعمىٰ مِن حينه، ومنهم مَن يأمُر بقطع أعضائِه، فإن مات وإلاَّ أجهزَ عليه، فيموتُ في سجنِه، ومنهم مَن يأمر بذَبحه، ومنهم مَن يأمر بخنقِه، ومنهم مَن يأمر بِبقره، ومنهم مَن يأمر بِشَنقه، إلى غير ذلك مِن الأنواع المختلفة»[1].

وهذا الباي هو الذي قال عنه **حمدان بن عثمان خوجة**: «ثمَّ عوقب بالإعدام، وأصبحَت زوجته وأولاده عُرضة ... الخ».

وبيَّن صاحب (**دليل الحيران**) كيفيَّة تنفيذ حكمِ الإعدام عليه مِن طرف رسول (**باشا الجزائر**)، **عمر آغة**، فقال: «وقتَل عمرُ آغة البايَ، ونكَّل به أشدَّ النّكال، فأمر بِسلخ رأسِه وهو حيٌّ، ولماَّ سلخ حشوه قُطنا، وبعثَه لـ (**الجزائر**) فعلَّقوه على عودٍ طويل زمنا عَديدا، وقتلَ أولادَه وهم صِبيةٌ صِغار، ولم يخشَ الله ربَّ العالمين، وقتلَ بعضَ خدمِه، فصار بهم ما صار بـ (**البرامكة**) مع العباسيِّين، وقد قال فيه السَّيد **حسن خوجة** مؤلِّف (**درّ الأعيان في أخبار وهران**) قصيدة غابت عنِّي وقتئذ»[2].

أما الباي الثاني ـ الذي اخترناه كنموذج ـ وهو حسن بن موسىٰ الذي وقع الاحتلال الفرنسي في عهده واستسلم للفرنسيين فقال عنه: «ثمَّ كثُر عبث هذا الباي

---

(1) **دليل الحيران** (الجزء الثَّاني، ص: 106).

(2) **دليل الحيران** (ج2، ص: 111).

وظلمه وتعدِّيه، واجتراؤه على العلماء والأولياء والرَّعيَّة بغاية تعدِّيه، وبان منه الظُّلم والتَّعدِّي، وكثر منه الضَّلال والتَّردِّي، فأكثر من سفك الدِّماء في العباد، وتكرَّر ظلمه والفساد».

وقد كان يحرِّض عمَّاله على جمع الغرائم التي يفرضونها على الرَّعيَّة من دون موجب، ولماَّ لامه بعض أصدقائه على المبالغة في ذلك، وإرهاق الرَّعيَّة بما لا تطيق، أجابه بقوله: «إنَّ أهل الجزائر قد أكلوني بالكلِّيَّة، ولذلك تراني أكلت الرَّعيَّة »، ثمَّ قال صاحب (**دليل الحيران**): «ثمَّ صار مهما مات أحد، وهو ذو مال ونفوس، إلاَّ صيَّر نفسه واحدا من ورثته، فيأخذ حصَّة معهم على عدد الرُّؤوس»[1].

وإنَّنا نرى من هذه المقارنة بين (**دليل الحيران**)، و(**المرآة**)، و(**القول المعرب**) لأبي القاسم الزِّياني، وما نشره المؤرِّخون الفرنسيُّون بعد الاحتلال تقارب وجهات النَّظر في وصف حالة التَّدهور الذي لحق حكَّام العهد التُّركي في فترة حكمهم الأخيرة، والنَّاتج عن عدم كفاءة الولاة، وتهاونهم بالمسؤوليَّة الملقاة على عواتقهم، وتكالبهم على الارتشاء بجميع الوسائل، ولهذا لماَّ انتصر ابن الشَّريف انتصاره الأوَّل عند اندلاع الثَّورة كاتَبَ الرعية مبشِّرا لها بقوله: «نزعنا عنكم ظلم التُّرك والذُّلِّ والمسكنة والمكوس، فالواجب عليكم مبايعتنا، فوافقه جمٌّ غفير، وخلقٌ كثير»[2].

وإنَّما نجد الخلاف التَّام بين صاحب (**المرآة**) ومؤلِّفنا فيما يخصُّ ترجمة الباي حسن ـ آخر بايات الأتراك المتحدث عنه ـ فصاحب (**المرآة**) يصوِّره مثلا أعلى للنَّزاهة

(1) **دليل الحيران** (ج2، ص: 119).

(2) ما ذكره صاحب (**در الأعيان في أخبار وهران**)، ونقله عليه صاحب (**دليل الحيران**) ج2، ص: 95.

والاستقامة، وأنَّه نجح في مهمَّته، وصاحب (**دليل الحيران**) يراه بعكس ذلك، بل يراه أرذل وأقسىٰ باي عرفته الولاية، قال صاحب (**المرآة**): «وكان للباي حسن هذا، علاقات عائليَّة مع (باي وهران) دالي باي، وهذه القرابة التي كانت بين البايَين قد ساهمت في نجاح هذا الإقليم، وحسَّنت من إيراداته، بالخصوص طيلة أربعة عشر عاما، لمدَّة حكم الباي حسن، وقد سيَّر هذا الباي إقليمه بأحاسيس أبويَّة، فلم يكلِّف السُّكَّان إلاَّ بضريبة طفيفة، ولم يعاملهم أبدًا بالعنف والقوَّة، ولذلك كان الإقليم مزدهرا في عهده، وشهد له بالجميل» [1].

وقد صدق مَن قال: ما أكذب التَّاريخ، فلو اقتصرنا علىٰ ما كتبه صاحب (**المرآة**)، ولم نطَّلع علىٰ (**دليل الحيران**)، وغيرِه من شعراء البلاد الشَّعبيِّين الذين سجَّلوا ظلمه وموبقاته، لكانت انطباعاتنا عن الباي حسن خاطئة، اللَّهمَّ إلاَّ إذا حملنا ترجمة حمدان خوجة لحسن بناءً علىٰ ما اشتهر به قبل توليته بايا، فهذا محلُّ اتِّفاق بينه وبين صاحب (**دليل الحيران**)[2] الذي نقل ما كتبه عنه كاتبه الخاصّ حسن خوجة في: (**درُّ الأعيان في أخبار وهران**)، قال: «وقد ولاَّني كاتبا عليه للأمور الشَّاملة، ولازمته سنة كاملة، فلم أسمع منه فقط جناحا، ولا كلمة ولا منًّا ولا فخرا ولا مزاحا، وإنَّما يظهر منه من محاسن الأخلاق، ما يرضي الملك الخلاَّق»، قال: «وكان قليل الغضب، كثير الرِّضى، يمسح برؤوس اليتامىٰ ويعيد المرضى، كثير التَّرحُّم والتَّردُّد إلىٰ الفقراء والمساكين، محبًّا للعلماء والشُّرفاء والصَّالحين، مواظبا علىٰ الطَّهارة لا يتركها أصلا..»، إلىٰ أن يقول:

---

(1) **المرآة**، ترجمة د. محمَّد بن عبد الكريم،

(2) **دليل الحيران** (ج2، ص 116).

«ولمَّاً استوثق له الملك، وأذعنت له الرَّعيَّة، رفض ما كان عليه من الوصف السَّابق، وكثر ظلمه وغضبه وبغضه وعبثه بالرَّعيَّة ... الخ».

وقد أيَّدت ما قاله فيه صاحب (**دليل الحيران**)، (**منظومة**) الشَّيخ **الشَّارف ابن تكُّوك** الشَّاعر الشَّعبي المشهور، الذي سجَّل موبقاته في (**منظومته**) التي رثىٰ فيها شيخه **ابن القندوز** (1) ضحيَّة الباي **حسن**.

وهذه (**المنظومة**) من نوع الغوثيَّة أو الاستغاثة، وقد كثر هذا النَّوع في العهد التُّركي، ثمَّ في العهد الفرنسي(2)، يبدؤها المستغيث تارةً بالأنبياء أو الصحابة والصَّالحين، أو سور القرآن، ومنهم مَن يجمع بين الكلِّ، ثمَّ يذكر ما يشكو من الضَّيم، ويختم بالدُّعاء علىٰ ظالمه، قال تلميذ بالقندوز ـ المذكور ـ:

ارحــم شــيخي بالقنــدوز   مريــد الشَّــيخ المعــزوز(3)

بالقنـــــــدوز المزهـــــــد   في وســـط الطَّلبـــه عابـــد

لابـــدا في الـــذكر يمجـــد   يخـــــــدم ربِّي بالنِّيـــــــه

---

(1) **ابن القندوز**: كان له معهد قرآني قرب مدينة (**البطحاء**) المندثرة، وقتله الباي حسن فافترق تلامذته الذين من بينهم الشاعر صاحب المرثية، وقد كتب لهذه المرثية الخلود حيث أن طلبة ذلك المعهد كانوا ينشدونها ليالي الجمعة إلىٰ زماننا هذا.

(2) من جملة هذه الاستغاثات في العهد الفرنسي: (**منظومة**) مصطفىٰ بن التهامي، وزير الأمير عبد القادر، نظمها عندما كان سجينا صحبة الأمير بـ (قصر أمبواز)، وهي تربو علىٰ 400 بيت.

(3) كان ابن القندوز قادري الطَّريقة، والشَّيخ المعزوز كناية للشَّيخ عبد القادر الجيلالي (دفين بغداد).

ثمَّ يتعرَّض للباي حسن فيقول:

يـــا رب عـــذب حســـن	فركـــت ببيـــت الله تعيـــان
والطلبـــة قعـــدت تنهـــان	وافترقـــــوا في بكريــــــا
افترقـــوا في تاحمـــدا [1]	شـــدوا مـــن بـــه العمـــده
مـــا تضـــني كيفـــو ولـــدا	اســـم النبـــي ســـيد أرقيـــة
ثـــم كـــانوا مجمـــوعين	عــــــمارة للمســــــاكين
يكفـــل مـــن لا عنـــده ويـــن	يكســـي الي ايجـــوه أعرايـــا
ذا حكــــــم الله قـــــدر	عـــــالم بكــــل اخفيــــه

ثمَّ يذكر تاريخ الواقعة بالتَّدقيق، فيقول:

في شـــــهر الله صـــــفر	دارت بـــــه العســــــاكر
بالثلاثـــة بعـــد الفجـــر	ولى في ايـــدين العديـــــه
عـــام الخمســـة واربعـــين	تـــوفى ليلـــة الاثنـــين
فرحـــوا لـــه الطـــائغون	الغــــابطون في الــــدنيا

... الخ

نكتفي بهذا القدر الذي يلقي لنا بعض الأضواء على جوانب مِن **(ثورة درقاوة)**، وقد استفاد مِن هذا التَّأليف ونقلَ كثيرا مِن فُصوله الجنرال الفرنسي **والصن استيرهازي** (Walsin Esterhazy) في كتابِه الذي خصَّه للعهد التُّركي، وسماه:

(1) اسم القرية التي كان فيها **(المعهد)** ـ أي: بين **(يلل)** و**(المطمر)**، وما زال أثر **(المعهد)**، كما لا زال الموضع الذي نفِّذ فيه حكم الإعدام على ابن القندوز، بين **(وادي رهيو)** و**(مازونة)**.

الاحتلال التُّركي (Domination Turque)، وذكر أحداثَ هذه الثَّورة بتفصيل.

يشتملُ كتاب (**دليل الحيران**) علىٰ جُزأين:

(**الجزء الأوَّل**): قسَّمه إلىٰ فصولٍ أربعة:

الأوَّل: عرَّف فيه مدينة (**وهران**)، واشتقاق الكلمة، وما قاله المؤرِّخون مِن قديمِ الزَّمان.

الثَّاني: ذكَر فيه تاريخَ تأسيسها، ومؤسِّسيها، وسببَ تسميَّتها.

الثَّالث: خصَّه لذِكر علمائها وأَوليائها مِن قديم الزَّمان، وخصَّ مِن بينهِم دَفينها **محمَّد بن عمر الهوَّاري**، المتوفَّىٰ سنة 843هـ، وتلميذه وخليفته مِن بعده **إبراهيم التَّازي**[1]، الذي كان مِن جملة مآثره إدخال الماء إلىٰ مدينة (**وهران**) ومدُنِ البلدة، ومصَّرها بإعانة كبارِ أغنيائها، وقد خصَّه بتأليفٍ قيِّمٍ مع شيخه واثنين آخرَين **ابنُ صعد الأنصاري الأندلسي** في تأليفه المسمَّىٰ: (**روضة النَّسرين في التَّعريف بالأشياخ الأربعة المتأخِّرين**).

الفصل الرَّابع: ذكَر فيه قائمة مَن ملكها منذ تأسَّست إلىٰ عهدِ المؤلِّف، فبدأ بـ (**مغراوة**) الذين بنِيت (**وهران**) في عهدِ إمارتهم، ثمَّ تعرَّضَ لنسب (**مغراوة**) وإسلامِ

---

(1) **إبراهيم التَّازي**: توفي سنة 866 هـ ودفن بـ (وهران)، ثمَّ نقل في عهد الإسبان خُفيةً إلىٰ (**قلعة بني راشد**)، حيث يوجد ضَريحه، وقد زار (**وهران**) الرَّحَّالة **عبد الباسط المصري** حوالي سنة 868 هـ وزار معهده، حيث حضر حفلا أقيم فيه بمناسبة ختم أحد تلامذته القرآن، فبهرته بناياتها، ترجمه المستشرق (برانشويق)، وسجَّل انطباعاته في تآليفه، مكتبة لاروز (باريس 1936م).

أميرهم علىٰ يدِ **عثمان بن عفَّان** الذي اعتَرفوا به بالولاء، ثمَّ واظبوا علىٰ ولائهِم بعد مَوته لملوكِ **بني أميَّة** بـ **(دمشق)**، ثمَّ **(الأندلس)**، ثمَّ تحدَّث عَن علماء **(مغراوة)**، وصُلحائهِم، فالعُبيديِّين الفاطميِّين، ثمَّ المرابطين اللَّمتونيِّين.

وهذا كلُّه في **(الجزء الأوَّل)**، وإنَّ أهمَّ ما ذكَره هو التَّعريفُ بـ **(وهران)**، وذِكرُ علمائها القُدامىٰ منهم والمتأخِّرين، أمَّا مَن تَداولوا علىٰ حكمِها فهو منقولٌ بنصِّه مِن كتاب: **(عجائب الأسفار ولطائف الأخبار)** [1]، والمؤرِّخ **أبو راس** بِدَوره كان ينقلُ كثيرا عن **ابن خلدون**، وإن كان كثيرا ما يناقشه، ولهذه الأسباب لم نتعرَّض لعهد الموحِّدين، والقسم الأوَّل لملوك (بني زيان).

أما **(الجزء الثَّاني)** فإنَّه ممتاز ومفيد، بدأه بالحديث عن الملك أبي حمُّو موسىٰ الثَّاني الزِّياني، وعن الخلافات بين ملوك (بني زيان) و(بني مرِّين)، ثمَّ تحدَّث عن الإسبان وموقع بلادهم، وأصل جنسيتهم، وتاريخ احتلالهم لـ (وهران)، وجميع ملوكهم الذين تداولوا الحكم عندما كانت (وهران) خاضعة لهم، ثمَّ تحدَّث عن الشَّعب التُّركي وجنسيَّته، قبل أن تتكوَّن منهم الدَّولة، ثمَّ بعد ما تكوَّنت دولتهم، وانتهىٰ بهم الأمر إلىٰ تأسيس الدَّولة العثمانيَّة، وترجم للخلفاء العثمانيِّين الذين كانت (وهران) تابعة لحكمهم، وذكر عرُّوج وخير الدِّين، وتاريخ توليتهم علىٰ (الجزائر)، وانطوائهم تحت لواء الخلافة العثمانيَّة، ثمَّ عقد فصلا للباشوات الذين توارثوا الحكم بـ (الجزائر)،

---

(1) **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، للمؤرِّخ أبي راس النَّاصري (1165 – 1237هـ)، شرح به منظومته: **(الحلل السُّندسية)**، المشهورة بالسِّينية، التي ذكر فيها فتح (وهران) سنة 1206هـ وهو في طريق رجوعه من الرِّحلة الشَّرقية، وقد شرحها عدَّة مرَّات.

وختم بالحديث عن نظام الحكم التُّركي في (الجزائر)، وحلَّل وظيفة الباي بتدقيق، وذكر قائمة بايات الغرب الجزائري واحدا واحدا، إلاَّ عشرة منهم في فترة قليلة، عندما اتَّخذت (مازونة) قاعدة، وذلك في سنة 971هـ، وفي ذلك يقول: «(ثالثهم) الباي صواق: ولم أطَّلع على تاريخه، وسقَته زوجته فمات، (رابعهم) السَّايح المازوني: ولم أقف على تاريخ توليته، وبقي في الملك إحدى عشر سنة، ومات ولم أقف على موته أيضا، (خامسهم) ساعد: ولم أقف على تاريخه، ومِن ساعد إلى الباي محمَّد بن عيسى تولَّى عشرة بايات، وبحثتُ على أسمائهم وخدمتهم وتاريخهم بحثا شديدا ولم أجد ذلك منصوصا في كتاب، ولا مشى به التَّواتر، ومَن وجد ذلك فليلحقه بمحلِّه، (سادس عاشرهم) محمَّد بن عيسى: ولم أقف على تاريخ توليته، ولا على علمه، (سابع عاشرهم) الغطريف الهمام الأسد الضرغام معز الدِّين وأهل الإيمان الزناقي الباي السيد شعبان: أحد الأتراك الأنجاد ... تولَّى إيالة (مازونة) وغيرها من مشرق المغرب الوسط في حدود التِّسعين بعد الألف ... الخ »[1].

هذا الفراغ الذي بقي للمؤلِّف عند ترجمته لقائمة بايات (وهران)، وهذا الفصل الأخير الذي ختم به تأليفه هو ـ كما ذكرنا في أوَّل التَّقديم ـ أهمّ ما في التَّأليف، إذ كان يتعرَّض لبقيَّة أحداث الوطن التي وقعت في عهد أولئك البايات، فلم يقتصر فيه على (ثورة درقاوة)، وإنَّما ميزة الكتاب في حديثه عن درقاوة، أنَّه درسها دراسة وافية، مِن أوَّلها إلى آخرها، وجمع كلَّ المصادر التي لا شكَّ أنَّها كانت متوافرة لديه، زيادة على الوثائق والرِّوايات الشَّفاهية، والشِّعر الشَّعبي الذي لا نبالغ عندما نقول: إنَّه أحسن ما

(1) **دليل الحيران** (ج2، ص 73).

سجل لتاريخ بلادنا في تلك الفترة.

وفي آخر (**الجزء الثَّاني**) عقد المؤلِّف عنوانا للعهد الفرنسي، فقال: «الدَّولة التَّاسعة الفرنسيس، ويقال لهم: الفرنج، والكلام عليهم في سبعة مواضع ».

لكنَّه أنهى تأليفه عند هذا العنوان، ولا شكَّ أنَّه لا يريد أن يتورَّط، فاختار طريقة أخرى سجَّل فيها الأحداث الهامَّة في العهد الأوَّل من الاحتلال، وحذَّر مواطنيه من عواقبها، وأفرغ ذلك كلَّه في قالب التَّنبُّؤات، التي كان أفراد الشَّعب -خصوصا المتديِّن- يؤمن بها، إذ لم تفارق عقيدة المهدي المنتظر «الذي يملأ الدُّنيا عدلا» الطبقات المؤمنة في بلاد المغرب العربي، ومؤلِّفنا أمكنه أن يتخلَّص من الورطة فنسب تأليفه ـ وهو عبارة عن صفحات ـ للمؤرِّخ **أبي راس النَّاصري**، كما أمكنه أن يسجِّل هذا التَّأليف ـ أي: عنوانه ـ في آخر (**رحلة أبي راس**) التي ذكر فيها تآليفه، وقد تناقل هذا التَّأليف معظم المثقَّفين، وقد بلغ خبره للسُّلطات فبذلت جهودا للتَّحصيل عليه، خصوصا في (الحرب العالميَّة الأولى)، فقد فتَّشوا المنازل وسجنوا كثيرا من الطَّلبة الذين كانوا يشكُّون أنَّهم يملكونه، كما أمكن لمؤلِّفه الحقيقي أن يحتفظ بسرِّه، حيث لم يعرف نسبته إليه إلاَّ أقلِّيَّة، واسم الكتاب: (**أقوال التَّأسيس عمَّا وقع وسيقع من الفرنسيس**)، وسنتحدث عنه بمزيد من التفسير في ختام هذا التَّقديم.

ولنرجع إلى الحديث عن (**دليل الحيران**)، ومؤلِّفه محمَّد بن يوسف الزِّياني البرجي، كان المؤلِّف ينتمي إلى أسرة علميَّة بنواحي مدينة (برج عياش)، المشهور الآن بـ (برج ولد المخفي)، قرب (معسكر)، وكلُّ ما نعرفه عن أسرته هو أنَّ عمَّه أحمد بن يوسف

الزِّياني[1] كان من العلماء المستشارين عند الباي إبراهيم الملياني (1170 هـ)، وقد تولَّىٰ مؤلِّف (**دليل الحيران**) القضاء بمدينة (**البرج**) سنة 1861م حسبما وجدناه في وثيقة رسميَّة، كاتَبه بها الحاكم العسكري الفرنسي للنَّاحية، ثمَّ انتقل لمثل خطَّته بـ (**وادي تليلات**) حوالي سنة 1883م، ثمَّ قاضيا بـ (**وادي سيق**)، وبقي في قيد الحياة إلىٰ أوائل القرن الهجري الجاري، وقد اطَّلعنا علىٰ كثير من فتاواه، وتعاليقه علىٰ بعض الكتب، ومراسلاته لبعض علماء البلاد، ومنهم: العالم علي بن عبد الرَّحمن الجزائري (مفتي وهران) الشَّهير، كاتبَه سنة 1320هـ. قال في مستهَّله: «محبُّنا الفقيه، العلاَّمة مولانا السَّيد ابن يوسف ... الخ ».

يظهر مِن تأليفه أنَّه كان يعتمد علىٰ ما ينقله من المصادر من دون تمحيص، ولهذا نجد له بعض غلطات تاريخيَّة، مثل قوله عندما تكلَّم علىٰ (**مغراوة**): «اعلم أنَّ (**مغراوة**) ملكوا ضواحي (**إفريقيَّة**) قبل الإسلام، وأوَّل سكناهم (**طرابلس**)، وتصرَّفوا في (**المغرب**)، وهم فرَق كثيرة، فمنهم: (بنو خزرون) مالكو (**طرابلس**) ... الخ »، والحقيقة هي أنَّ موطن (**مغراوة**) الأصلي كان بـ (**الجزائر**)، بين (**مليانة**)[2] و(**تلمسان**) شمالا ، وقد أدركت الفتوحات الإسلاميَّة إمارتهم، وأسلم أميرها علىٰ يد الخليفة عثمان بن عفان، لخبر يطول، فأقرَّه الخليفة علىٰ إمارته التي عُرفت بـ (**إمارة بني خزر**).

وفي عهد بني خزر أسِّست مدينة (**وهران**)، وقضَىٰ علىٰ إمارة (مغراوة) هذه، بلقينُ

---

(1) ذكره في (**دليل الحيران** (ج2، ص 82).

(2) كانت قاعدتها قرية (بني ورسيفان)، وهي محطَّة بين (مليانة) و(تنس)، وبالضَّبط عند ملتقىٰ (وادي شلف) بـ (وادي الفضَّة).

ابن زيري بن منَّاد الصَّنهاجي، إثر معركة مشهورة في التَّاريخ بين (**تيارت**) و(**البطحاء**)[1].

أمَّا بنو خزرون فإنَّهم من سلالة بني خزر، وهاجروا من (**الجزائر**) إلى (**طرابلس**) في عهد بني زيري، فتولَّوا الإمارة، وبعد انقضاء مدَّة إمارتهم، رجعوا إلى مركز القبيلة الأصلي بـ (**شلف**) ـ بني ورسيفان ـ وأسَّسوا إمارتهم الثَّالثة، التي كانت قاعدتها (**مازونة**)، وعرِفوا بـ (**بني منديل**)، كما أنَّ المؤلِّف كان أسلوبه يتعمَّد إلى وضع مفردات، أو تصريفها، أو تركيب جمل لا تخضع للقواعد العربيَّة، لغة ونحوا وصرفا، وهذا لا يمنع من كون التَّأليف له قيمته، فقد جمع أشتاتا من الأحداث التَّاريخيَّة كانت متفرِّقة في الكتب، لا توجد إلاَّ بصعوبة، كما استمدَّ بعض هذه الأحداث مِن كتب ـ وإن كانت قريبة العهد ـ فقد ضاع جلُّها، ولا يخلو هذا التَّأليف من فوائد تخصُّ تاريخ (**المغرب الأقصى**)، وتراجم بعض رجاله، علماء وملوك، وقد أشرنا إلى ما يهمُّ منه في (**فهرس الموضوعات**)، والمخطوط الذي أعاره لي صديقنا الشَّيخ البشير محمودي البرجي، الخطَّاط الشَّهير الذي ورث خزانة أسلافه، وكان كلَّما اطَّلع على وثيقة هامَّة إلاَّ وأطلعني عليها، وقد استغلَّ أريحيَّته بعض المواطنين، فاستعاروا من عنده كتبا قيِّمة، فذهبت من دون رجعة.

ولنرجع إلى الحديث عن التَّأليف المسمَّى: (**أقوال التَّأسيس عمَّا وقع وسيقع من الفرنسيس**)، الذي لازال منسوبا إلى المؤرِّخ أبي راس النَّاصري، فإنَّ المتأمِّل فيه، يدرك من أوَّل وهلة أنَّه كتِب بعد الاحتلال الفرنسي، وأبو راس كما نعلم توفي حوالي سنة

---

(1) وقعت هذه المعركة سنة 360هـ، والتحق بقيَّة أمراء (مغراوة) بملوك (الأندلس)، الذين آووهم وأقطعوا لهم بلاد (المغرب الأقصى).

1237هـ ـ أي قبل الاحتلال الفرنسي بسنوات ـ ورغم هذا، وَجدتْ هذه العقيدة رواجا عند مَن يؤمنون بهذا النَّوع من التَّنبُّؤات، وعلم الغيب، وأبو راس كان طول حياته وفي معظم تآليفه ينكر على أصحاب هذه الأفكار ويفنِّدها، وأنَّ عقيدة المهدويَّة كانت سلاحا ذا حدَّين كثيرا ما يلجأ إلى استعمالها العباقرة والمخلصون، لمحاربة اليأس والاستسلام، ومؤلِّفنا من أصحاب هذه الفكرة، كان يقظا بصيرا بالشُّؤون العالميَّة، فأراد أن ينبِّه مواطنيه، ويرشد الشَّعب إلى خطر خطَّة الاستعمار، وقد اختفى وراء المؤرِّخ أبي راس الذي هو محلّ ثقة الشَّعب، وكانت آراؤه وأقواله مسلَّمة، وتآليفه في جميع فروع المعرفة منتشرة، يتسابق القرَّاء إلى اقتنائها، وقد اتَّخذه تقيَّة حتَّى لا تتسرَّب إليه، وإلى أمثاله الذين كانوا أقلِّيَّة، تهمة السُّلطات الفرنسيَّة، وزيادة على ما ذكر فإنَّ الموظَّفين ـ خصوصا الدِّينيِّين والشَّرعيِّين ـ كانت ثقة الجماهير المتديِّنة فيهم ضعيفة، إذ أثارت قضيَّتهم مشاكل، وأفتى بعض العلماء بأنَّ مَن قبِل الانخراط في الوظيف من الفرنسيِّين فهو كافر، ومِن هؤلاء الشَّيخ علي بن الحفَّاف[1] الجزائري الذي تولَّى الكتابة الخاصَّة عند الأمير عبد القادر، وردَّ عليه زميله الشَّيخ محمَّد بن الشَّاهد الصَّغير وقد تغيَّرت الأحوال بعد أن وضعت حرب الأمير أوزارها، فأذن الأمير عبد القادر نفسه لقريبه الطَّيب بن المختار قَبول وظيفة القضاء، وسمِّي فعلا قاضيا بـ (تيغنِّيف)، وكانت مراسلته للأمير لا تنقطع، وقد تعرَّض لهذه المأساة بتفصيل القاضي عدَّة بن

---

(1) **علي بن الحفاف**: من [أبناء] الأسر العلميَّة بـ (الجزائر)، تولَّى الإفتاء المالكي بالعاصمة وتوفي سنة 1307هـ، له عدَّة تآليف ومناظرات مع معاصريه كالشَّيخ علّيش المصري، ودحلان بـ (مكَّة)، ويعدُّ خاتمة المقرئين بـ (الجزائر).

التحلايتي[1] الشَّاعر الشَّعبي الشَّهير والجيش الفرنسي، وقد انتقده مواطنوه لمَّا قبِل خطَّة القضاء، فردَّ عليهم في قصيدة هامَّة في موضوعها، ثمَّ إنَّ علي بن الحفَّاف نفسه، وإن تولَّى الوظيف فقد بقي في نفسه شيء من ذلك، وقد ذاكر في الموضوع (**بيرم الخامس**)، صاحب (**الرِّحلة**) لمَّا ورد على (الجزائر) واستشاره في الهجرة، فصرَّح له (بيرم) أنَّه مخطئ في رأيه، وبقاء العالم في وطنه أنفع بكثير من الهجرة، وقبوله الوظيف أفضل مِن أن يتركه، فيُسند لمن لم تتوفَّر فيهم الكفاءة النِّسبيَّة.

أمكن لمحمَّد بن يوسف أن يروِّج هذا الرَّأي وينشره، وقد أمكنني أن أطَّلع على (**رحلة أبي راس**) التي كتبها، وكانت بخطِّه، وكانت تحت رقم: (502) بخزانة جامعة (**الجزائر**) [2]، وفيها ـ أي: في آخرها ـ قائمة تآليفه التي تبلغ نحو الخمسين، وزيد عليها بخطٍّ مغاير كتب أخرى من ضمنه: (**قول التَّأسيس فيما وقع وسيقع من الفرنسيس**)، وهذا التَّأليف تختلف كثير من نسخه، وإن كانت تتَّفق في الموضوع الذي هو شبه مذكرات لرجل عاش في الفترة الأولى من عهد الاحتلال الفرنسي واطَّلع على نوايا الاستعمار وأهدافه، فسجلَّها بعد ما أفرغها في قالب التَّكهُّنات أو التَّنبُّؤات، وهذه فقرات من هذا التَّأليف، فبعد الحمدلة والتَّصلية، قال: أمَّا بعد، فإنَّ الله تعالى فتح عليَّ بطريق النَّقل والكشف، ما لم يحصل لغيري بمنَّة ذي اللُّطف، فكشف لي عمَّا وقع

---

(1) عدَّة بن تحلايتي: سجَّل أوَّل معركة بين السَّيد محيي الدِّين والجيش الفرنسي بـ (غابة مولاي إسماعيل)، وفي هذه المعركة ظهرت بسالة الأمير الشَّاب، فلمحته الأنظار، وسلَّم له الأمر والده رغم صِغر سنِّه.

(2) كانت هذه (**الرِّحلة**) ضمن مخطوطات أخرى، بمكتب الكاتب العام للجامعة الخاص ولها فهرس خاص بها، وذلك حوالي 1950م.

وسيقع من الفرنج أهل المكر والخسف، فأردتُ جمع ذلك في وُريقات، وسمَّيت ما جمعته بـ (**عجائب الأخبار ذات التَّأسيس فيما وقع وسيقع مع الفرنسيس**) [1].

وبعد ذلك يتعرَّض المؤلِّف إلى التَّعريف بالجنس الفرنسي وموقع (**فرنسا**)، ثمَّ يقع له التَّخليط بينهم وبين الرُّومان والبيزنطيِّين، إذ يذكر محاربتهم للفاتحين، وينسب لهم الآثار الرُّومانية، ثمَّ يتحدَّث عن الحروب الصليبيَّة في المشرق، ثمَّ في (**دمياط**) و(**تونس**) ـ الملك الفرنسي (**سان لوي**) ـ ويصل إلى موضوع بحثنا فيقول: «وأمَّا ما سيقع فلا جرم أنَّهم سيجهِّزون من (**البريز**) (كذا) لـ (**الجزائر**) جيشا عظيما، يحتوي على الثَّلاثين ألفا، يأتون به في البحر، يقصدون (**قبر الرُّومية**)، فينزلون بـ (**مرسى**) وليِّ الله الأكبر (**سيدي الفرج**) في يوم الاثنين ثاني عشرين ذي الحجَّة من عام خمسة وأربعين ومائتين وألف، ويحصل بينه وبين (**باشا الجزائر**) بجيوشه أتراكا وعربا قتالٌ شديد، يمكثون فيه نحو العشرين يوما، ويدخلون (**الجزائر**) عنوة، يَسبون ما فيها، ويحطُّون كلكلَهم على أهلها، ويكبِّلون باشتها ويكون دخولهم يوم الاثنين ثالث عشر محرَّم سنة ستٍّ وأربعين، فيا لها من رزيَّة ستحلُّ بالمسلمين، ويا لها من مصيبة ستقع بهم وتعمُّهم، ثمَّ ينتقلون لـ (**وهران**) تلك السَّنة، بمكاتبة الباي[2] لهم لدخولها، فسيجلي منها أهلها ويدخلون بأدنى سبب، ويحملون بايها

---

(1) كثيرٌ من النُّسَّاخ تصرَّفوا في عنوان الكتاب، لأنَّ محاكم التَّفتيش التي أحدثت في البحث عنه مدَّة (الحرب العالمية الأولى)، تسبَّبت في اختفائه، وكثيرٌ من مالكيه نقلوه أو سجَّلوه من أمالي الحفَّاظ.

(2) كاتَب الباي حسن قائد الحملة الفرنسيَّة، وعرض عليه تسليم (وهران) بشرط أن يحافظ على أمواله، ويضمن سفره إلى المشرق، ممَّا هو مشهور في كتب التَّاريخ.

للمشرق في أمن لا في عناء كالباشا، وتسرع العرب للفساد في النَّهب، وتشنُّ الغارات علىٰ بعضها بعضا، وتحصل المقاتلة بينهم بحيث تصير كلُّ قبيلة تغزو علىٰ الأخرىٰ، بقصد القتل والنَّهب وسفك الدِّماء بلا موجب، نعوذ بالله من ذلك، ولم يشعروا بما سيحلُّ بهم من عدوِّهم، ولم يجتمعوا علىٰ قتاله قبل أن يملكهم بمكيدته وخيله، ثمَّ إنَّ العدوَّ يشنُّ علىٰ المسلمين الغارات، ويبذل ماله لأهل الطَّمع منهم بأدنىٰ إشارات (؟).. وتدخل يدي حكمه بقصد الغزو الدَّوائر.... »[1].

ومعظمها مكتوب بين سطور (مخطوط) آخر، ولهذا اكتفيتُ بكتابة فقرات، منها: «... ويملؤون الأحباس بالمسلمين، وينفونهم بحسب ما اقتضاه شرعهم الحقير، ويقتلون بشرعهم ما وجب ولم يجب قتله... وفي كلِّ سنة يحدثون القوانين، وتحصيل ما هو لهم في إهانة العرب، ويتَّفقون علىٰ ظلم المسلمين، وارتفاع شرعهم ووضع شرع الإسلام، ونقض أحكام القضاة إن خالف القوانين، ولو كانت مأخوذة من الأقوال الرَّاجحة، وقصر القضاة علىٰ غير الجائز، ولا يرون لمسلم عزًّا ولا حرمة... ويصير المسلمون لهم خدَّاما، ما بين رعاة وخمَّاسين، وطائفين لهم بالبيوت ».

وبعد أن يذكر تعمير الأرض وغرسها ثمَّ اغتصابها من ملاَّكها، يقول: «وتتعطَّل المساجد، وتعمر الأسواق والبيوت من الفنادق والقهاوي، ويشتدُّ الفجور والبهتان، وترتكب شهادة الزُّور، وترسم الأحكام والوثائق بالزُّور والفجور، ولا يوجد للدِّين ناصر، وينعكس الحال بأهله، فيصير الأعيان أذلَّة، وتتسابق الطَّلبة للوظائف، ويحبُّ

---

(1) **الدَّوائر**: قبيلة من القبائل الموالية للأتراك، كان رئيسها مصطفىٰ بن إسماعيل الذي انضمَّ إلىٰ الفرنسيِّين، وقاتل الأمير عبد القادر.

كلُّ ذليل الرِّياسة، ويذلُّ كلُّ عزيز، وتصير الزَّكاة مغارم... »، إلىٰ أن يقول: «وتصير اليهود أهل مشورة وجماعة، ويدخلون في حزبهم ولا يخشون جزاعة، ويرتدون لدينهم علىٰ دينه من ضعف عقله، ويصير أكثر جيشهم من العرب... »، ثمَّ يختِمها بقوله: «إنَّه لابدَّ أن تدور عليهم الدَّوائر ».

وهذه الرِّسالة هامَّة وتحتاج إلىٰ دراسة خاصة، فالذي نتحقَّقه أنَّ نسبتها للمؤرِّخ أبي رأس مستحيلة، فقد كتبتْ بعد الاحتلال الفرنسي بمدَّة طويلة، وبعد إنهاء الأمير عبد القادر المقاومة، وقد ذكره صاحب (**الرِّسالة**) وفي نفسه منه شيء، فخصَّه بسطور نسب فيها لأعوانه الظُّلم والفوضى، ولا شكَّ أنَّ المؤلِّف الذي كان من سكَّان (**البرج**)، وكان (**البرج**) مقرَّ أسرة المخفي ـ حتَّىٰ لا زالت تحمل اسمه إلىٰ الآن ـ الذين كانوا من أعوان الأتراك، ثمَّ انضمُّوا إلىٰ الفرنسيِّين، وحاربوا الأمير فانتقم منهم الأمير شرَّ انتقام، فقد أوقد فيها النِّيران، وسجن جلَّ سكَّانها، فلربَّما بقيَ في نفس القاضي البرجي شيء ... وأقلُّ ما نستفيده من هذه الرِّسالة أو التَّأليف ـ بقطع النَّظر عن مقصد مؤلِّفه الحقيقي ـ هو اطِّلاعنا علىٰ صفحات من تاريخ (**الجزائر**)، تصوِّر انطباعات شاهد عيان، اطَّلع علىٰ أحداث أوائل الاحتلال، إذ المصادر العربيَّة المسجَّلة لذلك العهد قليلة.

ولنرجع إلىٰ الحديث عن النُّسخة الثَّانية من (**قول التَّأسيس ممَّا وقع وسيقع من الفرنسيس**)، وهي وإن كانت تتَّفق مع الأولىٰ في جوهرها، يظهر أنَّ صاحبها اختصرها وزاد فيها، وتأخرت كتابتها إلىٰ أوائل الحرب العالمية الأولىٰ، واعترف صاحبها بأنَّه لا يريد أن يطلق العنان لتنبُّؤه، إذ أمر بذلك.. وهذا نموذج منها: «قال العلاَّمة الشَّهير،

والحبر النِّحرير، فريد أهل التَّحقيق في المعارف، ووحيد أهل التَّدقيق في العوارف ... محمود الدِّين أبو ريس (كذا) محمَّد بن أحمد المعسكري ... قال: كوشف لي كشْفٌ للذين مِن قلبي بمثله، بما سيقع بهذا القطر الجزائري وأهله، من تقلُّبات الأزمان والأحوال، كلُّ ذلك بمشيئة ربِّنا ذي الجلال، وسمَّيتُ ما اجتمع لي من أخبار: (**التَّأسيس فيما سيقع بالمسلمين من دولة الفرنسيس**)، هذا ما كشِف لي به أيُّها السَّامع، ولو اطَّلعتم على الغيب لاخترتم الواقع، إنَّ الدُّول المذكورة ستحلُّ بـ (**الجزائر**) من ناحية الوليِّ الصَّالح (**سيدي فرج**) صاحب الكرامات والمآثر.

ثمَّ في تلك السَّنة تحلُّ بمدينة (**وهران**)، وهذا من غير شكٍّ ولا بهتان، ثمَّ يكثر الفساد والنَّهب، ويشتدُّ الهمُّ والعطب، وتكثر الغزوات في تلك النَّواحي والجهات، ويبذل ماله لأهل الطَّمع، ويمنِّيهم بالرِّياسة لمن مشى بين يديه وخضع، وينخدع لتلك المكيدة رعاع النَّاس، ثمَّ يجري فيهم مجرى الوسواس، فيتشتَّت شملهم، ويتفرَّق جمعهم، ويرتفع الخسيس النَّذل، وينحطُّ الشَّريف الأصل، ويستعين على العالم بالجاهل، وعلى ذي القدر الصَّالح بالسَّافل، وتظهر الحرمة والعزَّة على مَن أطاعه، والذِّلة والمسكنة على مَن خالفه، فتدخل النَّاس في طاعته أفواجا، وما دَرَوا أنَّ ذلك يكون عليهم ملحا أجاجا، فيستولي على (متِّيجة) وأعمالها ...

وأوَّل داخل تحت طاعته، بقصد العزَّة والطَّاعة، ذئاب الدَّاوئر والزَّمالة، فتقوى بهم شوكته، وتتعضَّد بهم نصرته، ويحارب بهم القبائل، ويدل لهم على مكان الحمائل، فعند ذلك ينبع نابع غيرة على المسلمين، ونصرة لأهل الدِّين، يدعي أنَّه أمير الوقت بلا عناد، فيشرع في قتال العدوِّ في الحضر والفيافي، وتتقلَّب له تلك النَّواحي تقلَّب الحوت

في الماء الصَّافي، ويستمرُّ على ذلك عدَّةً من الأعوام، معدوم الرَّاحة وطيب المنام، ثمَّ يظهر على حاله الفشل، وعلى جيشه الذُّلّ والخبل، لما يحب من قتل العلماء والأولياء وصناديد وقته، والعبث بالمستضعفين من النَّاس بخيله ورجله، وما ذلك إلاَّ لتوفيقه واستضعافه لسفهاء جنده، قصدا منهم بذلك جلب الدُّنيا والسِّيادة، ولم يريدوا نصر الحقِّ ولا إعلاء كلمة الشَّهادة، فحينئذ يحُلُّ بأهل الوطن النَّكال، وبجيوشهم المكر السَّيِّء الحال، ثمَّ يقبض نفسه ذاك الثَّائر، ويدفعها لعدوِّه بـ **(الجزائر)**، فينفي لبعض الأقطار، وتتمّ لهم الأوطار، ويستجد ملكهم في البدو أو الحضر، والسَّهل والوعر، ويظهرون العدل في الأحكام، والمحبَّة في شرائع الإسلام، ولم يتعرَّضوا في ذلك إلى خاصٍّ ولا إلى عامّ، ليتمكَّنوا بذلك من المقاصد، وينخدع لهم غليظ القفا الجامد، فيمهِّدون الأوطان تمهيدا، ويصير أهلها لهم عبيدا، فيضربون المغارم على البهائم والجماجم، وعلى الحبوب والبساتين، وعلى الدُّور والأرضين، ليظهر العدوُّ بذلك التَّغلُّب والقوى، ويسِمون المسلمين بسِمة الذُّلِّ والهوان، جزاء بما كسبوا من العنف والطُّغيان، ثمَّ يحكمون بين النَّاس بالقوانين المعقوليَّة، ويرفضون الشَّريعة النَّبويَّة، ويؤسِّسون الأرض تأسيسا، ويمدِّنونها تمدينا نفيسا، فيكثر فيها من بناء القناطر والمدن والقُرى، ويمدُّون فيها طرق العربيات والسِّكك المارَّات من جهة إلى أخرى، ويجلبون المياه من الأنهار والآبار والعيون للمساكن والمزارع، في أنابيب الحديد والرَّصاص، ويستولون على معدن المسلمين، من الملح والحديد والقزدير، ويحمون غابة البلاد، فما يدعون فيها منفعة لعباد، ويتمتَّعون فيها بالعِتاق من الخيل الجياد، وينتخبون فحولا لتربية الأولاد، ويتطاولون في البنيان المشيدة المرصوص بأنواع الحديد، ويملؤون الأحباس بالناس، ويتفقون على ظلم المسلمين وإهانتهم، ويتواصَون على ذلِّهم

وقهرهم، ويجدِّدون القوانين في كلِّ عام، ويظهرون حكم اليونان عبدة الأصنام، من السُّفن المارَّة على سكك الحديد، وجلب الأخبار في السّلك من كلِّ قطر بعيد، والمكالمة في ذلك مشافهة، من غير شكٍّ ولا مدافعة، ويتعقبون أحكام المسلمين، ويخترعون في وقائع الوقت قوانين، ويقصرون القضاء على بعض الأحكام، لكي تندرِس بذلك أحكام الإسلام، كثير المال عندهم جليل، والفقير عندهم ذليل، وتتنافس عندهم أقدار النَّاس، لا فرق بين رئيس وخمَّاس، وعالم وجاهل، وعال وسافل، فعند ذلك يقيِّض الله لهم جنسا مشهورا بالشَّهامة والباس، يدعى بلغتهم بـ (**البروس**)، فيحاربهم حرب البسوس، ويهلك منهم الأموال والنُّفوس، ويدخِلُ في (**باريس**) الماسوس، ويؤسر طاغيتهم في هذه المرَّة، ويصيِّر أمرهم بينهم شورى زهاء العشرة، فتشتدُّ عليهم الحسرة والنَّدامة، ويميلون إلى الصُّلح والغرامة، على عدد كثير من الملايين، على تركه ما استولى عليه من المدن والأرضين، وبعد ذلك تنتظم حكومتهم جمهورية ...». إلى أن يقول: «... ويستمرُّ حالهم على ذلك التَّنظيم والتَّحسين، زهاء ما بين الأربعين والخمسين، ثمَّ تدور عليهم الدَّوائر أيّ دورة، بأشنع من هذه المرَّة، وبعد ذلك تستحسن النَّاس أحكامهم، ويحبُّون مشورتهم ومجالستهم، ما بين راع وخمَّاس، وحارس ووسواس، وكلُّ ذا والعلماء تزدحم على أبواب الجهَّال، ذوي المال، وأبناء الصَّالحين تتسابق على محبَّة الرُّوم وخدمة العمَّال، وتدفع لهم النَّواحي و(**وجدة**) و(**بني سنوس**)، إلى أن يجاوزوا حاضرة (**تونس**)... وتتخلَّق النَّاس بأخلاقهم، من شرب المسكرات والخمور ... ».

ثمَّ يذكر أنَّ الحرب تتجدَّد بينهم وبين (البروس) فيُهزمون، ثمَّ يعتذر بما تقدَّم عن إتمامه للحديث (**المباح**)، وهذا ما ختم به رسالته: «... فيقيِّض الله لهم أيضا جنس (**البروس**)، الذي مازال رعبه لهم النُّفوس، فيقع بينهم الحرب الطَّحون، الذي لم يتقدَّم

مثله في سابق القرون، ويحدث التَّحاسد والتَّحافز بين الملوك في المشارق والمغارب ... تنكسر جيوشهم إلىٰ كسرىٰ، وتؤسر عذراؤهم والبكرىٰ، ويمزَّق ملكهم كمُلك كسرىٰ، وتنتصر جيوش **(البروسة)** كما انتصرت بالأخرىٰ، فهناك تنكشف للطَّالب العواقب، ويظهر له المغلوب من الغالب، ويظهر الفرق بين العالم والجاهل، وعند هذه الغايةُ، ويظهر للطَّالب من هذه الآيةُ، ولا تيئسوا من روح الله فإنه مجيب لمن دعاه، ولقد كشف لي عن النِّهاية، كما كشف لي عن البداية، ولكن نهيتُ من الإظهار، كما هو شأن هذه الأسرار، ولقد قالوا: **(صدور الأحرار، قبور الأسرار)**، وإلىٰ هنا أشُدُّ عنان اللِّسان، وللحيطان آذان، وربِّي كلَّ يوم هو في شان » اهـ الرِّسالة بتلخيص.

ولنعد إلىٰ تتمَّة ترجمة المؤلِّف **محمَّد بن يوسف الزّيَّاني**، فإنَّه خلَّف ولدا فقيها تولَّىٰ إمامة مسجدٍ حرٍّ، بناه صهره بمدينة **(سيق)**، إلىٰ أن توفي به، كما خلَّف المؤلِّف بنتا اشتهرت في مدينة **(وهران)** وولايتها بتمرُّدها علىٰ عوائد الحجاب، فكانت تخرج سافرة، وتقوم بشؤون أسرتها الفلاحيَّة، وتشارك زوجها الذي كان ينتمي إلىٰ أسرة لعبت أدوارا في العهد التُّركي، وأقرَّتها الإدارة الفرنسيَّة علىٰ نفوذها، وكانت لها أراض شاسعة، فكانت السَّيدة حليمة هذه، تتولَّىٰ شؤونها، وتركب الخيل، وتشارك في الألعاب الفروسيَّة، وتستقبل الوفود الزَّائرة لزوجها، وتشارك في الحفلات التي كان يقيمها الولاة العامُّون بـ **(الجزائر)** لأعيان البلاد، وويلٌ لمن لم ... يعترف لها باسم: **(القائدة حليمة)**، وقد توفيت في أوائل **(الحرب العالميَّة الثَّانية)**، إلاَّ أنَّها قبل وفاتها ذهبت إلىٰ حجِّ بيت الله، واستبدلت لقب: **(القائدة)**، بـ **(الحاجَّة)**، ولا زالت الأسرة الزِّيانية محترمة في الأوساط الإسلاميَّة الوهرانيَّة.

نص الكتاب
دليل الحيران ....

مقدِّمة المؤلف

الحمدُ لله مدول الدول سبحانه الواحدِ القهار، مفني الخلائق الموصوف بالبقاء والقدم والدَّوام والاستمرار، المنفرد بالوحدانية والعلم الرَّؤوف الجبَّار، الجاعل للنُّفوس بهجة والقلوبِ سرورًا والصُّدور انشراحًا بمطالعة الأخبار، لاسيَّما الأخبار الدالة على التَّفكر والاعتبار.

والصَّلاةُ والسلام على سيِّدنا ومولانا محمَّد المبعوث لكافَّة الخلق الشَّفيع في يوم الأهوال والفرار، وعلى آله وأصحابه من المهاجرين والأنصار، والتَّابعين لهم ومن تبعهم بإحسان إلى يومٍ تشخص فيه الأبصار، صلاةً وسلامًا دائمين متلازمين ما تعاقب النَّهار باللَّيل والليل بالنَّهار.

وبعد، فيقول العبد الضَّعيف الفاني، المفتقر لرحمة مولاه الكريم الغنيِّ، محمد بن يوسف الزَّياني: إنَّ علم التَّاريخ والأخبار لما كان من العلوم التي ينبغي الاعتناء بها ولا تجعل في زوايا الأدفار، وكان وقتنا الذي فيه يفرُّ جيش الأعمار، وأقبل فيه اللَّيل وأدبر فيه النَّهار، وسكت فيه أهل العلم ولازموا غضَّ الأبصار، وفاه فيه أهل الجهل بلسان الضلالة إلى أن سكنوا وأسكنوا تابعهم بدار البوار، نعوذ بالله من ذلك بجاه طيِّب الأذكار، وقالوا إنَّ **(وهران)** من المدن التي اختُطَّت قبل الإسلام بأعصار، وإنَّها من بناء الرُّوم لا من بناء المسلمين في ما عندهم عن باطل الأخبار، ولم يعلموا أن مختطِّيها خزر

المغراوي الزنَّاتي في آخر القرن الثالث من هجرة النَّبي المصطفىٰ المجتبىٰ المختار ﷺ من اصطفاه واجتباه الواحد القهَّار، رأيتهم يخوضون بالجهالة والضَّلالة في زاخر البحار، أردتُ بعون الله وحوله وقوَّته أن أضع تأليفا كافلا بأخبار **(وهران)** وتابعها في غاية الأسرار، وبادرتُ لوضعه بعد استخارة لمولج النَّهار في اللَّيل واللَّيل في النَّهار، وسمَّيتُه بـ **(دليل الحيران وأنيس السَّهران، في أخبار مدينة وهران)**، ورتَّبته علىٰ أربعة فصول بإتقان:

الأول: في التَّعريف بوهران.

الثاني: في ذكر من اختطَّها وأي وقت، ولماذا سمِّيت بوهران.

الثالث: في ذكر بعض علمائها وأوليائها، ومن جلب لها الماء إلى أن صارت مورد ظمآن.

الرابع: في ذكر من ملكها من حين اختُطَّت إلى هذا الزَّمان.

سائلا مِن الله تبارك وتعالىٰ الإعانة علىٰ إتمامه، والنَّفع في كل عصر وأوان، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم المتعال، وينفعنا به وقت ترادف الأهوال، وإنَّه علىٰ ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، ورحم الله عبدا نظَرَه بعين الرِّضا والصَّواب، وغضَّ بصره عن السُّخط والعتاب، وأصلح الخلل إن وجده بما فيه صواب، فأقول بحسب ما رزقت من نصيب، ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ (هود: 88).

الفصل الأول
في التَّعريف بوهران

اعلم أنَّ (**وهران**) بفتح الواو كما لابن خِلكان في كتابه (**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**)، والحافظِ أبي راس في كتبه (**عجائب الأخبار**) و(**عجائب الأسفار**) و(**الخبر المغرب**) و(**روضة السلوان**) وغيرهم لا بكسرها وغلِط من كسرها، وهي مدينة من مدن المغرب الأوسط بساحل البحر الرُّومي، عظيمة ذات مساحة وفخامةٍ جسيمَة، وبساتين وأشجار، ومياه عذبة وأطيار، وحُبوب عديدة، وفواكه وخضر جديدة، وبروجٍ مشيَّدة، وقصور معددَّة، من طبقتين فأعلىٰ ببناء التَّحكيم، وأرحية ماء ونار وريح وطحونات وسور فخيم، وفنادق وحمامات وشوارع ورياضات، ومدافع وأبراج، ومنافذ وسبل فجاج، وأتكية وغنىٰ لكل محتاج، متبحرة في العمران، وسارت بأخبارها الرُّكبان، معدودة من أمصار المغرب التي عن نفسها تدافِع ولا تدافَع، ومن أحسن معاقله التي تطاع ولا تنازع، مقصودة للعلماء والتُّجار وسائر أرباب البضائع، لها صيت بالمشرق والمغرب وسائر الآفاق، وقد ذكرها صاحب الدُّرر المكنونة المازونية في نوازل الطَّلاق، وجاءت لها الملوك من أقاصي الأقطار، وتزاحمت عليها لنيل قضاء الأوطار، ورحل لسكناها الأخيار والأشرار، والعبيد والأحرار، والمسلمون والكفَّار، فكانت مفتخمة علىٰ غيرها بمخزنها السَّادات الأسود، أهل العناية والشَّجاعة والعطاء الممدود، ومقصودة للعفاة والوجود، والعساكر والجيوش والحشود، مؤسَّسة في أسفل

(**جبل هيدور**) [1] الأشمِّ، الذي اختطَّ الإسبانيون بقنَّته بالبناء المحكم، (**برج مرجاجو**) الشامخ العتيد، وقطب رحا حربها الشديد، صعب المسلك، بعيد المدرك، ضيِّق الفجاج، المشرف على المدينة والمرسى والأبراج، غصَّ منه الجو في الصعود. وكاد يلمس بيده الأفلاك بالعقود، ذهب بالسماء بفروعه وكلاكله، وملأ الجو بقرونه وهياكله، نظم النُّجوم في مفرقه، واستوى كالملك في جلسته وترقِّيه ومرتفقه، وتلفع بمروط السَّحاب، فضرب ببينه وبين الناس بحجاب، رعدُه صوت المدافع، وبرقه شعلتها التي ليس لها دافع، كأنَّ الرِّياح أوت إلى جوِّه بإذنه، وأصغى لها ملاقيا إلى حيِّز السَّماء بأُذنه، وأطل على البحر بشماريخه، وجعله يحاكي معاني تواريخه، واستدبر البر بظهره، وأناخ سائر الجبال بمنيعه وحجره، حتى صارت جبال (**قيزة**) و(**بني ماخوخ**)، تبايعه وله تنوخ، وتسمى باسم الرجل الذي كان به من غير مناكث، وهل هو الرجل الزَّنَّاتي أو الاسبنيولي أو الحمياني أصحُّها الثَّالث، وطالما ارتفع للسَّماء جبل كهر، فاحتفظ له وبعلوِّه أقر، تراه وأنت أسفله كأنه في الجوِّ قلامة، في قنة غمامة، أو بازا وعقاب على ظهر سحاب، وقد قال في وصفِهِ بعض الفُصحاء في ملحونه:

سلُوا عليـه مرجـاجو كـان اهْنايـا وامْراقب البحر وأبـراج اتْلمســان

شــيخ الجبــال عــالي يــا فطانــا كــل الجبــال خــرَّت لــه ســجدان

ولما دخلها ابن خميس أحد العلماء الكبار والفقهاء السَّادات الأخيار في آخر القرن الرَّابع وقعت منه كلَّ موقع بعد ما دخل (**الجزائر**) في الخبر الشَّائع، وكانت الجزائر إذ ذاك قريبة عهد بالبناء والتَّمدين، فقال: أعجبني بالمغرب مدينتان بثغرين (**وهران**) خزرٍ

(1) اسم للجبل المطل على وهران.

و(**جزائر**) **بلكين (بلقين بن زيري بن منَّاد)** مؤسِّس مدينة (**الجزائر**)، وكيف لا تكون من ذخائر النَّفائس، وهي أوَّل مدينة ملكها عبد المومن بن علي الكومي سنة تسع وثلاثين من القرن السَّادس قال الحافظ **أبو راس**: «وقولُ الشَّيخ عبد الرَّحمن[1] الجامعي في شرحه لرجز **الحلفاوي** ـ هي مدينة صغيرة ـ غيرُ ظاهر ... »، ثمَّ قال: «... ولو رأىٰ بناءَها صاحبُ (**تاريخ مصر والقاهرة**) لعدَّه من أعجوبات البناء التي ذكرها في كتابه (**حسنُ المحاضرة**)، ولو رآها الغَزالُ صاحب (**الرحلة**) لما اعتنىٰ بوصف (سبتة) و(طليطلة)، ولو أُخبر بها صاحب كتاب (**اللباب**) الواصف لضخامة بنيان البلدان، لما قال الدَّار داران إيوان وغمدان، ولو رأىٰ الغزال[2] مسجدها الأعظم، وما اشتمل عليه من السَّعة والأساطين وإتقانه في الهواء بالبناء المحكم، والتزاويق المرونقة، وخاصَّته الدَّافقة بالماء، وصومعته التي علت لجوِّ السَّماء، تروم منه النزول لها بالهيكلة، لما وصف الجامع الأعظم الذي بمدينة (**طليطلة**)، واجتمعت العجائب بـ (**البرج الأحمر**)، فإنَّه يفوق حصون بني الأحمر، ولو رآه سليمان بن سابق، لقال: (لا يقدر علىٰ مثله لاحق ولا سابق)، وزادت له في الابتهاج والرَّونقة قلعته التي صعدت للجو مشرقة، ولو رأىٰ **ابن قريون** (**برج اليهود**)، لما وصف قلاع (**امصيا**) الذي هو ملك بني اليهود وأين (**مرجاجو**) المتقدم و(**برج المرسى**)، و(**برج الحمارات**) و(**الإصبايحية**) و(**مرجة**) **و**(**الحرسي**)، و(**القصبة**) و(**المارستانات**) و(**المدرسة**)، و(**برج رأس العين**)

---

(1) **عبد الرحمن الجامعي الفاسي**: له رحلة وشرح علىٰ قصيدة الحلفاوي التلمساني في تاريخ وهران واحتلال الإسبان لها.

(2) **أحمد بن المهدي الغزال الأندلسي**: له رحلة (**نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد**)، ألفها سنة 1179هـ، وزار الجزائر في مهمة إذا كان كاتبا عند سلاطين المغرب.

و(**المكنسة**)، وأبوابها المفترقة بحسب النواحي، والمدن والضواحي، ولو وصفت لك مصانعها على التَّمام، وما تحت أراهيها من الأبنية العظام، لقلت يعجز عنه سورديه[1] المفتخر ببناء الأهرام ولعجز بالاشتهار، ولما وصف قصر الجم والبديع والأجدار، وسائر بنيانها المرصوص، ومياهها العذبة التي تعلو السماء ثم تنبسط على الأرض وتتفرَّق على الرخام ثم تجتمع في سيح تحت الأرض بالبناء المحكم فتذهب معه للبحر ففيه تصبُّ وتغوص، ولقد عظمت مساحتها في النفل والفرض حتى صارت لا تحصى في الطُّول والعرض، فأحاط بها سورها الجديد، بأميال فصارت عظيمة العدِّ والتَّعديد ومن أين يطيق عذوبيَّة العدس، أو غيره مثل الدُّخنة والعلس، وما خرج عن سورها من البنيان، فلا يضبطه لسان، ولله درُّ الشَّيخ العلامة النِّحرير، الخلاصة القدوة الكبير، الكاتب السيد **مسلم بن عبد القادر**[2]، الحميري ذي العلم الباهر، والنَّسب الفاخر، حيث جعل لها، ولـ(الجزائر) الكنية بأم البها، فلقد أصاب وأجاد، ووافق الاسم المسمى فأفاد، وما قيل في مدحها من الكلام ما لا يُضبط بحصر، ما بين النَّظم والسَّجع والنَّثر، فمن ذلك قول بعض علماء **الراشدية**[3] الأذكية، السَّادات الكرام الأصفية، وهو العلامة الأجلُّ والقدوة الأبجل، مؤلِّف كتاب (**فتح وهران**) النقَّادُ الراوي، الخالي عن سائر المساوي، أحد شرفاء غريس الشريف الحسني، السيد **مصطفى عبد الله الدَّحاوي**[4]، في

---

(1) لربما ذكر هذا الاسم في بعض الكتب من أنه باني الأهرام (المصحِّح).

(2) **مسلم بن عبد القادر**: كان كاتبا عند بايات وهران وله أرجوزة في تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر.

(3) **الراشدية**: هي المعروفة الآن بأرض غريس (أم عسكر).

(4) هو صاحب (**الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية**) الخاص بفتح وهران سنة 1206هـ.

مدحها ومدح أميرها السيد **محمد بن عثمان** [1]، صاحب العدل والرفق والجهاد والأنصاف والإحسان، باي الإيالة الغربية وتلمسان، في قصيدته القافية التي من بحر الطويل، فريدة القصائد ونفسية الجواهر في غاية التشكيل:

عـــراني أجشـــىٰ ســـهاد مـــورق … ومـــن ذلـــك الســـهاد قلبـــي يخفـــق

ورق فـــؤاد مـــن حلـــول صـــبابة … وعـــم دواخـــل المـــزاج تعلـــق

أتـــاني هـــوىٰ نجـــد وطيـــب نســـميها … وصرت كســـيف البـــال ذا تشـــوق

ورمـــت انضـــماما نحوهـــا برياضـــها … بهـــا غـــرف سلســـبيل مـــدفق

وأزهارهـــا تفـــوح منهـــا ريـــاحين … ونـــور يلـــوح منـــه للعـــين رونـــق

وأشـــجارها تـــرن فيهـــا بلابـــل … بمختلـــف الأصـــوات يـــرىٰ التعشـــق

وأفنانهـــا ملمـــة لفواكـــه … الأكـــل غصـــن منهـــا غـــض مـــورق

فـــما شـــئت مـــن ذوق لذيـــذ ومنظـــر … تـــنعم فيهـــا العـــين ثـــم موفـــق

وأعظـــم شيء في اشـــتياقي لكامـــل … يلـــوذ بأنســـه المعنـــىٰ المشـــوق

لـــه في المعـــالي المجـــد أرفـــع رتبـــة … وأوفـــر حـــظ هـــو بالمـــدح أليـــق

واثبـــات ذهـــب في العلـــوم بأسرهـــا … وزان ارتفـــاع القـــدر منـــه تحقـــق

بطلعتـــه وهـــران ثـــم نعيمهـــا … وطـــاب بهـــا النـــوىٰ وبـــان التعـــانق

وطـــاب فـــرع الأمـــن طيـــب أصـــله … فنبـــت الثـــرىٰ مـــن طيبـــه متخلـــق

وعـــذب لذيـــذ المـــاء صـــاف مهـــذب … بعنصـــره افتـــداؤه فهـــو مغـــدق

وكيف لا وهو ناش من أصل ذي العلا … رئـــيس بنـــي عـــثمان ذلـــك المرونـــق

---

(1) محمد بن عثمان :فاتح وهران سنة 1206هـ.

أمـير بـلاد الغـرب مـن خضـعت لـه رقــاب كانــت بــالزعم أولى وأســبق

وشـــد بأعبـــاء الخلافـــة كاهلهـــا وفـــوق الثريـــا بنـــده لمخلـــق

وألقـى السـلاح كيـف قيـل معانـد وجـــر ذيـــول الـــذل وهـــو موثـــق

ونـادى لسـان الحـال يـا معشـر المـلا أيــدنو إلى الســباق مــن لــيس يســبق

وهـل ينـوي ذو لـب حلـول مراتـب بهـــا حـــط الرحـــال مصـــدق

إذا الكوكـب الـدري بـان سـناؤه فـــأي ســـناء للجـــواهر يـــبرق

وإن دنا نور الشمس أو حان ضوءها فلـم يبقـى ضـوء للمطـالع يشـرق

هنـــاء وســـتر للأمـــير وضـــيفه ورب عظـيم العفـو يمحـو أو يـرزق

الفصل الثاني
في ذكر مَن اختطَّها وأي وقت
ولماذا سمِّيت بوهران

اعلم أن أوَّل مَن اختطَّ (**وهران**)، أي: بناها وأسَّسها ومدَّنها وحرسها، هو المغراوي خزر بن حفص بن صولا بن وزمار بن صقلاب بن مغراو بن يصلين بن مسروق بن زاكين بن ورسيخ بن جانا بن زنات، في عام اثنين وتسعين وقيل إحدىٰ وتسعين من القرن الثالث من الهجرة، وهذا القول الأخير هو الأصح، قال الحافظ أبوراس في (**غريب الأخبار**): «وقد قال لي ثقة: إني رأيت هذا التَّاريخ في كتاب الصَّدفي»هـ، وكان ابتداء بنائها في وقت ملك الأندلس من بني أمية السلطان عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وهنا يجتمع نسبه مع النبي ﷺ، وما ذكرته من أنَّ وهران بنيت في وقت السُّلطان عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم هو الصَّحيح الموافق لنقل الحافظ **أبي رأس** في (**الخبر المعرب**) و(**عجائب الأخبار**) وأما قوله (رضي الله عنه) في (**عجائب الأسفار**): «إنها أسِّست في وقت عبد الرحمن بن الحكم الأموي»، فغيرُ صحيح لكون عبد الرحمن المذكور تُوفي في عام ثمانية وثلاثين من القرن الثَّالث كما في (**المختصر**) لأبي الفدا، وإنَّما

بناها مغراوة[1] لكونهم موال لبني أمية وهم الذين أذنوا لهم في بنائها لما كانوا عمالا عليهم بهذه العدوة قال الحافظ أبو راس في سينيته التي أسماها (**نفيسة الجمان**) ويقال لها أيضا (**الحلل السندسية**):

بنتهـا مغـراوة بـإذن مـواليهم الأمـويّين أمـراء الأنـدلس

ثالثَ قرنٍ خزرٌ منهم قد أسَّسها ومُلكهم في غاية العزِّ والشمسِ

ويوجد في بعض النُّسخ بدل البيت الأول:

ثغـرٌ لمغـراوة حلـو سـابقه على يد الأموي سلطان أندلس

وبدل السطر الأول من البيت الثاني:

آخر ثالثٍ خزرٌ منهم قد اختطَّها وملكهم في غاية العزوالشـمس

وقال **البكري**: «اتفق على بنائها محمد أبو عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران مع نفزة وبني مسقن وهم ازداجة، وكانوا أصحاب القرشي فبنوها سنة تسعين ومائتين واستوطنوها سبعة أعوام وبنو مسقن هم مسرقين واختُلف في سبب تسميتها بـ (**وهران**) على سبعة أقوال:

الأول: إنَّما سميت بذلك لكون خزر الذي اختطها لقبه وهران فسمِّيت به.

الثَّاني: إنما سُمِّيت بذلك لكون الرَّجل الذي يبني فيها اسمه وهران فسميت به.

و**الثالث**: إنما سميت بذلك لكونها مركَّبة تركيبا مزجيا من كلمتي وهران فـ«وه»

---

(1) **مغراوة**: قبيلة بربرية شهيرة أقرها الخليفة عثمان بن عفان على حكم أمارتها الممتدة ما بين مليانة وغليزان في عهد الفتوحات.

معناه الضُّعف، لأن مغراوة الذين كانوا بها كانوا في تعب وهلاك مع (**بني يفرن**) وعمال الشِّيعة من (**صنهاجة**) وغيرهم وكذا (**ازديجة**) و(**عجيسة**) فسميت بذلك.

الرابع: إنما سميت بذلك لكونها زنَّاتية وذلك أن (**مغراوة**) لما شرعوا في حفر أساسها وجدوا به غارا فيه ثعلب واسم الثعلب بلغتهم **وهران** فسموها بذلك، وقالوا مدينة (**وهران**) فاستعملت بهذا الاسم للآن وهذا أشهر الأقوال.

الخامس: إنَّما سمِّيت بذلك لكونها مركَّبة تركيبا مزجيا من كلمتي وهران فـ«وه» معناه الضّعف، و«ران» معناه الغُلف، فهي ضعيفة الرَّان أي الغَلَف الذي يكون على قلوب النَّاس لأن خزر الذي اختطها كانت عقيدته سالمة لكونه كان سنيًّا فلذلك ضعف رانُه.

السَّادس: إنما سميت بذلك لكونها مركَّبة من كلمتي واه رانا وذلك أن بني يفرن[1] لما غزوها إثر بنائها لم يهتدوا إليها ولم يطلعوا عليها لعدم معرفتهم بها لكونها كانت بمحل مشعر ذا غيظ كبيرة لا يعرفه إلا صاحبه، فألفوا بقربها رجلا ذاهبا منها لبعض مآربه فتقبضوا عليه وسألوه عنها فأبى أن يخبرهم بها فشدَّدوا عليه فجعل عصاه نيشانا نحوها فقالوا: هي صوب النيشان، فقال لهم: واه، ثم سمعوا آخر يقول: رانا فقصدوه فعثروا عليها فأخذوها وسَبَوا أهلها، فقالوا: هذه غنيمة واه رانا فاستعملوا لها اسما من ذلك فحذفوا كلمة غنيمة وألف واه الذي بعد الواو وألف رانا الذي بعد النُّون ووصلوا الكلمتين فقالوا: وهران.

---

(1) **بنو يفرن**: قبيلة من زناتة أسست مدينة تلمسان قبل الفتح ومدينة ايفكان قرب أم عسكر وبدد أمارتهم جوهر الصقلي عامل العبدين.

السابع: إنما سميت بذلك لأنها مقلوبة من كلمتي نارهو أي ظهر أمر خزر الذي اختطَّها ونار على غيره من قرابته وغيرهم.

وقال لي بعض حذَّاق النَّصارى مِن طلبتهم الذين لهم اعتناء بعلم التَّاريخ والبحث عن الأمور: إنَّما سميت بذلك لأنها مأخوذة مِن اسم سكَّانها، وهم (**هوارة**)، وألفيتُ في قوله بُعدًا كثيرا لا يلام لكون وهران بُنيت وسمِّيت بهذا الاسم بأمد بعيد قبل أن يسكنها (**هوَّارة**)، والله أعلم بذلك».

الفصل الثالث
في ذكر بعض علمائها وأوليائها ومن جلب الماء إلى أن صارت مورد ظمآن

اعلم ـ أيَّدني الله وإيَّاك بأنواره، ونفعني وإيَّاك بأسراره ـ أنَّ علماء **وهران** وأولياءها عددهم كثير، وحصرهم عسير، ولكنِّي أذكر منهم بعض المشاهير، فنقول:

إنَّ من علماء وهران:

محدِّثَها أبو إسحاق الوهراني أحد شيوخ ابن عبد البر النَّمري القُرطبي.

ومنهم **أبو عبد الله الوهراني**، والملقب بـ: **رُكن الدِّين**، ويروي رُكنُ الدين صاحب **(الرِّسالة)**[1] علىٰ لسان بغلتِه للأمير عز الدين موسك، دخل مصر في حدود السبعين من القرن السادس، واشتهر بالعلم والأدب وحسن الفهم فكان قد حصل بها من العلوم لبابها، وكشف عن الحقائق حجابها، ونصُّ الرِّسالة لما فيها من العلوم والفوائد ذات الجلالة: «المملوكة ريحانة بغلة الوهراني تقبل الأرض بين يدي الأمير عز الدِّين ظهير، أمير المؤمنين نجَّاه الله من السَّعير، وعطَّر ذكره قوافل العير، ورزقه من القرط والتبن والشَّعير، ما وسق مائة ألف بعير، واستجاب فيه أدعية الجم الغفير، مثل الخيل

(1) انظر: **(منامات الوهراني)**، تحقيق إبراهيم شعلال، ومحمد نفش، القاهرة، 1968، ص90-94.

والبغال والحمير، وتنتهي إليه ما تقاسيه من مواصلة الصِّيام، وسوء القيام، والتعب بالليل والدوابُ نيام، وقد أشرفت المملوكة على التلف، وصاحبها لا يحتمل الكلف، ولا يوقن بالخلف، ولا يقول بالعلف، لأنَّه في بيته مثل المسك والعبير والاطريفيل الكبير، أقل من الأمانة في الأقباط، ومن الغفل في رأس قاضي سنباط، فشعيره يعد من الشِّعرىٰ العبور، لا وصول إليه ولا عبور، وقرطُه أعزُّ من قرط مارية، لا تخرجه صدقة ولا هبة ولا عارية، والتبن أحبُّ اليه من الابن، والجلبان أعز عنده من ذهن البان، والقضيم أعز من الدرِّ النَّظيم، والفضة أجمل عنده من سبائك الفضة، وأما الفول فمن دونه آلف باب مقفول، وما يهون عليه أن يعلف الدواب، إلَّا بعيون الآداب، والفقه اللباب، والسُّؤال والجواب، وما عند الله من الثواب.

ومعلوم يا سيدي أنَّ البهائم لا توصف باللحوم، ولا تعيش بسماع العُلوم، ولا تطرب بشعر أبي تمام ولا تعرف الحارث بن الهمام، ولا سيَّما البغال، تشتغل في جميع الأشغال، فسلة من الحصيل، أحبُّ إليها من كتاب (**البيان والتحصيل**)، وقفة من الدريس، أحب إليها من فقه محمد بن إدريس، فلو أكل البغل كتاب (**المقامات**)، لغمه الحالُ ومات، إن لم يجد إلا كتاب (**الرضاع**)، لشهق وضاع، ولو قيل له: أنت هالك إن لم تأكل **موطأ مالك**، ما قبِل ذلك، وكذلك الجمل، لا يتغذىٰ بشرح أبيات الجُمل، ولا يصغي لمقال إن قيل لهُ كلِّ موازن الأفعال، وحزمة من الكلا، أحبُّ إليه من شرح أبي العلا، وليس عنده بطيِّب شعرُ المتنبي أبي الطيِّب، وأما الخيل فلا تطرَب إلا لسماع الكيل وإذا أكلت كتاب (**الذَّيل**)، ماتت بالنَّهار قبل الَّليل، والويل لها ثم الويل ولا تستغني الأكابيش عن أكل الحشيش، بما في (**الحماسة**) من شعر أبي الجريش، وإذا

أطعمت الحمار شعر ابن عمار حلَّ به الدمار، ومات بالليل قبل النهار، أو أصبح منفوخا كالطبل على باب الاصطبل، وبعد هذا كلِّه فقد راح صاحبها إلى العلَّاف، وعرض عليه مسائل الخلاف، وطلب منه ويبة شعير، مجمل على عياله ألف بعير، وأكثر له من الشخير والنَّخير، فانصرف هذا الشيخ مكسور القلب، مغتاضا من السَّلب، وهو أبخس من ابن بنت الكلب، فالتفت إلى المسكينة، وقد سلبه الله ثوب السكينة، وقال لها: إن شئت أن تكدي فكدي، لا ذقت شعيرا ما دمت عندي، فبقيت المملوكة حائرة، لا قائمة ولا سائرة، فقال لها العلاف: لا تجزعي من خياله، ولا تلتفتي إلى سباله، ولا تنظري إلى نفقته، ولا يكون عندك أحسن من عنفقته، هذا الأمير عزُّ الدين، سيف المجاهدين عن الكروب، ولا يرد قائلا، ولا يخيِّب سائلا، فلما سمعت المملوكة هذا الكلام، جذبت الزِّمام، ورفست الغلام، وقطعت الحزام، وفسخت اللِّجام، وجرت بغير احتشام، حتى طرحت خدَّها على الأقدام، وقالت الملجأ أمير الإسلام، ورأيك أعلى، والسلام ».

ومنهم **أبو تميم الواعظ** (نفعنا الله به).

ومنهم الشَّيخ **محمد بن أبي جمعة الوهراني**[1] شارح لاميَّة **كعب ابن زهير** التي اسمها: (**بانت سعاد**)، وله يد في علم النَّجم والحساب وكلِّ علم، توفي سنة عشرين من القرن العاشر، واسم الشَّرح (**تسهيل الصعب على لامية كعب**)، ولقد رأيته بخطِّه المبارك (نفعنا الله به).

(1) عالم شهير أخذ بالمغرب عن ابن غازي وهو من سلالة محمد الهواري دفين وهران.

ومنهم **أبو زيد عبد الرحمن مقلاش**[1] الذي أصلح كتاب السَّهو للشيخ **محمد الهواري** فلم يقبل منه ذلك، وقال له: «مِن أين لمحمد الهواري بالعربية »، كما يأتي قريبا ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ.

ومن علمائها وأوليائها قطب الأولياء، ورئيس الزهاد الأتقياء، وعالم وهران وعاملها، ورفيع الدَّرجات وكاملها، صاحب الكرامة الظاهرة، والأحوال الباهرة، والأخلاق الطاهرة، والعلوم الوافرة، والأسرار الحاضرة، المقطوع بولايته باتفاق، الشريف الحسني بغير شقاق، الرئيس الساري، الشيخ المغراوي الهواري، سيدي محمد[2] بن اعمر بن عثمان بن عياشة بن عكاشة بن سيد الناس بن أحمد بن محمد بن علي ابن الأمير امغار بن أبي عيسىٰ بن محمد بن موسىٰ بن سليمان بن موسىٰ بن محمد ابن موسىٰ بن عيسىٰ بن محمد بن موسىٰ بن سليمان بن موسىٰ بن محمد ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه، وكرَّم الله وجهَه) ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ » اهـ مِن (**جواهر الأسرار في معرفة آل النبي المختار**).

ولما نشأ في مغراوة وتربىٰ في هوارة قيل له تارة المغراوي وأخرىٰ الهواري وهي الأكثر.

قال الحافظ **أبو راس** في (**عجائب الأخبار**) وفي (**الخبر المعرب**): «إن الشيخ الهواري كان كثير السياحة أخذ بفاس عن العبدوسي والقباب وببجاية عن الشيخ أحمد

---

(1) **عبد الرحمن مقلاش**: كان معاصرا للهواري دفين وهران.

(2) محمد الهواري (دفين وهران).

بن إدريس[1]، والشيخ عبد الرحمن الوغليسي[2]. قال: وكان كثير الثناء على أهل بجاية لمحبتهم للغرباء وتحفظهم في معاملتهم، وبمصر عن الحافظ **العراقي** وغيره، وجاور بالحرمين مدة ثم سافر للقدس فجال بأرض الشام ومكث بالجامع الأموي بدمشق مدة وكان في سياحته يأوي للغيظ فتأتي إليه الوحوش وعادية السباع ثم استقر آخرا بوهران بلد أسلافه وبقي بها مثابرا على العلم والعمل فانتفع به خلق كثير ولما قرب أجله كثر كلامه بالتبشير بسعة عفو الله، وألف كتاب السهو ثم شرحه بكتابه الذي سماه (**التنبيه**) فأخذ **أبو زيد عبد الرحمن مقلاش** المتقدِّم الذكر كتاب (**السَّهو**)، وأصلح فيه أشياء وزنا وإعرابا، وأتى به للشَّيخ، فقال له: سيدي، إنِّي أصلحت سهوك، فقال له الشَّيخ: هذا السَّهو يقال له سهو مقلاش، أمَّا سهوي فهو سهو الفقراء يبقى على ما هو عليه، إنما ينظَر فيه إلى المعنى، ومَن أين لمحمد الهواري بالعربية والوزن » اهـ.

وأنشد **سيبويه** في هذا المعنى أبياتا فقال:

لسـان فصـيح معـرب في كلامـه	فيا ليته من وقفـة العـرضِ يَسـلمُ
أراه فصـيحا في الحيـاة وإنَّـما	أخـاف عليـه في القيامـة يُلجَـمُ
وما ينفع الإعراب إن لم تكن تُقى	وما ضرَّ ذو تقـوى لسـانٌ معجـمُ

وقال بعض النُّساك: «أَعرَبنا في كلامِنا حتَّى لا نَلحن، ولحنَّا في عَملِنا حتَّى لا نُعرب».

---

(1) أحمد بن إدريس البجائي: أخذ عنه عبد الرحمن بن خلدون، ولا زال معهده وضريحه بالقبائل الكبرى.

(2) عبد الرحمن الوغليسي: تلميذه، وله تآليف وفتاوى منشورة بـ: (**الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة**).

وقال **ابن الجوزي** في **(بحر الدموع)** ما معناه: «حضر مجلسَ بعضِ الوعَّاظ نحويٌّ فسمعَ لحنا مِن الشَّيخ فأعرض عن الحضور بالقيام، فقال الشَّيخ: لحنَّا بلسانِنا وأعربنا بجناننا، ليس حقيقة الرَّفع والنَّصب والخفض والجزم أن ترفع الكلمة وتنصبها وتخفضها وتجزمها وإنَّما حقيقة الرَّفع أن ترفع لربِّك جميع الأعمال الصَّالحات، وحقيقة النَّصب أن تنصب بين عينيك ميزان القِصاص في يوم القيامات، وحقيقة الخفض أن تخفض نفسك للآفات وإذاية الخلق وسائر المضرَّات، وحقيقة الجزم أن تجزم بنيَّتك وإن كنتَ حيًّا بأنَّك مِن الأموات، ولا يُقبل منك إلا الأعمال الصَّالحات، فطوبى لمن كان عمله صالحا، وتبًّا لمن كان حاله طالحا، فليس اللاحن مِن لحن في أَقواله، وإِنَّه يوم القيامة لا يقال للعبد أنتَ معرب، وإنما يقال له أنتَ مذنِب، ولا يقال له أنت محرِّك أو مجزم، وإنما يقال له أنت مجرم، ولا يقال له أنت فَصيح، وإنَّما يقال له أنت فعلك قبيح، ولا يقال له أنت مشمِّم أو مخلِّص، وإنما يقال له أنت مِن صالح الأعمال مُفلس، ولا يقال له أنت ذو فصاحة ونقاوة، وإنَّما يقال له أنت ذو تباعة وشقاوة، ولا يقال له أنت عارف بالمقصور والمنقوص والممدود، وإنما يقال له أنت عن الجنة مطرود، ومن أهل النَّار معدود، ولو كانت الفصاحةُ تُغني وتبهج نفوسا، لكان هارون أولى بالرِّسالة من موسى، قال جلَّ مِن قائل: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: 124)، فرجعَ النَّحويُّ للمجلس، وتاب مما صدر منه » اهـ.

قال الحافظ **أبو راس**: «وذكر **الملالي** [1] أنَّ الشيخ **التالوتي** [2] كان كثير المطالعة

---

(1) **الملالي**: تلميذ السنوسي وله تأليف في مناقبه.

(2) **التالوتي**: أخو الشيخ السنوسي.

لكتابي (**السَّهو**) و(**التَّنبيه**) كلَّ يوم»، قال: «ورأيتُ بخطِّه أنَّ مؤلِّفه ضَمِن لمن قرأ **سهوَه** واعتنى به أن لا يجوع ولا يعرى، وأنَّه ضمانة دُنيا وأُخرى، وسمِعناه مِن تلميذه الشَّيخ **إبراهيم التازي**، وكان يختم **سهوه** كلَّ يوم تبرُّكا».

وذكر في **التَّنبيه** «أنَّ الدُّعاء عند قبر أبي مدين مستجاب»، وذكر بعضهم أنَّ الهواري كان آية في الكرامة، منها: أن بعض طغاة الأعراب أخذ مالَ بعض أصحابه، فبعث إليه الشَّيخ رسولا ليردَّ ذلك المال فأخذ رسولَه وقيَّده فبلغ الشيخَ أمرُه فقام من مجلسه وقد اسودَّ وجهه من شدَّة الغضب ودخل خلوته، قال تلميذه التَّازي فسمعته يقول: «مفرطح، مفرطح» يكرره مرارًا، في وقته قام الظالم يلعب في عرس والناس ينظرون إليه، فإذا برجل أبيض الثِّياب نزعه من فوق الفرس وضرب به الأرض فإذا هو مفرطحٌ دخل رأسه في جوفه من شدة ضربِه منكَّسا، فأطلقَت أمُّه رسول الشَّيخ، وقالت تخاطب ولدها الميت يا ولدي حذَّرتك دعوة الشَّيخ فأبيت فلا حيلةَ فيك اليوم» ومنها أنَّه أمر سلوقية تأتي بابن امرأة أسير لما شكت له، فجازت البحر فوجدته بيده دوارة لسيِّدته، فخطفتها له فتبعها وانضمَّ البحر فجازته وهو معها حتى أدخلته على أمِّه بـ(وهران)، ومنها أنّ السُّلطان أبا فارس عزُّوز ابن السُّلطان أبي العباس أحمد الحفصي الملك العادل قال فيه عرفة أنه كعمر بن عبد العزيز بحسب الزّمان، وقد زحف من تونس بجنود عظام لتلمسان لأمر له فيه حقٌّ فرغبه ملكها أحمد العاقل الزَّياني بواسطة الشيخ الحسن[1] أبركان المزيلي الراشدي فبعث خديمه للشيخ الهواري في كف أبي فارس فقال: مالي وللملوك، ولما اشتدت الرغبة والإلحاح دعا عليه، وقد نزل آخر

(1) **الحسن أبركان**: أحد مشايخ السنوسي وهو أيضا دفين تلمسان.

رمضان من سنة سبع وثلاثين وثمانمائة (837) سفح السدر حذو جبل وانشريس فمات فجأة ضحوة عيد الفطر فانتظره الناس لصلاة العيد حتى خشوا خروج وقتها فذهب ابنه سرادق والفساطيط فوجده ميتا فجعله في محفة وانقلب إلى تونس وأخفى موته» اهـ من (**الخبر المعرب**)[1] للحافظ أبي راس، وكان له (رضي الله عنه) تآليف عديدة في طريق القوم رأيت واحدا منها (نفعنا الله به)، آمين.

واعلم أنَّ سبب تملُّك النصارى لـ (**وهران**) هو دعاء الشَّيخ الهواري عليها وذلك أنَّ أهل (وهران) بغوا على ولده سيدي أحمد الهائج وقتلوه ظلما وعدوانا بالمحلِّ المسمى به الآن وهو (**الهائج**)، وواديه يقال له (**وادي الهائج**)، وادعوا عليه إنه هائج عليهم بغير حقٍّ سمع بذلك الشيخ وسكت، فحرَّضته زوجته أمُّ الولد المذكور على أخذ ثأر ولده بالانتقام من أهل (**وهران**) فلم يلتفت لها، فذهبت إلى دجاجة عندها ذاتِ فلاليسٍ صغار، وأخذت فلوسًا منها والشَّيخ ينظر فجاءت أمُّه إليها وصارت تضاربها لتخلِّصها منها، فقالت له زوجته: «يا هواري انظر لهذه الدَّجاجة كيف أخذَتها الغِيرة على ولدها، وكيف بك لم تأخذك الغيرة على ولدك المقتول ظلما وعدوانا»، فعند ذلك قال لهم الشَّيخ: لأي شيء قتلتم ولدي، يا أهل وهران، لأنه ثمرة فؤادي وقرة عيني وبُضعة مني؟ فقالوا له: لأنه ارتكب ذنبا وثبت عليه وقتلته الشريعة، فقال لهم: من حكم بقتله من ساداتنا العلماء؟ فقالوا له: لا نحتاج في ذلك إلى حكم حاكم، وإنَّما رأينا الشريعة قتلته فقتلناه، فقال لهم: أنتم قتلتم بزعمكم أن الشريعة قتلت ولد الهواري، وأن الهواري لا يجوز ولده لعدم تحقيق دعواكم، وإن كان قولكم في الظاهر مقبول،

(1) **الخبر المعرب**: أحد شروح الحلل السندسية وهو مختصر لعجائب الأسفار.

ففي الباطن ولدي ناجٍ وكلامكم محلول، فسلَّمها (رضي الله عنه) للنَّصارىٰ، لأنه سلطان مصرها، ومتولِّي أمرها، وكان من الذين لو أقسموا علىٰ الله لبرَّ الله قسمهم، ونصُّ **دعائه**: «روحي يا **(وهران)** الفاسقة، يا كثيرة الجور والبغي والطَّارقة، يا ذات الأهل الباغية السَّارقة، إني بعتك بيعة موافقة لنصارىٰ **(مالقة)** و**(جالقة)**، إلىٰ يوم البعث والتالقة، مهما ترجعي فأنت طالقة»، فلما قال الشيخ ذلك، قال له بعض تلامذته الحاضرين لدعوته: يا سيدي والفرج لاحقة، فقال الشَّيخ: والفرج لاحقة.

ثمَّ اعلم أنَّ النَّصارىٰ لم يدخلوها بفور دعائه، وإنَّما دخلوها بعد وفاته باثنين وسبعين عامًا لأنَّه توفي (رحمه الله) صبيحة يوم السَّبت ثاني عشر ربيع الثاني سنة ثلاث وأربعين من القرن التاسع، في وقت الملك أحمد العاقل ابن أبي حمو موسىٰ بن يوسف الزياني، ووقت أخيه القائم عليه أبي يحيىٰ بن أبي حمو موسىٰ بن يوسف الزياني الذي اتخذ (وهران) دار ملكه وسكناه. وقول الحافظ أبي راس في **(عجائب الأسفار)**: «أحمد العاقل الذي جعل وهران دار ملكه» سبقُ قلم، قال في **(عجائب الأسفار)**: «وحضر لدعوتِه (رضي الله عنه) علىٰ (وهران) الشَّيخ سيدي علىٰ الأصفر التِّلمساني، وأنذر تلميذه الشيخ إبراهيم التَّازي أهل (وهران) بقصيدة تائية. ودخلها النَّصارىٰ الإسبانيون سنة أربعة عشر، من القرن العاشر وقيل خمسة عشر كما يأتي مع ما انضمَّ لتلك الدَّعوة من دعوة الشَّيخ أبي العباس سيدي أحمد بن يوسف الراشدي[1] أحد الأولياء الكبار والأتقياء الأبرار الأخيار الهواري وطنا الدامودي[2] أصلا نفعنا الله

(1) **أحمد بن يوسف الراشدي**: دفين مليانة الشهير وله يد في دخول الأتراك بالجزائر إذ اجتمع بعروج بكرشتل حسبما ذكر ذلك الصباغ في بستان الأزهار.

(2) **داموك**: قرية من توات.

بالجميع آمين. فإنه ذهب مرة لـ(**وهران**) فعظَّمه أهلها أشدَّ تعظيم، فكتب قائدها للأمير الزَّياني وهو أبو قلموس أنَّ رجلا من أرض (هوارة) يخشى منه الملك، فكتب الأمير إلى القائد ابعثه إلي أو اقتله، فلما أتى الشيخ أهله بـ(**راس الماء**) بعث العامل لأمير (**هوارة**) أحمد بن غانم في الشيخ، فاطلع الشَّيخ على ذلك وارتحل من وطنه، وقال شوَّشُونا شوَّشهم الله من البحر والبر. فلم يكن إلا قليل حتى شوَّش الله بني زيان من البحر بالكفرة فأخذوا (**وهران**) ومن البر بالأتراك فأخذوا (**تلمسان**)، فرحل الشيخ قاصدا بني غدو[1] فاعترضه محاربون من سويد فقبض على ثلاثة أحجار من الصم وحكَّمهم في يده فصاروا رمادا وقال لهم: «إن تعرَّضتم لنا يسحقكم الله مثل هذه الأحجار»، فأتوه تائبين مذعنين.

وذكر سيدي صالح القلعي أنَّه له حينئذ ابنة اسمها عائشة وكراماته لا تحصى وإن أردت استيفاءها كلَّها أو جلَّها فعليك بالصباغ القلعي[2] توفي (رحمه الله) سنة إحدى وثلاثين وقيل أربعة وعشرين من القرن العاشر وقبره بمليانة من أعظم المزارات كما أن قبر الشيخ الهواري بـ(وهران) من أعظم المزارات ولا تلتفت لمن يقول إن قبره بسيدي المسعود أو سيدي سعيد من أرض تارقة [3]، قال الحافظ أبو راس في (**سينيته**):

في وقـتهم كـان قطبهـا وعالمهـا محمد ذي المقدار العادم الحجس

---

(1) **بني غدو**: قبيلة قرب قلعة هوارة.

(2) **محمد الصباغ**: كان قاضيا بقلعة هوارة وألف كتاب بستان الأزهار في مناقب أحمد بن يوسف الراشدي.

(3) **تارقة**: قرب عين تمشنت.

ويوجد في بعض النسخ بدل هذا البيت:

في وقـتهم بهـا الربـاني عالمهـا محمد الهواري الأستاذ كابن شاس

ولما قال العلامة الشيخ محمد بن عبد المؤمن[1] أحد علماء الجزائر يحرض أمير وقته حسن باشا على غزو وهران ما نصه:

نادتـك وهـران فلـبِّ نِـداها وانـزل بهـا لا تقصـدنَّ سـواها

واحلُل بهاتيك الأباطيح والرُّبى واستصـرخنَّ دفينهـا الأوَّاهـا

واستدع طوائف العساكر نحوها يغزونهـا وينزلـوا بفناهـا

قد طال ما عبثت بها أيدي العدا حتَّى استباحوا أرضها وحماها

كم من أسير حولها لا يفتدى كم من فقير حلَّ في مثواها

وكم نِسا مع صبية أَسرى بها أسرى بهم من ليس يدر الله

من بعد توهين لناصر دينهم أبناء عامر ساءهم مرءاها

واستأصل الأثر حتَّى لا يرى من عامر من يرتجي جذواها

قال الحافظ **أبو راس** في (**الخبر المعرب**): «أراد بـ (دفينها الأوَّاها)، بدر سمائها، وواسطة عِقد أوليائها وعلمائها، شمس الضُّحى وبدر الدَّيجور الشَّيخ **محمَّد الهواري** المشهور »، ثم قال: «وهذا لردِّ قول مَن قال: الشَّيخ **الهواري** مدفون بإزاء الشَّيخ المسعود قرب (**جبل تارقة**) » اهـ.

ثمَّ قال في (**غريب الأخبار**): «وقد وقفت على قصيدة في الاستصراخ به (رضي الله

(1) ذكره صاحب (**التحفة المرضية في الأخبار الباكدشية**).

عنه) نظمها بديع زمانه وأديب أوانه أبو عبد الله سيدي محمد[1] حفيد العلامة سيدي **المهدي الجزائري** (رحمه الله) سنة 1116 فأقول ومختصرا منها ما يطول:

جئنـاك يـا شـيخ العـلا نتوسَّـل	ونـروم غيثـا مـن جنابـك يهطـل
بمشـفع في الخلـق حقًّـا قبولـه	وقضـاء حاجـة مـن بـه يتوسـل
هـو أحمـد المختـار أفضـل سـيد	بالجـاه منـه إلى الـرِّضى يتوسَّـل
كهـف الخلائـق يـوم يفـزع بنـا	إلـيهم ودمعهـم مسترسـل
والـربُّ جـلَّ جلالـه بلطفـه	وسـميع مـا يقولـه ويقبـل
وبحرمة الصَّـديق والفـاروق مـن	غدا بالحقِّ من شبه الضَّلالة يفصل
وبثالـث الخلفـاء عـثمان الـذي	في دينـه وحيائـه لا يعـدل
وبنجل عمِّ المصطفى مـن انتضـى	إليـه سـيفا كيـف حـارب يقتـل
وبسـيد الشُّـهداء حمـزة يـا لـه	أسـد لصـولته القلـوب تزلـزل
وبصـنوه العبـاس مـن دعائـه	سـقي الأنـام بصَـيب يتسلسـل
وبجـاه فاطمـة وعـز جنابهـا	تقضي الحـوائج والمؤونـة تسـهل
وإذ امـرؤ وفّى بسـبطي أحمـد	حـتما ينفـد مـا يقـول ويسـأل
بهـما أتينـا والكـريم طباعـه	مهـما أتـاه عزيـز قـوم يفضـل
أحـرى بريحـانتي رسـول الهـدى	فالأرواح إن طلبت لذينيك تبـذل
في ردِّ دارك للـذين تمسَّـكوا	بـالله واعتصـموا بـه وتوكَّـلُ

(1) محمد بن علي بن محمد المهدي الشهير بان علي، له "مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر"، في الفقه الحنفي وهو والد الشاعر الشهير محمد بن علي معاصر ابن عمار صاحب الرحلة.

رحماك يا عالم الهدىٰ بالصَّفح من | أهل الحقيقة في الجناية أجمل
نرجو رضاك فربِّي سبحانه | مهما رضيت بفتحها يتفضَّل
إنا نتوسَّل إليك بسادة | أقدامهم فوق الجباه تبجَّل
فبحقِّهم إلا قضيت حقوقنا | وفتحت من باب العدا ما يقفل
حتىٰ نرىٰ وهران دار إقامة | الصَّلاة يقدمها الآذان مكمل
ونرىٰ بها القرآن يفشو درسه | والعلم حلَّ بها ونعم المنزل

وهي قصيدة طويلة إلىٰ أن قال في آخرها:

ضاهت شقيقتَها ومطلع حسنها | الحق يعلو والأباطل تسفُلُ

ثم قال أراد بشقيقتها قصيدة لسانِ الدِّين بن الخطيب التي أنشأها بـ(رُندة) عند رجوع مخدومه محمد بن نصر لدار مُلكه (غرناطة) من عند السُّلطاني أبي سالم سنة إحدىٰ وستِّين وسبعمائة وكان مطلعها:

الحق يعلو والأباطل تسفُل | والله عن أحكامه لا يُسأَلُ

... الخ

ومن علمائها وأوليائها: **الشَّريف الحسنيُّ الذي في علمه بمنزلة الرَّازي**، تلميذ الهواري أبي إسحاق، الشَّيخ إبراهيم التَّازي بن علىٰ بن مالك بن عبد الملك بن أحمد بن عيسىٰ الرضي بن موسىٰ المرتضىٰ بن عبد الله بن أبي جعفر الصادق بن محمد الناطق بن علي زين العابدين بن عبد الله ابن حمزة بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنىٰ ابن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه وابن فاطمة بنت الرسول ﷺ» اهـ من (**جواهر الأسرار**)، ولكلٍّ من الشيخ التازي وشيخه الهواري نسل

مبارك، وإنما قيل للتازي اللوَّاتي لأن أسلافه سكنوا بـ (**لوَّاتة**).

(اقتصرت على هذه النبذة من ترجمة الشَّيخ التازي لأن ترجمته مبسوطة في كتب كثيرة كـ(**ذيل الديباج**)، و(**البستان**)، و(**روض النسرين**) الخ.. ثم إنَّ المؤلف (رحمه الله) استطرد حكايات كثيرة تتعلق بالإمام الغزالي وغيره).

وتوفي عبد الله مسلم بن عبد القادر [1] سنة تسع وأربعين مائتين وألف، ودفن بسيدي المسعود من بلد (تارقة). وإنما ذكرت هذه التتمَّة تبرُّكا بسادات الكرامة حشرنا الله في زمرتهم يوم القيامة، وأخرجنا من هذه الدُّنيا الرَّذيلة على عافية وسلامة، وأماتنا على كلمة الهيلالة وأمَّن روعنا عند الموت وفي القبر يوم القيامة.

ومن أوليائها: **القطب ذو النُّور الساطع، سيدي دادا أيوب المغراوي** [2]، وكان من أهل القرن الرَّابع، وهو بينها وبين المرسى الكبير بمكان على البحر فيه متعبدون وصالحون وحمَّامه مقصود للتبرُّك.

ومن علمائها وأوليائها من هو أغنى عن التعريف بما له مِن الشُّهرة: **سيدي بختي**[3] (دفين بلد غمرة)، قد جمع الله له بين العمل والعلم، وجودة الحفظ وقوَّة الفهم، والنجابة وذكاء القريحة، والدِّيانة وكثرة النصيحة، فانتفع به خلق كثير، فهو من أولياء الله المشاهير، وكان (رضي الله تعالى عنه) من أهل القرن التَّاسع، فاجتمع بالشَّيخ **محمد الهوَّاري** وتلمذه، وأخذ عنه فانتفع منه بعلوم دينية ولدنِّيَّة، ونال بركاته، فكان من

---

(1) سبق التعريف به (ص: 8).

(2) مشهور بحمام معدني قرب ضريحه لا زال يعرف بحمام داداي (مرخم.)

(3) ما زال له ضريح مشهور يقصده الزوار.

المفتوح لهم في كلِّ شيء، وكانت له صحبة جِسمية ومحبة عظيمة مع الوليِّ الزاهد، القطب الغوث الماجد، الشيخ الماجد شيخ الزهاد، وقدوة العبَّاد، كثير المعاني وصاحب أسرار الحروف، **أبي علي الحسن بن مخلوف**[1] (دفين تلمسان) وأحد ساداتها الأعيان، لأخذهما معا عن من اشتهر عن وصف الواصف، الشيخ **محمد الهواري** العلومَ وأسرار المعارف، وكان مغيثُ القاصي والدَّاني، السُّلطان **أحمد** العاقل **ابن** السلطان **أبي حمو موسى بن يوسف الزياني**، له اعتناءٌ عظيم بسيدي **أبي علي الحسن** المذكور، فكان يكثر من زيارته، ويقتبس من إشارته، ومدار أموره عليه، ويفزع في كلِّ أمر حلَّ به إليه، فلما قام عليه في أواخر سنة إحدىٰ وأربعين وثمانمائة ابن ابن أخيه أبو زيان محمد المستعين بن أبي تاشفين بن أبي حمو موسىٰ بن يوسف الزياني بالجهة الشرقية بعد أن قام عليه أخوه أبو يحيىٰ بن أبي حمو موسىٰ بن يوسف الزياني في سنة ثمان وثلاثين من القرن التَّاسع ومَلَك وهران واستصرخ السُّلطانُ أحمد العاقل بالشيخ أبي علي الحسن بن مخلوف فقال له: «لا طاقة لي علىٰ هذا الأمر في هذه المدة، ولكني أبعث أخي في الله سيدي بختي لشيخنا الهواري علىٰ حاجتك»، فبعث لسيدي بختي وهو ذهب للشَّيخ الهواري بوهران ولما وصله قال له الشيخ قبل تكلمه: «لا مدخل لمحمد الهواري في أمر الملوك»، فقال له: «يا سيدي بختي إن تلميذك ابن مخلوف هو الذي بعث لك علىٰ ذلك، فقال **الهواري** اذهب لأخيك وقل له يقول لصاحبه لا خوف عليه فإنَّه لا يرىٰ أحدهما الآخر»، فكفاه الله أمره وقُتل بـ (**الجزائر**) قبل وصوله في ثاني يوم من شوال سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة، يعد ذلك من كرامات الشيخ **الهواري**.

(1) هو الحسن ابركان السابق التعريف.

ومنهم الولي المشهور المتعبِّد بأسماء الشكور القطب سيدي هيدور[1]، صاحب الجبل المشهور، كثير العظامة والجلالة، دفين بلاد أسلافه **(تاسالة)**، كان من أهل القرن الثالث، ونسب له جبل **(وهران)** لتعبده به وله وارث.

ومنهم القطب الكامل العامل الواصل قامع أهل الضَّلال واللُّصوص: **سيدي محمد**[2] **بن يبقى دفين جبل أبي عروص،** كان من أهل القرن التاسع، وله جلالة وعظمة وسر نافع.

ومنهم العلامة الأكبر، والكبريت الأحمر، من جمع الله له بين العلم والعمل، ونار وقته وسعد به المكان والمحل، الشريف الذي سره وعلمه كالماء يجري: **الشيخ غانم**[3] **بن يوسف الغمري**، دفين جبل **(ماخوخ)** من بلاد أولاد علي العامري، فظهر فضله، وكثر سره فهو للكسير الجابر، وكان من أهل القرن التاسع والعاشر، اجتمع بالشَّيخ أحمد بن يوسف الرَّاشدي ثم الملياني ذي السرِّ الناشر.

ومنهم العلامة الدَّرَّاكة الفهَّامة كثير المعارف والأنوار، والخوارق والأسرار: **أبو العباس أحمد بن أبي جمعة** [4] **النجار**، النقَّاد الرَّاوي، الوهراني المغراوي، مؤلف **(جواهر الاختصار والبيان، فيما يعرض من المتعلمين وآباء الصبيان)**، كانت له اليد الطولى في

(1) لا زال الجبل يعرف بهيدور.

(2) لا زال ضريحه بالجبل المنسوب إليه بين وهران وأرزيو شمالا وهو قرب قرية كرشتل.

(3) غانم مشهور وله سلالة معظمهم يسكنون وهران ولهم اتصال بضريح جدهم يحتفلون به سنويا على عادة أهل البلاد.

(4) أخو محمد بن أبي جمعة الذي تقدم التعريف به (ص: ...).

كل شيء، وكان من أولياء الله الأكابر، اجتمع بالشَّيخ غانم بن يوسف الغُمري وأخذ عنه فوائد جمة، ومسائل مهمة.

ومنهم: **سيدي البشير بن يحيى الجني، والشَّيخ أحمد الفلالي** صاحب السَّبع، والشيخ محمد أغريب، وسيدي بدر الدين، وسيدي السَّنوسي، وسيدي محمد بن أبي يعز وغيرهم من الأولياء الذين لم أُطق حصرهم بترتيب.

ومنهم بالقرن الثالث عشر شيخ الطريقة الدَّرقاوية: ال**علامة السَّيد عبد الله بن الطيب بن حواء التجيني،** حدثني الفقيه السيد الحاج ابن الزين السليماني أمام الجامع الأعظم بـ **(وهران)** أنه ذهب مع العلامة السيد محمد بن اقريد الغربي عند السيد عبد الله بن حواء ليلقِّنه الطريقة الدَّرقاوية، فأبى ذلك وقال له: «لا تأخذ عني شيئا لأن شيخي مولاي العربي الدَّرقاوي اجتمعت به البارحة بالمنام فقبض سبابتي اليمنى قبضا شديدا وجذبني إليه وقال لي: زرنا، لازلنا معك على العهد القديم»، فلما افترقنا دار الشيخ ابن قريد في وجهي وقال لي: «عظَّم الله الأجر في الشَّيخ لأن شيخه غرضه بفعله وقوله القدوم عليه»، فلم يكن إلا قليل وإذا بحسن باي أمر بقتله هو وصاحبه الشَّيخ فرقان الفليتي، فقتلا ودفنا بقبر واحد ثم نقلا لأهلهما بضواحي البطحاء سنة أربع وثمانين ومائتين وألف ويحكى أن سبب قتلهما السيد محمود بن حواء التجيني [1] فأمر الباي بقطع رأسيهما في شعبان سنة تسع وثلاثين من القرن الثالث عشر 1239هـ.

ومن علمائها بالقرن المذكور محمَّد بن قريد الغربي، والسيد محمود بن حواء

---

(1) **محمود ابن حواء**: كان قاضيا عند الأتراك كما اشتهر بنسخ الكتب ويوجد بالمكتبة الوطنية تأليف لمسلم بن عبد القادر كتبه بخطه (تحت رقم 893).

التجيني، والشريف فرقان الفليتي، وكاتب السر السيد مسلم بن عبد القادر الزائري الحميري، وكاتب السر أيضا السيد محمد بن حسن[1]، وقد أثنى عليه الحافظ **أبو راس** في كتاب **(فتح الإله ومنّته)**، غاية الثَّناء ووصفه غاية الوصف، والسيدُ علي بن أبي سيف التراري، والسَّيدُ سليمان بن التراري الديري، وهو الذي قال فيه السيد أحمد الكلاعي ابن المكي الدَّحاوي قصيدة من الملحون من جملتها هذان البيتان:

كـــــل بـــــلاد ابـــــدحها   أو في وهران صبت سـليمان

والسَّيد مصطفى بن جلول وكان من حفَّاظ البخاري، وصنوُه السَّيد أحمد بن جلول، والقاضي السيد محمد بن الجيلاني [2] وكاتب السر السَّيد الحاج محمد بن الخروبي الخروبيين القلعيين، والسيد أحمد بن آفغول [3]، وعمُّنا السيد أحمد بن يوسف الزياني[4] والسيد الحاج محمد بن قجيل[5] البرجيين والقاضي السيد الصادق الحميسي[6] وقاضي ارزيو[7] السيد أحمد بن الطاهر الرّزيوِي، والقاضي كاتب السر

---

(1) محمد بن حسن ابن الخوجة المستغانمي.

(2) **محمد بن الجيلاني الخروبي**: من أسرة تولى أفرادها القضاء عند الأتراك وهو منهم ثم أدرك الأمير عبد القادر وتولى عنده القضاء ثم هاجر إلى الشام.

(3) **أحمد بن آفغول**: من علماء مازونة أخذ عنه المؤرخ أبو راس في أواخر القرن الثاني عشر.

(4) **أحمد بن يوسف الزياني**: عمُّ المؤلِّف، فقيه أخذ عنه المؤرخ **أبو راس**.

(5) **ابن أقجيل**: من أسرة بنواحي مدينة **البرج (أم عسكر)** تولى أفرادها القضاء في العهد التركي، وفي أوائل عهد الاحتلال الفرنسي.

(6) القاضي محمد الصادق بن الحميسي سليل أبي يحيى زكرياء المفيلي صاحب الدرر المكنونة في نوازل مازونة كان قاضيا بمازونة ثم انتقل إلى قضاء وهران في العهد التركي.

(7) **أحمد بن الطاهر**: قاضي أرزيو أخذ عنه الأمير عبد القادر ولخبر يطول حكم عليه بالاعدام=

السيد الشَّريف وابنه السيد أحمد بن الخوجة[1]، وشيخ الجماعة السيد الحاج مفتاح البخاري الحنفي، والسيد الحاج قارة الجزائري، ومنهم شرفاء غريس السيد مصطفى بن عبد الله الدحاوي[2]، والسيد محمد بن الطاهر المحفوظي الودغيري القاضي[3]، والسيِّد محمد بن البشير الحريزي، والقاضي السيد عبد الله الجيلاني العفيفي المعسكريَّين، والمفتي السيد عبد القادر بن بروكش، وابن عمه شيخنا السَّيد الحبيب بن بروكش الورغيين، والسَّيد الطاهر بن الشيخ المشرفي[4]، وابن أخيه السيد محمد سقاط

=ونفذ فيه الحكم بأم عسكر، تولى القضاء في العهد التركي وهو مذكور ضمن العلماء الذين قرظوا تأليفا لكاتب البايات مسلم عبد القادر الحميري (مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر، رقم: 893، كتبه القاضي محمود بن حواء سنة 1232هـ)

(1) **السيد الشريف وابنه السيد أحمد ابن الخوجة**: من أسرة علمية سكنت مستغانم منهم حسن ابن الخوجة صاحب (**در الأعيان في أخبار وهران**)، وأحمد بن خوجة هذا أخذ عنه الأمير عبد القادر بوهران عندما كان صحبة أبيه المحكوم عليه بالإقامة الإجبارية في عهد الباي حسن.

(2) **المصطفى ابن عبد الله ابن رزقة**: كاتب الباي محمد ابن عثمان وهو صاحب "الرحلة القمرية" وتولى القضاء والإفتاء بوهران بعد فتح وهران سنة1206هـ.

(3) **القاضي محمد بن الطاهر المحفوظي**: عالم شهير جمع خزانة كتب هامة معظمها نقله بخطه، تولى القضاء بوهران وتلمسان في العهد الفرنسي، وتعرف أسرته الآن بأسرة خطيب انتقل منهم بعضها إلى المغرب والبعض الآخر لمدينة الأصنام وبقي أكثرهم بالراشدية.

(4) الطاهر هذا كان ولد عبد القادر بن عبد الله المشرفي أستاذ أبي راس وكان من كبار علماء الراشدية تولى القضاء في عهد الأتراك.

بن عبد الله بن المصطفى بن المشرفي [1]، وابن عمهما شيخنا السَّيد الحاج عبد القادر بن المصطفى المشرفيين والمفتي السيد أحمد بن التهامي[2] أحد أولاد السيد أحمد بن علب، وابنه السَّيد الحاج مصطفى بن التهامي خليفة الأمير المخلص السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدين الحسني، وشيخُ الجماعة السيد محيي الدين بن المختار والد الأمير المذكور، والسَّيد مصطفى بن التهامي، وغيرهم ممن لا أطيق حصره ولا أحصي ذكره، وكلُّهم علماء وأئمة بُدور أهلَّة.

ومنهم بوقتنا وهو تأخَّر بعد الزَّمان، مفتيها وخطيبها الجزائري العبَّاسي السيد علي ابن عبد الرحمن[3]، وإمام جامعها الأعظم الفقيه الصُّوفي السيد أحمد بن محمد بن الملياني الملقب أنكروفي، ومدرس جامعها العرى التنبيزي (كذا) السيد الحبيب بن البخاري الحريزي، وإمام قبَّة القطب الشَّيخ الهواري المغراوي السيد المعروف بابن العالية بن الجيلاني الغربي الجني المغراوي، والخالي عن التَّجسيسي (كذا) السيد الحاج عبد الرحمن بن الطيب الغريسي، ونخبة الأشراف مقصد الذَّاهب والعاني، ياقوتة الكمال والجواهر الغاني، الشريف الحسني السيد ابن إبراهيم الوزاني، نفعنا الله بسلفه، ومتعنا به وبخلفه.

---

(1) **ابن عبد الله سقاط المشرفي**: الحافظ تولى القضاء عند الأمير وبعثه في مهمة إلى المغرب فمات هناك وهو دفين مكناس ومن تلامذة أبي راس.

(2) **أحمد ابن التهامي**: صهر الأمير عبد القادر وولده مصطفى كان خليفة الأمير وهو قائد جيش تلمسان في واقعة مغنية ومات بدمشق مهاجرا.

(3) عالم توفي حوالي 1324، وكذلك من ذكرهم بعده وكان متصلا بهم.

الفصل الرابع
في ذكر من ملكها من حين اختطت بهذا الزمان

اعلم أن الذين ملكوا وهران من حين اختطت إلى هذا الزمان تسعة دول، وأما الأدارسة والسليمانيون فلم أذكرهم لأنهم لم يملكوا وهران.

الدولة الأولى (مغراوة)
عمَّالُ الأمويين أمراءِ الأندلس

والكلام عليهم في خمسة مواضع:

الموضع الأول: في التعريف بهم وذكر نسبهم.

اعلم أنَّ (مغاورة) قبيلة عظيمة من (زنَّاتة)، وإحدىٰ القبائل الكبار من برابرة المغرب، مشهورةُ الذكر، قديمة الفخر من قبل الإسلام، نسبةً لمغراو بن يصلين بن مسروق بن زاكين بن ورسيخ بن جانا بن زنات بن يحيىٰ بن صولات بن ورساك ـ ويقال له ورماك ـ بن ضرىٰ ـ ويقال ضريس وضريسن ـ بن راحيك بن مادغيس بن بر بن قيس بن عيلان، قاله أبو محمد بن حزم في (**جمهرته**).

قال الشَّيخ علي بن أبي زرع في القُرطاس: «يفرن ومغراوة أخوان شقيقان اِبنا يصلين بن مسروق بن زاكين بن ورسيخ بن جانا بن زنات، فلذا كان الأمير يد بن يعلا ابن محمد بن صالح اليفرني ينافس زيري بن عطية المغراوي، ومن غلب منهما دخل (**فاسا**) وأخرج الآخر إلىٰ أن قتله زيري بن عطية بعد حروب سنذكر بعضها». فنسبة الزنَّاتي حقيقة إنَّما هي (**لمغراوة**) و(**بني يفرن**)، وأما لغيرهما من بني واسين كبني عبد الوادي، وبني مرين، وبني مانو، وبني لومي، وبني ورسيفن، وبني راشد، والزرادلة، وبني وطاس، وبني زيان، ومديونة وغيرهم، هو مجاز وتغليب فقط.

قال الحافظ **أبو راس** في سائر كتبه التي جعلها في التَّاريخ: «وسبب ذلك أنَّ هاتين القبيلتين كانتا أكثر عددا، وأقوىٰ ملكا وجندًا، وأعز نفرا وأرفع شأنا، وقَوِيَ تصرُّفهم في أراضي المغرب من (**طرابلس**) إلىٰ أرض (**المغرب الأقصى**) غلبت نسبة زناتة علىٰ الجميع تبعا لهما ألا ترىٰ أن (**تلمسان**) هي قاعدة المغرب الأوسط باتِّفاق المؤرِّخين وأوَّل من اختطَّها بنو يفرن، ومعلوم أنَّها كانت قبل الإسلام بكثير حتىٰ قيل في ضعيف الأقوال الجدار المذكور في القرآن ... الخ».

الموضع الثاني: في بطونهم.

اعلم أن (مغراوة) ملكوا ضواحي (**إفريقية**) قبل الإسلام، وأوَّل سكناهم **طرابلس**[1] في المغرب، وهم فرق كثيرة، فمنهم؛ بنو خزرون مالكو (**طرابلس**)، ومن مشاهيرهم: سعيد بن خزرون وأبوه خليفة اللَّذين قتلهما بنو زغبة بن هلال لما نزلوا هناك، آتين من المشرق وسط المائة الخامسة، ومنهم؛ بنو صقلاب ملكوا بطائح إفريقية، وصقلاب هذا كان في زمن النبي ﷺ، ومنهم؛ بنو وراين فهم بأرض (**العجامة**) فوق (**مسون**) فوق (**تازة**) من بلاد (**المغرب الأقصى**) وبازاء (**قسنطينة**) و(**بجاية**) و(**شلف**) و(**مراكش**) و(**سوس الأقصى**) ونواحي (**طرابلس**)، ومنهم؛ سنجاس، ومنهم؛ بنو قرط بين الزاب وجبل راشد ولهم هناك قصور كثيرة مشهورة، ومنهم؛ حي بـ(ورقلة)

---

(1) موطنهم الأصلي قرب مليانة وأسسوا إمارتهم المعروفة ببني خزر وبعد قضاء بلكين عليهم في واقعة شهيرة قرب البطحاء تفرقوا فكانت منهم فرقة بالمغرب والأندلس ثم فرقة بليبيا سموا ببني خزرون ثم رجعوا وأسسوا إمارة مازونة بمساعدة الموحدين أواخر القرن السادس الهجري ففي كلام الزياني تخليط لم يقل به مؤرخ علىٰ كثرتهم.

ومنهم ريغة بالزاب وغيره، ومنهم؛ بنو ورسيفان[1] ملكوا بـ(مليانة)، ومنهم؛ بنو زاغو بـ(تلمسان)، ومنهم؛ قبيلة مشهورة باسم مغراوة بإزاء بني زروال، وأخرىٰ بغريس، ومنهم؛ بنو عث أهل جبل كرسوطو، منهم؛ الكنادرة وأهل عين الفرس الغربية التي بغربي غريس، وأهل الكرطو، منهم فرقة بمينا تجاور بني راشد من المشرق، وكانت فرقة منهم بأرض أولاد خالد باليعقوبية تركوا وتلاشوا، وهناك مدينتهم خرابا، ومنهم بنو الغرن، وكان الغرن أميرا علىٰ منداس ومينا، ويقال له: مقياس والسرسو، وغير ذلك، وقتل بجبل نفوسة حول مدينة **(قابس)** من أقاصي **(إفريقية)** أوائل القرن السابع ناصرا ليحيي بن غانية المسوني. ومنهم؛ بنو منديل بن عبد الرحمن ملكوا **(مازونة)** و**(تنس)**، و**(مازونة)** اسم قبيلة من **(زنَّاتة)** لأن اسم أبيهم مازون، كما أن **(تنس)** اسم رجل من **(زنَّاتة)** علىٰ الصَّحيح، ومنديل هو الذي اختط **(مازونة)** التي كانت بها القبيلة واندرست سنة خمس وستين من القرن السَّادس كما في **(الخبر المعرب)** **و(عجائب الأخبار)**، وفي **(عجائب الأسفار)**: «إنَّ الذي اختطَّها هو أبوه عبد الرحمن ولمنديل[2] هذا زحف يحيىٰ وكانت الدائرة علىٰ منديل وقبض عليه ابن غانية وذهب به إلىٰ **(الجزائر)** فصلبه علىٰ سورها في أوَّل القرن السَّابع وقيل أثناء القرن السَّادس، وإنما قصده يحيىٰ من قابس، لأنَّ منديلا كان يشنُّ الغارات علىٰ الثَّعالبة بـ **(متِّيجة)** حتىٰ خرب لهم ثلاثين مدينة وتولَّىٰ **(مازونة)** بعده ابنه علي علىٰ ما في **(عجائب الأخبار)**

---

(1) هم المركز الأصلي لمغراوة ومنه وقع الانطلاق إلا أنهم كانوا يرجعون إليه سواء من ذهب منهم إلىٰ الأندلس والمغرب أو طرابلس.

(2) توفي في واقعة شهيرة بواد جر قرب مليانة، وإنما تكتب عند ابن خلدون ومن نقل عنه: بواجر، ولا زال اسم وادي جر مستعملا، أي يطلق عليه.

و(**الخبر المعرب**) و(**ابن خلدون**) وهو الذي وفد علىٰ أبي زكرياء الحفصي ومعه أمير توجين عبد القوي بن عطية بـ(**تونس**) وسهَّلا عليه أمر (**تلمسان**) فغزاها وفرَّ منه سلطانها يغمراسن بن زيان ثمَّ استعمله عليها ورجع وذلك سنة تسع وثلاثين وستمائة (639 هـ) ولما نزل (**شلف**) في إيابه لـ(**تونس**) أمر كلاًّ من العباس المغراوي وعبد القوي التجيني ومنصور المليكشي باتخاذ زيِّ الملوك من بنود وطبول ونجائب وغير ذلك ففعلوا مضاهاة ليغمراسن، وشجا في صدره فبان لك أنَّ أول من عمل زيَّ الملوك من مغراوةِ أهلِ (**شلف**) العباسُ بن منديل سنة تسع وثلاثين وستمائة (639 هـ) حتَّىٰ تطاولت إليه الأعناق في جميع الآفاق، وأما أبوه فكان يدعىٰ بالشَّيخ فقط، ومنهم قبائل كثيرة حيث يصب نهر (**شلف**). خرج منهم أولياء وعلماء ومنهم بنو خزر أصحاب المغرب الأوسط، اختطوا (**وهران**) وملكوها وتوارث ذلك فيهم وهم الذين عرضنا الكلام عليهم، ومنهم بنو بختي الخزريون ملكوا (**تلمسان**) وما حولها من (**وادي يسر**) وشعابهم، يسر تسمىٰ بهم إلىٰ الآن.

ومنهم؛ بنو يرنان من بني توجين، ومنهم؛ بنو دامود ملكوا مدينة (**صفرو**) وما حولها إلىٰ أن أبادهم يوسف بن تاشفين، ومن بني دامود: القطب الشَّهير سيد أحمد بن يوسف الرَّاشدي ثم الدَّامودي، ومنهم؛ بنو حمدان وبنو وانود وبنو الفرطاس ملكوا (**البصرة**) وهي الآن خراب في أرض مالك وسفيان بطريق (**فاس**) إلىٰ (**تيطوان**)، وقد غزاها بُلكِين بن زيري الصَّنهاجي في نيِّف وستين من القرن الرابع كما يأتي، ومنهم؛ بنو عطية ملكوا (**فاس**)، وزاحمهم عليه بنو يفرن فجرت بينهما حروب، ومن مشاهيرهم خزرون الذي زحف إلىٰ سجلماسة سنة ست وستين من القرن الرابع فهزم ولد الشاكر

وقتله واستولى على بلده، وبعث برأسه إلى **(قرطبة)** مع كتاب الفتح للسلطان هشام المؤيَّد، الذي أبو داود القارئ من مواليه، وذلك أولَ حجابة المنصور بن أبي عامر المُعافري، وبقتل ولد الشاكر انقرض ملوك **(مكناسة)** من المغرب، ومنهم بنو دارك صاحب الجبل المعروف بجبل دراق، ومنهم أولاد خلُّوف في أسفل **(شلف)** الذين منهم سيدي الأكحل كما يأتي، ومنهم **(الأغواط)** أهل صحراء إفريقية الذين نصروا أبا يزيد الخارجي اليفرني، ومنهم بنو عيار بطن من بني سنجاس نزلوا بأعمال **(قسنطينة)** ثمَّ نزلوا بقفصة في سنة أربع عشر وخمسمائة، ومنهم؛ بنو يوسف بن عبد الله أصحاب **(تقُّرت)** قيل إنَّهم بطن من **(الأغواط)** وقيل من سنجاس، ومنهم بنو ورياكل أهل ملالة بإزاء مجانة على فرسخ من **(بجاية)** ومنهم النكارية إلى غير ذلك.

الموضع الثالث: في ذكر علمائهم وأوليائهم ومن اشتهر منهم بالشرف ثم اندرج فيهم حتى عد منهم.

اعلم أنَّ من علماء **(مغراوة)** وأوليائها المشاهير أبا العباس أحمد بن محمد بن عبد الله المغراوي، قال **السَّخاوي** في **(الضوء اللامع في أخبار القرن التَّاسع)**: «لم يكن له نظير في المالكية، وله مناظرات مع البسطامي، ومعارضات مع ابن خلدون».

ومنهم؛ الشَّيخ أبو العباس أحمد بن زاغو الصُّوفي التَّلمساني الذي له اليد الطولى في كلِّ علم حتَّى الهندسة، وله فتاوى في **(الدرر المكنونة)** و**(المعيار)** وأولاده علماء أجلة من علماء **(تلمسان)** يقال لهم أولاد ابن زاغو.

ومنهم؛ الشَّيخ محمد بن أبي جمعة الوهراني المتوفَّى سنة عشر وتسعمائة، وصنوه العباس أحمد بن أبي جمعة النجار كما مرَّ.

ومنهم؛ الشَّيخ شقرون الفاسي تلميذ ابن غازي ذو التآليف العديدة منها (**الجيش الكمين في الردِّ على من يكفر علماء المسلمين**)، ومنها (**المنظومة الشقرونية**) في المأكولات والمشروبات، وغيرها.

ومنهم؛ الولي الصَّالح سيدي محمد المغراوي توفي بقلعة بني راشد أواسط القرن الثاني عشر، وابناه السَّيد أبو القاسم ذو الشهرة بـ(**تلمسان**) والشيخ الطاهر وله باع في القرآن وأحكامه وله منظومات كثيرة على رسم القرآن العظيم، أخذ القراءة عن الشيخ محمد بن عمر الهواري المغراوي المتقدِّم الذكر نصّ على شرفه الشيخ أحمد بن أزقاق العبد الوادي المستوطن قرية الدبة من أعمال القلعة هوارة وبها قبره (رضي الله عنه ورحمه).

وكان من أهل القرن الثَّاني عشر ومن أشرافهم وعلمائهم وأوليائهم المشاهير عالم (وهران) وصالحها وقطبها وفالحها؛ الشيخ محمد بن عمرو الهوَّاري المغراوي المتقدم الذكر، نصّ على شرفه صاحب (**إثمد الأبصار**) و(**كتاب الاعتبار**) و(**جواهر الأسرار**). وتقدم الكلام عليه مستوفيا.

ومنهم؛ الشيخ إبراهيم المغراوي دفين وادي مكرة وعلى ضريحه قبَّة جبلية وعنده الآن مدينة اختطَّها الفرنسيس تعرف بمدينة سيدي إبراهيم، نصَّ على شرفه صاحب (**إثمد الأبصار**).

ومنهم؛ الشيخ أبو عبد الله محمَّد بن منصور الذي حلَّ أغراض البخاري المبهمة في **الجمع بين الحديث والترجمة**.

ومنهم ذو الكرامات الرَّائقة، والخوارق الفائقة؛ أبو محمد عبد الله بن منصور

الحوتي بـ (**تلمسان**) نصَّ علىٰ شرفه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي في كتابه (**إثمد الأبصار**)، يحكىٰ أن سيدي عبد الله بن منصور لما قدم لـ (**عين الحوت**) اشتغل بالقراءة علىٰ سيدي أحمد بن الحسن التلمساني إلىٰ أن نال جميع ما أراده من العلوم، ثمَّ اشترىٰ دارا وطلب من سيدي أبي عبد الله محمد بن سليمان الشريف الحسني أن يزوِّجه بابنته فأبىٰ، فتغيَّر حال الشيخ مِن ذلك، فتغيَّرت البنت مِن تغيُّره، وصارت سوداء، فقال له بعد ذلك سيدي أبو عبد الله: اجعل ماء هنا في هذا البلد إن كنت ذا سر وأزوِّجك منها، فضرب الشيخُ بِعَصاه المحلَّ الذي سمَّاه له، فانفجر أوَّلا بالدَّم، ثم ثانيا بالماء، فزوَّجه سيدي أبو عبد الله بابنته، ويحكىٰ أيضا أنَّ عسكريًّا مِن جند الأتراك وقف عند باب ضريح سيدي عبد الله بن منصور، وقال له بِنيَّة صادقة: يا سيدي، إن ارتقيت إلىٰ ما نطلبه نبني عليك قبَّة عجيبة، ونجعل لك احتراما كبيرا، فارتقىٰ العسكري إلىٰ رتبة باي، فبنىٰ عليه قبَّة كما قال، وجعل عليه قبَّة كما قال، وجعل عليه توقيرا عظيما واحتراما جسيما، بحيث أن القاتل إذا هرب له ووصل إلىٰ حدِّ الاحترام وهو الكركور نجا ولا يخاف مِن شيء، ولا يطالب بعدها بشيء، ثم بنىٰ هذا العسكري قبَّة علىٰ أحد حفدتِه ـ وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن منصور الحوتي، المتوفي سنة سبعين من القرن الثاني عشر ـ وكان الشيخ سيدي عبد الله بن منصور في القرن الثامن علىٰ ما قيل وفي قلبي منه شيء » اهـ [1].

ومنهم؛ أبو البيان الشَّيخ واضح بن عثمان بن عيسىٰ بن فكرون المغراوي، قال

---

(1) كان رحمه الله من أهل القرن التاسع حسبما ذكره صاحب روض النسرين في ذكر المشايخ العلماء الأربعة المتأخرين.

الشيخ **أحمد بابا** في (**ذيل الدِّيباج**): «توفي سنة ست وخمسين وتسعمائة (956هـ) ويروىٰ وثمانمائة[1] وقد سماه أبوه علىٰ شيخه أبي البيان الشَّيخ واضح بن عاصم المكناسي دفين الجانب الشَّرقي من خنق (وادي رهيو) من جبل افرشان.

ومنهم؛ ابن ابن الشَّيخ واضح بن عثمان أبو عبد الله محمد المغوفل بن محمد واضح صاحب القبتين بـ(شلف) في بطائح افرشان وكان ممن أنحلته وأكلته الزَّهادة فكان أحد أعجوبات الدَّهر في علمه وورعه وكرامته يشهد لعلمه قصيدة مدح بها رسول الله ﷺ فيها سبعون بيتا مهملة، وكان دقيش العربي الذي هو من نسل بني مخزوم يخدمه، وما يقال من أن أحميدة العبد رئيس المَحالِّ كان يخدمه فذلك بعيد لأن الشيخ أبا عبد الله كان من أهل القرن العاشر وأحميدة[2] العبد كان من أهل الحادي عشر بدليل أن الشَّيخ محمد أقدار التَّجيني أمره بالغزو علىٰ هبرة لما تعدوا علىٰ المهاجرين من الأندلس بمرسىٰ (أرزيو)، والشيخ محمد أقدار[3] توفي سنة خمسة وستين وألف، وضريحه بسدار مينا. وخرج من نسل سيدي أبي عبد الله علماء وأولياء منهم ابن ابنه الشيخ علي زين العابدين أبو عباية صاحب المرجة، وتسميه العامة سيدي عابد وكان معاصرا للباي

---

(1) وهو الصواب، أي: ثمانمائة، كما ذكر **الونشريسي** في (**وفياته**) التي نقل منها صاحب (**ذيل الدِّيباج**).

(2) **أحميدة العبد**: من قواد سويد المعروفين بالمحال، إلا أنهم كانوا يطلقون هذا الاسم علىٰ كثير منهم ابتداء من القرن الثامن.

(3) **محمد أقدار التوجيني**: كان في أواسط القرن الحادي عشر ولما جاء آخر فوج من الأندلسيين أي حوالي 1018 ونزلوا بمرسىٰ أرزيو تعرض لهم سكان قبيلة هبرة وذبحوا الكثير منهم انتقم منهم الشيخ أقدار، وقد ذكر الواقعة بتفصيل **أبو راس** في شروحه علىٰ (**السينية**).

شعبان الزناقي دفين وهران، والشَّيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن محمد التَّجيني دفين البطحاء من أرض المحالِّ، وهو الذي مدح الشيخ أبا عبد الله جد الشيخ علي زين العابدين بقصيدة ميمية وهي تدل على غزارة علمه وتمهُّره في اللغة وعلم العروض، توفي أبو زيد المذكور سنة ثمان وتسعين وألف نص على شرف هؤلاء البوعبدليين أسلافا وأخلافا صاحب (**إثمد الأبصار**).

ومنهم؛ الشيخ أبو يعقوب العشعاشي، قال الحافظ الشيخ **موسى بن عيسى المغيلي المازوني** [1] مؤلف (**المهذب الرائق**) وغيره: «ظهر شرف أبي يعقوب آخر المائة السابعة، قال الوالد: وفي قلبي منه شيء » اهـ.

وأبو يعقوب هذا هو الذي أخذ زاويته بـ (**شلف**) تعديا محمد بن عبد القوي ابن عطية التجيني بعد أن زار ولي الله سيدي واضح بن عاصم المكناسي[2] فدعا عليه أبو يعقوب فأهلكه الله، نصَّ على شرفه صاحب (**المهذب**) المذكور وصاحب كتاب (**الاعتبار**) وغيرهما.

---

(1) والد صاحب الدرر المكنونة في نوازل مازونة، له ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، وتسمى بمناقب الشلفيين.

(2) واضح بن عاصم المكناسي ذكره موسى المغيلي في ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، أو مناقب الشلفيين، لعب أدوارا في عهد يغمراسن بن زيان وبني توجين، ضريحه بمعهد قرب وادي أرهيو.

ومنهم؛ ولي الله سيدي الأكحل بن عبد الله الخلوفي [1] وتسمية العامة سيدي الأخضر شاعر النَّبي ﷺ المشهور بمدحه ﷺ كشهرة ابن عروس بـ (**تونس**).

ومنهم؛ الشَّيخ عفيف [2] والشيخ محمد بن شاعة [3]، وقيل لَمتوني، نصَّ علىٰ شرفهم صاحب (**إثمد الأبصار**)، و(**السلسلة الوافية**).

ومنهم؛ الشَّيخ إبراهيم الكندوري، والشَّيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي ثم الدامودي، وتقدم الكلام عليه، وفيه يقول الشيخ محمد الرَّقيق بن حواء التجيني علىٰ سبيل التوسُّل في (**غوثيته**) التي من الرَّجز:

وبأبي العبَّاس فحل التَّاسـعِ من القرون الرَّاشديِّ الشَّائعِ

نص علىٰ شرفه صاحب (**إثمد الأبصار**) وكتاب (**الاعتبار**).

ومنهم؛ الشَّيخ **محمد بن يحيى** مقرئ الجنّ المشهور، تلميذ الشَّيخ **السَّنوسي** وهو

---

(1) الأكحل بن خلوف المشهور بسيدي الأخضر صاحب الأمداح النبوية، وقصيدة حرب مزغان، مغراوي الأصل دفين مزيلة شرقي مستغانم بنحو 60 كلم.

(2) عفيف له ضريح قرب مدينة سيدي علي، وله ذرية تحتفل سنويا بذكراه.

(3) محمد بن شاعة شخصية غامضة ذكره المؤرخون القدامىٰ ووصفوه بالعلم والصلاح وكفاه أن الشيخ الأخضر بن خلوف من تلامذته إلا أن هناك الأساطير التي جعلته شخصا يتطير كثير من القبائل باسمه وكانوا لا يخالطون المنتسبين إليه ولا يصاهرونهم واتهموه بقتل الشيخ محمد ابن علي المجاجي، وهو غير صحيح له ذرية مشهورة وتلاميذ يعرفون ببني زروال، لهم مواقف بطولية في حرب وهران مع الإسبان.

إن هذه البقية من الشرح والتعليق علىٰ الجزء الأول من كتاب (**دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**) تابعة لصفحتي 22 و29 إذ جلها يوجد عل هامش المخطوط.

الذي أذن له في سكنىٰ (**غريس**) وبثِّ التَّوحيد به وله تآليف في التَّوحيد وغيره، وهو أول من بث علم التَّوحيد بـ(غريس)، وضريحه بوادي فروحة وعليه قبَّة مقصودة لزيارة من اعتراه الجان، نص علىٰ شرفه صاحب (**إثمد الأبصار**) و(**جواهر الأسرار**) و(**السلسلة الوافية**) و(**عقد الجمان النفيس**) وشارحه الشيخ الجوزي المزيلي الراشدي وذكره المديوني في (**البستان**) في حرف الميم قائلا إنَّه من جملة علماء وأولياء (**تلمسان**).

وهؤلاء السَّادات الأشراف كلهم يقال فيهم مغراوة، هذا ولم أبلغ في عدِّ مغراوة نصف نصفهم، وقد انقرض بعض من ذُكر والبعض تلاشوا، واندرج في القبائل والبعض باق معروف إلاَّ أنَّ الدول جرَّت عليهم أذيالها فأنسوهم ذكر المجد وفجر العز وترف الملك فصاروا من القبائل العارمة اهـ.

الموضع الرابع: في ذكر سبب إسلامهم، وصيرورتهم موالي لبني أمية، وذكر أمراء بني أمية بالأندلس، وسبب مصير الملك إليهم، وأول من ملك منهم بالأندلس، ومن امتد ملكه منهم لهذه العدوة:

اعلم أنَّه لا خلاف أنَّ (**مغراوة**) لهم ولاية عنق لبني أميَّة كما أن لصنهاجة ولاية للعلويين، وإنَّما الخلاف في سبب إسلامهم، فقال جمهور المؤرِّخين: إنَّ عبد الله بن سعد ابن أبي سرح أحد بني عامر بن لؤي لما زحف إلىٰ إفريقية في زمان عثمان ابن عفان (رضي الله عنه) لأنَّه أخوه من الرَّضاعة فلذلك ولَّاه علىٰ (**مصر**) وأمره بغزو (**إفريقية**) سنة تسع وعشرين من الهجرة وأتىٰ معه للغزو من (**الحجاز**) أربعة آلاف من الصَّحابة وأولادهم فيهم ابنا عمرَ بن الخطاب وهما عبد الله وعاصم وفيهم عبد الله بن جعفر بن

أبي طالب كما ذكره ابن خلدون والحافظ أبو راس في (**عجائب الأسفار**)، وفيهم عبد الله بن الزبير بن العوَّام. وكان جرجير الفرنجي مَلَك ما بين (**طرابلس**) و(طنجة) ودار ملكه (**اسبيطلة**) فلقي المسلمين في مائة وعشرين ألفا والمسلمون في عشرين ألفا فكان من هزمِ الصَّحابة للروم وقتلِهم لملكهم جرجير الفرنجي، وما نفله الله لهم من أموالهم وبناتهم التي اختصَّت منهنَّ ابنته آمنة بقاتل أبيها ابن الزُّبير لعهد أمير المسلمين له بذلك بعد الهزيمة ما هو مذكور في كتب فتح إفريقية.

ويروي أن جرجير قال لجيشه من قتل منكم أمير العرب فله ابنتي، فلما سمعها ابن سعد قال للمسلمين: من قتل منكم جرجيرا فله ابنته، فلما قتله ابن الزُّبير سكت ولم يدَّع قتله، وهو ابن بضع وعشرين سنة، فلما اجتمع السَّبي قال الأمير: من قتل جرجيرا فليأخذ ابنته فلم يجبه أحد، فقالت البنت: «إنَّ الذي قتل أبي إنِّي أعرفه» فعرضوا عليها العساكر فخرجت على ابن الزبير، فقيل له: لِمَ لِمْ تتكلَّم؟ فقال: «إنما قتله لله لا لابنته». ثم قسَّم الأمير الغنائم وبعث الخمس لعثمان بن عفان مع ابن الزبير المبشّر بالفتح فأخذ برقة بعبيده وحشمه فمات له أكثر الإبل ببرقة حتَّى صارت آمنة بنت الملك تعاقب خادم ابن الزبير على بعير فكانت إذا ركبت عقبته، قال لها الخادم: «يا بنت جرجير تمشي عقبتك لتحملن من قبا قربتك، أي عليك بالمدينة ربتك»، فلما فسّر لها ذلك أنفت من أن تكون أمةً لغيرها فسقطت على رأسها من فوق البعير فماتت.

هذا تحقيق أمرها بلا منازع ودع عنك ما سواه فهو جعاجع، ثمَّ بعد قسم الغنائم شنَّ الغارات على بطائح (إفريقية) فلقيته مغراوة ببعضها ووقع بينهم حرب عظيم ثم انهزم مغراوة كلُّهم ثم صالح الفرنج المسلمين على ثلاثمائة قنطار ذهبا فرحلوا عنهم

ففعلوا ورجعوا للمشرق واشتغلوا بفتنة الجمل وصفين. وهذا القول الذي ذكرتُه في شأن إسلام وانزمار بن صقلاب وقومه هو الذي خرج عليه صاحب (**بغية الرُّواد في أخبار بني عبد الواد**)، وصاحب (**الخبر المعرب**)، و(**عجائب الأسفار**)، و(**الدر والعقيان**)، من أنَّ مغراوة موالي عتق لبني أمية مع أنَّه إن صحَّ لم يكن لهم الولاء إلا على وانزمار وحده ولا يكون الا لعثمان وحده، ولا شكَّ أنَّ وانزمار لما رجع من المدينة المنورة مسلما أسلم قومه تبعا له ومعلوم أنَّه لم يجر عليهم سبي ثم أسلموا بعده، وهذا هو المتعيَّن لأنَّ شرط صحَّة الملك السبي بشرط الكفر وهذا ما اتَّفقت عليه الفقهاء، وقد بسط الكلام في ذلك الشَّيخ أحمد بابا في تأليف مستقل جامعا مانعا وإن ابن خلدون نفسه ذكر في بعض المواضع ما ارتضاه صاحب (**بغية الرواد**) بل هو المعوَّل عليه وعنده، ويدلُّ له أنَّه لما ذكر (صنهاجة) ونسبهم وعد قبائلهم قال ولصنهاجة ولاية لعليٍّ بن أبي طالب كما أنَّ لمغراوة ولاية لعثمان بن عفان الأموي (رضي الله عنهما)، إلا أنَّا لا نعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها» اهـ. بلفظه.

وقال **ابنُ خلدون**: «إنَّ أمير مغراوة صولات ـ وفي موضع آخر أبوه وانزمار ـ هاجر بعد اسلامه وقومه للمدينة وفد على أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فلقيه عثمان بالبرِّ والقبول لهجرته وعقد له على قومه ووطنه بعد أن جدَّد إسلامه لديه وانصرف إلى بلده محبوبا محبورا، مكروما مغتبطا بالدين، مظاهرا لقبائل مضر، فلم يزل هذا دأبه مختصًّا هو وسائر الأحياء من مغراوة بولاء عثمان وأهل بيته من بني أميَّة فكانوا لهم خاصة دون قريش وظاهروا دعوة المروانيِّين بالأندلس رعيًا لهذا الولاء إلى أن هلك وانزمار وابنه صولات وقومه بعده، ولما هلك وانزمار بن صولات قام بأمره

في مغراوة ابنه صولات، ولما هلك صولات قام بأمره في مغراوة وسائر زنَّاتة ابنه حفص وكان من أعظم ملوكهم، ولما هلك حفص قام بأمره في مغراوة وسائر زنَّاتة أيضا ابنه خزر، وهو الذي اختط وهران كَمَا مرَّ، ومُرادنا الكلام عليه وعلىٰ بنيه ـ إن شاء الله ـ وسبب مصير الملك إلىٰ المروانيِّين من بني أميَّة بالأندلس ودُخول عبد الرحمن الدَّاخل لها هو قيام بني العبَّاس علىٰ بني أميَّة وقتلهم إيَّاهم، حيث وُجدوا أخذاً بثأر الحسين وزيد بن عليٍّ بن الحسين وابنه يحيىٰ وغيرهم، ولما رأىٰ عبد الرحمن الدَّاخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم طريد رسول الله ﷺ ابن أبي العاصي بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف قتل بأبي صير من عمل مصر بن محمد آخر ملوك بني أميَّة بالمشرق سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فرَّ إلىٰ قرية من قرىٰ **(الفرات)** بأهله وولده فلمَّا أحسَّ بالطَّلب خرج ومعه أخوه ابن ثلاثة عشر سنة فارًّا فرأوه علىٰ شاطئ نهر الفرات فحملوا عليه فرمىٰ بنفسه في الماء فنجا وقتل أخوه ثم سار إلىٰ **(مصر)** ثمَّ إلىٰ **(برقة)** فأزعج عبد الله بن علي عم السفاح أوَّل ملوك بني العباس في طلبه عامر المرنجي، فلم يقف له علىٰ أثر، ثم توجه عبد الرحمن إلىٰ المغرب ولحق بمغيلة أهل واريزن بازاء **(مازونة)** فنزل علىٰ أبي قرة شيخهم واسمه وانسوس، ثم اشتدَّ طلب عبد الرحمن بن حبيب أمير **(إفريقية)** لأبي جعفر المنصور العباسي الخليفة بالمشرق عليه والفحص عنه فلما سمع أنه عند أبي قرة بعث رسله إليه، ففتَّشوا عنه كلَّ مكان فلم يجدوه، لكون تكفة زوجة أبي قرة جعلته تحت ثيابها فلم يفتشوها لاستعفافهم ذلك، ثمَّ أتوا به لَمَّا انصرف الطَّلب عنه إلىٰ مرسىٰ هناك.

قال اليعقوبي: «هي **(سبتة)**» وقوله بعيد، وقال الحافظ أبو راس: «هي (تنس)»

وقوله قريب بل هو الصَّحيح لقربه من (واريزن)، وكان أمراء (الأندلس) كلُّهم موالي لبني أميَّة وأبناء نعمتهم، فأرسل لهم عبد الرحمن مولاه بدرا في مركب فأجابوه بالسَّمع والطَّاعة، منهم أبو عثمان وعبد الله بن خالد وغيرهما، وبعثوا له مركبا فأجازوه البحر وأوَّل مدينة نزل بها (البيرة) ولا زالت للآن تعرف بالدَّاخل فعقدوا له البيعة وملَّكوه عليهم سنة ثمان وثلاثين ومائة، وسلم العمَّال إليه الأمر مثل عبد العزيز بن موسىٰ بن نصير ومغيث وأبي عثمان وعبد الله بن خالد وغيرهم، فاستقام أمره وعلا صيته وكان موصوفا بالعقل والفضل، والعلم والعدل، وكذا بنوه بعده فإن حالهم أشبه بحاله، وساسوا الرَّعية علىٰ منواله، ثمَّ وفد أبو قُرَّة وزوجُه تَكفَةُ عليه، فرحَّب بهما، وأحسن إليهما، وقال لتكفةَ يومًا مداعبًا لها: «لقد آذيتني بنتن إبطك» فقالت له: «كان ذلك منك يا سيدي، ولم تشعر به لفرط فزعك» فاستظرف جوابها وأعرض بمواجهتها بمثل ذلك، ثمَّ زحف الدَّاخل إلىٰ (قرطبة) متعصبا باليمانية لمحاربة أميرها يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة بن نافع الفهري ـ فاتح المغرب وباني القيروان ـ فلقيه يوسف متعصِّبا بالقيسية من قبائل مضر ومعه الصميل من نسل شمر بن ذي الجوشن أحد قتلة الحسين (رضي الله عنه) فقتل يوسف الفهري وافترق جمعه ودخل الدَّاخل (قرطبة) لسبعة أشهر من دخوله مدينة (البيرة) ثمَّ قتل الصَّميل بعد ذلك فقام أصحاب عبد الرحمن وعقدوا له راية في قناة بعد صعود من عقدها إلىٰ زيتونة كراهية تنكيسها نظير هدم بباب (صنعاء) لما دخلها الدَّيلمي قبل الإسلام لتدخل رايته مستقيمة بعد قتله مسروق بن أبره وإجلائه الحبشة عن (اليمن) بعد ما ملكوه اثنتين وسبعين سنة، وكان ذلك أيام أنوشروان المتقدِّم الذِّكر، وصار بنو أمية بـ(الأندلس) يتبرَّكون بتك الرَّاية فلم تُهزم أبدًا

حتىٰ فلت أيام محمد بن عبد الرحمن بن الحكم وجدَّد غيرها فوجم لذلك أشياخ الدَّولة فطلبت الخُرقَة فلم تُوجد ومن ثمَّ دخل دولتهم الهرم، قال الحافظ أبو راس في (**الخبر المعرب**): «ومن عجائب الاتفاق في واقعة عبد الرحمن الدَّاخل مع يوسف الفهري أنْ كان مع الفهري قيس كلُّهم إلا ثلاثة مع الدَّاخل الأموي، واليمانية مع الأموي كلهم إلا ثلاثة مع الفهري، وكذلك مروان أحد أجداد الدَّاخل لما زحف إلىٰ الضَّحاك بن قيس الفهري بعد موت يزيد بن معاوية سنة أربع وستين بمرج راهط كان مع الأموي اليمانية كلُّهم إلا ثلاثة مع الفهري، وكان قيس مع الفهري كلهم إلا ثلاثة مع الأموي، ونُصرت اليمانية علىٰ القيسية علىٰ كثرة قيس فإنَّهم كانوا في ستين ألفا وكان مروان واليمانية في ثلاثة عشر ألفا، فقتل الضَّحاكُ الفهريَّ وهُزمت قيس، وكان الضحاك داعيا لعبد الله بن الزبير، ثم مَلَك مروان وبنوه بالمشرق كما ملك عبد الرحمن الدَّاخل الذي من نسله وبنوه بـ(**الأندلس**) وكانت الأنصار بصفين مع علي إلا اثنين مع معاوية وهما النُّعمان بن بشير بن مسعود ومسلمة بن مُخَلَّد (**بوزن محمد**) ولما بويع الدَّاخل بفور خروجه من البحر أتوه بخمر فقال لهم: إنِّي محتاج إلىٰ ما يزيد في عقلي لا لما ينقصه، وأتوه أيضا بجارية فقال: «لهم إن اشتغلت بها أضعت همَّتي» وكان شجاعا ذا حزم ورأي وعدلٍ، يعود المرضى، ويحضر الجنائز، متواضعا جدا، ومع هذا كان مهابا في الأعيُن، قال زياد بن يوسف: ما هبت أحدا هيبة الدَّاخل ولما حججت دخلت علىٰ مالك بالمدينة فهبتُه أكثر، ومن تواضعه أنَّه خطب بدعوة أبي جعفر المنصور العبَّاسي عشرة أشهر تأدُّبا مع كرسي الخلافة ولما قدم عليه ابن عمِّه عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم في جماعة من قومه من المشرق قالوا له إن عدت إلىٰ هذا قتلنا أنفسنا فترك

ذلك، ومن نظمه لأخته أم الأصبغ بالشَّام التي بعثت له مصحفا من مصاحف عثمان بن عفان (رضي الله عنه) هذه الأبيات الأربع:

أيُّها الرَّاكب الميمِّم أرضي أهدِ منْ بعض السَّلام لبعضِ

إنَّ جسمي كما تراه بأرضِ وفؤادي ومالكيه بأرضِ

قدّر البين بيننا فافترقنَا وطوى البينُ عن جفونيَ وغِمض

قد قضى الدَّهر بالفراقِ علينَا فعسى باجتماعنا سوف يَقضِي

وهو الذي حمل أهل **(الأندلس)** على مذهب الإمام عبد الرحمن الأوزاعي لأنَّه نشأ بالشَّام، وأهلها إذا ذاك كلُّهم على مذهبه فقاموا عليه، وكان يلقب بصقرِ قُريش ولما دخل **(الأندلس)** لقِّب بالدَّاخل فهو أوَّل من دخل **(الأندلس)** من بني أمية، وهو أوَّل من ملك من بني أميَّة بـ **(الأندلس)**، وأوَّل من أحدث الأذان جماعة، وكان أصهبَ طويلا، خفيف العارضين بوجهه خال، نحيفَ الجسم أعور، له ظفيرتان، أخشمَ ـ وهو الذي لا يشم، وقصيدته بنو أميَّة من المشرق والتجؤوا إليه ولد بأرض دمشق سنة ثلاث عشرة ومائة وتوفي في ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين ومائة وهو ابن ثمان وخمسين سنة، ومدة ملكه ثلاث وثلاثون سنة، ثمَّ تولى موضعه ابنه هشام الرَّاضي وتوفي سنة ثمانين ومائة وكانت إمارته سبع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام وعمره تسع وثلاثون سنة وأربعة أشهر، وهو الذي حمل أهل **(الأندلس)** على مذهب الإمام مالك بن أنس (رضي الله عنه) وسببه أنَّ أعيان أهل الأندلس لما حجُّوا جلسوا في حلقة الإمام مالك بـ **(المدينة المنورة)** فسألهم عن أمراء بني أمية كيف سيرتهم فأمنوا خيرا ووصفوا لهم عدلهم فصار الإمام يثني عليهم بمجلسه وفشا ذلك عنه تعريضًا بأعدائهم

العباسيين لإهانتهم العلويِّين وقتلهم وحبسهم حسبما فعل أبو جعفر المنصور بعبد الله الكامل وبنيه وما فعل أخو موسىٰ ـ وهو الرشيد ـ فهو ببغداد، واحتال في قتل إدريس ابن عبد الله بوليلي ـ وهو زرهون ـ بالمغرب الأقصىٰ فلما سمع هشام المذكور بثنائه عليهم، حمل النَّاس علىٰ مذهبه ـ وذلك في نيف وسبعين ومائة ومالك حي ـ وشيخ المفتين حينئذ بـ (**الأندلس**) صعصعة بن سلام إمام الأوزاعية فترك المذهب الأوزاعي وجعل اللهُ محبة الإمام مالك في قلوب ملوكهم حتَّىٰ قال الحكم بن الناصر ـ المبايع له سنة خمسين وثلاثمائة كما يأتي ـ: «مذهب مالك من قلَّده سلم من شوائب البدع، بخلاف غيره من المذاهب» وبهذا كتب إلىٰ الفقيه أبي إبراهيم، وقال له: «من أفتىٰ بغيره عاقبته».

وقال الشَّيخ **زروق البرنوسي**: «يكفي في أرجحيَّته أنَّه إمام دار الهجرة، ومتبوع أهل المغرب الذين لا يزالون ظاهرين علىٰ الحقِّ إلىٰ قيام السَّاعة ».

وكان في أيَّام هؤلاء الأمراء عليُّ بن حزم الظَّاهري وقد أدرك أواخرهم أيَّام الثّوار يرغب عن مذهب مالك وينفِّر عنه النَّاس فلم يفد شيئا إلىٰ أن توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة أيَّام المعتضد بن عباد. اهـ. ثم وَلِّي ابنه الحكم في صفر سنة ثمانين ومائة وتوفي سنة ست ومائتين وعمره اثنان وخمسون سنة ومدَّته ست وعشرون سنة، وخلَّف تسعة عشر ابنا وكانت له ألف فرس مربوطة علىٰ شاطئ النَّهر، قبلة قصره يجمعها داران، ثمَّ ولي ابنه عبد الرحمن الأوسط وتوفي ثمان وثلاثين ومائتين ربيع الآخر وكان مولده سنة ست وسبعين ومائة وولايته إحدىٰ وثلاثون سنة وثلاثة أشهر وعمره اثنان وستون سنة، وكان أسمر طويلا عظيم اللِّحية يخضِّب بالحناء، وخلَّف خمسة وأربعين ابنا وفي

عصره ابن حبيب تلميذ مطرِّف وابن الماجشون، وهو أوَّل من ضرب الدَّراهم والدَّنانير بـ(الأندلس) وكانوا قبل ذلك يتعاملون بما يحمل إليهم من المشرق، وكان ملك بني أمية بـ(الأندلس) تارة يمتد إلىٰ عدوتنا وتارة يقتصر علىٰ الأندلس ومنه امتد ملكهم لهذه العدوة امتدادًا تامًّا.

وقول الحافظ أبي راس في **(عجائب الأسفار)**: «وكان ممن امتدَّ له الملك بهذه العدوة عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الدَّاخل الأموي، وهو الذي أسِّست علىٰ يده **(وهران)**» غيرُ صحيح، والصَّحيح أنَّها أسِّست علىٰ يد حفيده عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن كما مرَّ في **الفصل الثاني** حسبما نصَّ عليه هو في **(عجائب الأخبار)** و**(الخبر المعرب)** ثمَّ ولي ابنه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم لثلاث ليال خلون من موت أبيه سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وتوفي سلخ صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين وعمره خمس وستون سنة، وكانت ولايته أربعا وثلاثين سنة وأحد عشر شهرا، وجعل هو ومن قبله عمَّالا بهذه العدوة ومواليهم مغراوة أولاد ونزمار بن صقلاب، ثمَّ ولي ابنه المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم وتوفي سنة خمس وسبعين ومائتين في المحرَّم وكانت ولايته سنتين غير شهر، وكان عمره نحو ست وأربعين سنة، وكان أسمر بوجهه أثر جدري ثمَّ ولي أخوه عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم وتوفي في ربيع الأول سنة ثلاثمائة، وكان عمره اثنتين وأربعين سنة، وكان أبيض أصهب أزرق ربعة يخضب بالسَّواد، وكانت ولايته خمسا وعشرين سنة وكسرا، ورزق أحد عشر ولد ذكورا أحدهم محمد المقتول قتله أبوه المذكور في حدٍّ من الحدود وهو والد عبد الرحمن النَّاصر وهو الذي أمر خزر ببناء (وهران) فاختطَّها خزر بن حفص في آخر القرن الثَّالث كما مرَّ في **الفصل الثاني**، ثمَّ ولي حفيده عبد الرحمن النَّاصر بن محمد بن عبد الله

ابن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ـ وتوفي في رمضان سنة خمسين وثلاثمائة، وكانت مدة إمارته خمسين سنة ونصفا، وعمره ثلاث وسبعون سنة، وكان أبيض أشهل حسن الوجه، وهو أول من تلقَّب من الأمويين أصحاب **(الأندلس)** بألقاب الخلفاء وتَسمَّىٰ بأمير المؤمنين، وكان من قبله يخاطَبون ويخطب لهم بالأمير وأبناء الخلائف، وبقي عبد الرحمن كذلك إلىٰ أن مضىٰ من إمارته سبع وعشرون سنة وبلغه ضعف الخلفاء بالعراق وظهور الخلفاء العلويِّين بإفريقية ومخاطبتهم بأمير المؤمنين، أمر حينئذ أن يلقّب بالناصر لدين الله ويخطب له بأمير المؤمنين. وقيل أول من لقب الحكم بن هشام، وقيل عبد الرحمن الدَّاخل كما مرَّ، وكانت له حروب مع الأدارسة والشِّيعة وأمُّه أم ولد اسمها **مدنة**، وفي نسخة **مزنة**، وخلَّف أحد عشر ابنا ثمَّ ولي ابنه الحكم بن عبد الرحمن النَّاصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم، وتلقب بالمستنصر، وتوفي سنة ست وستين وثلاثمائة، وكانت إمارته خمس عشرة سنة وخمسة أشهر، وعمره ثلاث وستون سنة وسبعة أشهر، وكرسيُّه وكرسيِّ أبيهِ الزَّهراء، وكان فقيها عالما بالتَّاريخ وغيره، وعهد إلىٰ ابنه هشام بن الحكم بالخلافة وعمره عشر سنين، ولقبه بالمؤيَّد بالله وكانت له حروب مع الأدارسة والشِّيعة، ثم ولي ابنه هشام المؤيد بن الحكم بن عبد الرحمن النَّاصرِ بنِ محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم وهو ابن عشرة أعوام فتولَّى حجابته وتنفيذ أموره أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد المعافري القحطاني ويلقب **بالمنصور** واستولىٰ علىٰ الدَّولة وحجب المؤيَّد ولم يترك أحدا يصل إليه أو يراه واستبدَّ بالأمر قال ابن الخطيب في رقم الحلل:

حجبــه منصــورُ آلِ عــامرِ فلـيسَ بالنَّـاهي ولا بـآمرِ

وأصل المنصور المذكور من الجزيرةِ الخضراء مِن (الأندلس) من قرية من أعمالها

تسمىٰ طرش، واستقلَّ المنصور بالعلوم في (قرطبة) وكانت له نفس شريفة فبلغ معالي الأمور، واجتمعت عنده الفضلاء، وأكثر الغزو حتَّىٰ بلغت غزواته نيِّفًا وخمسين غزوة، ولم يزل في الحجابة إلىٰ أن توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وهو الذي بنىٰ **الزَّاهرة،** وكانت ولايته نحوا من سبع وعشين سنة، ولما توفي تولىٰ بعده ابنه أبو مروان عبد الملك بن المنصور وتلقب بالمظفَّر وجرىٰ في الغزو وسياسة الملك لهشام المؤيَّد علىٰ قاعدة أبيه وبقي في الولاية سبع سنين، فتكون وفاته سنة أربعمائة، ثم قام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن بن المنصور وتلقَّب بالنَّاصر، فخولط ولم يزل مضطرب الأمور مدَّة أربعة أشهر ثم خرج علىٰ المؤيد هشام في جمادىٰ الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة محمدٌ الفهري ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن النَّاصر الأموي، واجتمع عليه الناس وبايعوه بالخلافة وقبض علىٰ المؤيِّد وحبسه في **(قرطبة)** وتلقَّب محمد المذكور بالمهديِّ واستمَّر في الخلافة وهو أول أمراء الفتنة، وهدمت في أيَّامه الزهراء والزَّاهرة وعاد الكرسي إلىٰ **(قرطبة)،** ثم خرج سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن النَّاصر فهرب محمد بن هشام بن عبد الجبار واستولىٰ سليمان علىٰ الخلافة في أوائل شوال سنة أربعمائة، ثم جمع المهدي جموعًا وقصد سليمان بـ **(قرطبة)** فهرب سليمان وعاد المهدي للخلافة في منتصف شوال من السَّنةِ المذكورة، ثمَّ اجتمع كبار المعسكر وقبضوا علىٰ المهدي وأخرجوا المؤيَّد من السِّجن وأعادوه للخلافة في سابع ذي الحجة من السَّنة المذكورة وأحضروا المهدي بين يديه فأمر بقتله فقُتل واستمرَّ المؤيد في الخلافة، وقام بتدبير أمره واضح العامريِّ ثم قبض المؤيَّد علىٰ واضح فقتله فكثرت الفتن علىٰ المؤيَّد، واتفقت البربر مع سليمان فسار وحاصر المؤيد بعد ذلك وبويع بالخلافة في منتصف شوَّال سنة

ثلاث وأربعمائة، وتلقَّب بالمستعين بالله، فخرج عليه في سنة سبع وأربعمائة شخص من القوَّاد يقال له خيران العامري لأنَّه من أصحاب المؤيَّد وصار في جماعة كثيرة من العامريِّين، وكان علي بن حمود بن أبي العيش ميمون بن حمد بن علي بن عبد الله بن عمر ابن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنىٰ بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) مستوليا علىٰ سبتة وبين العدوتين المجاز، وكان أخوه القاسم بن حمود مستوليا علىٰ الجزيرة الخضراء وحين رأىٰ علي بن حمود خروج خيران علىٰ سليمان عبر من سبتة إلىٰ مالقة، فاجتمع إليه خيران وغيره من الخارجين علىٰ سليمان الأموي وأمر المؤيد قد اختفىٰ عليهم من استيلاء سليمان علىٰ قرطبة سنة ثلاث وأربعمائة كما مر وأخرج المؤيد م القصر ولم يطلع له علىٰ خبر فبايعوا عليا بن حمود بالمنكب ما بين المرية ومالقة سنة ست وأربعمائة علىٰ طاعة المؤيد إن ظهر وساروا إلىٰ قرطبة وجرىٰ بينهم وبين سليمان قتال شديد انهزم فيه سليمان وأخذ أسيرا هو وأخوه وأبوهما الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وكان أبوهما متخليا للعبادة فملك علي بن حمود قرطبة ودخلها في هذه السنة وقصد القواد وعلي بن حمود القصر طمعا في المؤيد، فلم يقفوا له علىٰ خبر، فقتل علي سليمان وأباه وأخاه، وحين قدِّم أبوهما للقتل، قال له علي بن حمود: قتلتم المؤيد، فقال: والله ما قتلناه وإنَّه حيٌّ يرزق، فبادر علي بقتله وأظهر موت المؤيد ودعا النَّاس لنفسه فبايعوه، وتلقب بالمتوكِّل علىٰ الله، وقيل النَّاصر لدين الله.

ولما رأىٰ خيران ذلك نكث، وبحث علىٰ واحد من بني أميَّة يوليه فوجد عبد الرَّحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن النَّاصر الأموي مستخفيًا بمدينة (جيان) فبايعه ولقَّبه بالمرتضىٰ، واجتمع إليه أهل (شاطبة) و(بالنسية) و(طُرطوشة) مخالفين

علي بن حمود العلوي، فلم ينتصر له الأمر، وجمع له ابن حمود الجموع وقصد المسير إليه من (قرطبة) وأبرز العساكر لظاهرها، ودخل الحمَّام ليخرج منه ويسير فاغتاله غلمانه وقتلوه في الحمَّام في أواخر ذي القعدة سنة ثمان وأربعمائة، فلما سمعتِ العساكر دخلت البلد، وكان عمره ثماني وأربعين سنة، ومدَّة ولايته سنة وتسعة أشهر.

ثمَّ ولي أخوه القاسم بن حمُّود وكان أكبر منه بعشرين سنة ـ وقيل بعشرة أعوام ـ ولقِّب بالمأمون وبقي ملكا لـ(**قرطبة**) وغيرها إلى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، ثم سار من (قرطبة) إلى (إشبيلية) فخرج عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود بـ(قرطبة) ودعا النَّاس لنفسه وخلع عمَّه فأجابوه لذلك في مستهل جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، وتلقَّب بالمعتلي وبقي بـ(**قرطبة**) حتَّى سار إليه عمُّه القاسم من (**إشبيلية**) فخرج يحيى من (**قرطبة**) إلى (**مالقة**) و(الجزيرة الخضراء) واستولى عليهما سنة ثلاث عشرة وأربعمائة في ذي القعدة ودخل عمُّه (**قرطبة**) في التَّاريخ المذكور وجرى بينه وبين أهل (قرطبة) قتال شديد فأخرجوه عن (قرطبة) وبقي بينهم القتال نيِّفا وخمسين يوما وانتصر أهل (**قرطبة**) وانهزم القاسم وتفرَّق عسكره، وسار إلى (**شريش**) فقصده ابن أخيه يحيى وأمسكه وحبسه حتى مات في الحبس بعد موت يحيى ولما جرى ذلك خرج أهل (**إشبيلية**) عن طاعتهما وقدَّموا عليهم قاضي (**إشبيلية**) أبا القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي وبقي إليه أمر (**إشبيلية**) وكانت ولاية القاسم بـ(**قرطبة**) إلى أن أمسك وحبس ثلاثة أعوام وشهور، وبقي محبوسا إلى أن مات سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

ثمَّ أقام أهل (قرطبة) رجلا من بني أمية اسمه عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقِّب بالمستظهر بالله ـ وهو أخو المهديِّ محمَّد بن هشام ـ وبويع

في رمضان وقتلوه في ذي القعدة كلُّ ذلك في سنة أربع عشرة وأربعمائة، ولما قتل بويع بالخلافة محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ولقب بالمستكفي، ثم خلع بعد سنة وأربعة أشهر، وسُمَّ في الطريق فمات، ثم اجتمع أهل (قرطبة) على طاعة يحيى ابن علي بن حمود وكان بـ(مالقة) فخطب له بالخلافة، ثمَّ خرجوا عن طاعته في سنة ثماني عشرة وأربعمائة وبقي كذلك مدَّة ثم سار من (مالقة) إلى (قرمونة)، وأقام بها محاصرا لـ(إشبيلية) وخرجت للقاضي أبي القاسم بن عباد خيل، وكمن بعضهم مركب يحيى لقتالهم فقُتل في المعركة في المحرَّم سنة سبع وعشرين وأربعمائة.

ولما خلع أهل (قرطبة) طاعة يحيى كما ذكرنا بايعوا لهشام بن محمَّد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي، ولقبوه بالمستعين بالله سنة ثماني عشرة وأربعمائة ـ حسبما ذكرنا ـ وجرى في أيامه فتن وخلافات من أهل (الأندلس) يطول شرحها حتى خلع هشام سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، قال الحافظ أبو راس في (**الخبر المعرب**): «وهو آخرهم» وقال أبو الفدا: «ثمَّ أقام أهل (قُرطبة) بعد هشام شخصًا من ولد عبد الرحمن النَّاصر أيضا اسمه أميَّة، ولما أرادوا ولايته قالوا له: «ألا تخش عليك أن تُقتل فإنَّ السعادة قد ولت عنكم يا بني أمية» فقال: «بايعوني اليوم واقتلوني غدا» فبويع فلم ينتظم له أمر واختفى فلم يظهر له خبر بعد ذلك.

ثمَّ صارت (الأندلس) تحت طوائف ملوك كلّ واحد منهم ما أراده، وقد نظم أبو طالب عبد الجبار المعروف بالمتنى الأندلسي من أهل (شقر) أرجوزة تحتوي على فنون من العلوم وذكر فيها شيئا من التَّاريخ يشتمل على تفرق ممالك (الأندلس) فمن ذلك قوله:

لمــا رأىٰ أعــلام أهــل قُرطبــة | أنَّ الأمــور عنــدهم مضــطَرِبَة
وعـــدمت شـــاكلة للطَّاعـــة | اســـتعملت آراءهـــا الجماعـــة
فقــدَّموا الشَّــيخ مــن آل جَهْــورِ | المكتنـــي بـــالحزم والتـــدبُّرِ
ثـــم ابنـــه أبـــا الوليـــد بعـــدَه | وكــان يحــدو في السَّــداد قصــده
فجــاهرت بحورهــا الجهــاورة | وكــلُّ قطــر حــل فيــه قــافره
والثَّغــر الأعــلىٰ قــام فيــه منــذر | ثــم ابــن هــود بعــد فــيما يــذكر
وابـــن يعـــيش ثـــار في طُليطلـــة | ثم ابن ذي النُّون تصفىٰ الملك له
وفي بطليـــوس انتـــزىٰ ســـابور | وبعــده ابــن الأفطــس المنصــور
وثـــار في إشـــبيلية بنـــو عبَّـــاد | والكــذب والفتــون في ازديــاد
وثـــار في غرناطـــة حبـــوسُ | ثـــم ابنـــه مـــن بعـــده بـــاديسُ
وآل معـــن ملكـــوا المريَّـــة | بســـيرة محمـــود مرضـــيَّة
وثـــار في شرق الـــبلاد الفتيـــان | العـــامريون ومـــنهم خـــيران
ثـــم زهـــير والفتـــىٰ لبيـــبُ | ومـــنهم مجاهـــد اللَّبيـــب
ســـلطانه رســـىٰ بمرســـىٰ دانيـــة | ثـــم غـــزا حتـــىٰ إلىٰ سردانيـــة
ثـــم أقامـــت هـــذه الصَّـــقالبة | لابـــن أبي عـــامر هـــم بشـــاطبة
وحـــل مـــا ملكهـــم بلنســـية | وثـــار آل طـــاهر بمُرســـية
وبلـــد البيـــت لآل قاســـم | وهـــو حتَّـــىٰ الآن فيـــه حـــاكم
وابـــن رزيـــن جـــاره في السَّـــهلة | أمهـــل أيضـــا ثـــمَّ كـــل المهلـــه
ثـــم اســـتمرت هـــذه الطَّوائـــف | يخلفهـــم مـــن آلهـــم خوالـــف

تنبيهات:

الأول: مدَّة أمراء الأندلس العشرين من أوَّل فتحها على يد طارق بن زياد وموسى ابن نصير إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري ستَّة وأربعون سنة وشهران وخمسة أيَّام، ثمَّ مدَّة بني أمية قاتل يوسف إلى المعتمد بن هاشم بن محمَّد - بإسقاط أيَّام المختفي- مائتا سنة وستُّون سنة بدخول إحدى عشرة سنة التي للحموديين الأدارسة، ومدَّة ملكهم بالمشرق ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فسبحان من لا ينقضي ملكه الواحد القهار وقالت هند بنت النعمان بن المنذر:

وكنا نسوس النَّاس والأمر أمرنا		فها نحن صرنا سوقة نتكفَّف

الثاني: أنَّ من بني أميَّة القطب الشّيخ علي بن حرزهم المعروف **بسيدي حرازم** والمشهور بالحمام المعدني المنسوب إليه دفين باب الفتوح بـ(فاس) تلميذ أبي بكر بن عربي وأحد أشياخ أبي مدين، ومنهم القارئ الماهر الصَّالح الشيخ محمد بن إبراهيم الخراز صاحب (**أحكام القرآن**) وغيرها دفين (فاس).

الثالث: أنَّ الأمويين أمراء (الأندلس) الذين ملكوا (وهران) على ما في (**عجائب الأسفار**) سبعةٌ وهم: عبد الرحمن الأوسط بن الحكم، وابنه محمَّد بن عبد الرحمن، وابنه المنذر بن محمد، وأخوه عبد الله بن محمد، وحفيده عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله، وابنه الحكم بن عبد الرحمن الناصر، وابنه هشام المؤيد بن الحكم. وعلى ما في (**عجائب الأخبار**) و(**الخبر المعرب**) أربعة بإسقاط الثَّلاثة الأولين وعدِّ الأربعة الباقين وهم: عبد الله، وحفيده النَّاصر، وابنه الحكم، وابنه المؤيد.

الموضع الخامس: في ذكر من ملك منهم (وهران).

اعلم أن الذين ملكوا (وهران) من مغراوة هم الخزريون، ولا نأتي بهم نسقا بل بحسب السِّنين واندراجهم في الدُّول:

فأولهم مختطُّها خزر بن حفص بن صولات بن ونزمار بن صقلاب بن مغراو ملَك لما هلك أبو حفص أقام مقامه في أمر زنَّاتة، وعندما تقلَّص ظلُّ الخلافة عن (المغرب الأقصىٰ) بعض الشَّيء وأظلَّت فتنة ميسرة الحقير ومطغرة وهم مدغرة اعتزَّ خزر وقومه علىٰ أسر المضريَّة بـ(القيروان) واستفحل ملكهم وعظم شأن سلطانهم علىٰ البدو من زناتة بـ(المغرب الأوسط)، ولما انتقض بعد ذلك أمر بني أميَّة بالمشرق وكانت الفتنة بالمغرب ازداد خزر وقومه اعتزازًا وعتوا وانتشر سلطانهم لـ(لمغرب الأوسط) فملك خزر (وهران) وسائر (المغرب الأوسط) وانتشر صيته وعلت كلمته عند المروانيين بـ(الأندلس) والأدارسة بـ (المغرب الأقصىٰ) والسليمانيين بـ (رشقون) و(تلمسان) والشِّيعة بـ (إفريقية) إلىٰ أن هلك خزر في خلال ذلك، ثمَّ قام بأمره بعده ابنه محمد بن خزر فهو ثاني الخزريين وسكن (وهران) وأجلب علىٰ ضواحيها بكلِّ ما أراد وشن الغارات في (المغرب الأوسط) إلىٰ (إفريقية) وفي (الأقصىٰ) إلىٰ المصامدة وسجلماسة وهابته الملوك، وخشيت سطوته واذعنت له النَّاس، وعاش كثيرا من السنين وجرَّ الأمور، فقد قال ابن خلدون: «أنَّه نيَّفَ علىٰ مائة سنة» والذي يقتضية كلامه من أوَّله إلىٰ آخره أنَّه بلغ المائتي سنة أو قاربها فإنَّه قال فيه إنَّ إدريس بن عبد الله لما نهض إلىٰ (المغرب الأوسط) سنة أربع وسبعين ومائة تلقاه محمد بن خزر هذا وألقىٰ إليه المقادة وبايع له عن قومه وأمكنه من (تلمسان) بعد أن غلب عليها بني يفرن أهلها وانتظم

لادريس بن إدريس الأمر وغلب على جميع أعمال أبيه وملك (تلمسان) وقام بنو خزر هؤلاء بدعوته كما كانوا لأبيه إلى أنا قال: «ثم وفد على المعزِّ بعد ذلك سنة خمسين وثلاثة مائة وهلك بـ(القيروان) وقد نيَّف على المائة من السنين» لكن قال الحافظ أبو راس في (**عجائب الأسفار**): «كلام ابن خلدون فيه تخليط وتناقض» وكانت له حروب كثيرة مع عجيسة وإخوتهم ازديجة ومع الشيعة.

ولم تزل (وهران) بيده إلى أن أخذها منه **ازديجة وعجيسة** بالحروب الكثيرة المتواترة ثمَّ ملكها ازديجة مع عجيسة، والكلام عليهم في خمسة مواضع:

الأول في ذكر مواطنهم:

اعلم أنَّ مَواطِن (ازديجة) من (المغرب الأوسط) كانت غربي (وهران) وقبلة (جبل هِيدور) وهو جبل (وهران) منتشرين في وطاملاتة والجبال الحائطة بها ممتدين إلى البحر وهم في غاية القوَّة والشِّدَّة والبأس ولقلة ملكهم لـ(وهران) أدرجناهم في الدولة الأولى.

والموضع الثاني في التعريف بهم:

اعلم أن هاتين القبيلتين كانتا من أقوى قبائل البربر، ولهما اعتزاز وآثار في الحروب ولهما قوة وشدة وبأس كما مرَّ، واختلف في نسبهما: فقال أكثر المؤرخين: إنَّهما من بطون زنَّاتة، وقال أقلهم: إنهما قبيلتان من البربر من بطون البرانس، ـ قوم كسيلة الأوراسي، الذي قتل السيد عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب في المرة الثانية من البربر ـ، قال **ابن خلدون**: «يجمع البربر جدان وهما برنس ومادغس ابنا بر» وقال سابق بن سليمان المطماطي من نسَّابة البربر: «إن البرنس بنو مازيغ بن كنعان ومادغس بنو بر بن قيس بن عيلان بن إلياس بن مضر»، وقال آخرون: إنهما من العرب.

الموضع الثالث في ذكر بطونهم:

اعلم أنَّ بطون هاتين القبيلتين كثيرة فمنهم: بنو مسرقين يجاورون (وهران) من الجهة الغربية، لا زالت البلد تسمىٰ بجدهم مسرقين إلىٰ لآن وقد اختط بها الفرانسيس مدينة علىٰ طريق (تلمسان) وأكثروا فيها من الغرس ذي الفواكه والخضر والمستنبتات المختلفة لكثرة مائها وجودة أرضها وطيب ترابها، قال **ابن خلدون**: «وعجيسة بجيم مخفَّفة ومنهم فرقة بـ(دلَّس) ومنهم فرقة حيث يصبُّ نهر (شلف) بالبحر ومنهم فرقة بـ (افريقية) بـ (جبل وسلات) منهم المرازقة ومنهم فرقة بـ (المغرب الأقصىٰ)» وقد استوفىٰ **ابن خلدون** بطونهم.

الموضع الرابع: في ذكر بعض رجالهم وعلمائهم:

اعلم أنَّ من رجال أزديجة شجرة بن عبدِ الكريم، ومن رجال عجيسة أبو ديلم بن الخطاب، ولبني ديلم ذكر بـ**(الأندلس)** كما أنَّ لبني شجرة ذكر بالمشرق وسوس الأقصىٰ.

ومن علمائهم الشَّيخ عبد الوهاب العجيسي تلميذ ابن غازي معاصر الشَّيخ أبي مهدي عيسىٰ بن موسىٰ التَّجيني زاجر الطير وهو الذي شرح بيت شيخه ابن غازي، وهي:

صُلحان عِتقان وبضـعان معًـا   عُمر ولارش عوض به ارجعَا

وبينها أحسن بيان بنظمٍ فيه ستة أبيات، وقيل إنَّه من العرب بدليل قول الشَّيخ أبي مهدي عيسىٰ بن موسىٰ المذكور في شرحه لقصيدة: «الشيخ عبد الوهاب هذا في عد

البدريِّين المذكورين في (**صحيح البخاري**) عند قوله: **والمقداد ذو نجل**، أي: ذو نسل، أي أنَّ الشيخ عبد الوهاب من نسل سيدنا المقداد بن الأسود الصحابي البدري (رضي الله عنه)» اهـ. والذي في (**نزهة الحادي**) لليفرني أن المقداد لا نسل له» اهـ.

ومنهم المرازقة علماء (تلمسان) أتوا لها من جبلهم في القرن الخامس أيام لمتونة، قال الحافظ أبو راس في (**عجائب الأخبار**): وقد رأيت الخطيب منهم وسألته عن أصله فقال لي: إن أصل سلفي من عجيسة قبيلة من البربر ومستقرنا بجبل وسلات وأتى سلفنا لتلمسان أيام لمتونة وقيل: إنهم من آل البيت وعليه التواتر وبه انتسابهم الآن.

الموضع الخامس: في ذكر وقت ملكهم لوهران (باختصار)

اعلم أن أزديجة وعجيسة ملكوا (وهران) في العام السَّادس من القرن الرابع (306) وأخذوها من يد محمد بن خزر المغراوي بمعونة جميع حيِّهم عليه فلذلك غلبوه عليها وبقوا فيها سبع سنين عمالا للأموية بـ (الأندلس) ثمَّ ملكوا في سنة ست من القرن الخامس دار الملك بني صالح وهي قلعة النكور مرسى بالرِّيف قرب (تلمسان) وخرَّبوها وبقوا هنالك مالكين إلى أن قَطع ملكَهم يوسفُ بن تاشفين، ثم اختُلف في الذي أخذ (وهران) من أيديهم فقال في (**عجائب الأسفار**): «أخذها من أيديهم داوس بن صولات الكتامي عامل الشِّيعة واستعمل عليها محمد بن عون» فأنت ترى كلام الشيخ الحافظ أبي راس كيف اختلف، وبالثاني قال شيخنا العلامة السيد الحاج أحمد بن عبد الرحمن الشقراني في كتابه (**القول الأوسط**)(1): «والصَّحيح الأوَّل أنَّ داوس أخذها

(1) (**القول لأوسط في من حل بالمغرب الأوسط**) كانت توجد منه نسخة بخزانة بلدية وهران.

من يد الخير بن محمد لا من يد أزديجة وعجيسة ـ كما ستراه ـ ثمَّ إن محمد بن خزر لما أخذها من يد أزديجة وعجيسة واستردها منهم بعد حروب كثيرة كان الظفر له فيها عليهم ولَّي عليها ابنه الخير وبقي ازديجة وعجيسة تحت حكمه وهو ثالث الخزريين، ثمَّ إنَّ الخير بن محمدبن خرز لما ملكها قام بضبط الملك غاية وظاهر المروانيين، كعادتهم وأمير (**الأندلس**) وقتئذ عبدُ الرحمن الناصر، وشنَّ الغارات على ضواحي (وهرن) و(المغرب الأوسط) فملك بلاد الغرب كلِّها وسوس الأدنى و(**تلمسان**) والصحراء، وحارب الشيعة ملوك (إفريقية) و(تاهرت) حروبا عظاما، وغزا (**بسكرة**) و(**المسيلة**) و(**الزاب**) واتصلت يده بيد موسى بن أبي العافية المكناسي فبثَّا دعوة المروانيين أمراء (**الأندلس**) بالمغرب ثمَّ فسد ما بينهما وتزاحفا للحرب فبعث لهما عبد الرحمن النَّاصر أمير (**الأندلس**) قاضي (**قرطبة**) وهو منذر بن سعيد الولهاصي ثم البلوطي فأصلح بينهما وكان أخذ محمد ابن خزر لـ (**وهران**) من يد ازديجة وعجيسة سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة (313هـ) واستمرت بيده إلى أن أخذها منه عامل عبيد الله الشيعي أمير إفريقية بعد حروب عظيمة شاب لها رأس الغراب.

الدولة الثَّانية

العبيديون

(باختصار)[1]

وهم الشيعة، ويقال لهم: الرافضية، والكلام عليهم في خمسة مواضع. الموضع **الأول**: ذكر نسبهم، **الثاني**: في ذكر أصحاب الإمامة المعدين للمهدي منهم، **الثالث**: في سبب تسميتهم بالشيعة، **الرابع**: في سبب مصير الملك إليهم، الموضع **الخامس**: في ذكر ملوكهم ومن ملك منهم وهران.

إنَّ أوَّل ملوك العبيديِّين جدُّهم عبيد الله المهدي بويع في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين (297)، ولما استقرَّ قدَمُه في المملكة باشر الأمور بنفسه، فدوَّن الدواوين وجبى الأموال، ولم يدع لأبي عبد الله الشِّيعي وأخيه أبي العباس معه شيئا من الحكم، والفطام صعب فصار أبو العباس يقول لأخيه أبي عبد الله الشِّيعي: أخرجتَ الأمر عنك وسلَّمته لغيرك ويندِّمه، وأخوه ينهاه عن ذلك ولا زال إلى أن أحنقه وذلك يبلغ المهدي حتَّى صار أبو عبد الله الشِّيعي يقول لرؤوس القبائل: ليس هذا المهدي الذي دعوناكم إليه، فطلبهما المهدي وقتلهما.

---

(1) قام المحقق باختصار هذا القسم مِن الكتاب.

قال **ابن الأثير** في (**الكامل**): «كان مقتلهما في سنة ست وتسعين ومائتين»، وقال القيرواني في (**الجمع والبيان في تاريخ القيروان**)، وابن خلكان في (**تاريخه**): كان مقتلهما في نصف جمادىٰ الأولىٰ سنة ثمان وتسعين ومائتين (298)، قال **أبو الفدا**: وهو الأصح عندي.

ثمَّ لم يكن للمهدي همٌّ سوىٰ تجهيز الجيوش إلىٰ المغرب والمشرق فضايق بني إِدريس بالمغرب وبني العباس بالمشرق، ولما ملك إفريقية أخرج منها بني الأغلب عمال العباسيين، وبنىٰ هنالك مدينة حصينة علىٰ ساحل البحر وهي جزيرة متصلة بالبر كهيئة كفٍّ متصلة بزند في سنة ثلاث وثلاثمائة، وجعل لها سورا محكما وأبوابًا عظيمة وزن كل مصراع مائة قنطار، وكان ابتداء بنائها يوم السبت لخمسٍ خلون من ذي القعدة سنة التاريخ المذكور وسماها المهديَّة فنُسبت إليه، وكان يقول وقت بنائها: هي سبب نجاة عقِبي من القائم عليهم، ولمَّا تمَّ بناؤها قال: الآن آمنت علىٰ آل فاطمة بحصانتها، ثم أخذ قوسا وفوقه سهما ورمىٰ به إلىٰ ناحية المغرب وقال: إلىٰ موضع السهم ينتهي صاحب الحمار، يعني أبا يزيد الخارجي اليفرني، فكان الأمر كما قال. ثم جعلها دار ملكه، وتمذهب بمذهب الشِّيعة من سبِّ أبي بكر وعمر، ودعا الناس إلىٰ مذهبه فكل من تبعه أحسن إليه، وكل من أبىٰ عاقبة، فهو أوَّل الشيعة كما مرَّ، وكان عنده من علم الحدثان ما استعان به علىٰ أموره، فكان كل ما يفعله من آرائه وحروبه وسياسته يعتمد علىٰ ما عنده فيه من العلم، أخذ ذلك عن أبيه، وأبوه عن آبائه فهو متوارث عندهم.

ثم في سنة ست وثلاثمائة جهَّز جيشا في البر والبحر إلىٰ المشرق وعقد عليه لابنه أبي القاسم نزار فأخذ (**الإسكندرية**) وكثراً من بلاد الصعيد فبعث الخليفة المقتدر

العباسي جيوشا من بغداد لحربه، فكانت بينهم حروب عظيمة فقام الوباء والغلاء بالمشرق فرجع نزار إلى أبيه. ثم في سنة ست عشرة وثلاثمائة (316) جهز جيوشا لـ (**المغرب الأوسط**) وعقد عليها لعروبة بن يوسف الكتامي فذهب عروبة وأناخ على (**تاهرت**) التي هي **عراق المغرب**، ويقال لها الآن (**تيارت**) وهي مدينة عظيمة اختطَّها عبد الرحمن بن رستم بسفح جبل أقزول على رأس تلول (**منداس**) شرقي نهر مينا في جبل السرسو سنة ثمان وأربعين ومائة (148هـ)، وهي بفتح الهاء وضمها، وإليها ينسب أبو عبد الرحمن بكر بن حمَّاد التاهرتي، وملوكها وقتئذ بنو عبد الرحمن بن رستم من الخوارج الإباضية، وهم أولاد محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم بن دستن من ولد رستم الفارسي صاحب حرب القادسيَّة مع سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)، فدارت بينه وبينهم حروب طوال غلبهم في آخرها وانقرض أمرهم به ففتحها عَنوة واستقربها ثم ارتحل عنها وعقد عليها لأبي حميد دواس بن صولات الكتَّامي فاتصلت حروب داوس مع لماية شيعة بني رستم ملوك (**تاهرت**) وكان لماية متوطنين بـ (**السَّرسو**) تبلغ خيلهم ثلاثين ألفا أو تزيد فأثخن فيهم وفرَّقهم، فبعضهم انتقل إلى جبل مصَّاب وهم بنو مزاب وبعضهم لجبل راشد إلى غير ذلك، ثم حارب لواته ومطماطة وكان من غلبه ينقله من الخارجية إلى الرَّافضية على رأي الشِّيعي فأوَّل من ملك (تاهرت) بنو رُستم. ثم الشِّيعة سنة ثمان وتسعين ومائتين (298).

ثم تغلَّب عليهم محمد بن الخير الخزري المغراوي أحد ملوك (وهران) وقبض على ميسور الخصي وأطلقه بعد حين، ثمَّ نزلتها عساكر بني أميَّة أيام المنصور بن أبي عامر، ثم ملَكَها لمتونة، ثم الموحدون إلى أن أزالهم عنها ابن غانية ـ كما يأتي ـ، ثم زحف داوس

عامل (**تاهرت**) إلىٰ وهران في سنة ثماني عشة وثلاثمائة (318) فحاصرها وحارب بها ملكها الخير بن محمد بن خزر ثالث ملوك (وهران) من مغراوة ومعه أزديجة وعجيسة لكونهم يدا واحدة مع الخير بن محمد بن خزر فأثخن فيهم وأخذ (**وهران**) من يد الخير ابن محمد بن خزر المذكور واستعمل عليها من قبله محمد بن عون الشِّيعي فهو أوَّل عامل للشِّيعة بـ (**وهران**) وأوَّل من ملكها من الشِّيعة داوس عامل عبيد الله المهدي فعمت الرَّافضية (**المغرب الأوسط**) وتوفي عبد الله المهدي في ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وهو ابن ثلاث وستين سنة، وملك أربعا وعشرين سنة وعشرين يوما، وقد ملك (وهران) ثلاث سنين ونصفا، ثمَّ تولَّىٰ بموضعه ابنه القائم أبو القاسم محمَّد نزار فأخفىٰ موته سنة كاملة لتدبير ما كان له من أموره وصار يتصرَّف باسم أبيه فيها ولما تمَّت أظهر موته فبويع بموضعه فجهز في سنة ثلاث وعشرن وثلاثمائة (323) جيشا لغزو المغرب وعقد عليه لميسور الخضي وسمي بذلك لكونه لا لحية له، وأمره بمحاربة موسىٰ بن أبي العافية المكناسي الذي انتفض بـ (**فاس**) علىٰ العبيدين وظاهَر المروانيين بـ (الأندلس) فتوجَّه ميسور بجيشه فلقيه محمد بن عون والي (**وهران**) فأقره عليها وزاد لـ (**فاس**) فحاصرها أياما إلىٰ أن خرج إليه عاملها أحمد بن أبي بكر طائعا بهديَّة عظيمة ومال جسيم فقبض ميسور عليه ووثقه في القيود بعد أن أخذ منه المال وبعثه إلىٰ المهدية، ففعل فعلا غير مشكور، ولما رأىٰ أهل (**فاس**) ذلك غلقوا مدينتهم في وجهه ومنعوه من دخولها وولَّوا علىٰ أنفسهم لحربه حسن بن قاسم اللوَّاتي فحاربهم ميسور سبعة أشهر ولم يقدر عليهم بشيء فصالحهم علىٰ ستة آلاف دينار وإقطاع ولبود وقرب للماء وأثاث وكتب اسم أبي القاسم في السِّكة، وذكره في الخطبة، فرفضوا، وقبل

ميسور منهم وأقرَّ عليهم حسن بن قاسم اللواتي، وذهب لمحاربة موسىٰ بن أبي العافية فوقعت بينهما حروب عظيمة، تولىٰ أكثرها الأدارسة إلىٰ أن هرب ابن أبي العافية لحضرة النكور.

وتملَّكَ الأدارسة ما كان بيده فبقي شريدا مالكا من الرصيف [1] إلىٰ نكور إلىٰ أن قتل سنة ثمان وعشرين أو إحدىٰ وأربعين وثلاثمائة، واصطلح الأدارسة مع أبي القاسم العبيدي واتَّصلت يده بيدهم فصار في هناء، واشتغل بتجهيز السُّفن لغزو الرُّوم فبعث أسطولا عظيما لأرض **(جنوة)** فافتتحوا كثيرا من بلادها وغنموا غنيمة ورجعوا بوفدهم وتمهَّد له المغرب ثم قام عليه صاحب الحمار أبو يزيد الخارجي اليفرني سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة (333) واشتدَّت شوكته فاستولىٰ علىٰ **(القيروان)** و**(تونس)** و**(باجة)** وسائر مدن إفريقية وضايق أبا القاسم بالمهدية، وأدام حصارها إلىٰ أن أكل أهلها الميتة وتفرَّقوا في النواحي، ولم يبق إلا الجند ففتح لهم الأزهرية التي أعدَّها أبوه لذلك، وفرَّقها عليهم، فكان أبو يزيد يركب حماره ويأتي إلىٰ قرب البلد رمية القوس ويقف النَّاس يقاتلون.

ثم انتقض جيشه وفر إلىٰ **(القيروان)** وغنم أهل المدينة كثيرا من عسكره فمرض القائم أبو القاسم وولىٰ العهد لابنه إسماعيل ولقَّبه بالمنصور ولزم الفراش وصار ابنه يتولَّىٰ أمر الجيش إلىٰ أن توفِّي في ثلاث عشرة مضت لشوَّال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وأخفىٰ ابنه موته سياسة وصار يخطب باسم أبيه ويجهِّز العساكر مظهِرًا أن جميع ذلك بأمر أبيه، إلىٰ أن تمَّ حاله فأظهر موته فبقيت **(وهران)** تحته عشرة أعوام، ثمَّ تولَّىٰ

([1]) كذا في الأصل، ولعل الصواب: من الريف.

بموضعه ابنه إسماعيل المنصور بمبايعة النَّاس له بالملك لما أَظهر موت أبيه فقام بأمر الملك، وضبطه بحسب قوَّته.

ولما سمع بأن أبا يزيد حاصر (سوسة) جهَّز له جيشا في البر والبحر وقتل كثيرا من أصحابه وهزمه وأخذ محلَّته، ففر إلىٰ **(القيروان)** فمنعه أهلها من الدُّخول، وثاروا بعامله، فوصل الخبر إلىٰ المنصور فجاء بنفسه ودخل **(القيروان)** وصار أمره يعلو وأمر الخارجيِّ ينحطُّ إلىٰ أن ظفر به في بعض المعارك جريحا فأقام عنده إلىٰ أن ماتَ، فسلخ جلده وحُشي تبنا، وجُعل في قفص بين قردين يلعبان به، وأُدخل بتلك الحالة إلىٰ **(القيروان)** و**(المهدية)**، فطِيف به فيهما.

وتمهد للمنصور الملك إلىٰ أن توفي شهر شوَّال سنة إحدىٰ وأربعين وثلاثمائة، وكانت خلافته سبع سنين وستة عشر يوما، وفي كلها لم تخرج **(وهران)** عن يده وكان عمره تسعا وثلاثين سنة، وكان خطيبا بليغا يختار الخطبة لوقته، وعهِدَ بالخلافة إلىٰ ابنه أبي تميم معدِّ بن المنصور بن إسماعيل بن القايم بن عبيد الله المهدي ولقَّبه المعزّ لدين الله، فبايع النَّاسُ المعزَّ في يوم موت أبيه وأقام بتدبير الأمور إلىٰ سابع ذي الحجة فأُذن للنَّاس بالدُّخول فدخلوا إليه وسلَّموا عليه بالخلافة، وكان عمره إذ ذاك أربعًا وعشرين سنة، ثم اشتغل بتمهيد الملك وتجهيز الجيوش فجهَّز في سنة إحدىٰ وأربعين وثلاثمائة جيشا لتدويخ المغرب، وعقد عليه لمصالة بن حبوس الكتامي، فذهب مصالة للمغرب وأقرَّ كل عامل كان للشِّيعة علىٰ محلِّه ودوَّخ المغرب غاية، وأزال ما ظهر به من أمر المروانيين ملوك **(الأندلس)**، ورجع بغنائم عظيمة.

ثم في سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة اختطَّ يعلىٰ بن محمد بن صالح اليفرني مدينة

(**ايفكان**) أحد أراضي بني راشد واستقرَّ بها، وظاهر المروانيِّين بـ (**الأندلس**) فولَّاه عبد الرحمن الناصر الأموي مَلِك (**الأندلس**) على (**المغرب الأوسط**) وعقد له على حروب الشِّيعة الرَّافضية وكان مصالة قد رجع (**للمهدية**) فخلا الجو ليعلى بن محمد بن صالح اليفرني وزحف لـ (**وهران**) فحاصر بها محمد بن عون و(**ازديجة**) و(**عجيسة**) لأنَّهم صاروا مع محمد بن عون يدا واحدة، وعنه أخذوا الرَّافضية، وطالت بينهم وبين يعلى ابن محمد الحروب العظام إلى أن غلبهم وفرَّق جمعهم سنة ثلاثٍ وأربعين وثلاثمائة، فافتتح (**وهران**) عنوة وأضرمها نارًا، وخرَّبها فلحق أكثر ازديجة وعجيسة بـ (**الأندلس**) لما يئسوا منها فكانوا بعد ذلك من أعيان جند المنصور ابن أبي عامر المعافري صاحب المؤيد الأموي.

ولما بقيت (وهران) خرابًا بناها يعلى بن محمَّد بن صالح اليفرني، وانتقل إليها بأهله وولده من مدينته التي بناها بـ(**ايفكان**) كما مرَّ، وفي (أبي عبيد البكري) أن قبائل كثيرة زحفوا إلى (**وهران**) سنة سبع وتسعين ومائتين يطالبون أهلها بإسلام بني مسقن المستقرِّين عندهم لدماء كانت بينهم، فأبوا من إسلامهم فحاصروهم حربا ومنعوهم الماء، فخرج بنو مسقن ليلا هاربين، واستجاروا بازداجة فأجاروهم، وتغلَّبت القبائل على (**وهران**) فخرج منها أهلها بأنفسهم مسلِّمين في ذخائرهم وأرزاقهم، وأضرمت (**وهران**) نارًا في ذي الحجة تلك السَّنة ثم عاد لها أهلها في سنة ثمان وتسعين ومائتين بأمر أبي حميد داوس بن صولات عامل (**تاهرت**) ويقال له: داود وابتدؤوا بناءها في شعبان تلك السَّنة فعادت أحسن مما كانت، وولى عليهم داوس بن صولات الذَّهبي محمد بن أبي عون فلم تزل في عمارة وكمال وزيادة وحسن حال إلى أن أوقع يعلى بن

محمد بن صالح اليفرني بازداجة بـ (**جبل هيدور**) وفرَّق جمعهم، وكانت تلك الواقعة يوم السَّبت منتصف جمادىٰ الثَّانية سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، فدخل يعلىٰ مدينة (**وهران**) وملكها ثم نقل أهلها إلىٰ مدينته المعروفة وذلك في ذي القعدة من عام التَّاريخ، وخرِّبت (**وهران**) مرَّة ثانية وحرَّقها، وبقيت كذلك سنين ثمَّ تراجع النَّاس إليها وبنيت قال: «وكان في عمل (**وهران**) قرية (**يفري**) أهلها موصوفون بعظم الأجساد، وشدَّة الأيدي، حتَّىٰ أنَّ الرَّجل الكامل في الخلق المعهود من غيرهم يكون إلىٰ دون منكب الرَّجل منهم، وكان رجل منهم يحمل ستَّة نفر ويخطو بهم خطوات علىٰ عاتقيه اثنين، ويتأبط باثنين، وعلىٰ ذراعيه اثنين، وأنَّ رجلا منهم احتاج لعمل بيت فاقتطع ألف كلخة وحملها علىٰ ظهره وبنىٰ بها بيتا تامًّا معرشا » اهـ.

فانظر لتخالف النَّقل و(**يفرن**) في لغة البربر هو **الفار**، وبنو يفرن هم أخوة مغراوة، وقد انتشروا كانتشار إخوتهم فصاروا في الغمار، وأكلتهم البوادي والأمصار، ومنهم بنو واركو بـ(**إفريقية**) ومنهم (**مرنيسة**) ومنهم (**غياثة**) حذو (**تازة**) وأهل (**تادلا**)، وكان لهم بها ملك ومنهم نبذة بـ (**شلف**) و(**مازونة**) والكثير منهم في عمالة (**قسنطينة**) و(**المغرب الأقصى**) وغير ذلك فأذاقتهم ملوك الزَّمان وبال الخسف وخطة القهر والذلِّ والهوان.

ومن علمائهم صاحب (**العقيدة**) وصاحب (**النزهة**) وغيرهما، ولما لم يملك منهم (**وهران**) إلا يعلىٰ بن حمد بن صالح أدرجناهم في الدَّولة الثَّانية. ثمَّ في سنة أربع وأربعين وثلاثمائة (344) جهَّز المعِزُّ أسطولا إلىٰ (**الأندلس**) وسبب ذلك أنَّ عبد الرحمن الناصر الأموي أنشأ مركبا كبيرا لم يُعمل مثله، وسيَّر فيه بضائع لتباع في بلاد

المشرق، ويعتاظ عنها، فلقي في البحر مركبا فيه رسول من **(صقلية)** إلىٰ المعِزِّ العلوي ومعه مكاتبات إليه فقطع عليهم المركب الأندلسي وأخذهم بما معهم، وبلغ ذلك المعز فجهَّز أسطولا إلىٰ **(الأندلس)**، واستعمل عليه الحسن بن علي عامله علىٰ **(صقلية)** فوصلوا إلىٰ **(المرية)** وأحرقوا جميع ما في ميناها من المراكب، وأخذوا ذلك المركب الكبير المذكور بعد عودته من **(الإسكندرية)**، وفيه جوار مغنيَّات وأمتعة لعبد الرحمن، وصعد أسطول المعز إلىٰ البرِّ فقتلوا ونهبوا ورجعوا سالمين إلىٰ **(المهدية)**، ولما جرىٰ ذلك جهز عبد الرحمن أسطولا إلىٰ بلاد إفريقية فوصلوا إليها فقصدهم عساكر المعز فرجعوا إلىٰ **(الأندلس)** بعد قتال جرىٰ بينهم.

ثمَّ إنَّ محمد بن الخير بن محمد بن خزر لما رأىٰ **(وهران)** اتخذها بنو يفرن دار ملكهم وبثوا الدَّعوة المروانية نزع إلىٰ الشِّيعة وظاهر لهم وأدَّىٰ لهم الطَّاعة ووفد علىٰ المعزِّ بن إسماعيل الشِّيعي بإفريقية فألفاه جهز قائده **جوهرًا** لغزو المغرب سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، فخرج من **(القيروان)** في جيش كثيف ومعه محمد بن الخير بن محمد، وكان من مشاهير بني خزر وأشرفهم نفسا فكان عنده بمكانة عظيمة، فسار جوهر إلىٰ أن نزل **(تاهرت)** فلقيه بها يعلىٰ بن محمد بن صالح اليفرني أمير بني يفرن وخليفة النَّاصر لدين الله علىٰ بلاد المغرب في جيش عظيم من قبائل **(زنَّاتة)** علىٰ مقربة من **(تاهرت)** بناحية **(شلف)** وقيل بـالمدينة نفسها فالتحم الحرب بينهما وأخرج الأموال وبذلها لقواد كتامة فضمنوا له قتل يعلىٰ، فلما اشتد القتال صمَّمت عصابة أنجاد قواد كتامة وأجنادها وقصدوا يعلىٰ فقتلوه واحتزوا رأسه وأتوا به إلىٰ جوهر فأعطاهم أموالا جليلة بشارة عليه، وبعث برأسه إلىٰ المعزِّ فطوفه بـ **(القيروان)** وهزم بني يفرن وتفرق جمعهم.

وقال **ابن خلدون**: «إن يعلىٰ لقي جوهرا مذعنا إليه بالطَّاعة نافذا لعهد البيعة عن قومه فقبِله جوهر وأضمر الفتك به، وتخير لذلك يوم فصوله عن بلده، وأسر ذلك لبعض خلصائه من أتباعه فأوقعوا نفرة في أعقاب العساكر طار لها الزُّعماء من كتامة وصنهاجة وذهب دمه هدرا في القبائل، وقيل قبض عليه حيًّا وقتله لمظاهرته للمروانيين وكان السَّبب في قتله محمد بن الخير»، وقال بعض المؤرِّخين: «أن يعلىٰ لم يلق جوهرا عند ذهابه للمغرب وإنَّما لقيه عند إيابه منه»، وقال بعضهم لقيه في الذَّهاب عند منصرفه من الغزاة بمدينة **(تاهرت)** وهناك كان الفتك به بناحية **(شلف)** كما مرَّ، ولما مات يعلىٰ قام مقامه ابنه يد بن يعلىٰ بن محمد بن صالح اليفرني إلا أنَّه لم يملك **(وهران)** ثمَّ ذهب جوهر مغرِّبا ومرَّ بمدينة **(ايفكان)** التي بناها يعلىٰ فخرَّبها فلم تعمَّر من ذلك الوقت، وعقد لمحمد بن الخير بن محمد بن خزر علىٰ **(وهران)**، ثم ذهب جوهر ومعه محمد بن الخير وزيري بن مناد الصنهاجي شريك جوهر في الوزارة إلىٰ **سجلماسة** (بكسر السين المهملة والجيم المعجمة من أسفل وسكون اللام) وهي تفلالت التي اختطَّها عيسىٰ بن يزيد الأسود الصفري سنة أربعين ومائة، فوجد القائم بأحوالها محمَّد ابن الفتح الخارجي المعروف بواسول بن ميمون بن روَّان الصَّفري قد ادعىٰ الخلافة وتسمىٰ بأمير المؤمنين وتلقَّب بالشاكر لله، وضرب السكَّة بها، وكتب فيها اسمه، وسكَّته معروفة بالشَّاكرية دنانير ومثاقيل، وكانت في غاية الطيب، وكان الشَّاكر علىٰ غاية العدل وإقامة السُّنَّة مالكيَّ المذهب، فنزل عليه وحاصره ودخلها عنوة وقبض عليه، فأوثقه في الحديد وقتل رجاله وحماته، وتفرَّقت جموعه وأتي به أسيرا.

ثم سار لـ **(فاس)** فنزلها وحاصرها وقاتل أهلها فلم يقدر عليها، فانصرف عنها

وجال في الغرب حتَّىٰ انتهىٰ إلىٰ البحر المحيط وسلك تلك البلاد جميعا ثم عاد إلىٰ **(فاس)** وحاصرها وأدار بها القتال من كلِّ جهة ثلاثة عشر يوما، ثم دخلها عنوة ضحوة يوم الخميس عشرين رمضان سنة ثمان أو تسع وأربعين وثلاثمائة وتقبَّض علىٰ أميرها أحمد بن أبي بكر الزنَّاتي عامل النَّاصري الأموي، وقتل حماتها وأشياخها، ونهب وسبىٰ وهدَّم، فكان الحادث عظيما، وبقي بالمغرب ثلاثين شهرا علىٰ ما لأبي محمد صالح إلىٰ أن دوَّخة وقطع الدَّولة المروانية منه وردَّها للعبيديِّين فخطب لهم علىٰ جميع منابر المغرب، ثم انصرف راجعا إلىٰ مولاه المعزِّ بـ**(المهدية)**، ولما مر بـ **(وهران)** أقرَّ عليها محمد بن الخير المغراوي الخزري الذي كان معه وحضر لجميع وقائعه وهو حامل لأحمد بن أبي بكر اليفرني أمير **(فاس)** وخمسة عشر من أشياخها، ومحمد بن الفتح أمير سجلماسة بين يديه في أقفاص من خشب علىٰ ظهر الجمال، وعلىٰ رؤوسهم قلنسوات من لبد مستطيلات منبتة بالقرون، فطيف بهم في أسواق **(القيروان)**، ثم حملهم إلىٰ المهدية فأدخلهم المدينة بين يديه وحبسهم بها إلىٰ أن ماتوا بسجنها.

ثمَّ إنَّ محمدا بين الخير ملك **(وهران)** واستقرَّ بها فهو رابع الخزريِّين من أمراء مغراوة الذين ملكوها وكان قبل تقليده طاعة الشِّيعة له معهم حروب عظام ولما تلقوه سنة سبع أو ثمان وأربعين وثلاثمائة التي قتل فيها يعلىٰ أدَّىٰ لهم الطَّاعة وظاهرهم غاية الظُّهور، وانتقض دعوة المروانيين بالأندلس، وصار لهم ضدا ولجميع عمالهم.

ثمَّ في سنة خمسين وثلاثمائة (350هـ) توفي جدُّه محمَّد بن خزر بـ **(القيروان)** حال وفوده علىٰ المعزِّ بعد أن عمَّر كثيرا كما **لابن خلدون**. وتقدَّم ما فيه في سنة الستين وثلاثمائة (360هـ) فسد ما بين محمد بن الخير والشيعة وتقلَّد طاعة المروانيين

بالأندلس، وحشد جميع زنَّاتة المغرب الأوسط ما عدا (تاهرت) فإنها مستمرَّة في عمل الشِّيعة إلى انقضاء دولتهم، وقد ملك كافة (**زنَّاتة**) وأمده المروانيُّ من (**قرطبة**) بما أراد من الجيش العرمرم، ونهض من (**وهران**) يجرُّ الأمم بحذافيرها فسمع بذلك زيري بن مناد الصَّنهاجي، وجمع الجموع التي لم يعهد بمثلها في الدَّهر إلا قليلا، ولما اجتمعت عنده بدار ملكه (**أشير**) التي اختطَّها بسفح جبل تيطري وهي الآن خراب، عقد لابنه بلكين وأمره بحرب محمد بن الخير فالتقى الجمعان بالبطحاء، فدارت بين الفريقين حروب عظام، ولما رأى محمد بن الخير أن الدَّائرة عليه مال بنفسه إلى ناحية من عسكره وذبح نفسه سنة ستين وثلاثمائة (360هـ)، وانهزم قومه من سائر يومهم وبقيت عظامهم ماثلة بمصاريفهم أعصرا، فهلك من مغراوة في تلك الواقعة سبعة عشر أميرا سوى الأتباع، فأخذ بلكين رؤوسهم وانقلب إلى أبيه ظافرا ثم بعثها زيري إلى (إفريقية) للمعزِّ فامتلأ سرورا وغمَّ لها المنتصر الأموي بـ(**قرطبة**) فبذلك علا زيري بن مناد الصَّنهاجي على سائر العمَّال.

ثم إن الخير ويعلى ابني محمَّد بن الخير وقومهما طلبوا الثَّأر، ولما جاءهم جعفر بن علي عامل المسيلة هاربا من المعزِّ ألقوا إليه حالهم وجعلوا بيده زمام أمرهم، وقام بدعوة المرواني منتفضا على الشِّيعة فزحف إليه زيري بن مناد الصنهاجي من (أشير) واقتتلوا قتالا شديدا، وكان المعزِّ لما رحل لـ (**مصر**) بعد فتحه ولَّاه جميع (**إفريقية**) فكانت الدائرة على **صنهاجة**، وأكب بزيري بفرسه فأخذوه واحتزوا رأسه وبعثوا به إلى الحكم المرواني بـ (**قرطبة**) سنة إحدى وستين وثلاثمائة (361هـ) لسنة وعشرين يوما من ولايته فأخذ مغراوة ثأرهم وشفوا غليلهم وتهدم بزيري البنيان لصنهاجة، والدنيا تلك عادتها يوم بيوم، والدهر قاض ما عليه لوم.

ثمَّ بذبح محمد بن الخير لنفسه تولَّى بعده ابنه الخير بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر وهو خامس الخزريين من مغراوة الذين ملكوا **(وهران)** وضبط الملك، وكان المعز رحل لـ **(مصر)** من **(إفريقية)** في أواخر شوال سنة إحدىٰ وستين وثلاثمائة (361هـ) واستصحب معه أهله وخزانته وفيها أموال عظيمة حتَّىٰ سبك الدَّنانير وعملها مثل الطَّواجين وشالها علىٰ الجمال، ولما وصل إلىٰ برقة ومحمد بن هاني الشَّاعر الأندلسي قتل غيلة لا يدرىٰ من قتله وكان شاعرا مُجيدا وغالىٰ في مدح المعزِّ حتَّىٰ كفر في شعره فممَّا قاله:

ما شئت لا ما شـاءت الأقـدار فاحكم فأنـت الواحـد القهَّـار

ثم سار المعزُّ حتَّىٰ وصل **(الإسكندرية)** في أواخر شعبان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة (362هـ) وأتاه أهل **(مصر)** وأعيانها فلقيهم وأكرمهم ودخل **(القاهرة)** خامس رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وقد ملك **(مصر)** علىٰ يد قائده أبي الحسن جوهر الرُّومي غلام والده المنصور في سابع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة (358هـ)، وأقيمت له الدَّعوة في الجامع العتيق في شوَّال من تلك السَّنة وكان الخطيب أبا محمد عبد الله بن الحسين الشَّمشاطي، ثمَّ في جمادىٰ الأولىٰ سنة تسع وخمسين وثلاثمائة قدم جوهر إلىٰ جامع ابن طولون فأذن فيه بحيىٰ علىٰ خير العمل، ثم أذن بعد ذلك في الجامع العتيق وجهر بالبسملة في الصَّلاة، وبنىٰ **(القاهرة)** سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة، وولد بـ **(المهدية)** حادي عشر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة، فيكون عمره خمسا وأربعين سنة وستة أشهر تقريبا، وكان معتزًّا بالنُّجوم ويعمل بما قال المنجمون، وكان فاضلا.

ولما مات أخفى ابنه العزيز موته وأظهره في عيد النَّحر من هذه السَّنة وبايعه النَّاس، ثم تولى ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار بن المعز معد بن المنصور إسماعيل العلوي الفاطمي، وتوفي لليلَتين بقيتا من رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر بمدينة (**بليس**) كان برز إليها لغزو الرُّوم، وكانت موته بعدَّة أمراض منها القولنج، وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف، ومولده بالمهدية وولَّى كتابته رجلا نصرانيًّا يقال له عيسى بن نطورس واستناب بالشَّام رجلا يهوديًّا اسمه **ميشا** فاستطالت النصارى واليهود بهما على المسلمين، فعمد أهل (**مصر**) إلى (**قراطيس**) وعملوها على صورة امرأة ومعها قصَّة، وجعلوها في طريق العزيز فأخذها العزيز فوجد فيها مكتوبا: «بالذي أعزَّ اليهود بميشا والنَّصارى بعيسى بن نطورس، وأذلَّ المسلمين بك إلا كشفت عنا»، فقبض على عيسى النَّصراني المذكور وصادره، وكان العزيز يحبُّ العفو ويستعمله.

ولَّما مات العزيز بويع ابنه المنصور أبو علي الحاكم بأمر الله بعهد من أبيه فولي الخلافة وعمره أحد عشرة سنة وقام بتدبير ملكه خادم أبيه **أرجوان** وكان خصيًّا أبيض فضبط الملك وحفظه للحاكم إلى أن كبر ثمَّ قتله الحاكم، وتوفي الحاكم لثلاث بقين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة (411هـ)، وسببه أنَّه كان يطوف باللَّيل في البلاد على زيِّ التُّجار لا يعرفه أحد، فخرج ليلة كعادته ومعه ركابيان وسبعة نفر من أصحابه، فأصبح عند قبر الفضاعي وتوجَّه إلى شرقي (**حلوان**) ومعه من ذكر فأعاد أحد الركابيين مع جماعته من العرب ليوصلهم ما أطلق لهم من بيت المال، ثم أعاد الركابي الآخر وأخبر أنه خلف الحاكم عند العين والمقصبة فخرج جماعة من أصحابه

لكشف خبره فوجدوا عند **(حلوان)** حماره، لأنه كان يركب على الحمار، وقد ضربت يده بسيف وعليه سرجه ولجامه، واتبعوا الأثر فوجدوا ثيابه ولم يشكُّوا في موته ثم زادوا فوجدوه مقتولا في بركة من ماء مع سبعة نفر من أصحابه، وكان سبب قتله أنه تهدَّد أخته فاتفقت مع بعض القوَّاد وجهَّزوا له من قتله، وكان عمره ستا وثلاثين سنة وتسعة أشهر وولايته خمسا وعشرين سنة وأياما، وكان جوادًا بالمال سفَّاكا للدماء، وتصدر عنه أفعال متناقضة يأمر بشيء ثم ينهى عنه وعكسه.

وولي الخلافة بعده ابنُه الظَّاهر العزاز لدين الله أبو الحسن علي بن المنصور الحاكم بأمر الله، وبويع له بالخلافة في سابع مقتل أبيه، وهو إذ ذاك صبي وكتبت الكتب إلى بلاد **(مصر)** و**(الشام)** بأخذ البيعة له وجمعت عمَّته **ستُّ الملك** النَّاسَ ووعدتهم وأحسنت إليهم، ورتَّبت الأمور، وباشرت تدبير الملك بنفسها، وقويت هيبتها عند النَّاس وعاشت بعد قتل الحاكم أربع سنين وماتت، وتوفي الظاهر منتصف شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة (427هـ) وعمره ثلاث وثلاثون سنة وكانت خلافته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وأياما، وكان له **(مصر)** و**(الشام)** والخطبة بإفريقية وكان جميل السِّيرة، منصفا للرَّعية.

ولَّما مات ولي بعده ابنه أبو تميم معد ولقِّب بالمستنصر بالله، ومولده سنة عشرين وأربعمائة (420هـ) ووصل إليه الحسن بن الصباح الإسماعيلي، وخاطبه في إقامة دعوته بـ **(خراسان)** وبلاد العجم، فقال له: «إن فقدت فمن الإمام بعدك » فقال المستنصر: «ابني نزار » وخطب له ببغداد سنة خمسين وأربعمائة (450هـ) وتوفي ثامن ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة (487هـ) بعد أن ضعف أمر الدَّولة بسبب تولية

أمِّه على الأمر، وكانت خلافته ستين سنة وأربعة أشهر وعمره سبع وستون سنة، وهو الذي خطب له **البساسيري** ببغداد كما مرَّ، ولقي المستنصر شدائد وأهوالا وأخرج فيها أمواله وذخائره، حتَّىٰ لم يبق له غير سجَّادته التي يجلس عليها، وهو مع هذا صابر غير خاشع.

ولما مات ولي ابنُه أبو القاسم أحمد المستعلي وتوفِّي لسبع عشر خلت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة (495هـ) وكان مولده في العشرين من شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة (467هـ) وكانت خلافته سبع سنين وقرب شهرين وكان المدبر لدولته الأفضل ابن بدر الجمالي أمير الجيوش.

ولما توفي بويع لابنه أبي علي منصور ولقِّب الآمر بأحكام الله وكان عمره لما بويع خمس سنين وشهرًا وأيَّاما وقام بتدبير الدَّولة الأفضلُ بن بدر الجمالي المذكور، وتوفي في ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة (524هـ) وسببه أنه خرج إلىٰ مسترة له ولما عاد وثب عليه البطَّانية فقتلوه، وكانت ولايته تسعا وعشرين سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوما، وعمره أربع وثلاثون سنة، وهو العاشر من ولد عبيد الله المهدي، والعاشر من الخلفاء العلويين.

ولما قُتل لم يكن له ولد فولي ابن عمِّه الحافظ عبد المجيد بن أبي القاسم بن المستنصر بالله ولم يبايع أوَّلا بالخلافة، بل كان علىٰ صورة النَّائب لانتظار حمل إن ظهر، ولما تولَّىٰ الحافظ استوزَر أبا علي بن الأفضل بن بدر الجمالي فاستبدَّ بالأمر، وتغلَّب علىٰ الحافظ، وحجَرَ عليه، ونقل أبو علي ما كان بالقصر من الأموال إلىٰ داره، ولم يزل الأمر كذلك إلىٰ أن قتل أبو علي سنة ست وعشرين وخمسمائة (526هـ)، وسببه أنه قطع خطبة

العلويين وخطب لنفسه خاصة، وقطع من الأذان (**حيَّ على خَير العمل**) فنفرَت منه قلوب شيعة العلويِّين، وثار به جماعة من المماليك وهو يلعب بالكرة فقتلوه، ونهبت داره.

وأخرج الحافظ من الاعتقال، ونقل ما في دار أبي علي إلىٰ القصر، وبويع الحافظ في يوم قتل أبي علي بالخلافة، واستوزر أبا الفتح يانس الحافظي، وبقي يانس مدَّة قليلة ومات، فاستوزر الحافظ ابنه الحسن بن الحافظ وخطب له بولاية العهد، ثم قُتل الحسن سنة تسع وعشرين وخمسمائة (529هـ) وسببه أنَّه تغلَّب علىٰ الأمر واستبدَّ به وأساء السِّيرة، وأكثر من قتل الأمراء وغيرهم ظلما وعدوانا، وأكثرَ من مصادرات النَّاس، فأراد العسكر الإيقاع به وبأبيه، فعلم أبوه ذلك فسقاه سمًّا فمات، واستوزر تاج الدولة بُهرام ـ وكان نصرانيا ـ فتحكم واستعمل الأمر علىٰ النَّاس، وتوفي الحافظ في جمادىٰ الآخرة، سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وكانت خلافته عشرين سنة، ولم يل الخلافة من العلويين المصريين من أبيه ـ غير خليفة ـ إلا الحافظ والعاضد.

ولما توفي بويع ابنُه الظَّافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ عبد المجيد، واستوزر ابن مصال، فبقي أربعين يوما وحضر من (**الإسكندرية**) العادل بن السلام، وكان خرج ابن مصال من (**القاهرة**) في طلب بعض المفسدين فأرسل العادل ربيبه عباس بن أبي الفتوح بن يحيىٰ بن تميم بن المعز بن باديس الصَّنهاجي، وكان أبوه أبو الفتوح فارق أخاه علي بن يحيىٰ صاحب إفريقية، وقدم للدِّيار المصرية وتوفي بها، فتزوج العادل بزوجته ومعها ولدها العبَّاس بن أبي الفتوح، فربَّاه وأحسن تربيته، ولذلك أرسله في عسكر إلىٰ ابن مصال فظفر به وقتله، وعاد إلىٰ العادل بالقاهرة فتوزر واستقر فيها، وتمكن من الملك، فلم يكن للخليفة معه حكم، وبقي إلىٰ سنة ثمان

وأربعين وخمسمائة فقتله عبَّاس، وتوزَّر بموضعه، وتوفي الظَّافر في المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، قتله عبَّاس أيضا، وسببه أن عباسا كان له ابنٌ حسن الصُّورة اسمه نصر فأحبَّه الظافر، ولم يقدر على فراقه، وكان أسامة بن منقذ الكتامي حسَّن لعباس قتل العادل فقتله وتولَّى مكانه، ثم حسَّن له أيضا قتل الظافر بأن قال: «له كيف نصبر على ما نسمع من قبيح القول»، فقال له عباس: «وما ذلك»، فقال: «إن النَّاس يقولون إنَّ الظَّافر يفعل في ابنك نصر»، فأنف عباس وأمر ابنه أن يدعو الظَّافر لبيته فجاء فقتلاه ومن معه، وسلم الخادم الصغير وأعلم أهل القصر بموته.

ثم جاء عبَّاس إلى القصر وطلب الاجتماع به، فلم يجدوه في القصر فقال لهم: أنتم قتلتموه، وقتَلَ أخويه يوسف وجبريل، ثم أتى لابنه الفائز أبي القاسم عيسى ثاني يوم قتلِ أبيه وهو ابن ثلاث أو خمس سنين وحمله على كتفه وأجلسه على الكرسي، وبايع له النَّاس، وأخذ ما في القصر من أموال والجواهر النَّفيسة بطاقته.

ولما رأت النَّاس ذلك ثارت الجنود والسُّودان عليه، وكان طلائع بن رزيك في مينة ابن خصيب واليا عليها، فبعث إليه أهل القصر من النِّساء والخدَّام للاستغاثة، وكان شهما، فجمع جمعه وقصد عباسا، فهرب إلى الشَّام بما معه من الأموال والتُّحف، فاتصل به الفرنج في الطريق فقتلوه وأخذوا ما معه وأسروا ابنه نصرًا.

ثمَّ استقر طلائع بن رزيك في الوزارة، ولقِّب بالصَّالح فبعث للفرنج أموالا، فبعثوا له نصرًا فقتله ثمَّ صلبه على باب زويلة، ونجا أسامة، وأباد الأعيان بالقتل والهروب للبلاد البعيدة، وتوفي الفائز سنة خمس وخمسين وخمسمائة وخلافته ست سنين ونحو الشهرين.

ثم دخل الصَّالح القصر لتوليته من يصلح من العلويِّين فأتي إليه برجل كبير السِّنِّ فقال للصَّالح بعض أصحابه ـ سرًّا ـ: «ليس العباس بأحزم منك حيث اختار الصَّغير» فأعاد الرجل إلىٰ موضعه، وأحضر العاضد أبا محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة وكان مراهقا، فعقد له البيعة بالخلافة وزوَّجه بابنته وجهَّزها ما لا يسمع بمثله، وفي ثاني جمعة من محرم سنة سبع وستين وخمسمائة قطعت الخطبة باسمه وصارت باسم الخليفة العبَّاسي. وسببها لما تمكن صلاح الدين من (**مصر**) وأقام (**قراقوش الأسدي**) كان خصيا أبيض، أرسل نور الدين فجعل الخطبة باسم العبَّاسي دون العلوي، والعاضد مريض، فخطب باسم المستضي لا العاضد، ولم يتناطح فيها عنزان، واشتدَّ مرض العاضد ولم يعلم بذلك فتوفي يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة، وجلس صلاح الدِّين للعزاء واستولىٰ علىٰ ما في القصر وكثرته تخرجه عن الإحصاء، وفيه أشياء نفيسة منها حبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما ومثقالا، وطبل للقولنج إذا ضربه الإنسان ضرط، فكسر ولم يعلموا به إلا بعد ذلك، ثمَّ نقل أهل العاضد من القصر، وجعلهم في الحفظ وأخرج ما فيه من العبيد والإماء، فباع وأعتق ووهب، وخلا القصر من حينه كأن لم يغْنَ بالأمس.

وكان العاضد رأىٰ في منامه أن عقربا خرجت من مسجده ولدغته، فاستيقظ مرعوبا فعبِّر له بإذاية تصله من ذلك المسجد فأحضر له منه رجل اسمه نجم الدين الخويشاني فسأله عن حاله وسبب إقامته وما عرضه فأخبره بالصَّحيح وكان صوفيا فظنَّ أنَّه لم يصله منه مكروه فوصله بمال وسأل منه الدُّعاء، فلما أراد صلاح الدين إزالة الدَّولة العلويَّة، استفتىٰ في ذلك فأفتاه جماعة من الفقهاء وكان منهم نجم الدين

الخويشاني وبالغ في فتياه بخطِّه مصرحا بتعديد مساوئهم وسلب عنهم الإيمان فصحت رؤيا العاضد.

وجملة خلفاء العلويين أربعة عشر خليفة وهم: المهدي، والقائم، والمنصور، والمعز، والعزيز، والحاكم، والظَّاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظَّافر، والفائز، والعاضد ـ وهو آخرهم ـ، ومدتهم من سنة ست وتسعين ومائتين إلى سنة ست وسبعين وخمسمائة، مائتان واثنتان وسبعون سنة تقريبًا.

وهذا دأب الدُّنيا لم تعط إلا استردت، ولم تحلو إلا وتمررت، ولم تَصفو إلا وتكدَّرت، بل صفوها لا يخلو من الكدر.

وحيث أتممتُ الكلام على الدولة الثَّانية فلنرجع إلى إتمام الأولى:

فنقول: ولما تمهَّد الملك للخير ابن محمد بن الخير خامس الخزرين ـ كما مرَّ ـ وأخذ الثأر لابنه بقتل عدوِّه زيري بن منَّاد الصَّنهاجي نهض بلكين بن زيري إلى الأخذ بثأر أبيه، فكانت له مع (مغراوة) ومن ظاهر إليهم حروب صعاب، يشيب لها رأس الغُراب، ووافق ذلك رحلة المعزِّ العَلوي إلى مصر فقلَّده أمر طاعته كلها إلى برقة وسمَّاه يوسف بدل بُلكين، فاتسعت مملكته وعلا صيته، ولم يخرج من عمله سوى مدينتين إحداهما (**صقلية**) أقرَّ عليها عاملها أبا الحسن الكلبي، والأخرى (**طرابلس**) أقر عليها عاملها عبد الله الكتامي، فانتهت غزاته سنة سبع وستين وثلاثمائة إلى أقاصي المغرب فملك (فاسا) و(**سجلماسة**)، وطرد جميع أولياء المروانيِّين وقبض على علي بن نور ومحمد والخير بن محمد الخير المغراويين فقتلهم، وفرَّ من بقي من ملوك زنَّاتة مثل يد بن

يعلىٰ اليفرني وبني عطية وغيرهم ولاذوا بـ (**بسبتة**)، وبعثوا الصَّريخ إلىٰ المنصور بن أبي عامر فخرج من (قرطبة) للجزيرة الخضراء ومنها أمدَّهم بعساكر جمة ولَّىٰ عليها ابن حمدون وعقد له علىٰ حرب (**بلكين**)، وأمدَّه بمائة حمل من المال فأجاز البحر وجعل مصاف القتال بظاهر (**سبتة**) وبلكين بعساكره في (تيطوان) فتحيَّل وأطل علىٰ عساكرهم فرأىٰ ما أدهشه، وقال هذه أفعىٰ أبترت إلينا فاها فكرَّ راجعا، وهدم البصرة وجاهد في بر غواطة، فسلبهم وبعث بذلك إلىٰ (**القيروان**) وأذهب الدعوة الأموية من المغرب كلِّه، ولم تزل معه مغراوة في تشريد إلىٰ الصَّحراء وإذعان إلىٰ أن هلك سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، بسبب سمٍّ سقته له زوجته، وقد ملك (**وهران**) في هذه المدَّة التي مات فيها، ثم قام بأمر زنَّاتة في موضع الخير بن محمد بن الخير أخوه يعلىٰ بن محمد بن الخير وهو سادس الخزريِّين من مغراوة أمراء (**وهران**)، فضبط الملك وتكرَّرت إجازته، هو وابن أخيه محمد بن الخير وأصحابه من الصنهاجيِّين، فلم تحصل لهما فائدة، وسلم يعلىٰ بن محمد الخير لابن أخيه محمد في رياسة قومه، ثمَّ تولَّىٰ محمد بن الخير بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر وهو سابع الخزريِّين من مغراوة أمراء (**وهران**)، وكان ذلك في أعوام الستِّين وثلاثمائة ثمَّ تولَّىٰ بعده أمر زنَّاتة بالمغرب الأوسط محمد بن يعلىٰ بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر وهو ثامن الخزريِّين من مغراوة أمراء (**وهران**)، فملك ما ملكه أبوه وجده كافة واستولىٰ علىٰ كافة المغرب حتىٰ أضاف لعمله (**المسيلة**) والصحراء والمغرب وبَوادي زنَّاتة، ولم يبق لبني أمية معه بالمغرب سوىٰ الخطبة خاصَّة، وطرد الصنهاجيين من أكثر عملهم.

ثم في سنة ثمان وثلاثمائة تولَّىٰ زيري بن عطية بن عبد الله المدعو بأمِّه تبادلت بن

محمد بن خزر المغراوي، وهو تاسع الخزريين من مغراوة الذين ملكوا **(وهران)** وغيرها وذلك بدعوة هشام المؤيد الأموي وحاجبه المنصور بن أبي عامر المعافري، بعد انقطاع أيام الأدارسة وبني أبي العافية المكناسي من المغرب الأقصىٰ، فملك المغربين وغلب علىٰ بوادي المغرب كلِّه، وملك **(فاسا)** واستوطنها في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وأورثها لبنيه من بعده فبنىٰ باب الفتوح بفاس، وبنىٰ أخوه عجيسة باب عجيسة المعروف الآن بباب القِيسة، فَعَلا قدره وقوي سلطانه، وارتفع شأنه علىٰ سائر العمَّال.

ثم قام عليه أبو البهار بن زيري بن مناد الصَّنهاجي، مخالفا علىٰ ابن أخيه منصور بن بلكين أمير إفريقية، وظهير الدَّولة العبيديَّة بالمغرب الأوسط ونقض العبيدية ومال للمروانية فغلب علىٰ **(تلمسان)** و**(وهران)** و**(مازونة)** و**(تنس)** و**(شلف)** و**(شرشال)** و**(وانشريس)** و**(مليانة)** وكثير من بلاد **(الزَّاب)** وخطب للمؤيد وحاجبه، وبعث لهما بالبيعة والهديَّة في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، فبعث له المنصور بالعهد علىٰ ما بيده من البلاد فبقي نحو الشَّهرين ونقض دعوة الأمويِّين وعاد للعبيديين، فبلغ المنصور ذلك فبعث إلىٰ زيري المغراوي بالعهد علىٰ بلاد أبي البهار وأمره بقتاله، فسار إليه زيري المغراوي بجيوش كثيرة ما بين زناتة وغيرهم ففرَّ منه أبو البهار ولحق بابن أخيه بإفريقية وترك المغرب الأوسط لزيري الخزري، فاتسع سلطانه بالمغرب من **(سوس)** الأقصىٰ إلىٰ **(الزاب)** وكتب للمنصور بالفتح مع مائتي فرَس من عتاق الخيل، وخمسين مهرية وألف درقة وصناديق زان كثيرة وقطوط زبد ووحوش كالمط والزرافة وألف حمل تمر جيد وثياب رفيعة هديَّةً فسرَّ لها المنصور، واستدعاه للقدوم فذهب له بعد أن جدَّد له العهد في سنة إحدىٰ وثمانين وثاثمائة فأوسع له المنصور ولأصحابه الستمائة في

الجائزة ولقبه بالوزارة وأعطاه أموالا جسيمة، وخُلعا نفيسة عظيمة هديةً، وأجازه البحر فاستقلَّ زيري ذلك، وكرِه اسم الوزارة حتَّىٰ نهر من قال له الوزير، وقال: «ما أنا إلا أمير ابن أمير، والله لو كان بالأندلس رجل ما ترك علىٰ حاله المنصور، لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»، ووضع يده علىٰ رأسه لما حل بـ(**طنجة**) وقال: الآن أنت لي.

ثمَّ إنَّ يد بن يعلىٰ اليفرني وجد فرصة للمغرب في غيبة زيري، فأخذها بأن زحف لفاس ودخلها في ذي القعدة سنة اثنتين وثمانية وثلاثمائة (382هـ) فقتله وبعث برأسه إلىٰ المنصور، فلم يبق له بالمغرب منازع، وهابته الملوك، ثم بنىٰ زيري في رجب سنة أربع وثمانين وثلاثمائة (384هـ) (**وجْدَة**) وحصَّنها وشيَّد قصبتها، وانتقل إليها بأهله وذخائره وجعلها قاعدته لتوسُّطها للمغربَين.

ثمَّ في سنة ستٍّ وثمانين وثلاثمائة (386هـ) فسد ما بينه وبين المنصور، فبعث له المنصور (واضحا) في جيوش عظيمة ولقيه زيري بجيوشه فكان مصاف القتال بوادي ردات بأحواز (**طنجة**) فوقعت بينهما حروب كثيرة مدَّة ثلاثة أشهر، كان الظفر فيها لزيري، وهزم واضحا وقتل أكثر جيشه، وفرَّ منهزما لطنجة وكتب للمنصور فأمده بجيوش الأندلس وقوَّادها وعقد عليها لابنه المظفَّر، وأمره بحرب زيري، ولما جاز البحر وصل بطنجة هابه زيري وكتب للجيوش فأتته من (**سجلماسة**) و(**تلمسان**) و(**وهران**) و(**الزاب**) وسائر بوادي زنَّاتة، فنهض بهم للقاء المظفر فوقع مصاف القتال بوادي مينا من أحواز (**طنجة**) فوقعت بينهما حروب لم يُسمع بمثلها قطُّ من طلوع الشمس إلىٰ الغروب، فوجد سلام غلام زيري فيه فرصة فضربه بسكين لأليته يريد نحره وجرحه ثلاثا وذهب للمظفر وأخبره فأمكنته الفرصة وشد علىٰ زناتة، وهم في

دهشة من أميرهم فهزمهم وأتى على المحلة بما فيها، وأكثر السبي والقتل، وغنم ما لا يحاط به وفرَّ زيري لمضيق الحية قرب (**مكناسة**) واجتمع فله وأراد الرُّجوع فجهز له المظفر جيشا قدره خمسة آلاف فارس، تحت واضح فأسرى بهم ليلا وضرب محلة زيري في غفلة نصف رمضان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة (387هـ)، فأوقع بهم وأسر من أعيانهم نحو ألفي رجل، فمنَّ عليهم المظفر وصاروا من جنوده، وفرَّ زيري في شرذمة من أصحابه وقرابته لـ (**فاس**)، فأغلقت في وجهه الأبواب وأخذ أهله وزادا ودواب وانصرف للصَّحراء فنزل بـ (**سجلماسة**)، ثم زاد لبلاد صنهاجة فوجد أهلها اختلفوا على مِلكهم باديس بن منصور بن بلكين بعد وفاة المنصور، فبعث لقبائل زناتة فأتاه خلق كثير فاغتنم الفرصة وزحف لصنهاجة، فأوغل فيها وهزم جيوشها ودخل (**تاهرت**) وجملة من الزاب، وملك المسيلة ووانشريس وشلف وتنس ومازونة ووهران وتلمسان ووجدة وسائر المغرب الأوسط وغيره، وعاد لوجدة وأقام بالدَّعوة للمؤيد وحاصر (أشير) قاعدة صنهاجة وبقي يغاديها ويراوحها إلى أن مات بجراحاته سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة (391هـ).

ثم قام بـ (**وهران**) يعلى بن محمد بن الخير مرة أخرى، وضبطها وخضعت له الرَّعية وأدَّت طاعته زناتة وهابته الملوك فبقي إلى سنة عشر وأربعمائة (410هـ) فبويع بموضعه ابن أخيه محمد بن الخير مرَّة ثانية، وضبط الملك أكثر من عمِّه يعلى وأطاعته سائر زنَّاتة المغرب الأوسط مدنه وبواديه، وامتد له في الملك من سنة عشر وأربعمائة إلى سنة ثلاثين وأربعمائة، ثمَّ قام بأمره ابنُ عمِّه محمد بن يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر مرَّة أخرى، ومهَّد له الملك أكثر من المرَّة الأولى، ودخل في طاعتِه سائر المغرب

الأوسط، بواديه وقراه ومدنه، وضايق صنهاجة بالمشرق وأبناء عمِّه مغراوة وبني يفرن بالمغرب والصحراء، وصاروا معه تارة في حرب وأخرىٰ في سلم، واتَّصلت يده بيد ابن أخيه بختي بن تميم بن يعلىٰ بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر ملك تلمسان، فتمهد لهما المغرب ولا زالا في الملك إلىٰ أن هلك محمد بن يعلىٰ وبختي ووزيره أبو سعيد الزناتي خليفة اليفرني في حرب **(عرب الأثبج)** و**(زغبة الهلاليين)** بالزاب أعوام الخمسين وأربعمائة.

ثمَّ تولىٰ بموضع محمد بن يعلىٰ بوهران ابنه محمَّد الصَّغير بن محمد بن يعلىٰ بن محمد ابن الخير بن محمد ابن خزر واستبد كل منهما بموضعه وما يليه وتحت حكمه ولا زالا كذلك إلىٰ أن أزالهما يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة (473هـ) ـ كما يأتي إن شاء الله تعالىٰ ـ فانقطع ملك **(وهران)** من يد مغراوة بعد ما ملكوها مائة وسبع وأربعين سنة، فسبحان من لا ينقطع ملكه الواحد القهار.

الدولة الثالثة

المرابطون

ويقال لهم لمتونة والملثَّمون وصنهاجة والكلام عليهم في خمسة مواضع:

الموضع الأول: في نسبهم.

الموضع الثاني: في وقت مسيرهم للمغرب.

الموضع الثالث: في ذكر قبائلهم وبطونهم.

الموضع الرابع: في ذكر علمائهم.

اعلم أن علماء صنهاجة عددهم كثير بكثرة البُطون، ولنذكر بعضهم فنقول:

إنَّ من علماء صنهاجة السَّيد الصُّوفي ابن أحمد العرِّيف كان معاصرا للقاضي عياض، ومنهم أبو عيسىٰ وأبو عبد الله بن آمغار، وأيوب بن سعيد السَّارية شيخ أبي يعزىٰ الثلاثة من صنهاجة آزمور، ومنهم أحمد بن تومرت شيخ السَّنوسي، ومنهم الشيخ إبراهيم بن عبد الله قاضي دمشق آخر القرن الثامن، ومنهم الشيخ القَرافي صاحب (**الفروق**)، وابن النحوي صاحب (**المنفرجة**)، وهو من قلعة بني حمَّاد، ومنهم عبد الله بن الزكي دفين أصبهان بالمشرق الأقصىٰ، قال السبوري: «هو أحفظ من لقيت»، قيل له: لقيت أبا بكر بن عبد الرحمن، وأبا عمران الفاسي؟ قال: «هو أحفظ

منهما»، وقد نقل عنه الشَّيخ **خليل** في **(توضيحه)** في باب الشركة، ومنهم الشيخ إبراهيم المصمودي بـ **(تلمسان)**، ومنهم الشَّيخ محمد بن آجروم بـ **(فاس)** صاحب **(الأجرومية)** كثيرة النَّفع والشُّروح... إلى غير ذلك من علمائهم.

الموضع الخامس: في ذكر فرقهم ومن ملك منهم وهران

اعلم أنَّ فِرق صنهاجة ثلاثة، وكلُّهم فيهم الملوك.

الفرقة الأولى: البلكانية: وهم ملوك **(إفريقية)** و**(الأندلس)** أيَّام الطوائف، فمن ملوك الفرقة الأولى: منَّاد مقيم دعوة بني العبَّاس، ومنهم ابنه زيري بن مناد ـ المتقدِّم الذكر في دولة مغراوة ـ ولما ملك الشِّيعة إفريقية تحيَّز إليهم زيري للولاية العبَّاسيَّة التي لعلي (رضي الله عنه)، وأرضه من **(المسيلة)** إلى **(وطا حمزة)** وهو الذي اختطَّ بسفح جبل تيطري مدينة أشير وحصنها بأمر المنصور العبيدي أواسطَ القرن الرابع، فاتَّسعت خطَّتها، ورحل إليها العلماء، وهي الآن خراب في طرف أرض بني مقران مما يلي الغرب، واختط ابنُه بلكين بأمره مدينة الجزائر، في أواسط الرَّابع، وكانت قبل ذلك أخصاصا لبني مزغنَّة، وما قاله الجامعي من أنَّ ملوك الأتراك هم الذين بنوها فقُصورٌ، وأما جامعها الأعظم فبناه أبو تاشفين بن أبي حمو موسى بن يوسف الزَّيَّاني [1] ، و**(مليانة)** اختطَّها بلكين في خمس وخمسين من الرابع، وفي ذلك التَّاريخ اختطَّ **(لمدية)** والكلُّ بإذن أبيه زيري، واختطَّ حمَّاد بن بلكين بن زيري بن مناد **(القلعة)** التي بجبل عجيسة بإزاء مجَّانة سنة ثمان وتسعين من الرابع، وفي بعض التواريخ أنَّه بقي في بنائها

(1) هذا غلط أيضا، فالجامع الأعظم بني قبل أبي تاشفين بقرون لا خلاف في ذلك، وإنما جدد أبو تاشفين المذكور منارته فقط ولازالت هذه الكتابة في لوحة عند باب المنارة.

ثماني عشرة سنة، وهذه المدن التي بنتها ملوك **(صنهاجة)** من أعظم مدن المغرب الأوسط، إلَّا أنَّ الثَّلاثة التي بناها بلكين فهي باقية لهذا العهد، والتي بناها أبوه زيري وابنه حمَّاد فهما خراب، وهذا مما يُتعجَّب منه فإنَّ بناء زيري وحمَّاد خراب، وبناء بلكين في نهاية العمران للآن.

وبلكين بضم الباء الموحَّدة من أسفل، واللام وتشديد الكاف المكسورة.

قال الحافظ **أبو راس** في **(عجائب الأسفار)**: «ولاشكَّ أن بلكِّين رزق السَّعادة في عمله، فلذلك بقي بناؤه دون أبيه وابنه»، ومات زيري سنة ستين وثلاثمائة (360هـ) كما مرَّ.

ثمَّ قام بالأمر بعده ابنه بلكِّين المتقدم الذِّكر في دولة مغراوة وقد ملك (وهران)، ولما ذهب المعزُّ العلويُّ إلى (مصر) أسلم إليه إفريقية والمغرب وأمر النَّاس بالسمع والطاعة له، وأوصاه بأمور كثيرة وسمَّاه يوسف بدل بلكِّين، وحين شيَّعه من القيروان إلى اصفاقس، قال له لما أمره بالرُّجوع: «يا يوسف إن نسيت وصيتي فلا تنس ثلاثًا؛ إيَّاك أن ترفع الجباية على البادية، وإياك أن ترفع السَّيف على البربر، وإياك أن تولِّي أحدا من أهل بيتك فإنهم يرون أنَّهم أحق بالأمر منك» وكان لبلكِّين أربعمائة حاضنة، حتَّى إن البشائر وفدت عليه في يوم واحد بولادة سبعة عشر ولدا، وهذا لم يسمع بمثله وكان جيِّد السِّيرة إلا أنَّه رافضيٌّ، ومات سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة كما مرَّ.

ثمَّ قام بعده بإفريقية ابنه منصور بن بلكِّين بن زيري وكان ملكا كريما شجاعًا، وأرسل إلى العزيز هديَّةً عظيمة قيمتُها ألف دِينار، وتوفي سنة ستٍّ وثمانين وثلاثمائة (386 هـ).

ولي بعده ابنه باديس بن منصور بن بلكين، وكان ذا بأس شديد حتَّىٰ إذا هزَّ رُمحا كسره، ومات بدعاء الشَّيخ محرز بن خلف بن رزين بن يربوع بن حنظلة بن إسماعيل ابن عبد الرحمن بن أبي بكر الصِّديق (رضي الله عنه) سنة ست وأربعمائة (406هـ)، وسببه أنَّه حاصر تونس لما فتكوا بأهل جنده من الشِّيعة، وعزم علىٰ خرابها وقال: تبقىٰ أرض تحرث ولا تبقىٰ تونس، وعرضت عليه عساكره من أوَّل النهار إلىٰ نصفه فسُرَّ وفزع أهل تونس إلىٰ ولي الله سيدي محرز بن خلف المشهور (سيِّد تونس) وتضرَّعوا إليه في ذلك فقال لهم لَّما قالوا له ما قال باديس: بل تبقىٰ تونس ولا يبقىٰ باديس، ثمَّ قال: «اللَّهم يا رب باديس، اكفنا باديس» فمات من ليلته ودار ملكه بـ (القيروان) فحمل إليها، هكذا في بعض التَّواريخ. وقال **ابن خلكان**: «إنَّ ذلك وقع له في محاصرته لبعض قرىٰ (**طرابلس**)» وتوفي الشَّيخ محرز سنة ثلاث عشرة وأربعمائة (413هـ) وعلىٰ ضريحه بتونس مشهد عظيم، وهو السبب في رسالة الشَّيخ محمد بن أبي زيد القيرواني، لأنه هو الذي أمره بوضعها، وتوفي ابن أبي زيد سنة ست وتسعين من الرابع ولما وصلت رسالته إلىٰ ابن زرب بـ (فاس) لم يعتن بها، ولما وصلت إلىٰ القاضي إسماعيل بن المسيَّب ببغداد وابن القصَّار والقاضي عبد الوهَّاب وغيرهم تواصوا بأمرِها وعظَّموها، فكانت تباع بـ (بغداد) بمائة دينار ذهبا.

ثمَّ بويع بموضعه ابنه المعزُّ وهو ابن ثمان أو إحدىٰ عشرة سنة، وضخم ملكه وعظم سلطانه، ووصلت إليه الهدايا والخُلع، والتقليد من الحاكم العلوي، ولقبه (شريف الدين) ويشهد لضخامة ملكه أنَّ عامل باغاية أدَّىٰ له مائة حمل من المال، وأن بعض تراتيب بيته من العود الهندي بمسامر من الذَّهب، وأنه أعطىٰ فلفولا المغراوي لما

انقطع إليه ثلاثين حملا من المال وثمانين تختا من الثِّياب وعشر ساحل (اصفاقس)، قدره ثمانون ألف قفيز، وإن جدته ماتت سنة إحدىٰ عشرة وأربعمائة (411هـ) فعمل لها تابوتا من العود الهندي مرصَّعا بالجوهر وصفائح الذَّهب، وعلق عليه عشرين سبحة من نفيس الجوهر، وذبح عليها مائة بقرة وألف شاة ونحر خمسين ناقة، وفرق علىٰ النساء عشرين ألف دينار، وقد بلغت خسارة عرسه ستة عشر ألف دينار، وله من المماليك عشرون ألفا وهذا العدد قلَّ من يملكه من الملوك، وفي الشَّيخ قويسم علىٰ الشفا أن المنذر العباسي له أحد عشر ألف خصيّ سوىٰ الرُّوم والصَّقالبة، وفيه أيضا أن المعتصم بن الرَّشيد اشترىٰ من الأتراك ستَّة وعشرين ألفا ومائتين من سمرقند وفرغانة والناصر بضعة عشر ألفا.

وقال الحافظ أبو راس في (**الخبر المغرب**): «ويقرب من هذا ما ملك أحمد الذَّهبي سلطان المغرب، من العبيد والجواري لما ملك السُّودان سنة أربع وألف » وكان المعزُّ سنيًّا، ولذا بعث له المنتصر العلويُّ العرب وجرت الواقعة المشهورة بينهم بظاهر (القيروان)، فكان هو أحد أسباب دخول العرب إلىٰ (**القيروان**) وهو الذي حمل أهل المغرب علىٰ مذهب **مالك** (رضي الله عنه)، وكانوا قبله علىٰ مذهب أبي حنيفة كما حمل أهل (الأندلس) عليه هشام الرَّاضي بن عبد الرحمن الدَّاخل بعد أن كانوا علىٰ مذهب الأوزاعي ـ كما مر ـ ولما قدم عليه ابن عمِّه زاوي بن بلكِّين وكان ملكا بغرناطة كفاه بما شاء وولَّاه، ومات بضعف الكبد سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، وكانت مدَّته سبعا وأربعين سنة، واستخلف بـ (**القيروان**) ألف امرأة كلُّها لا تحل له وهو أمر غريب.

ثمَّ ملك بعده ابنه تميم وهو الذي مدحه أبو علي بن رشيق بقوله:

أصحَّ وأعلىٰ مـا سـمعناه في النَّـدَا　　مـن الخـبر المـأثور منـذُ قـديم
أحاديث ترويها السُّيول عن الحيا　　مـن البحـر في كـف الأمـير تمـيم

ومات سنة إحدىٰ وخمسمائة، وقبره في قصر السَّيدة بالمنستير، وكان ذكيًّا حليما، نظَّاما للشعر، وعمره تسع وسبعون سنة، وولايته ستٌّ وأربعون سنة وعشرة أشهر وعشرون يوما، وخلف أربعين ابنا وستين بنتًا، وفي أيَّامه علىٰ ما في (**عجائب الأسفار**) ملك نصارىٰ (**جنوة**) المهدية سنة ثمانين وأربعمائة، فبذل لهم مائة ألف دينار، فخرجوا منها.

ثمَّ ولِّي ابنُه يحيىٰ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة وستة أشهر، مات يوم عيد الأضحىٰ فجأة سنة تسع وخمسمائة وعمره اثنتان وخمسون سنة، وولايته خمس أو ثمان سنين وخمسة أشهر، وخلَّف ثلاثين ولدا، ثمَّ ولِّي ابنُه عليٌّ ومات في ربيع الآخر سنة خمس عشرة وخمسمائة، فكانت ولايته خمس سنين وأربعة أشهر، ثمَّ ولِّي ابنه الحسن وعمره اثنتا عشرة سنة بعهد أبيه إليه، وقام بتدبير دولته (صندلُ الخصيُّ)، وبقي صندل مدَّة ومات، وصار مدبر دولته القائد أبو عزٍّ بن موفَّق وفي أيامه غزا نصارىٰ صقلية المهدية وهم في مجاعة شديدة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (543هـ)، فخرج منها الحسن بما خف، واستولىٰ عليها النَّصارىٰ بما فيها، وسار الأمير بأهله وأولاده إلىٰ بعض أمراء العرب ممن كان يحسن إليه، وأراد المسير إلىٰ مصر فلم يقدر لخوف الطَّريق، فسار إلىٰ ملك (بجاية) يحيىٰ بن العزيز من (بني حمَّاد)، فوكل بهم يحيىٰ من يمنعهم من التَّصرف ولم يجتمع بهم وأنزلهم في جزائر (بني مزغنة)، وبقي الحسن كذلك إلىٰ أن ملك عبد المؤمن بن علي (بجاية) في سنة سبع وأربعين وخمسمائة (547هـ) فأخذها من جميع مماليك بني حماد، فجاءه الأمير الحسن فأحسن إليه وبقي في إكرامه إلىٰ أن فتح المهديَّة،

فأقام بها واليًا من جهته وأمره أن يقتدي برأي الحسن ويرجع لقوله.

قال الحافظ أبو راس في **(عجائب الأسفار)**: «ولما ضعف أمره، ارتحَل بأهلُه يريد **(مراكش)** بإذن يوسف بن عبد المؤمن، فمات بتامسنا في طريقه، ولم أقف على سنة موته.

فكانت عدَّة من مَلكَ من بني باديس بن زيري بن مناد إلى الحسن تَسعةُ ملوك، وكانت ولايتهم في سنة إحدى وستين وثلاثمائة (361هـ)، وانقضت في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (543هـ) وقال الحافظ أبو راس في **(عجائب الأسفار)**، « انقضت في حدود الستِّ والستِّين من القرن السَّادس، والله وارث الأرض ومن عليها »، وأوَّل من ملك من صنهاجة بغرناطة كما مرَّ في **(الجمع والبيان في تاريخ أهل القيروان)** زاوي بن بلكين بن زيري بن منَّاد ثمَّ تركها، وعاد إلى إفريقية كما مرَّ.

فملك غرناطة بعده ابن أخيه حبوس بن ماكسن بن بلكِّين وبقي بها حتى توفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة (429هـ) وولي بعده ابنه باديس بن حبوس، وبقي بها حتَّى توفي، وولي بعده ابن أخيه عبد الله بن بلكين بن حبوس، ودام فيها حتَّى أخذها منه يوسف بن تاشفين سنة تسع وسبعين وأربعمائة (479هـ) وقيل ثمانين وأربعمائة (480هـ) وأخذه يوسف هو وأخاه تميما وعبر بِهما البحر لـ (مراكش)، وملوك بجاية بني حماد أوَّلهم حماد بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي.

قال في **(الجمع والبيان في أخبار القيروان)**: «إنَّ في صفر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة (387هـ) عقد باديس بن منصور بن بلكين صاحب (إفريقية) لعمِّه حمَّاد بن بلكين على أشير، وخرج إليها فاتَّسعت ولاية حمَّاد وكثر دخله وعظم شأنُه، واجتمع له العساكر والأموال فبنى في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة القلعة التي بجبل عجيسة بإزاء مجانة ـ كما

مرَّ ـ ويقال لها (**قلعة بني حماد**)، وهي خراب الآن ـ كما سبق ـ، ولما بنىٰ حمَّاد القلعة نقل إليها أهل حمزة وجربة وأكثر أهل (**المسيلة**)، وكان يعظِّم العلماء فرحل إليها كثير منهم، فصارت بلدا مستبحرة كثيرة التُّجار، وكان أظهر السُّنَّة وقتل الرَّافضة ورضي عن الشَّيخين وبقي تحت ابن أخيه باديس بن منصور بن بلكين إلىٰ سنة خمس وأربعمائة، فأظهر الخلاف علىٰ باديس وخرج عن طاعته وخلعه وصار كل منهما بجموعه، واقتتلا في أوَّل جمادىٰ الأولىٰ سنة ست وأربعمائة (406هـ) فانهزم حمَّاد هزيمة شنيعة بعد قتال شديد، والتجأ إلىٰ قلعة المغيلة، ثم سار إلىٰ دكَّة نهبها ونقل منها الزَّاد للقلعة المذكورة وعاد إليها وتحصَّن بها، وباديس نازل بقربها محاصرا لها ودام ذلك إلىٰ أن توفي باديس فجأة نصف ليلة الأربعاء آخر ذي القعدة سنة ست وأربعمائة (406هـ) ـ كما مرَّ ـ وتولَّىٰ بموضعه ابنه المعزُّ فاستمرَّ حماد معه في الخُلف كأبيه باديس، فاقتتل معه في سنة ثمان وأربعمائة (408هـ) في تيني أو ينتي فانهزم حماد هزيمة قبيحة بعد قتال شديد وبعدها اصطلح مع المعزِّ علىٰ أن يقتصر علىٰ ما في يده، وهو عمل ابن علي وما وراءه من (أشير) و(تاهرت)، فاستقرَّ له ذلك واستقر لابنه قائد المسيلة وطبنة ومرسىٰ الدَّجاج وزواوة ومقرة ودكة وغير ذلك، وبقي حماد وابنه القايد كذلك حتَّىٰ توفي حمَّاد في نصف سنة تسع عشرة وأربعمائة (419هـ).

ثمَّ استقرَّ في الملك بعده ابنه القائد إلىٰ أن توفي سنة ست وأربعين وأربعمائة (446هـ) في رجب.

ثم ولي ابنُه محسن بن القائد فأساء السِّيرة وخبط وقتل جماعة من أعمامه، ثم خرج عن طاعته ابن عمِّه بلكين بن محمد بن حماد، واقتتل معه فقتل بلكِّين محسنا المذكور

وملك بموضعه في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربعمائة (447هـ)، وبقي كذلك إلى أن غدره النَّاصر بن علناس بن حماد وأخذ منه الملك في رجب سنة أربع وخمسين وأربعمائة (454هـ)، ثم ملك النَّاصر بموضعه واستقرَّ في الملك إلى أن مات سنة إحدى وثمانين وأربعمائة (481هـ)، ثمَّ ملك بعده ابنُه المنصور بن النَّاصر وبقي في الملك إلى أن توفي سنة ثمان وتسعين وأربعمائة (498هـ)، ثم ملك بعده ابنه باديس بن المنصور وأقام مدَّة يسيرة وتوفي، ثم ملك بعده أخوه العزيز بالله بن المنصور، وبقي في الملك إلى أن توفي، ولم يقع لي تاريخ وفاتها، ثم ملك بعده ابنه يحيى بن العزيز بالله وبقي في الملك إلى أن غزاه عبد المؤمن بن علي من المغرب الأقصى وملك (بجاية) قال ابن الأثير في (**الكامل**): «وذلك سنة سبع وأربعين وخمسمائة (547هـ)» وهو آخرهم.

فجملة ملوك البلكانية أهل الفرقة الأولى اثنان وعشرون **تسعة بـ(إفريقية)**: «وهم زيري، وبلكين، ومنصور، وباديس، والمعزُّ ـ وهو الذي قطع الخطبة بالعلويِّين وجعلها بالعباسيِّين، ونصب الرَّاية السَّوداء ـ وتميم، ويحيى، وعلي، والحسن، **وأربعة بغرناطة** وهم: زاوي، وحبوس، وباديس ـ صاحب اللعب الذي يقال له باديس ـ وعبد الله **وتسعة ببجاية** وهم: حمَّاد، والقائد، ومحسن، وبلكِّين، والنَّاصر، والمنصور، وباديس، والعزيز، ويحيى.

الفرقة الثانية من صنهاجة لمتونة وهم الملثمون.

الدولة السادسة

بنومرين[1]

فدخلها في رجب سنة (761هـ) وخلفه أبو حمُّو في أشياعه إلىٰ (**المغرب**) فنزل إلىٰ (**قرسيف الغربي**) قصر وانزمار بن عريف بتخوم ملوية وخرَّبه، وأخذ ما وجد فيه حقدا علىٰ وانزمار وقومه بولايته لـ (**بني مرين**)، وتخطىٰ إلىٰ وطاط فعاث في نواحيه وانقلب إلىٰ أنقاذ فبلغ أبا سالم خبرهم وما فعلوه بعمله، فعقد لأبي زيَّان محمد أحد حفدة أبي تاشفين ـ وكان أبو زيان يعرف بالقبي ـ علىٰ (**تلمسان**)، وأنزله بالقصر القديم وعسكرَ عليه زنَّاتة المشرق كلَّهم واستوزر له ابن عمِّه عمر بن محمَّد بن إبراهيم، وأعطاه عشرة أحمال من المال دنانير ودراهم ودفع إليه الآلة، وعقد لأبي العباس علىٰ (**قسنطينة**) ولأبي عبد الله علىٰ (**بجاية**)، وأعطاهما حملين من المال وانكفَّ راجعا إلىٰ (فاس) لسد ثغور المغرب، وحسم داء العدوِّ، فدخل (**فاس**) في شعبان من سنته، فلم يلبث إلا قليلا وإذا بأبي زيَّان رجع علىٰ إثره بعد أن أجفل من (**تلمسان**) ولحق بـ(ونشريس) وتغلَّب عليه **أبو حمُّو** وفضَّ جموعه، ولحق بالسلطان أبي سالم واستقلَّ أبو حمو بملك (**تلمسان**) ثمَّ حصل السلم بين أبي سالم وأبي حمو واصطلحا، وشرع كل

---

(1) يوجد هنا بتر هام يشمل القسم الأخير من الجزء الأول والقسم الأول من الجزء الثاني، وهو يهم الدول التالية: المرابطون والموحدون، وبنو زيان، وقسم من دولة بني مرين.

واحد في تمهيد بلاده، ووفد عليه بمجلسه ثلاثة رجال واحد مكي والآخر مدني والآخر مقدسي، فقال المقدسي: «يا أمير المؤمنين قد علمت أن النبي ﷺ قال: «**لا تشد الرِّحال إلا لثلاث** ... الخ»، وإنَّك يا أمير المؤمنين بفضل الله عليك أهل الثلاثة المواضع الشريفة شدوا إليك الرِّحال، فهذا مكي وهذا مدني وأنا مقدسي، فأعجبه ذلك وأجازهم إجازة عظيمة».

ووفد عليه بعض أهل السودان سنة (762هـ) بهديَّة من عند ماري جاطة حفيد مسنا موسىٰ سلطان السودان بهدية فيها زرافة وفيل، فأجازهم وقبِل الزَّرافة وردَّ الفيل، وقال: «أرجو ألا أكون من أصحاب الفيل»، ثمَّ إنَّه لما رجع من (**تلمسان**) لـ (**فاس**) انتقل من دار الملك للقصبة، واختطَّ بها إيوانا فخما لجلوسه بها لضيق قصوره بها، وقد ولَّىٰ عمر بن عبد الله بن علي أمانة البلد الجديد دار ملكه، وتزوَّج بأخته كل ذلك علىٰ يد الخطيب ابن مرزوق، ولما استولىٰ عمر علىٰ دار الملك حدَّثته نفسه الخبيثة بالتوثُّب علىٰ أبي سالم صهره، وعقد ذلك مع قائد الجند غرسية بن أنطول فأتىٰ بأخيه تاشفين الموسوس بن السلطان أبي الحسن ليلة الثلاثاء سابع عشر ذي القعدة سنة (762هـ) من مكانه بالبلد الجديد وخلع عليه، وألبسه شارة الملك وقرب له مركزه وأخرجه إلىٰ أريكة السلطان فأقعده عليها، وأكره شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء علىٰ البيعة له وجاهروا بالخلعان وقرعوا الطُّبول، ودخلوا إلىٰ مودع المال ففرضوا العطاء من غير تقدير ولا حساب، ومال أهل البلد الجديد من الجند بعضهم في بعض واختطفوا ما وصلوا إليه من العطاء وانتهبوا ما بالمخازن من السِّلع والعدَّة، وأضرموا النَّار في البيوت سترا علىٰ ما ضاع منها، وأصبح أبو سالم بمكانه من القصبة

فركب واجتمع إليه من حضره من الأولياء والقبائل، وغدا على البلد الجديد وطاف بها يريد منها منفذا فلم يجد، وصعب عليه الأمر وضرب معسكره بكدية العرائس خارج (فاس) لحصاره ونادى في النَّاس بالاجتماع إليه، وأضرَّته قائلة الهاجرة فنزل بـ (**فسطاط**) وصار النَّاس يذهبون عنه فوجا بعد فوج للبلد الجديد، وهو ينظر إلى أن ذهب عنه أهل مجلسه وخاصَّته، فطلب النَّجاة لنفسه، وركب في عدد من الفرسان مع وزيريه مسعود بن رح وسليمان بن داود ومقدم مواليه وجنده سليمان بن وانزمار، وطلب من ابن مرزوق الدُّخول في داره للتَّستر فدخل ومضى على وجهه، ولما غشيهم اللَّيل انفضُّوا عنه ورجع الوزير إلى دار الملك فتقبَّض عليهما عمر بن عبد الله وشريكه غرسية وابن ماسي بدار عمر وأشخص عليا بن مهدي ويدريجن في طلب أبي سالم فعثر عليه نائما في بعض المجاشر بوادي ورغة، وقد نزع لباسه اختفاء بشخصه، وتوارى عن العيون بمكانه، فتقبَّض عليه وحمله على بغل، وبلغ الخبر إلى عمر فأزعج للقائه شعيب بن ميمون بن ودرار وفتح الله بن عامر بن فتح الله وأمرهما بقتله وأخذ رأسه فلقياه بخندق القصب إزاء كدية العرائس، فأمر بعض جنود النَّصارى بذبحه وحمل رأسه في مخلاة فوضعه بين يدي الوزير والمشيخة يوم الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة سنة (762هـ)، واستقلَّ عمر بالأمر فنصب الموسوس يموِّه به على النَّاس وذوات الأمور إلى غايتها ولكلِّ أجل كتاب، ثمَّ فتك بابن أنطول شريكه قائد النَّصارى ثمَّ قام عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد على عمر بن عبد الله قادما عليه من (**تلمسان**) لإخلاص ملكهم من يده، فتلقَّته جماعة من بني مرين بسبو ونزلوا على البلد الجديد من (فاس) يوم السبت سابع محرم سنة (763هـ)، واضطرب معسكرهم بكدية العرائس،

وغادروا البلد بالقتال وراوحوها سبعة أيَّام والوفود والحشود تتزايد إليهم، ثمَّ برز لهم عمر بن عبد الله من السَّبت القابل وهو رابع عشر المحرم سنة التَّاريخ في مقدِّمة السلطان أبي عمر تاشفين الموسوس بمن معه من جنود المسلمين والنَّصارىٰ، ووكل بالسلطان من جاء به في السَّاعة فحصل بينهما قتال شديد، ثمَّ انفضّت جموع عبد الحليم، ورجع بأخوته لـ **(تازة)** وبقي عمر مستبدا بالأمر يولِّي هذا ويعزل هذا أميرا بعد أمير إلىٰ أن تمَّت له السَّنة.

ثمَّ قدم عليه الأمير أبو زيَّان محمد بن الأمير عبد الرحمن بن السُّلطان أبي الحسن المريني من **(الأندلس)** كان انفصاله منها في المحرَّم فاتح ثلاث وستين وسبعمائة، ووصوله لـ **(كدية العرائس)** منتصف صفر سنة التَّاريخ، وقد تلقَّاه عمر بن عبد الله بالأخبية وآلة الملك بطنجة، ولما حلَّ بـ **(كدية العرائس)** خرج للقائه عمر وضرب له فسطاطا واجتمع النَّاس عليه، فبايعه أوَّلا عمر ثمَّ بايعته النَّاس وتلوم هناك ثلاثا ودخل في الرَّابع لدار الملك، وحجر عليه عمر حتَّىٰ لا يكِلَ إليه أمرا ولا نهيا، واستبدَّ بالأمر دونه في كلِّ شيء وجعل عليه العيون والرُّقباء حتَّىٰ من حرمه وأهل قصره، فبلغ السلطان في الحجر مبلغ الصِّبيان، ونصب عمر نفسه لفصل الأمور وتجهيز الجيوش وحرب العدوِّ، فقاتل عبد الحليم وعبد المؤمن وعبد الرحمن بـ **(مكناسة)** وفضَّ جموعهم وأجلاهم من **(تازة)** لتفلالت ثمَّ قاتل كل معاند وعقد لعامر بن محمد علىٰ **(مراكش)** واستوزر مسعود بن ماساي ثمَّ ارتحل من **(فاس)** في شعبان سنة (763هـ) لقتال عبد الحليم بسجلماسة وزحف كلٌّ منهما بجيشه ووقع المصاف بتاغروطت عند فرج الجبل المفضي من تلول المغرب إلىٰ الصَّحراء، وهموا باللِّقاء أيَّاما، ومشىٰ بينهما

رجال العرب في الصُّلح فاصطلحا علىٰ أن يقتصر عبد الحليم علىٰ سلجماسة بلد أسلافه ولا يتعدَّاها ولا يطمع في شيء، ورجع عمر لـ (**فاس**) ودخلها في رمضان تلك السنة، ولما قام عبد المؤمن علىٰ أخيه عبد الحليم بسجلماسة.

وأخرجه عنها للمشرق إلىٰ أن قضىٰ فرضه ومات بقرب (**الاسكندرية**) سنة (766هـ)، طمع عمر في سجلماسة فبعث لها الوزير مسعود بن ماساي في ربيع سنة (764هـ) فاستولىٰ عليها لاختلاف كلمة أهلها ورجع لـ (فاس) لشهرين من حركته، ولازال عمر يدافع عن السُّلطان إلىٰ أن صار يتنفَّس الصعداء مع ندمائه، ومن يختصه بذلك من حرمه وحدَّثته نفسه باغتيال عمر المحجر عليه، وأمر طائفة من العبيد بالاغتيال به فأرسل بعض الحرم الرُّقباء له بذلك فجاءه عمر في حشمه وطرد عنه ندماءه، وتناوله عطا حتَّىٰ فاض فألقوه في بئر في روض الغزلان، واستدعىٰ الخاصَّة فأراهم مكانه وأنه سقط عن دابته، وذلك في المحرم فاتح ثمان وستين وسبعمائة، لستِّ سنين من خلافته.

ثمَّ استدعىٰ بأبي فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن وأجلسه علىٰ سرير علىٰ الملك بالقصر وبايعه وبايعته النَّاس، وفتحت الأبواب لبني مرين والخاصة والعامة فازدحموا علىٰ تقبيل يده، وكمل له الأمر فبادر الوزير عمر لتجهيز العساكر وفتح الدِّيوان ونادىٰ بالإعطاء، فارتحل بالسُّلطان عبد العزيز لمرَّاكش في شعبان سنة التَّاريخ، ونازل عامر بن محمد بهنتاتة ومعه أبو الفضل بن أبي سالم وعبد المؤمن بن أبي علي، وسعىٰ النَّاس في الصُّلح فحصل الصُّلح بين الفريقين ورجع لفاس في شوَّال سنته، ثمَّ إنَّ السُّلطان عبد العزيز لما رأىٰ عمر حجر عليه ومنعه من التصرُّف في شيء من أمره

ومنع النَّاس من النهوض إليه من أمورهم، تضرَّر وكانت أمُّه حاذرة عليه إشفاقا، وسمع بأنَّ عمر يريد التزوُّج بابنة أبي عنان وقال لأخيها نولِّيك أميرا وأنه مغتاله لا محالة، وأمره بالتحول عن قصره إلى القصبة، فركب أسنَّة الغدر لإضراره وحزم بالفتك به، وأكمن بزوايا داره جماعة من الرِّجال وأمرهم بالفتك به ثمَّ استدعاه إلى بيته للمؤامرة معه كعادته، فدخل معه وأغلق الخصيان باب القصر من ورائه، ثمَّ أغلظ له السُّلطان بالقول وعاتبه، وأتته الرجال من زوايا البيت فتناولوه بالسُّيوف هبرا وصرخ ببطانته بحيث أسمعهم فحملوا على الباب وكسروا أغلاقه فألفوا صاحبهم مضرَّجا بدمائه، فولوا الأدبار وانفضوا من القصر وانذعروا، وخرج السُّلطان إلى مجلسه فاستدعى خاصَّته وعقد لعمر بن مسعود المريني وشعيب بن ميمون الحشمي، ويحيى بن ميمون المولى، وكملت بيعته منتصف ذي القعدة سنة (768هـ)، وتقبض على عليٍّ بن عمر وأخيه وعمِّه وحاشيتهم وسر بهم واعتقلهم إلى أن قتلوا ليلا، ثم دوَّخ المغرب ومهما قام عليه أحد إلا أذلَّه واستأصله بالقتل، ونكب بعدة وزراء كيحيى بن ميمون المولى وعامر بن محمد وغيرهما، ثمَّ سأل ابن الأحمر أن يجهِّز له جيشا لارتجاع الجزيرة الخضراء وعليه العطاء فجهَّز له جيشا عرمرما سنة (770هـ) فارتجعها ابن الأحمر وكتب الله أجرها لمن أخلص في معاملته، ثم في سنة (771هـ) غزا (تلمسان) وأجفل عنها سلطانها أبو حمو موسى بجنوده للمشرق، فدخلها وزيره أبو بكر بن غازي ثمَّ دخلها أبو فارس عبد العزيز في إثره يوم عاشوراء سنة (772هـ)، ولما حل بقصرها وجد مكتوبا بالحائط ثلاث أبيات من شعر أبي حمو موسى وهي:

سـكناها ليـالي آمنينـا وأيّامـا تسـرّ النّـاظرين

بناهـا جـدُّنا الملـك المعـلىٰ وكنّـا نحـن بعـض الـوارثين

فلـما أن جلانـا الـدَّهر عنهـا تركناهـا لقـوم آخـرين

فأمر عبد العزيز بتبديلها فقالوا في تغييرها:

سـكناها ليـالي خـائفين وأيّامـا تسـوء النّـاظرين

بناهـا جـدنا شـيخ المعـاصي وكنـا نحـن شرَّ الـوارثين

فلـما أن جلانـا السَّـيف عنهـا تركناهـا لقـوم غـالبين

ونظير هذا ما وقع للشَّيخ الحسن اليوسي (رضي الله عنه)، فإنَّه لما رأىٰ البيت التي قيلت في مدح مسيلمة الكذَّاب وهي:

علوت بالمجد يا ابن الأكـرمين أبـا وأنـت غيـث لا زلـت رحمانـا

بدلها بقوله:

سفُلت بالكفر يا ابن الأرذلين أبـا وأنت شر الورىٰ لازلـت شـيطانا

واستقرَّ أبو فارس بـ (**تلمسان**) وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي العساكر والجنود وسرَّحه في أتباعه وجعل شواره إلىٰ وليِّه وانزمار، وفوَّض إليه في ذلك فارتحل من (**تلمسان**) آخر محرَّم من سنته، قال **أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون**: «وكنتُ وافدًا علىٰ أبي حمو، فلما أجفل عن تلمسان ودَّعته وانصرفت إلىٰ هنين للإجازة للأندلس، فوشىٰ بي بعض المفسدين إلىٰ السُّلطان عبد العزيز بأنِّي احتملت مالا للأندلس، فبعث جريدة من معسكره للقبض علي ووافوني بوادي الزَّيتون قبل مدخلي إلىٰ (**تلمسان**)، فأحضرني وسألني وتبيَّن كذب الواشي فأطلقني، وخلع عليَّ وأمرني بالنُّهوض إلىٰ رياح والقيام فيهم بدعوته وصرفهم عن طاعة السُّلطان **أبي حمو**، فنهضت لذلك ولحقت بالوزير

بالبطحاء وسرت معه إلى وادي ورك من بلاد العطاف، ثمَّ فارقته وسرت لرياح، فأدخلتهم تحت عبد العزيز وأبعدتهم عن **أبي حمُّو**، ثم رجع الوزير لتلمسان في ربيع الثَّاني من سنته، ومكث أبو فارس بـ **(تلمسان)** عامين وشهرين وثلاثة عشر يوما.

وكان عند أوَّل نشأته قد أزمنت به الحمى، بما أصابه من مرض النُّحول ولذلك لم يحتمله أبو سالم مع الأبناء لرندة، ولما شبَّ أفاق من مرضه وصلح بدنه ثم عاوده وجعه وقت مكثه بـ **(تلمسان)** وتزايد عليه نحوله واشتدَّ به الوجع فصبر له وكتمه خشية الإرجاف، فمات بـ **(تلمسان)** متودعا بين أهله وولده ليلة الثَّاني والعشرين من ربيع الثاني سنة (774هـ)، فدسَّ الحرم الخبر إلى الوزير **أبي بكر بن غازي**، فخرج على النَّاس وقد احتمل **محمد السَّعيد ابن** السُّلطان **عبد العزيز** على كتفه فعزى النَّاس عن خليفتهم لسبع سنين من خلافته، ثمَّ ألقى ابنه بين أيديهم فازدحموا عليه باكين متفجِّعين فبايعوه وقبَّلوا يده للبيعة، وأخرجوه للمعسكر، ثم أخرج الوزير شلو السلطان على أعواده وأنزله بفساطيطه وأمر النَّاس بالحراسة، وأذن في الرَّحيل فخرجوا أفواجا إلى المحلة ثم ارتحلوا لثلاث، وجدوا السير للغرب فنزلوا بـ **(تازة)** ثم جدوا السَّير لـ **(فاس)**.

ونزل ابن السُّلطان بدار ملكه وجلس للبيعة العامَّة بقصره وجاءته وفود الأمصار بالبيعة على العادة واستبد الوزير أبو بكر بن غازي بالأمر وحجبه بالقصر وحجره عن التَّصرف في سلطانه ولم يكن في سنِّ التَّصرُّف، واستعمل على الجهاد وجلس للفصل واشتغل بأمر العرب إبراما ونقضًا إلى أن اجتمع عليه أمير **(مراكش)** **عبد الرحمن بن أبي يفلوسن** وسلطان المغرب **أبو العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني** كلاهما قدما من الأندلس بإعانة **ابن الأحمر** لهما، وحاصراه بـ **(فاس)** الجديد إلى أن نزل

للسُّلطان **أبي العبَّاس أحمد بن أبي سالم** عن الملك ودخل **(فاسا)** وبويع به فاتح سنة (776هـ) وبايعه الوزير المذكور واستوزر **أبو العباس محمَّد بن عثمان** بن عمٍّ **أبي بكر بن غازي**، ثمَّ ظهر لأبي العباس في أبي بكر وصرفه للأندلس، فمكث بها شهرا ثمَّ رجع لغاسة، وأظهر الخلاف فجيَّش له أبو العباس جيشا عظيما، ونزل بـ **(تازة)** ففرَّت العرب أمامه ومعهم الوزير، فداخله وانزمار بن عريف بالإذعان، وأتوا به إلى السُّلطان فبعث به لفاس واعتقله بها ونزلت مقدمات العساكر **بوادي ملوية** فرعب منها صاحب **(تلمسان)** وسأل السِّلم فانعقد الصُّلح بينهما، ورجع لدار ملكه بـ **(فاس)** بعد أن جمع له العمَّال من **(الجباية)** ما رضي به، ولما حل بإيوانه اقتضى نظره قتل أبي بكر فقتله في سجنه بالرِّماح، واستوسع له الملك وأحكم عقد الصُّلح مع الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن صاحب **(مراكش)** وقتل **لسانَ الدِّين بن الخطيب** بالسجن ليلا خنقا بدسيسة سليمان بن داود والسُّلطان ابن الأحمر صاحب **(الأندلس)**، وأفتاه بعض الفقهاء حتَّى إنه أخرج من قبره بعد الدَّفن وأحرق إلى أن زال شعره واسودَّ بشره، والأمر لله، كلُّ ذلك سنة (776هـ).

وتمهَّد له الملك وذهب المنازع، ثمَّ فسد ما بينه وبين صاحب **(مراكش)** بمجاوزة صاحب **(مرَّاكش)** ودام القتال بينهما ثلاثة أشهر إلى أن سُعي في الصُّلح بينهما فاصطلحا على الحدِّ الأوَّل، وبقي كلٌّ في حدِّه ورجع أبو العباس لدار ملكه ومكث إلى أن نقض الصَّلح **عبد الرحمن** بمجاوزته الحد ثانيًا، فتحرَّك له أبو العباس وحاصره بـ **(مراكش)** خمسة أشهر إلى أن صالح بينهما ابن الأحمر صاحب **(الأندلس)** فاصطلحا إلى أن نقض الصَّلح صاحب **(مراكش)** بتعدِّيه الحدود وقتله لبعض الأعيان من أصحاب

أبي العباس فنهض أبو العباس من **(فاس)** بجيوشه العديدة وحاصره بـ **(مراكش)** تسعة أشهر إلى أن فرَّ عنه جيشه، وبقي في القصبة منفردا بولديه أبي عامر وسليم، وسأل منهما الاستماتة فأبيا، فصابحهم **أبو العباس** بالقصبة، فقاتلوا إلى أن قتلوا خاتم جمادى الأخيرة سنة (784هـ) لعشر سنين من إمارته على (مرَّاكش)، فدخل السُّلطان **(مراكش)**، وهدنها واستولى على سائر المغرب، ودفع المنازع ثمَّ رجع لـ **(فاس)** فائزا بالغنيمة ظافرا بالمغرب، فمكث بها ثمَّ نهض لـ **(تلمسان)** لكون السُّلطان **أبي حمو** في غيبته لـ **(مرَّاكش)** جاء للمغرب وعاث فيه وحاصر **(تازة)** سبعة أيَّام، وخرَّب قصر الملك بها ومسجده المعروف بقصر تازروت، فسمع به أبو حمو فرجع لـ **(تلمسان)** وأخذ أهله وأجفل عنها للمشرق فجاءها أبو العبَّاس ودخلها، وأقام بها أيامًّا، ثمَّ هدم أسوارها وقصور الملك بها، أغراه على ذلك وانزمار بن عريف شيخ سويد جزاءً بما فعله أبو حمو في تخريب قصر الملك بـ **(تازة)**، ومسجده وقصر وانزمار، وهو قرسيف الغربي الذي بتخوم **(ملوية)**، ثم خرج **أبو العباس** من **تلمسان** في اتباع **أبي حمو**، ونزل على مرحلة منها، فبلغه الخبر بأن ابن عمه **موسى بن أبي عنان** جاء من **(الأندلس)** للمغرب وخالفه لدار الملك، فرجع وجد السِّير لدار ملكه فلما بلغ **تاوريرت** بلغه الخبر بدخول السُّلطان **موسى بن أبي عنان** لـ **(فاس)**، وحلوله بدار الملك فزاد لملوية وتردَّد في رأيه، هل يذهب لسجلماسة أو يزيد لـ **(فاس)** ؟ ثمَّ عزم على المغرب ونزل بـ **(تازة)** وأقام بها أربعة أيَّام، ثمَّ زاد للرُّكن فانتهبت محلَّته وأضرمت النَّار في خيامه وخزائنه، وهو ينظر وهمُّوا بقبضه فرجع لـ (تازة).

وكان السلطان **موسى بن أبي عنان** دخل سبتة غرة صفر سنة (786هـ)، ودخل

(فاسا) في عاشر ربيع الأول من سنته وبويع بها، ولما رجع **أبوالعباس** لتازة كتب إلىٰ ابن عمه السُّلطان **موسى بن أبي عنان** يقول له: تذكَّر ما كنَّا عليه سابقا من العهد أنَّ من تولَّىٰ يجيز صاحبه للأندلس، فكتب له بالقدوم علىٰ ذلك فلمَّا وصله قيَّده وبعثه للأندلس واستولىٰ السلطان **موسى بن أبي عنان بن أبي الحسن المريني** علىٰ ملك المغرب سنة (786هـ)، وظفر بالوزير محمَّد بن عثمان، فاعتقله أيَّاما ثمَّ امتحنه، ثمَّ استصفاه من الأموال وقتله ذبحا بسِجنه، والله وارث الأرض ومن عليها، وفرَّق أشياعه وبقي في الملك يتصرَّف بما شاء، ثمَّ قام عليه بغمارة **الحسن بن النَّاصر بن** السلطان **أبي عليٍّ** فجهَّز له العساكر مع **مهدي بن ماساي** أخي الوزير مسعود بن ماساي، ثمَّ رام الظَّفَر بوزيره مسعود فلم ينل شيئا وذهب مسعود لدفع الحسن الثائر بغمارة، وقبل وصوله اعترىٰ السُّلطان موسىٰ بن أبي عنان مرض فهلك ليوم وليلة من مرضه لثلاث سنين من خلافته، وكانت وفاته في جمادىٰ الأخيرة سنة (789هـ) واتهمَّ النَّاس يعيش بن ماساي أخا الوزير بأنَّه سمَّه، ثمَّ بادر يعيش ونصَّب ابن عمِّ السلطان موسىٰ للمُلك وهو المنتصر بن السلطان أبي العباس، وبلغ الخبر للوزير مسعود، فرجع فورا للقصر، وقتل **السَّبيع محمد بن موسى** من طبقة الوزراء، وبقيت المملكة في استقلاله وبعث لابن الأحمر بـ **(الأندلس)** بأن يبعث السُّلطان أبا العباس لملكه، ثمَّ ظهر له لأمر له فيه فائدة وقال له: لا تبعث أبا العباس وإنَّما ابعث لنا الواثق **محمد بن أبي الفضل ابن** السلطان **أبي الحسن المريني**، فبعث له فلم يظهر له منه شيء، ولم يدعه يدخل لدار الملك وحصل بينه وبينه قتال وتقبَّض علىٰ جميع أعدائه، فمنهم من اعتقله ومنهم من قتله ومنهم من نفاه للأندلس وغيرها، ثمَّ استدعىٰ موسىٰ الحسن بن النَّاصر الثَّائر بغمارة للقدوم لدار

الملك ليتولَّى الملك وكلُّ ذلك خديعة منه فلمَّا جاءه اعتقله أيَّاما، ثمَّ أجازه للأندلس وصار الأمر له والسُّلطان المنتصر بن أبي العباس إنَّما يموِّه به ثمَّ قدم السُّلطان أبو العباس من (**الأندلس**) لطلب ملكه فملك (**سبتة**) ثمَّ زاد لـ (**طنجة**) وبها صالح بن رم ومعه الرَّئيس الأبكم، فصعبت عليه فسار عنها لأصيلا فدخلها، فجاءه الوزير مسعود في الجيوش العظيمة فخلى عن أصيلا وصعد لجبل الصَّفيحة وتحصن به فحاصره به شهرين، فبعث السلطان أبو العباس ابنه أبا فارس لونزمار بن عريف وذهب لتازة فأطاعه أهلها، ثمَّ زاد به لصفرو فأطاعه أهله ثمَّ قام يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين من المعقل بدعوة السُّلطان أبي العبَّاس، وشنَّ الغارات ما بين (**فاس**) و(**مكناسة**) وحاصر أخاه بـ (**فاس**) الجديد، فسمع الوزير بذلك ورجع إلى فاس والسلطان في أتباعه وتعرَّض للوزير أبو فارس بن السلطان فلم ينج الوزير إلا ذميما، وظهرت دعوة السلطان أبي العباس بـ (**مرَاكش**) واستولى أولياؤه عليها، ثمَّ بعث السلطان ابنه المنتصر لمراكش فاستولى عليها واستقل بها، ثمَّ نزل السُّلطان بالبلد الجديد وحاصره حصارا شديدا ثلاثة أشهر إلى أن دخله خامس رمضان سنة (789هـ) لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خلعه وقبض على الواثق وبعث به معتقلا لـ (**طنجة**) إلى أن قتل بها، وقبض على الوزير ابن ماساي ليومين من دخوله وعلى إخوته وحاشيته، وامتحنهم إلى أن هلكوا، وكان يمتحن ابن ماساي في كل بيت من بيوت بني مرين التي نهبها بعشرين سوطا إلى أن تجاوز الحدَّ، ثم قطعت أربعته فهلك عند قطع الثَّانية، وذهب مثلا في الآخرين.

ثمَّ استوزر محمَّد بن يوسف بن علال واستقلَّ بالملك، ثمَّ استصرخ به أبو تاشفين

ابن السلطان أبي حمو موسىٰ بن يوسف الزياني علىٰ أبيه فصرخه بإعطاء الجيوش، إلىٰ أن قتل أباه بالغيران وراء جبل بني ورنيد المطلّ علىٰ **(تلمسان)** ـ كما مرَّ ـ وبعث مع الجيوش ابنه أبا فارس ووزيره ابن علال، ثمَّ لما مات أبو تاشفين برمضان سنة (795هـ) وسمع بموته السلطان أبو العباس خرج لـ(تازة) ثم بعث ابنه أبا فارس لتلمسان فاستولىٰ عليها، وأقام بها دعوة أبيه ثمَّ زاد الوزير لـ **(وهران)** و**(مليانة)** وما وراءهما من **(الجزائر)** و**(دلس)** إلىٰ حدود **(بجاية)** فملكها وانقرضت دعوة بني عبد الواد من المغرب الأوسط، والله غالب علىٰ أمره.

ولا زال السلطان أبو العباس بـ **(تازة)** إلىٰ أن اعتراه مرض، فكان فيه حتفه فتوفي في المحرم سنة (796هـ)، ثمَّ استدعىٰ المرينيون بابنه أبي فارس من **(تلمسان)** فبايعوه بـ **(تازة)** ورجعوا به إلىٰ **(فاس)** فاستقلَّ بالملك وتمهد له المغرب.

ومن ملوكهم السُّلطان أبو سعيد محمد بن أبي طريق بن أبي عنَّان الذي وفد من **(الأندلس)** علىٰ الملك الزَّياني بـ **(تلمسان)** عبد الواحد وقال له وقت السَّلام أنا في حسب يغمراسن حتَّىٰ تُملّكني **(فاسا)** ملكَ أسلافي فقال له: وصلت، وجهَّز له الجيوش وأعطاه الأموال والبنود والطُّبول وملَّكه فاسا كما مرَّ وذلك في العشرة الثانية أو الثالثة من القرن التاسع لكون تعيين العام غاب عن حفظي.

واستمر الملك فيهم إلىٰ سنة (895 هـ) فانقطع منهم بقيام الشَّريف السَّيِّد محمد بن علي بن عمران الإدريسي الجوطي آخر ملوكهم عبد الحق بن أبي سعيد المريني فخلعه وولي مكانه فابتدأ وانتهىٰ ملكهم بعبد الحق كما أن بني مروان بدمشق أولهم مروان وآخرهم مروان، وإنَّ آل سفيان أولهم معاوية (رضي الله عنه) وآخرهم معاوية بن

يزيد، وإنَّ آل العبَّاس أوَّلهم محمد السفاح الذي تنسب إليه الدَّراهم المُحمَّدية التي ذكرها الشَّيخ خليل في مختصره، في فصل التهمة وآخرهم محمد المعتصم الذي استشهد في وقعة اقتنار يوم السبت في ربيع الثاني سنة (556هـ) وهو آخر ملوكهم ببغداد، ولم يملكه واحد بعده للآن.

وبغداد بناه أبو جعفر المنصور العباسي سنة (145هـ) فمدة ملك بني مرين من عبد الحق بن محيو إلى عبد الحق بن أبي سعيد مائتا سنة وسبع أو ثمان وستون سنة ومدتها قبل استيلائهم على كرسي مراكش ست وخمسون سنة، والبقاء والدوام لله، ثم خلع الجوطي لسنته من ملكه وتولى بنو وُطاس (بضم الواو) وأولهم أبو عبد الله محمد الشيخ ابن الوزير أبي زكرياء يحيى بن زيان بويع آخر سنة (876هـ) وتوفي آخر رمضان سنة (910هـ) فمدة ملكه أربع وثلاثون سنة وفي أيامه انتقل من غرناطة إلى فاس الأشراف القادريون لتغلب الروم عليها ثم ملك بعده ابنه أبو محمد عبد الله الغالب، ثم أخوه محمد المنصور وآخرهم أبو حسون قتله محمد الشيخ أحد ملوك السعدية سنة (955هـ) فمدة ملكهم ثمانون سنة، وكان أهل فاس يحبون أبا حسون حبا شديدا، وبنو وطاس جعلهم العلامة المسناوي من بني مرين وإن أردت استيفاءهم واحدا بعد واحد، فعليك بـ (**نزهة الحادي لليفرني**)، و(**ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس**) للحافظ **أبي راس**.

ثمَّ انتقل ملك المغرب للدولة السعدية وأولهم أبو عبد الله القائم بأمر الله الشريف محمد الشيخ بويع سنة (918هـ) بسوس بقرية دادس قرب ترودانت باتفاق أقطار سوس بعد ندب الصالحين لهم بذلك، فنزع من يد النصارى أقادير وسواحل سوس

وتوفي سنة (923هـ) ثم تولى ابنه أبو العباس أحمد الأعرج ثم محمد الشيخ الذي قتل أبا حسون الوطاسي، وغزا تلمسان كما مر، ثم انتقلوا لمراكش فنقلوا جثة ملكهم الأول ونقلوا أيضا معه الشيخ محمد بن سليمان الجزولي مؤلف دلائل الخيرات، ثم ولي عبد الله الغالب سنة (964 هـ)، ثم ابنه محمد فقام عليه عمه أبو مروان عبد المالك وخلعه وبايعته كافة الناس، فلما رأى محمد ذلك خالفه وخرج عليه فجهز إليه العساكر لنظر أخيه مولاي أحمد الذهبي، ولما ضاق الحال على مولاي محمد أجاز البحر مستغيثا بطاغية النصارى فأمده بجيوش عظيمة لنظر بستيان البرتغالي على أن تكون السواحل للطاغية وما عداها للمسلمين، فعبر بستيان البحر بجنوده وكانت مائة ألف وعشرين ألف مقاتل، ونزل بتهدارت، فطار الخبر لأبي مروان مولاي عبد الملك فرحل نحوه، ثم كتب له: «أني رحلت إليك ستة عشر مرحلة أما ترحل مرة واحدة» غرضه إبعاده عن البحر، فرحل بستيان ونزل بوادي المخازن بقرب قصر كتامة وخلف النهر وراءه وجعل عليه قنطرة وأتى المسلمون للجهاد من كل فج عميق وفي الليلة التي صبيحتها المعركة دس مولاي عبد الملك كتيبة من الخيل للقنطرة فهدموها والنهر لا مشرع له ومن الغد اشتد القتال وأظلم الجو بدخان بارود المدافع والبنادق فمات السلطان مولاي عبد الملك في الصدمة الأولى وكتم أمره مولاه رضوان (رحمه الله) وصار يقول للأجناد قال أمير المؤمنين كذا وأمر بكذا وبتقدم فلان وبتأخر غيره وذلك سنة (986هـ)، ووقع الحرب ساعات طويلة ثم ولى النصارى الأدبار، وقتل بستيان البرتغالي وقصدوا القنطرة، فلم يجدوا لها أثرا ولم ينج منهم إلا القليل، وبحث المسلمون عن مولاي محمد فوجدوه غريقا في الوادي، فأخرج وسلخ جلده وملؤوه تبنا

وطيف به بمراكش وغيرها ووجد في القتلىٰ من أصحابه العلامة **أبو عبد الله محمد بن عسكر** مؤلف (**دوحة الناشر**) كان دخل معه أرض الروم، وقتل في المعركة وأسر من النصارىٰ زهاء مائة ألف ففداهم طاغيتهم الأعظم وقال لهم: لِمَ لِم تملكوا مدن السواحل قبل القتال؟ فقالوا: أبىٰ ذلك الأمير الذي معنا، فأحرقهم بالنار.

قال الحافظ **أبو راس** في (**سينيته**):

ومـا سـوىٰ ذاك ممـا أخـذوه لنـا	كقـادير ومـا حولـه مـن المـرس
محمـــد وابنـــه رداه قاطبـــة	وطهرت به مـنهم أراضي سـوس
وبسـتيان أخـرىٰ بالمخـازي لقـد	مـن أبي مـروان ابـتلىٰ بـالتعس

ويقال: إنَّ الروم لما فنىٰ رجالهم في غزوة (**وادي المخازن**) أمر أساقفتهم بإباحة الزِّنىٰ ليكثر النَّسل، ورأوا أن ذلك من تقديم دينهم ونصرة ملتهم.

ثمَّ ولي بعد أبي مروان أخوه السُّلطان الأعظم أحمد الذَّهبي فدوَّخ (**المغرب**) و(**السودان**) وبنىٰ **البديعَ** بـ (**مراكش**)، ولما أتمَّه وضعَ مهرجانا أكل فيه سائر الأقطار، وكان فيمن دخل رجل من البهاليل ممَّن له إشارة في الغيب، فقال له **الذَّهبي** علىٰ طريق السُّخرية كيف رأيت دارنا يافلان، فقال إذا هدمت صارت كدية كبيرة من التراب، فوجم لها الذَّهبي وتطيَّر، وقد ظهر ذلك علىٰ يد السُّلطان **إسماعيل بن علي** فإنه هدم البديع لمائة عام وسبعة عشر سنة بنائه لموجب يطول ذكره حتَّىٰ صار خاويا علىٰ العروش ومرعىٰ للمواشي ووكرا للبُوم ولم تبق بلد في المغرب إلا ودخلها شيء من أنقاضه ولاسيما (مكناسة الزيتون) ولو صرف **الذَّهبي** ما أفسده عليه في غزوة (**سبتة**) لفتحها، لكن الله لم يرد ذلك، ونظير ما وقع للذهبي ما وقع لمنصور بن أبي عامر

المعافري صاحب المؤيد الأموي فإنه لما اختط **(الزَّاهرة)** بالأندلس في أواخر القرن الرّابع وأتمَّ بناءها مرَّ بها وليٌّ من أولياء الله المكشوف لهم حجاب الغيب وقال لها: يا دار منك في كل دار، فسلَّط عليها أيدي العدو فهدمها، إلى أن نقل بعض أنقاضها للعراق، وتهدَّد الذَّهبي أهل **(فاس)** برسالة عظيمة يخوِّفهم فيها، فأجابه عالمها الأديب وفقيهها الأريب النجيب السيد محمد بن إبراهيم المدعو **غازي** برسالة لا نظير لها في الوجود، ولا تصدُر إلا من أئمة الحقِ والشُّهود ولولا طولها لجلبتُها، وجهَّز جيشا لباشته جودر لغزو (السُّودان) فأتى بعالم (تنبكتو) الشَّيخ أحمد بابا أسيرا موثوقا سنة (1004ه) ونهب داره، فذهب له منها ستَّة عشر مائة كتاب وهو أقل عشيرته في الكتب وحبسه بـ **(مراكش)** وفي أيَّامه ظهر الدُّخان بالمغرب وانتشر، وسببه أنَّ أهل السودان أتوا له بهدية وكان أهل السودان يشربون الدُّخان من قبل الإسلام ويستعملونه استنشاقا وشربا، حتَّى من لم يشربه منهم يقولون أنَّ به مرض في جوفه، وكان وقت إتيانهم بالهدية سنة (999هـ) فاستنبط له بعض الحذاق التَّاريخ من قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ (الدخان: 10) بترك أداة التَّعريف، فصار أهل الهدية مهما شرب أو شم إلا وناول ذلك لأهل مراكش المجالسين لهم، فعمَّت بلوته، وأمر السُّلطان المذكور بحرقه فحرق منه في يوم مائة حمل، وفي يوم آخر مائة ألف حمل، ويوم أكثر، ويوم أقل ليقطع مادَّة شربه وشمِّه فلم يزده إلا انتشارا، فقد كان أهل المغرب لا يعرفونه قبل ذلك.

قال **سجيم**: «وقد ظهر بالشَّام أول القرن الحادي عشر، وظهرت القهوة في القرن التَّاسع وظهر الأتاي بالمغرب أيَّام السُّلطان مولاي يزيد بن السُّلطان سيدي محمد بن عبد الله في أوائل القرن الثالث عشر»، وقال بعضهم ظهر أيَّام السلطان زيدان في القرن

الثاني عشر، بعثه له النَّصارىٰ الإنكليزيون هدية.

واعلم أنَّ الدُّخان والشمَّة قد اختلف الناس فيهما علىٰ ثلاثة أقوال: وهو الجواز، والكراهة، والمنع، وهو المعتمد، وألَّف الأئمة فيهما تآليف عديدة، ولشدَّة بلوتها وكثرة ضررهما قالوا فيهما: بأنَّ أرجح الأقوال وأشهرها وأعمدها المنع، وممَّن قال بالمنع العلامة عمر الزِّيادي، وألَّف في ذلك رجزا جليلا وهو:

الحمد لله العظيمِ القهرِ   حمدا يدوم بدوامِ الدَّهرِ
ثمَّ الصَّلاة وكذا التَّحية   علىٰ النبي أشرف البريَّة
محمَّد وصحبه والآل   علىٰ مرِّ الأيَّام واللَّيالي
وبعد فاسمع لمقال قد جلا   وقلته لما قد الفكرُ انجلا
في بدعةِ الدُّخان لما بانا   وأفسد الرِّجال والنِّسوانا
وظهر في سائر البلاد   واستعمله غالب العباد
أعزُّ من طعامهم والشرب   وظهر في شرقها والغرب
وأعجب الأمور يا موال   أنَّ الذي منهم فقير الحال
ما يملك في بيته رغيفا   وحاله بفقره ضَعيفَا
فانظر ترىٰ أولاده جياعا   وعقله من رأسه قد ضاعا
بشربه قد ضاعت العقول   وطالت الغفلة والذُّهول
يا ويحكم أتشربون جيفه   وقد جعلتمونه وظيفه
دخان مع ظلام مع نتان   وحرقه يلدغ في الأسنان
وإنه بكلِّ ذمٍّ قد وصف   ولم يزل شاربه في أخٍ وتف

وانظر له يطرطر لحيته ... في شربه لما يمدد بصوته

فقل لمن بخلفِه يقول ... ألیس إن الشرع يا جهول

مصرِّح بحرمة الإسراف ... مخالف يا عادم الإنصاف

دعه يكن فقيرا أو غنيا ... فليس هذا مصروف شرعيا

وغيرُ هذا قال أهلُ العلمِ ... قولا بالاتِّفاق يا ذا الفهم

يجب علينَا كلُّنا قبول ... قول الأطباء السَّادات العدول

بأنَّه إن أضرَّ شيءٌ يحرم ... من شربٍ كان هذا أو ما يطعم

قال السَّهاوي العالم القيلوبي ... أعظِم به من عالم طبيب

تراه في كل العلوم بحرا ... قال مُضرٌّ وحرام جهرا

وغيره كالقدوة اللقاني ... أفتى بحرمته لا كتماني

والعالم العلامة السهاوي ... الشيخ عيسى وكذا الشبراوي

وشيخنا البحر الطامي النويب ... العالم الحبر الذكي اللبيب

قال حرام ثم فيه صنَّفا ... رسالة سماعها فيه الشِّفا

وكم وكم من عالم عظيم ... أفتى وقال فيه بالتحريم

قول الأطباء العدول مستند ... بأنه يورث في العين الرمد

وقال قوم يورث الغشاوة ... فشربه منتهى الشقاوة

يسوِّد الأسنان باصفرار ... ويشغل الفم عن الأذكار

يضرُّ بالأعضاء عن يقين ... وهذه مصيبة في الدين

ويورث في الذَّكر استرخاء ... منه الرجال تهجر النساء

وهـــــذه مضـــــرَّة بـــــالخلق	وإن هـذا القـول قـول صـدق
وكـــل مَـــن يشـــربه يُقـــر	ويعـــترف بأنـــه يضـــر
فخيَّـــب الله لحـــاكم الســفل	لا شك أن العقول فيها الخبـل
لمـــا تقـــول إنَّـــه يضـــرُّكم	لم قطعـتم فيـه غالـب دهـركم
فخيَّـــب الله بحـــر الأنـــذال	وأخـاب مـن يفتـي بالضَّـلال
وأعــان مــن يفتــي بالمشــهور	وقـــول كـــل ناســـك مــبرور
لاسيَّما بـنصِّ أقـوال العـدول	لاسـيَّما مـا قالـه طـه الرَّسـولِ
مـــن أنَ كـــلَّ بدعـــة ضـــلالة	ومنهـــا ذا الـــدُّخان لا محالـــة
وكـــلُّ مـــن بغـــير ذا لا يعـــرف	فإنَّـــــه في قولـــــه مخـــــالف
وكلُّنـــا ننظـــر في القيامـــة	ومـــن عـــلى الحـــقِّ لـــه السَّـــلامة
ومن يكن في العلم يفتي باطلا	تراه في الحشـر حزينـا خـاجلا
أقـــول إنِّي عمـــر الزِّيـــادي	عبـدٌ لأهـلِ العلـم والرَّشـاد
ومـا مـرادي قـطّ إلا المغفـرة	لأنَّ أعـــمالي جميعـــا مقصـــرة

وتوفي أحمد الذهبي سنة (1012هـ)، ثمَّ تولَّى ابنه زيدان يوم موت أبيه، وفي وقته كان المجاهد العالم العلاَّمة السَّيد محمَّد العياشي المتوفى تاسع المحرم سنة (1051هـ) اغتاله بعض أندلس **(سلا)** وحزَّ رأسه وحمله لـ **(سلا)**، وقام عليه يوسف العنزوس بفجيج وغيرها من الصحراء بإعانة الشيخ محمد بن عبد الرحمن السهلي والشيخ [1] عبد

(1) **عبد القادر بن محمد السماحي الحمياني**: جد أولاد سيدي الشيخ المشهورين بثورة سنة 1864 – دفين الأبيض سيدي الشيخ- (جنوب وهران)، انتصر لزيدان بن أحمد المنصور الذهبي،=

القادر بن محمد الحمياني ظنًّا منهما أنَّه هو زيدان نفسه، واستمرَّ المُلك فيهم إلى سنة تسع وخمسين.ثم انقطع والدوام لله وحده، وجاء أسلافهم للمغرب في القرن الثامن وذلك أن أهل أدرا لما حجوا في القرن الثامن أتوا بأشراف الملوك السعدية من أرض الحجاز نظير إتيان أهل تفلالت بالشريف علي جد العلويين من الينبوع من مدشر بني إبراهيم في حدود سنة خمس وسبعين في القرن السابع، وإن أردت استيفاء الملوك السعدية واحدا بعد واحد فعليك بـ : (**النزهة الحادية**) لليفرني، و(**الزهرة الوردية في الملوك السعدية**) للحافظ أبي راس فإنه تكلم فيها من سنة (918هـ) إلى سنة (1059هـ).

وكوني لم أتمم ذكر الملوك المرينية والوطاسية والسعدية كغيرهم لذهاب من بقي منهم عن حفظي، وخروج الكتب المتكلمة عليهم عن يدي.

ثم ملك المغرب سنة (1063هـ) محمد الحاج ثم أقروم الشيباني ثم السملالي إلى أن نزعه منهم السلطان رشيد أول الملوك العلويين الذي أتى بعده أخوه السلطان مولاي إسماعيل، وهو بيد العلويين للآن.

=خلاف ما ذكره المؤلف وكان انتصاره له من الأسباب التي جرت عليه انتقادات واتهامات معاصريه ومن ضمنهم صهره أحمد بن القاضي بن أبي محلي الذي خصصه بعدة تآليف أظهر فيها ما ينسبه إليه من الانحراف على تعاليم الدين.

الدَّولة السابعة
الإسبانيون

الإسبانيون نسبة لإسبانيا (بقطع الهمزة المكسورة، وسكون السين المهملة، وفتح الباء الموحَّدة مِن أسفَل، وبعدها ألف ساكن) وقال أبو الفداء: «بكسر الباء الموحدة من أسفل، وبعدها ياء مثناة من تحت ساكنة، وكسر النون الموحدة من فوق، وفتح الياء المثناة من تحت، وفي آخرها هاء ألف مقصورة »، قاعدتهم القديمة ودار ملكهم القويمة، وأما الآن فقاعدة ملكهم **مادريد، وطليطلة**، والكلام عليهم في ستة مواضع:

الموضع الأول: في ذكر نسبهم.

اعلم أنَّ الإسبانيِّين نسبة لإسبانيا كما مرَّ، وهم من أولاد يافث وأتباعهم البطرك وهو الباب، وخلَّف يافث سبعة أولاد كما في التَّوراة، وهم: مومر، وياوان، ومادي، وماغوغ، وطوبال، وماسخ، وطيراش، ولاشكَّ أنَّهم فرقة من الرُّوم لا مِن الفِرنج بدليل ما ذكره **شهاب الدِّين الخفَّاجي** على **الشِّفا** مِن أنَّ كتاب النبي ﷺ الذي كتبه لهرقل عظيم الرُّوم ويقال له بالرُّومية أراقليوش يدعوه إلى الإسلام، هو الآن عند ملك طليطلة وقد أراه لابن **الصائغ النَّحوي** لما أوفده عليه سلطان مصر **قلاوون**، قال الحافظ أبو راس في (**غريب الأخبار**): «وقد سمعت أنَّه عند (النَّامسة) المجاورين للموسكو

(هـ). ومعلوم أنَّ الإسبانيين هم الذين أخذوا منَّا طليطلة»، وبدليل ما ذكره أبو محمد صالح بن عبد الحليم في (**الأنيس**) من أنَّ النَّاصر بن المنصور الموحدي لما غزا الأندلس بجيش يضيق عنه الفضاء وسمع الفونش وملوك النَّصارىٰ بذلك واهتزَّت منه ملوك الرُّوم جاءه منهم **بينونة** لـ(إشبيلية) مستسلما خاضعا بهديَّة عظيمة مقدما بين يديه كتاب النبي ﷺ الذي كتبه لهرقل عظيم الرُّوم يستشفع به، ويُعلمه أنَّ الملك عنده موروث أكابرا عن أكابر، وأنَّ هذا الكتاب عندهم يتوارثونه محفوظًا مطيَّبا في حلَّة خضراء في وسط صندوق من ذهب مملوءا مسكًا وطيبا، تعظيما وإجلالا لحقه، فقضىٰ له أمير المؤمنين مآربه وذلك سنة (607هـ) كما مرَّ.

وقد بعث النبي ﷺ كتابه لهرقل المذكور مع صاحبه (دِحية الكلبي) فألقاه ببيت المقدس فأعطاه دحية (رضي الله عنه) للحارث بن شمر الغسَّاني عظيم بصرىٰ، وهو أعطاه لهرقل عظيم الرُّوم، ولما قرأه سأل أبا سفيان عنه فقال قريش الحاضرون هناك مع أبي سفيان: لقد أَمِرَ أمْر ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر، كما في **البخاري**، وأنَّ الرُّوم هم بنو الأصفر.

قال الحافظ أبو راس في (**عجائب الأسفار**): «والإسبانيون هؤلاء من اللَّيطينيِّين وهم الكتيم وكانوا من أهل ملوك العالم وقاعدتهم الأولىٰ (فرنسا) ثمَّ تلاشت وبقي النَّسب إليها، وهذا من وضع العامَّة، ثمَّ صارت قاعدتهم (إسبانيا) ثمَّ صارت (مدريد) وقال في زهر الشماريخ اللَّيطينيون من ولد ليطن بن يونان. وقال فيه في موضع آخر: إن الليطينيين وهم الكتيم المعروفون بالرُّوم من بني يونان، وقال في موضع آخر: والمحقِّقون ينسبون الروم جميعا إلىٰ اليونان الإغريقيون، واللَّيطينيون

ويونان معدود في التَّوراة من ولد يافث لصلبه واسمه فيه ياقان.

وعن البيهقي أن يونان بن علجان بن يافث، ولذا يقال لهم العلوج، وإنَّ الشُّعوب الثَّلاث من يونان والليطينيون من ولد ليطن بن يونان، وإنَّ الإسكندر الرُّومي منهم، والفرنج من ولد عصرة بن كومر بن يافث وصقلب بن عصرة وقوط بن ماغوغ بن يافث».

وقال في موضع آخر: «وأمَّا الفرانسيس فيهم من ولد إريغ بن كومر بن يافث وفي التَّوراة، وفي الإصحاح العاشر أنَّ اللّيطينيين وهم الكتيم من ولد كتيم بن يونان بن يافث بن نوح.

فأنت ترىٰ أنهم من أولاد يافث بلا خلاف وإنما الخلاف في كونهم من ولد يونان بن يافث لصلبه ولد كتيم بن يونان بن يافث أو من له لطين بن يونان بن يافث أو من ولد يونان بن علجان بن يافث.

ومرجع الأقوال إلىٰ قولين وهما: كون يونان ولد يافث لصلبه أو حفيده، وعلىٰ الثاني هل هم من ولد لطين بن يونان بن يافث إلىٰ ولد كتيم بن يونان بن يافث؟

وكان للروم استيلاء علىٰ جانب البحر الرومي من (الأندلس) إلىٰ (القسطنطينية) و(المغرب) وكانت لهم حروب مع جميع أجناس العالم يطول شرحها وكانوا أولا علىٰ دين الصابئة إلىٰ أن ظهر الحواريون بأرضهم ودعوهم لدين المسيح عيسىٰ عليه السلام فتسلَّطوا علىٰ الحواريِّين مرَّة بعد أخرىٰ، ثمَّ أخذوا بدينهم، وأوَّل من أخذ به قسطنطين المظفر بن ولتيوس وأمه هيلاني بنت مخشميان أو مخشمليان قيصر وسمُّوا **نصارى** نسبة

لناصرة القرية التي فيها مسكن عيسىٰ بن مريم عليهما السَّلام لما رجع مع أمه من مصر، ونصراني قيل نسبة للنَّاصرة وقيل للنصارىٰ. وقيل من أبنية المبالغة ومعناه أنَّ هذا الدِّين في غير عصابة صاحبه فهو دين من ينصره من أتباعه، وقال **قتادة**: نصراني يعود إلىٰ ناصرة، لكنَّه في غير النسب وقال **السعد**: كان عيسىٰ عليه السَّلام يسكن بقرية من ساغين إحدىٰ جبال الرُّوم تسمىٰ ناصرة، وفي القاموس نصرانة قرية بالشَّام، ويقال لها ناصرة ونصورية أيضا ينسب إليها النَّصارىٰ، ومفرد النَّصارىٰ عند **سيبويه** نصران ومؤنثه نصرانة، وقال **الخليل**: واحده نصري كمهري ومهارىٰ، ونصارىٰ ممنوع من الصَّرف وهم قوم عيسىٰ وتعرف القياصرة ببني الأصفر، وعيسىٰ عليه السلام من بني إسرائيل من سبط يهود بن يعقوب عليه السلام، وعمران أبو مريم عليها السلام، من ولد ماتان بن يوحنا بن يوشيا السادس عشر من ملوك بني سليمان، ولما تنصر **قسطنطين** حمل اليهود علىٰ النَّصرانيَّة فتنصَّروا ظاهرا، واطَّلع عليهم بامتناعهم من الخنزير، فقُتل كلُّ من أبىٰ.

ثمَّ بنىٰ (برنيطة) وسمَّاها باسمه، وتنصُّرُه لثلاثمائة وثمان وعشرين من ميلاد المسيح عليه السلام، وهو الذي بنىٰ (قسطنطينية) فهي منسوبة إليه، واختُلف في سبب إسلامه علىٰ ثلاثة أقوال مع شدَّته قبل ذلك علىٰ إذاية أهل دين عيسىٰ عليه السلام فقال الحافظ أبو راس في (**عجائب الأسفار**): «سببه أنه كان به الجذام بدعوة البطرك وما عليه فقيل له شفاؤك في دماء الأطفال تغتسل به، فجمع منهم عددا ثم رقَّ لهم وأطلقهم، فرأىٰ في منامه من يحضُّه علىٰ التحلُّل من البطرك، فأحسن له ورده من نفيِه، فبرِئ، فحينئذ تنصَّر» وقال **أبو الفدا**: «سببه علىٰ ما زعمته النَّصارىٰ أنَّه بعد ستِّ سنين خلت من

ملكه، ظَهر له في السَّماء شبه الصَّليب فآمن بالنَّصرانية» وقال **ابن الخلدون:** «كانت هيلانة أمُّ قسطنطين صالحة، وأخذت بدين المسيح فحملت ابنها عليه» اهـ .

ويمكن الجمع بين الأقوال بأنَّه لما بَرِئ من الجذام، حملته عليه فهو أول من تنصَّر من الروم، وأوَّل من تهوَّد من حِميَر أبو كرب السَّعدي بن صيفي، وأوَّل من كسا البيت تبعُ بن وردع كما في (**اللّباب**)، وعلىٰ رأس ألف سنة من موته بعث رسول الله ﷺ، وأوَّل من غزا المغرب من ملوك المشرق ياسر بن عمر بن يعفُر المشهور **بياسر أنعم**، وابنُه سمرقند هو الذي بنىٰ (سمرقند) شرقي بغداد علىٰ مسافة ستة أشهر، وأوَّل من توِّج بالذَّهب من الملوك حِميَر بن سبا، وأوَّل من اتخذ الخمر ملوك السِّريانيِّين بـ (بابل)، كما قاله **داهر** مؤرخ الفرس، وقال **هرشيوش** مؤرخ الرُّوم كان سور بابل في دور ثمانين ميلا، وارتفاعه مائتا ذراع وعرضه خمسون ذراعا كله مبني بالآجر والرَّصاص، وفيه مائتا باب من النُّحاس، وفي أعلاه مسكن الحرس والمقاتلة في سائره من الجانبين، وحوله خندق بعيد المهوىٰ فيه ماء الفرات، ولما غلب كليوش ملك الفرس علىٰ بابل هدمه، وأول من بنىٰ البنيان وسقَّفه بالخشب بنو أميم أهل العراق والفرس من ذريتهم، وأوَّل من غزا الرُّوم من ملوك اليمن العرب علقمة بن مرثد وهو أوَّل من اتَّخذ الحجاب، وأول من ملك الأرض من ولد نوح كنعانُ بن كوش بن حام، وأوَّل من تكلم بالعبرانية عابر بن ارفخشد ومنه انقطعت السريانية، وأوَّل من وضع الكبس العجمي غرياهوا من ملوك بني داوود من بني إسرائيل، الذي هو ستَّة بعد أربعة تزيد يوما علىٰ الماضية، حساب ربع كل يوم في كلِّ سنة الذي اقتضاه حساب سير الشَّمس عندهم، وأوَّل ملوك الأرض كيوموت بن آدم أبي البشر (عليه السلام)، وأوَّل من

أظهر السروج والركاب والسلاح وعدد الحرب خمشيد» اهـ.

ولما مضت إحدىٰ عشرة سنة لملك قسطنطين ذهبت أمُّه هيلاني، وقيل هيلانة، لبيت المقدس للزيارة، وسألت عن موضع الصَّليب فأُخبرت أنَّ اليهود ملؤوه زبلا فلزمتهم بإخراجه، وطرحه علىٰ الصَّخرة الشَّريفة ففعلوا إلىٰ أن استخرجت ثلاثة خشب، وسالت ماء ايتاها فقال الأسقف علامتها يحيي الميِّت ويبرئىٰ ذا العاهة إن مسَّته فصدق ذلك بالتَّجربة واتَّخذ النَّصارىٰ ذلك اليوم عيدا، يعرف عندهم بعيد الصَّليب وبنت ثمة الكنيسة المعروفة بالقمامة، ولما مضت عشرون سنة لقسطنطين من ملكه جمع ألفين وثمانية وأربعين أسقفا اختار منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا، فحرموا مذهب اريوس الاسكندرية، وانقسموا بعد التَّنصر في اعتقادهم إلىٰ ثلاث فرق: نسطور، ويعقوبية ـ أصحاب يعقوب البردغاي ـ وملكانية ـ أصحاب ملكا الذي ظهر ببلاد الروم ـ والقائلون بالتَّثليث منهم أشدُّ كفرا، واعتقاداتهم مشهورة وألَّف فيهم **ابن تيميَّة** كتَابًا ضخمًا فيه فوائد جليلة، ومثله **القُرطبيُّ** فإنَّه ألف في فِرقهِم والردِّ عليهم، وسبب فُرقتهم قصَّة عيسىٰ عليه السَّلام المفصَّلةُ في التواريخ، وذكرها **ابن التِّلمساني**، ونسب الرُّوم إلىٰ روملش باني رومة كما في (**الغرضِ المروم في أخبار التُّرك والرُّوم**) وغيره من المؤرِّخين، من ولد عجلان بن يافث ولذا يقال لهم العلوج ـ كما مرَّ ـ وقول بعض المؤرِّخين ومن تبعهم من ضعفاء المفسِّرين وأكثر الفقهاء في (**مبحث الجهاد**) أنَّهم من ولد نيسوس بن عطَّاس بن عيصوا بن إسحاق، وكذا قول يوسف بن كريون مؤرِّخُ اليهود أنَّهم من ولد الأصفر بن ليفار بن عيصو بن إسحاق قد أنكره المحقِّقون وأبوه، لأنَّ ابن حزم في (**جمهرته**) ذكر أنَّ «بني العيصو بادوا جملة، وأخطأ من قال أنَّ الرُّوم

منهم » وقال: «إنَّما الغلط وقع لهم من الموضع لكون موضعهم يقال له أروم، وفي التَّوراة أنَّ العيصو يقال له أروم ولذا يقال لهم بنو أروم ومعناه الجبل الذي لا نباتَ فيه فهذا سبب الغلط » ومثله **ابن خلدون** لأنَّه يُسأل عن كلِّ علم أربابُه.

واختلف في سبب تسمية الرُّوم القياصرة ببني الأصفر؛ فقيل إنَّ جدَّهم اسمه الأصفر وقيل لأنَّه كان أصفر اللَّون، وقيل لأنَّه كان بخديه صفورة، ابن الأثير في **(الكامل)**.

وأوَّل من اشتهر من ملوك الرُّوم غاقيوس، ثم مَلك بعده يوليوس، ثمَّ أغسطس وأصله بشينين عرب بشينين ولقبه **قيصر** ومعناه المبقور عنه لأنَّ أمَّه ماتت بالطَّلق فأبقر عنه وأخرج فلقب بقيصر، وصار لقبا لملوك الرُّوم، وكان يفتخر بذلك فيقول: «إني لم أخرج من الفرْج كغيري »، ثمَّ ملك طيباريوس، ثمَّ غانيوس، ثمَّ قلوذيس، ثمَّ نارون، ثمَّ ساسيانوس، ثمَّ طيطوس، وملك سبع سنين وغزا اليهود وأسرهم وباعهم، ثمَّ ذومطينوس، ثمَّ نارواس ثمَّ طرايانوس ـ وقيل غراطيانوس ـ ثمَّ اذريانوس ـ ومات بالجذام ـ ثمَّ أنطونينوس، ثمَّ مرقوس ـ وقيل قوموذوس وشركاؤه ـ ثمَّ قوموذوس ـ وخَنَق نفسه ومات بغتة، ثمَّ فرطنجوس، ثم سيوارس، ثم أنطونينوس الثاني، ثمَّ الاسكندروس، ثمَّ مكسمينوس ثمَّ غورذيانوس، ثمَّ دقيوس ـ ويقال له دقيانوس ـ ثمَّ غاليوس، ثمَّ غلينوس وولريانوس ـ وقيل اِسمه ولوسينوس ـ ثمَّ انفراد ولريانوس بالملك، ثمَّ قلوذيوس، ثمَّ اردفاس ـ وقيل أوليانوس ومات بصاعقة ـ ثمَّ قرونوس، ثمَّ قاروس، ثمَّ دقلطيانوس ـ وهو آخر عبدة الأصنام من ملوك الرُّوم ـ ثمَّ قسطنطين المظفَّر ـ المتقدم الذِّكر ـ وملك إحدىٰ وثلاثين سنة ومات في منتصف سنة (626هـ)

للإسكندر، ولما مات انقسمت مملكته بين بنيه الثَّلاثة، وكان الحاكم عليهم منهم قسطس، ثمَّ لليانوس وارتدَّ إلى عبادة الأصنام، وقاتل سابور ذا الأكتاف وانتصر عليه، وقتل في أرض الفُرس بسهم، ثمَّ يوقيانوس واصطلح مع سابور، ثمَّ والنَّطيانوس، ثمَّ أنوبنانوس، ثمَّ خرطيانوس، ثمَّ تاوذسيوس الثاني ـ وفي أيَّامه غزا فارسُ الرُّومَ، وانتبه أصحاب الكهف من كهفهم ـ ثمَّ مرقيانوس، ثمَّ والطيس، ثمَّ لاون الكبير، ثمَّ زنبون، ثمَّ اسطيتيانوس، ثمَّ قوقاس، ثمَّ هرقل ـ واِسمه بالرُّومية (**أراقكيوس**)، وكانت الهجرة النبوية في السنة الثانية عشر من ملكه وهو الذي بعث له النبي ﷺ مع صاحبِه دحية الكلبيِّ (رضي الله عنه) كتابَه يدعوه إلى الإسلام كما مرَّ » اهـ باختصار من أبي الفِدا.

الموضع الثاني: في بيان أرض الإسبانيين وحدودها.

اعلم أنَّ أرض الإسبانين هي جزيرة الأندلس بتمامها، وهي جزيرة واسعة بين البحر الرُّومي والبحر المحيط سمِّيت باسم من توطَّنها أولا وهو أندلس بن يافث بن نوح عليه السَّلام، ويقال لها العُدوة الأندلسية، ولها أربعة أبواب كما في حديثه ﷺ، وهي جزيرة الحرب (باب يسمىٰ طرطوش)، و(باب يسمىٰ وادي الحجارة)، و(باب يسمىٰ المريَّة)، و(باب يسمىٰ نوريَّة). وفي الحديث: (**الأندلس باب من أبواب الجنَّة**)، وفي الحديث: «**هي كلُّها مواضع رباط**»، وقد ورد فيها وفي فضلها أحاديث كثيرة ذكرها **أبو إسحاق الشاطبي** في (جمانه).

والأندلس كما في (**الخبر المعرب**) للحافظ **أبي راس**: «قسمان: قسم شرقي، وقسم غربي.

فالقسم الشَّرقي: هو الذي تصبُّ أوديته في البحر الرُّومي، وذلك مابين جزيرة تدمير إلىٰ سرقسطة.

والغربي: هو الذي تصبُّ أوديته في البحر المحيط أسفل ذلك الحدِّ، فالشرقيِّ يمطر الرِّيح الشَّرقية وهي ريح الصَّبا ويصلح عليها، والغربي يمطر بالرِّيح الغربية وهي الدبور، ويصلح عليها، فإذا استحكمت الرِّيح الغربية كثر مطر القسم الغربي والعكس بالعكس».

قال: «وصفة الأندلس كالشكل المثلَّث، الأولُ ركن بين الجنوب والمغرب حيث اجتماع البحرين عند (**صنم قادس**)، والثَّاني في بلد (**جليقة**) حيث الصَّنم الآخر مقابل جزيرة (**ابن غانية**)، والثَّالث بين مدينة (**يديونة**) ومدينة (**برديل**) من بلاد الفرنج قرب المحيط من البحر الشَّامي المتوسِّط، فيكاد يجتمعان في ذلك الموضع فتصير بلاد الأندلس جزيرة بينهما في الحقيقة، لولا أنَّه يبقىٰ برزخ بريَّة صحراء مسافة يوم للرَّاكب، ومنه المدخل للأرض الكبيرة التي يقال لها: الأبواب، وهي الأبواب الأربعة المتقدِّمة، وذَكر واحد من المؤرِّخين أنَّ أهل المغرب الأقصىٰ كانوا يضرُّون بأهل (**الأندلس**) لاتصال الأرض بينهما، ولما جاز عليهم (**ذو القرنين**) شكوا له فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من البحر المحيط والبحر الشامي فوجدوا المحيط يعلو بقليل، والشَّاميَّ منخفضا بقليل، فأمر برفع البلاد التي علىٰ ساحل البحر الشَّامي، ونقلها من الحضيض إلىٰ الأعلىٰ، ثمَّ أمر بحفر ما بين (**طنجة**) و(**الأندلس**) فحُفرت، وبنىٰ عليها بناءً محكما طوله اثنا عشر ميلا، وهي المسافة التي كانت بين البحر، وبنىٰ ما يقابله من ناحية (طنجة) وجعل سعة ما بينهما ستَّة أميال، فلمَّا كمُلا حفَرَ من جهة البحر المحيط ففاض

الماء بين البنائين إحدىٰ عشرة قامة، فأمَّا البناء الذي من جهة الأندلس فإنَّه يظهر إذا نقص الماء في بعض الأوقات ظهورا بيِّنًا مستقيمًا علىٰ خطٍّ واحد ويسمونه **القنطرة**، وأمَّا الذي من جهة طنجة فإنَّ الماء احتفر ما خلفه من الأرض اثنا عشر ميلا» اهـ.

قلت: وهذا البناء الذي بناه (**ذو القرنين**) بين طنجة والأندلس، هو الذي يصوِّره الإسبانيون في سِكَّتهم الفِضِّيَّة، وتُسمِّيها العامَّة بـ (**سكَّة أبي مدفع**)، يظنُّون أنَّ السِّكة بها صورة المِدفع وذلك غلط منهم.

وقال في (**الجمان**): «ولما افتتح (طارق بن زياد) مولىٰ موسىٰ بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك الأمويِّ بإفريقية سنة (92) من الهجرة آخر مدينة من بلاد الفرنج، وهو (ايرونة) وَجد فيها الصَّنم الأعظم ومكتوبا عليها، من قِبل الفتح ارجعوا يا بني إسماعيل إلىٰ هنا منتهاكم وإن سألتموني أخبرتكم، وإن لم ترجعوا ليضرب بعضكم بعضا إلىٰ يوم القيامة، وجد (الأندلس) عدَّة أشياء، منها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام» **اهـ**.

وقال الحافظ أبو راس في (**غريب الأخبار**) و(**الخبر المعرب**) و(**روضة السلوان**): «حدود أرض الإسبانيِّين الآن بحسب ممتلكهم في (الأندلس) هو من (قطلان) و(برشلونة) من جهة المشرق، إلىٰ (أشبونة) في جهة المغرب، ويجاورهم الفرنسيس من المشرق والبرتقيز من جهة الغرب، وجبل طارق وهو (جبل الطَّار) داخل في تخومهم إلا أنَّه الآن بيد (الانقليز)، وقال صاحب (**الجغرافية**): «إسبانيا جاءت بين فرنسا والبحر الأوسط والبرتقال والأوقيانوسيا، أمَّا فرنسا فهي في شمالها الشَّرقي، وأمَّا البحر الأوسط فهو في شرقها وجنوبها، وأمَّا البرتقال فهو في غربها وأمَّا الأوقيانوسيا فهي في

غربي شمالها وجنوبها، فهي جزيرة غير كاملة كونُها لا تتَّصل بالبرِّ إلا بجبل البريني الفاصل بينها وبين فرنسا، فقد جاءت في أقصىٰ جنوب أوروبا الغربي وليس بينهما وبين عدوة المغرب إلىٰ بوغاز جبل طارق القليل العرض».

الموضع الثَّالث: في بيان مساحَتها وعدَد سكَّانها الآن وأقسام ولايتها وأشهر مدُنها وجبالها وأوديَتها:

اعلم أنَّ مساحة مملكة إسبانيا خمسمائة ألف (كيلو متر) بحسب لغة الرُّوم، ولغتنا خمسمائة ألف ميل يزيد أو ينقص شيئا لأن (الكيلو متر) عندهم يشابه الميل عندنا تقريبا، وأرضهم جيِّدة للغرس، وما يستنبت لا للحراثة ولذلك عظمت فاكهتها، ويوجد بها من الخيل الجيدة والبغال والحمير الفارهة كما يجب، كما يوجد بها معادن الحديد والنُّحاس والرَّصاص والزواق، إلا أنَّ الغالب علىٰ أهلها الفقر لقلة الصِّناعة عندهم، كما أنَّ الغالب عليهم القساوة وشدَّة البغض والعداوة، وكثرة سفك الدِّماء، وسكَّانُها وقتئذ ستة عشر مليون بلغتهم والمليون عندنا ألف ألف، ومنذ مدَّة مديدة وملك الإسبانيين يلقَّب **بالملك الكاتوليكي**، ومعناه المتبع للبطرك، وهو الباب والكاتوليكيون هم الذين يجعلون الجامع وبه البطرك ويضربون به النَّاقوس وقت بعض صلواتهم السَّبع وهي: الفجر، والضُّحىٰ، والظُّهر، والعصر، والمغرب والعشاء، ونصف اللَّيل، وعند أعيادهم وموتاهم وتزويجهم وازديادهم إلىٰ غير ذلك، ويعظِّمون البطرك، ويرون أنَّه خليفة عيسىٰ كأحد الحواريِّين والأنثىٰ خليفة سيِّدتنا مريم عليها وعلىٰ ابنها السَّلام، ويمنعون البطريك والبطريكة من الزَّواج.

وتنقسم مملكتهم إلىٰ **ثلاثة عشر ولاية** منها ثمان ساحلية شاطيء البحر، وهي

غليسيا، واستوريا، وقسطيلية القديمة، والأقاليم البسكيَّة، وكتالونيا، وبلنسية، وأندلسية، مع غرناطة القديمة، ومنها **خمس داخليَّة** وهي: أرَغون، ونافرا، وليوني، واستر، مادورة، وقسطلية الجديدة، وأشهر مدنها (مدريد) التي هي الآن قاعدة ملكهم واستولىٰ عليها الفرانسيس سنة ستٍّ وعشرين من القرن الثَّالث عشر، ثمَّ (برشلونة) وهي ذات مرسىٰ كبيرة علىٰ البحر الأوسط من أكبر مراسي إسبانيا وأخصُّ مراسي البحر الأوسط، ثمَّ بلنسيَّة، ثمَّ إشبيليَّة، ثمَّ مالقة (بفتح اللَّام وغلِط من كسرها)، ثمَّ سرقسطة، ثمَّ قادس ويقال له (قالس) وهي علىٰ البحر المحيط المغربي، ولها مرسىٰ عظيمة حصينة، واستولىٰ عليها الفرانسيس سنة أربعين من القرن الثَّاني عشر، ثمَّ غرناطة وكانت قاعدة أحد ممالك الإسلام، ثمَّ السَّهلة، وشاطبة، وشرية، وطليطلة، ورُندة، وطُرطوشة، وقرطبة، وطريفة، وميورقة، ويابسة، وبطليوس، وقطلان، وصقلية ـ وهي سلسيلية ـ وبها جبال كثيرة أعظمها جبل، ثمَّ سيار انفاد، ثمَّ سيار أمورونيا، ثمَّ سيار أكواد لوب، ثمَّ جبال اللُستورية، ثمَّ جبال طُليطلة وبها أودية كثيرة أكبرها نهر أبرة، ثمَّ دورو، ثمَّ تاغو، ثمَّ مَينوا، ثم الواد الكبير ثمَّ كراديانا.

الموضع الرَّابع: في بيان محلِّها من أوروبا.

اعلم أنَّ محلَّ إسبانيا من أوروبا هو الجزء السادس عشر وذلك أنَّ أهل الجغرافيَّة قسَّموا أوَّلا كرة الأرض علىٰ سبعة وسمَّوها أقاليم، وهي: الهندُ والسِّند ـ إقليمًا واحدًا ـ والحجاز، ومصر ـ بغربه وشامه لاتحاد ديَّته ـ، وبابل، والرُّوم والتُّرك ـ إقليما واحدا ـ وياجوج وماجوج ـ إقليما واحدًا ـ، والصِّين.

ثمَّ قسَّموها ثانيًا إلىٰ خمسة أقسام أصليَّة:

وهي أوروبا وجزَّؤُوها على ستَّة عشر جزءًا، **أربعة في شمالها** وهي: جزيرة الانقليز، ومملكة سويد، ومملكة دينمرك، ومملكة الموسكو. **وسبعة في وسطها**: وهي افرانسا، وسويس، وهولاند، وبلجيق، والبروسيا، والممالك المعاهدة ـ ويقال لها الالمند ـ واستوريا، **وخمسة في جنوبها**: وهي إسبانيا، وبرتقال، وطليان، ومملكة القريق، والمملكة العثمانيَّة التي بأوروبا وهذا القسم صغير بالنِّسبة للأربعة الباقية.

ثمَّ آسيا وجزَّؤوها على ستَّة أجزاء وهي: بلاد سِبيري، والمملكة العثمانيَّة التي بآسيا، وبلاد التَّتار، ومملكة العجم، وأرض الصِّين، وأرض يافون، وبلاد الهند والسِّند، وجزيرة العرب.

ثمَّ إفريقية وجزَّؤوها على ستة أجزاء وهي: مملكة مراكش، وبرُّ الجزائر، ومملكة تونس، وبرُّ طرابلس، ومملكة مصر، وبلاد الصَّحراء.

ثمَّ أمريكا المسكوبيا، وبريتانيا الجديدة، وبلاد اليتازوني، وبلاد المكسيق.

والجنوبيَّة جزَّؤوها إلى ثلاثة: بلاد قلوسيا، وبلادبر، ومملكة بريزيل ثمَّ جزائر أوقيانوسيا.

وفي كلٍّ من هذه الأقسام عدَّة حصون وقرى ومدن وشعاب وأدوية وجبال وأبحر، غير أنَّهم جعلوا الأبحر الأصليَّة ثلاثة: وهي (البحر المحيط المغربي)، ويمتدُّ بين أوروبا وأفريقيا وأمريكا، و(البحر المحيط الأكبر) وهو ممتدٌّ بين أيسيا وأمريكا، و(البحر المحيط الهندي)، وهو ممتد بين إفريقيا وأسيا وأوقيانوسيا، قال الحافظ **أبو راس** في الشَّماريخ: «ونهر المغرب الأقصى وادي أم الرَّبيع، ويمتنع عبوره أيَّام الأمطار

تنظره في البحر نحو سبعين ميلا عند (**آزمور**) ومنبعه من جبال درن وينبع منها نهر آخر ببلاد درعة إلىٰ أن يغوص في الرِّمال قبلة سوس الأقصىٰ، ونهر ملوية منبعه من جبالٍ قِبلة (**تازة**)، ويصب في البحر الرُّومي عند اغساسة، ونهر المغرب الأوسط (**شلف**) وهو لـ (**بني واطيل**) منبعه من جبل راشد، وهو جبل العمور ويدخل إلىٰ التلِّ من بلاد حصين، ثمَّ يمرُّ إلىٰ أن يصب في البحر الرُّومي بين (كلميتو) وجبل عيَّاشة أحد بطون مغراوة، ونهر المغرب الأدنىٰ مجرَّدة يصبُّ في البحر عند (بـنزرت) علىٰ مرحلة من تونس».

وقال شيخنا العلَّامة السَّيِّد الحاج **أحمد بن عبد الرحمن الشقراني في (القول الأوسط)**: «ذكر صاحب (**بهجة النَّاظرين وآية المتدلِّسين**) أنَّ عدد أنهار الدُّنيا الكبار مائتان وسبعون نهرًا، وعدد العيون الكبار مائتان وثلاثون عينا، وهي في الأرض كالعرق في البدن »، ثمَّ قال بعدُ: «وفي (**الخريدة**) **لابن الوَرديِّ**: إنَّ بهذا الرُّبع المسكون مائتي نهر كلُّ نهر منها طولُه خمسون فرسخًا إلىٰ ألف فرسخٍ، فمنها ما يجري من المشرق إلىٰ المغرب وعكسُه، ومنها ما يجري من الشَّمال إلىٰ الجنوب وعكسه، وكلُّها تنبع من الجبال، وتصبُّ في البحار، فمن الأنهار العظيمة بالمشرق: النِّيل، والفرات، والدِّجلة، وسيحون، وجيحون والنِّيل المبارك ليس في الدُّنيا أطول منه، لأنَّه مسيرة شهرين في الإسلام وشهرين في الكفر وشهرين في البريَّة وشهرين في الخراب» اهـ.

وجملة جبال الأرض سبعمائة وتسعون جبلا وهي كلُّها طويلة عظيمة، وجبل بالشَّام ارتفع عليها بإثنىٰ عشر ميلا، قال الشَّيخ أبو زكرياء يحيىٰ بن سعيد السُّوسي ثم السَّملالي في رجزه الذي سماه (**خبر الزَّمان**):

وعـــن مقاتـــل فلـــما دورت   الأرض بالجبـــال حيـــثُ ثبتَـــت

كانـــت عـــلىٰ المـــاء تميـــد دائـــرَةً   إلىٰ اليمـــين والشِّـــمال ســـائِرةً

فسـلّط الـرِّيح عـلىٰ المـا يضـربه   حتَّـــىٰ أعـــاد زبـــده ولعبُـــه

فـــأمر عـــزَّ وجـــلَّ رجعـــت   جميـــع موجـــه جبـــالا جمـــدت

عـــددها خـــاء كـــذا يقـــال   قـــاف وظـــاء بعـــدها مِثـــال

ثمَّ قال:

جبال الأرض كلُّها طـول عظـام   وجبـل بالشَّـام مـن فوقهـا قـام

زاد عليهـــا يـــا أخـــي للأعـــلىٰ   وطولـــه عنهـــا بيـــب مـــيلا

وكـــل مـــاء كـــان عـــذبا طعمُـــه   من تحت صـخرة يصـير جُرمـه

أعني بها صـخرة بيـت المقـدسِ   قـد صـحَّ هـذا لـيس بـالملتبَس

فمنـــه قـــد يجـــري عـــذب المـــاء   في الـــبرِّ والجزائـــر الخضـــراءِ

وسَـبعة مـــن البحـــار فصـــلُها   من فوقِ الأرض يـا قـدير كلُّهـا

وكلُّهـــا طهـــورة ســـواؤُه   بـاق مـن الطُّوفـان أعنـي مـاؤه

لأنَّ ربي حيـــث قـــال ابلعـــي   ويـا سـماء غـيض مـاء وأقلعـي

صـيح بـه ارجـع لوجـه الأرض   في طولهـا مقـدارها للعَـرض

فابتـــدر مـــاء السَّـــماء للطَّلـــع   بقـدرة الله ففـي الحـين رَجـع

مســـيرة بـــنقط ســـين عامـــا   ملـح أجـاج ماؤهـا طعامـا

وقـال لا يعـذب هـذا المهَـل   إذا مـاؤه سـم عليـه ينـزل

والثاني هو يا أخي البحر الأفـيح   قال به ابن العربي الحبر الفصـيح

وهو الـذي اسـتقر فيـه الحـوت	ذاك الـذي قيـل فيـه البهمـوت
والسـبعة الأراضي فـوق لامعـة	مـــن ظهـــره حملهـــا بســـبعة
والبحر فوق صخرة قد وضعت	من فوق عنق ملـك قـد رفعـت
وقـــدماه كانتـــا عـــلىٰ ســـتم	سـنم ثـور قوتـه حـوت عظـم
بيانـــه ياتيـــك بعـــد عنـــدما	أمــره الشــيطان أن يطــرح مـــا
عليـــه للثـــور مـــن القـــوائم	أربعـــة مـــن الألـــوف فـــاعلم
وثـــم شيء بـــاطن كثـــير	يعلمـــــه المهـــــيمن الخبـــــير
لا يعلم المخلوق ما تحت الثرىٰ	إلا الـذي هـو يـرىٰ ولا يُـرىٰ
هـــو الـــذي دبـــر لا يـــدبر	ســبحانه عــز وجــل الأكــبر
وثالـث الأبحـر بحـره المحـيط	وراء قـاف علـه الـرب البسـيط
وذكـــر فيـــه مـــن العجائـــب	ماليس مـن وصـف ولا تراقـب
ورابـع الأبحـر بحـر المكفـوف	بين السما والأرض قالوا موقوف

... الخ

و(**الجغرافية**) بغين معجمة أو عين مهملة عِلمٌ يُبحث به عن الكرة الأرضيَّة باعتبار ما علىٰ وجهها وحواصلها وسكَّانها، وإن شئت قلت هي علم يُعرف به وصف الأرض بأقاليمها وأقطارها وما عليها من المستقرِّ الثابت والمتحرِّك والسائل والجامد.

الموضع الخامس: في بيان من ملك تلك العدوة سابقا.

اعلم أنَّ أوَّل من ملك أرض الإسبانيِّين وهي الأندلس، علىٰ ما لمؤرِّخ النَّصارىٰ

(**الأبريون**) نسبة إلىٰ جدهم الأبر ـ مجهول الأصل ـ ثمَّ ملكها الفنسيان قيل إنَّهم الفرس، ومكثوا بها مدَّة، ثمَّ ملكها اليونانيون نسبة إلىٰ يونان بن يافث بن نوح، ثمَّ ملكها القرطاجنيُّون وبنوا بها مدينة يقال لها (**قرطاجنَّة**) وتعرف الآن بكرطاجنَّة، ثمَّ ملكها الرُّومان ومنهم الرُّوم، ثمَّ ملكها الفندال وهم أُمَّةٌ من الجهة الجوفية من بر الإفرنج، فخرجوا من بلادهم الكائنة بقرب بحر البلطيك، ومروا ببلاد الجرمانية، وهي بلاد النَّامسة وبلاد القول ـ وهي افرانسا ـ وتوجهوا سنة (409م) من الميلاد المسيحي إلىٰ إسبانيا وهي بلاد الأندلس، فاستقرُّوا بها وتديَّنوا بدين المسيح **عيسى** (عليه السلام)، غير أنَّهم يُعدُّون من الرَّوافض المتَّبعين لشيخ يقال له أريوس، ثمَّ ملَكها الإفرنج ثمَّ ملَكها الفزيقو، ثمَّ ملَكَها العرب في آخر القرن الأوَّل من الهجرة، ثمَّ ملَكَها الإسبانيون استقلالا للآن بعد أن حاربوا العرب عليها نحو الثمانمائة سنة.

وقال آخر منهم أنَّ المملكة الإسبانيَّة كانت تحت حكم الرُّومان فيما مضىٰ من قديم الزَّمان، وفي آخر القرن الأوَّل من الهجرة فتحها الإسلام وبقيت ملوك النَّصارىٰ في حروب متتابعة مع الإسلام مدَّة ثمانمائة سنة إلىٰ سنة (797) من الهجرة غلبت عليها النَّصارىٰ الإسلام، وبقيت في ملكهم للآن تحت الإسبانيِّين وكانت إسبانيا في السَّابق من دول أوروبا الكبار لكونها كانت لها أملاك كبيرة في أمريكا الجنوبية تملَّكوا عليها سنة (797) من الهجرة، بسبب ظهور عالِم منهم من العلماء البحريَّة المنجمين اسمه (**كريستوف قلومب**) كشف لهم علىٰ أمريكا التي لا معرفة لهم بها قبله فتملَّكوا علىٰ أعظم جزء منها عدة جزائر بجوانبها، واستمرَّت بأيديهم إلىٰ أن نزعت منهم سنة (1217هـ) لاجتماع أهلها علىٰ الحكومة الجمهوريَّة التي هم عليها للآن، وخرجوا عن

حكمهم فلم يبق لهم بأمريكا إلا جزيرة كوبا، ولذلك لا تعدُّ مملكة إسبانيا الآن من كبار دول أوروبا لانحطاطها عن مقامها الأوَّل.

وقال **ابن خلدون**: «أوَّل من سكن الأندلس بعد الطُّوفان الأوربويُون من ولد طوبال بن يافث بن نوح، ودخلوا في طاعة الرُّوم، ثمَّ ملكها القوط ـ نسبة إلىٰ جدِّهم قوط من ولد ماغوغ بن يافث ـ ثمَّ لحق بهم القلنش من الرُّوم الإغريقيِّين وباسم القلنش سمِّيت الأندلس».

وقال **ابن سعيد**: «أوَّل من عمَّر الأندلس ابن يافث بن نوح عليه السَّلام، وأخوه سبت بالعدوة المقابلة لها وإليه تنسب مدينة **(سبتة)** فبقي أولاد أندلس به ملوكا دهرا، ثمَّ ملكها اشبلان بن طيطش الرُّومي وبه سمِّيت **(إشبيلية)** لما عُرِّبت، وطيطش هذا هو الذي فتك ببني إسرائيل وأجلاهم الجلوة العظيمة التي سلَّط الله عليهم بها الذلَّ حتَّىٰ انقطع ملكهم انقطاعا كليًّا للآن، ونقل من أثال الهيكل المبارك بالقدس إلىٰ **(طليطلة)** حتَّىٰ وجد ذلك موسىٰ بن نصير بها، فبعثه إلىٰ الوليد بن عبد الملك الأمويِّ بـ **(دمشق)** ثمَّ إنَّ الأندلس تغلَّب عليهم الإغريق وهم الإغريقيُّون من الرُّوم فبقوا دهرًا، ثمَّ أخذها منهم القُوط ملك منهم بـ **(طليطلة)** إحدىٰ قواعد الأندلس ستَّة وعشرون ملكًا، وآخرهم لذريق الذي قتله طارق بن زياد غلام موسىٰ بن نصير في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة (92) من الهجرة، وتزوَّج امرأته ومن بقايا ذريَّة ملوكهم صارة بنت المنذر والدة اللُّغوي النَّحوي العلامة محمَّد بن عبد الله المعروف **بابن القوطية** ـ بضم الواو ـ المتوفَّىٰ سنة (367هـ) بقرطبة وأصله من **(مرسية)** في الأندلس، قال **الشبراملسي**: «وقوط هذا هو أبو السُّودان والسِّند والهند» اهـ.

ثمَّ إنَّ إسبانيا لما تملكها الرُّومان انقسمت مملكتها إلىٰ خمسة أقسام، قسم يقال له (**الأقساط**) لتملكهم عليه، وقسم يقال له (**الآلي**) وقسم يقال له (**الأوراق**)، والقسم القبلي يقال له (**النِّفار**)، وقسم يقال له (**القطلان**) وجملة الأقسام يقال لها (**ايبري**) ثمَّ قيل لها هـا إسبانيا، ثم قيل لها إسبانيا بترك الهاء، وكانت تسميتها بإسبانيا وقت اجتماعهم علىٰ ملك واحد وذلك سنة (888) هجرية.

الموضع السَّادس: في ذكر ملوكهم من حين اجتماعهم على ملك واحد ومن ملك منهم وهران.

اعلم أنَّ أوَّل ملوك الإسبانيين لما اجتمعوا علىٰ ملك واحد سنة (888هـ) هو فردينة وزوجته ايزابل مشتركين في المملكة، وسمِّيت مملكتهم بإسبانيا لمدينتهم القديمة كما مرَّ، وبقي في الملك خمسا وثلاثين سنة، وغزا (**غرناطة**) في رجب سنة (895هـ) وبها سلطانها محمد بن عبد الله فنزل بمرج غرناطة، وأفسد زرعها ورجع لبلده ثمَّ جهَّز لها جيشا عظيما في ثاني عشر جمادىٰ الثَّانية سنة (896هـ)، فنزل بمرج (**غرناطة**) أيضًا وأفسد الزَّرع، ودوَّخ الأرض، وهدم القرىٰ وضيَّق علىٰ (**غرناطة**)، ودام القتال سبعة أشهر واشتدَّ الحصار بالمسلمين، غير أنَّ النصارىٰ علىٰ بُعد والطَّريق بين غرناطة والشرات متَّصلة بالمرافق، والطعام من ناحية جبل سير، ولما اشتدَّ برد الشِّتاء استولىٰ العدوُّ علىٰ أكثر خارج البلد، ومنع المسلمين من الحرث وضاق الحال، وبان الاختلال وعظم الخطب، وكثرت النُّوَب، وذلك أوَّل سنة (897هـ)، وطمع العدوُّ في الاستيلاء علىٰ (**غرناطة**) بسبب الجوع دون الحرب، واشتدَّ الأمر في صفر، فاجتمع أناس ممن يشار إليهم من أهل العلم، وقالوا: «انظروا لأنفسكم لأنَّ العدو يزداد مدده كلَّ يوم

ونحن لا مدد لنا » فاتفق الرَّأي علىٰ ارتكاب أخف الضَّررين ومكَّنوا الطاغية من البلد بعد أن شرطوا عليه سبعةً وستين شرطا وهي:

1) أن يكون التَّأمين لجميع النَّاس.

2) وأن يكون بقاؤهم في أماكنهم.

3) وأن يقيموا شريعتهم علىٰ ما كانت.

4) وأن تبقىٰ المساجد علىٰ حالها.

5) وأن تبقىٰ الأوقاف علىٰ حالها.

6) وأن تكون الحريَّة الأبدية لجميع المسلمين.

7) وأن لا يدخل نصرانيٌّ دار مسلم.

8) وأن لا يغصِبوا أحدًا.

9) وأن لا يولي طاغيتُهم علىٰ المسلمين نصرانيًا ولا يهوديا.

10) وأن يطلقوا جميع الأسرىٰ الذين من غرناطة.

11) وأنَّ من هرب من الأسرىٰ من غير غرناطة ودخل غرناطة لا يُردُّ لمالكه وإنما يأخذ ثمنه من عند السُّلطان.

12) وأنَّ من أراد الجواز من المسلمين للعدوة لا يمنع.

13) وأنَّ الجواز يكون في مدَّة معيَّنة في مراكب السُّلطان دون كراء ومن جاوز المدة يجوز ويعطي الكراء وعشر ماله.

14) وأن لا يؤاخذ أحد بذنب غيره.

15) وأن لا يقهر من أسلم على الرُّجوع لدين النَّصارىٰ.

16) وأن من تنصَّر من المسلمين يوقف حتَّىٰ يظهر حاله.

17) وأن لا عقاب علىٰ من قتل نصرانيا أيَّام الحرب.

18) وأن لا يؤخذ له ما كان سلبه لهم في أيَّام العداوة.

19) وأن لا يكلَّف المسلم بضيافة أجناد النَّصارىٰ.

20) وأن لا يزيد في المقام علىٰ المعتاد.

21) وأن ترفع عن جميع المسلمين المظالم.

22) وأن ترفع جميع المغارم.

23) وأن لا يطلع نصراني للسُّور.

24) وأن لا يطلع دور المسلمين.

25) وأن لا يتطلَّع علىٰ عوراتهم.

26) وأن لا يدخل مسجدا من مساجدهم.

27) وأن يسير المسلم في بلاد النَّصارىٰ آمنا.

28) وأن لا يجعل علامة كما يجعلها اليهودي.

29) وأن لا يُمنع المؤذِّن من الآذان.

30) ولا المصلي من الصَّلاة.

31) ولا الصَّائم من الصيام.

32) ولا الحاجُّ من الحجِّ.

33) وأن من ضحك من النَّصارىٰ علىٰ المسلمين يعاقب.

34) وأن يوافق علىٰ شرط من الشُّروط (صاحب رومة).

35) وأن تكون موافقته بوضع خطِّ يده وخاتَمه.

إلىٰ غير ذلك مِن بقية الشُّروط.

ولما تمَّ ذلك نزل سلطان **(غرناطة)** مِن **الحمراء** في ربيع الأول سنة (897هـ)، فاستولىٰ العدو عليها، ودخلها بعد أن استوثق من أهل **(غرناطة)** بنحو الخمسمائة من الأعيان رهنا، خوفا مِن الغدر، وقد جعل قائدا بالحمراء وحاكما، ومقدمين بالبلد، ودخل أهل البشرات في هذا الصُّلح، والأمر لله وحده، ثمَّ إن سلطان **(غرناطة)** أبو الحسن عبد الله بن سهل، وعمَّه أبو عبد الله محمَّد بن سهل، المعروف بالزغل، ومنهم من يسمِّيه بالزَّغلي (سلطان وادي آش) سألا مِن فرديند أن يسرِّحهما للعدوة، فأجابهما لذلك، وصار الجيش يدخل ويخرج ومكروا بالمسلمين مكرًا، فأمَّا عبد الله صاحب **(غرناطة)** فخرج لـ : **(مليلة)**، ثم ذهب لـ : **(فاس)** واستقرَّ بها إلىٰ أن مات، وأمَّا عمُّه أبو عبد الله الزَّغلي صاحب **وادي آش** فخرج لـ **(وهران)** واستقرَّ بها إلىٰ أن مات [1]، وكان خروجهما من الأندلس سنة (897هـ) في آخر شوَّال.

---

(1) إن أبا عبد الله الزغل المعروف بالمجاهد خرج إلىٰ مرسىٰ وهران قبل سقوط غرناطة بسنوات، ومات بتلمسان.

فكان أوَّل ما أخذ النَّصارىٰ للمسلمين بالأندلس (**طليطلة**) سنة (498هـ)، أخذها أذفونش بن فراند بن هراند صلحًا مِن يد الظَّافر من ولد إسماعيل بن عبد الرحمن، الملقَّب بـ : **ناصر الدولة الهواري**، يقال إنَّ الشَّيخ المغامي القاريَّ لما دخلها النَّصارىٰ ختم القرآن بمسجِدها، ولم يخرج منه حتَّىٰ دخله النَّصارىٰ، ثمَّ صلَّىٰ ثلاثين ركعة فيه، وكان آخر ما أخذوه لنا (**غرناطة**) في التَّاريخ المتقدِّم، وصَفَتْ (**الأندلس**) لهم بشرقها وغربها، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

قال الحافظ **أبو راس** في (**سينيَّته**):

طليطلة هي باكورة فَتحِهِم   من الهواريِّ رجعَت لأذفُونس

آخر ذلك غرناطة حلَّ بها   ما لَقت شقرة من الويل والرَّكس

من بعد غر بني نصر ومواقها   طاغية ينظر بهم نظر الشَّوس

ثم غزا فردينة المار بجيشه (**وهران**) في أوائل ربيع الثَّاني سنة (911هـ) كما قاله أبو محمد الشيخ عبد الله قاضي نهر بني راشد، فملك برج المرسىٰ واستقرُّوا به إلىٰ سنة (914هـ) دخلوا (**وهران**) علىٰ ما للشَّيخ أحمد بابا في (**ذيل الدِّيباج**)، ومثله في (**نزهة الحادي**)، وزاد أنَّ ذلك في آخر المحرَّم منها، وبه قال المديوني في (**البستان**)، والشَّيخ أبو عبد الله محمد التَّغريري الجزائريِّ في (**رجزه**)، وفيها مات صاحب (**المعيار**)، وقال **الصَّباغ**، والحافظ **أبو راس**، وغيرهما، دخلوها سنة (915هـ) في صفر بمداخلة اليهود غدرا، وذلك أنَّ يهوديا خدع المسلمين وغدرهم، ومكَّن النَّصارىٰ منهم فنكَّبوهم قتلا وسبيًا، وكيفية ذلك أنَّ يهوديا يقال له الزَّاوي بن كيسة أتىٰ بجيش النَّصارىٰ للمدينة وأدخله بها سرًّا بالحيلة، فقام الجيش لباب المدينة ففتحه وأخذ العسَّاسَين الذين كانا

يعسان وهما عيسىٰ بن الغريب الغريُّ، والغناش كبيرا وكان ذلك في وقت السُّلطان أبي قلموس الزيَّاني من أواخر ملوكهم الذِين لم يهن لهم بالملك قرار، ولا استقرَّت به في المملكة عمارة دار، فعجز عن دفاعهم عجزا كليًّا، وفشل ريحه بعد كليته فصار جزئيا، فلم يكن للمسلمين حينئذٍ دفاع ولم يبق لهم فيها طمع باجتماع.

قال الحافظ **أبو راس** في (**سينيته**):

خامس عشر من عـاشر أنـاخ بهـا	الإسبانيون أهل الشرك والـرجس
جحافل الكفر قـد حمـوا جوانبهـا	وعن دفاعهم عجـز أبـو قلمـوس

ولما مكَّن اليهود النَّصارىٰ من (وهران) شرطوا عليهم برج المرسىٰ فأنزلوهم به وفاء بالعهد، وإليهم ينسب برج اليهود الذي بـ (هيدور) وجعل (**الإسبانيون**) لهؤلاء اليهود من الصولة علىٰ المسلمين بعد ذلك ما لا يوصف، فكانوا يخرجون **لبني عامر** لقبض الضَّريبة كالملوك، ثمَّ إنَّ النَّصارىٰ تخيَّلوا منهم ما يكرهونه، فأطردوهم مخافة أن يفعلوا بهم ما فعلوا بالمسلمين، وكان طاغية النَّصارىٰ المستقرِّين بـ (**وهران**) اسمه **دك** فصار يشنُّ الغارات علىٰ المسلمين إلىٰ أن دخل في طاعته (**الونازره**) و(**قيزة**) و(**شافع**) و(**حميان**) و(**أولاد علي**) و(**أولاد عبد** الله) وغيرهم من (بني عامر) و(غمرة) منهم شيعته الذين ينصرونه ويعتمد عليهم في جلب الأخبار، والمسير في الطرق، واتَّخذ منهم جواسيس يقال لهم المغاطيس، وقويت بهم شوكته وتعدَّدت غزاته علىٰ الأقربين والأبعدين، وخَلا له الجو فصارت (**سيرات**) و(**ملاتة**) من جملة بلاده التي تحت يده يتردَّد بها في ليله ونهاره، ولا منازع له فيها باضطراره واختياره، وتكرَّرت غزاته علىٰ (هبرة)، والحرب بينه وبينهم سجال، إلىٰ أن تلاشوا واضمحلُّوا، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

وغزا (**بني شقران**) برمال عين الفرس الشَّرقية فأثخن فيها إثخانا عظيما وقتل وسبى، وأذعنوا له بالطَّاعة، ثمَّ غزا الرَّابطة والكرط وكان معه رابح بن صولة العلياوي وأولاده يقال لهم الآن **الصواولة**، فأثخن في أهل الرابطة والكرط إثخانا شديدا، وقتل وأسر وسبى الرِّجال والنِّساء والأمر لله، ثمَّ تولَّى بعد فردينة فيليب الأوَّل سنة (923هـ)، وبقي في الملك عشر سنين، وخلع كالذي قبله، وبقيت (**وهران**) في ملك **فيليب** وأقر عليها **دك** كما كان، واشتدَّت شوكة **دك** على المسلمين، وأبلاهم بلاء عظيما، وأمر **فيليب** في سنة (925هـ) بغزو قلعة بني راشد لما سأل منه ذلك سلطان (**تلمسان**) أبو قلموس فغزاها في جيش عرمرم ما بين جيشه وجيش أبي قلموس فنزل عليها بالبراق، ونصب مدافعه، ورمى الكور على القلعة، فخرج الناس منها ومعهم أميرها إسحاق شقيق حسن خير الدِّين أوَّل باشة بالجزائر، وسألوا الأمان فأمِّنوا، ولما تمكَّن النَّصارى منهم قتلوهم عن آخرهم رحمهم الله تعالى، قال الحافظ **أبو راس** في (**سينيَّته**):

وعـــاث دك ببطحتهـــا مجتلبًـــا … علـى الإيـمان فلـم يبـل بمفـترس

ورجَّ أرجاءهـــا لمـــا أحـــاط بهـــا … فأبـدلت شـم أعلاهـا بـالفطس

خـلا لـهُ الجـوُّ فامتـدَّت يـداه إلى … إدراك مـا لم تنـل رجـلاه مختلس

ثمَّ تولَّى كارلوص وهو شارل الأوَّل سنة (933هـ) وبقي في الملك أربعين سنة، واستمرَّت وهران في حكمه وجهَّز جيشا عظيما لغزو (مزغران) ففتحها عنوة في أواسط السِّتِّين من القرن العاشر وكان طاغيتها يقال له **الفرطاس**(1) ولما سمع بذلك

---

(1) **الفرطاس**: لقب به المسلمون قائد وهران الكنت دالكادوت الذي قتل على أبواب مستغانم بواقعة مزغان التي سجلها الشاعر الشعبي الأخضر بن خلوف وذلك سنة 965هـ. وهي=

خير الدِّين حسن باشا الجزائر تألَّمَ كثيرًا وجمع جيوشًا عظيمة، وقصد (مزغران) إلى أن نزل عليها وحصل القتال الشَّديد بين الفريقين فحصل النَّصر من الله للمسلمين وفتحها الباشا عنوة زوالَ يومِ الجمعة خامس عشر ذي القعدة الحرام سنة (965هـ) قال بعضهم في ذلك:

فــتح خــير الــدِّين مزغرانــا ... مرتجيـــا لفتحـــه وهرانـــا

في يـــه قعـــدة زوال الجمعـــة ... ســـنة هـــر فصـــخ فاســـتمعه

وهـــذه القصـــة عنـــد النـــاس ... مشـــهورة بقصَّـــة الفرطـــاس

وغزا (تلمسان) سنة (949هـ)[1] فدخلوها وربطوا دوابَّهم بالجامع الأعظم، حتَّى خرجوا مختارين بعد أن مكثوا بها نحو الثَّلاثة عشر يوما، ويقال أنَّ قراب الخالفي جدُّ القراريب هو السَّبب في دخولهم لها في الفترة التي كانت بين عبد الواد والأتراك، ثمَّ

=التي قال عنها المؤلف في ص 35 أن أحد الأدباء أرخها بقوله:

فـتح خـير الـدين مزغرانـا ... مرتجيـا لفتحـه وهرانـا

في يه قعـدة زروال الجمعـة ... سـنة هـر فصـح فاسـتمعه

وهـذه القصـة عنـد النـاس ... مشهورة بقصـة الفرطـاس

وما ذكره الأديب من أن خير الدين هو فاتح مزغران، غير صحيح بل قائد المعركة كان ولده حسن، وخير الدين كان غائبا بالاستانة وفي ذلك يقول الشاعر الأخضر بن خلوف في قصيدته:

الأمـــير حســـن يـــوم مزغـــران ... اخلـف الثـار مـن العـدو تحقيـق

دامت هذه المعركة ثلاثة أيام، خسر فيها الجيش الإسباني عشرين ألف بين قتيل وأسير ومن بينهم الكنت دالكادوت رئيس الحملة ومعه خمسون ضابطا.

(1) قال ابن مريم في (**البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان**) ص: 288 في آخر ترجمة محمد بن عبد الجبار بن ميمون: «وتوفي سنة 950 هـ في عام أخذ النصارى تلمسان دمرهم الله».

غزوها ثانيا سنة (951هـ) مع أميرها أبي عبدالله محمَّد بن المسعود حفيد العلج رضوان في أربعة عشر ألفًا، فدخلوها ومكثوا بها شهرين، وخرجوا منها مختارين، ثمَّ غزوا فروحة بغريس أرض الشيخ سيدي محمدبن يحيىٰ[1] مقرئ الجن، فلقوا خيلا من بني عياد أحد بطون الحشم فتحاربوا، فاستشهد منهم العروصي أحد أجواد غريس قبلة كدية عظيمة، وأخذوا رأسه وفرسه، وانقلبوا إلىٰ **(وهران)** ثمَّ في وسط الستِّين من العاشر غزوا علىٰ زاوية أبي مهدي الشَّيخ سيدي عيسىٰ بن موسىٰ التِّجاني[2]، وهو نازل شرقي نهر الطَّاغية فأتت إليه قنبرة وجلست أمامه، وصارت تذري التُّراب علىٰ رأسها وتصوِّت، وكان الشَّيخ عارفا بزجر الطَّير فأمر زاويته وأهله بالرَّحيل فرحلوا من حينهم وعبروا النَّهر، ودخلوا في غيطة كبيرة يقال لها: **(دار الهناء)**، فلم يكن إلا يسيرا وإذا بالجند واقف في حافَّة الوادي الشَّرقية من النَّصارىٰ، وبني عامر فلما لم يروا أحدا رجعوا ولم يعبروا النَّهر، ثمَّ غزوا قرية الكرط أخرىٰ ثم أخرىٰ واستأصلوا سكَّانها، وهرب الجل الباقي، ثمَّ غزوا الجزائر ثانيا سنة (967هـ) فلم تحصل لهم فائدة ورجعوا خائبين خاسرين، وكانوا غزَوها أوَّلا قبل دخول الأتراك لها وملكوا برج مرساها، ولما دخلها الأتراك وجد خير الدِّين حسن أوَّل باشا بالجزائر بأيديهم **(برج مرسى الجزائر)** في جزيرة حيث **(برج الفنار)** اليوم، ولهم جباية وضرائب علىٰ أهل

---

(1) **محمد بن يحيى**: المشهور بمقرئ الجن من تلامذة الإمام السنوسي دفين تلمسان، وقد أذن له أستاذه بنشر علم التوحيد بالراشدية فاستوطنها وأسس بها معهدا لا زالت آثاره وما حبس عليه من الأحباس، وله ذرية كثيرة بالجزائر والمغرب.

(2) **أبو مهدي عيسى بن موسى التوجيني**: دفين وادي الطاغية قرب معسكر، عالم شهير له تآليف عديدة من جملتها قصيدته الغوثية، و(**بغية الطالب في ذكر الكواكب**).

(**متّيجة**) فأقام معهم الحرب إلى أن فتح البرج عنوة سنة (948هـ) وجعل في البحر طريقا تصل إلى البرج وغزاته في الرُّوم مشهورة ولأجل ذلك غزا الروم الجزائر الغزوات المتعدِّدة التي لم ينتج لهم بها شيء، ثمَّ غزوا (تونس) سنة (967هـ) فأخذوها عنوة من يد أحمد بن حسن أحد الحفصيِّين، وبقيت بأيديهم إلى أن استردَّها منهم السُّلطان أبو الرَّبيع سليمان شاه سنة (981هـ)، واستولوا على حجر باديس بالرِّيف سنة (964هـ) فهي في أيديهم للآن.

وسبب ذلك أنَّ السُّلطان عبد الله الغالب السَّعدي لما تولَّى الملك سنة أربع وستِّين من العاشر، ورأى مراكب (الجزائر) لا ينقطعون عن مرساها تخوَّف منهم واتَّفق مع الطَّاغية أن يعطي له حجر باديس فينقطع بذلك مدد الأتراك ففعل، ودخلوها فنبشوا قبور الأموات وأحرقوها بالنَّار، وأهانوا المسلمين غاية الإهانة ثمَّ تولَّى فليب الثَّاني سنة (973هـ) وبقي في الملك اثنين وأربعين سنة و(وهران) تحت حكمه، ثمَّ تولَّى فليب الثَّالث سنة (1015هـ) وبقي في الملك ثلاثا وعشرين سنة وفي سنة (1019هـ) دخلت العرائش في حكمه فاستولى عليها الإسبانيون بإعطائها من السلطان محمد[1] الشَّيخ أحد ملوك السَّعدية لهم فبقيت تحت حكمهم إلى أن أخذها منهم السُّلطان مولاي إسماعيل بن علي العلوي سنة (1101هـ) بعد محاصرته لها ثلاثة أشهر، والحرب متصل بينه وبينهم، وصعبت عليه حتَّى جعل لها لغمًا هدم به السُّور فاقتحمها حينئذ، وقتل من النَّصارى ألفين، وأسر نحو الألف ومائتين، وكان ذلك مبلغ عمارتها، فلم يفلت أحد، ووجد بها خزائن بارود، ونحو مائة وثمانين نفضا منها اثنان وعشرون نحاسا، فيها

([1]) محمد الشيخ بن أحمد المنصور الذهبي اتهمه معاصروه بالاتفاق مع البرتغاليين عند احتلالهم لمدينة العرائش وكفروه.

نفض يسمى الغصاب في طوله وخمسة وثلاثون قدما زنة كورته خمسة وثلاثون رطلا، يحلق عليه بقرب خزانته أربعة رجال، وقد بقيت في أيدي الكفَّار اثنتين وثمانين سنة، ثمَّ تولَّى فليب الرَّابع سنة (1038هـ) وبقي في الملك أربعًا وأربعين سنة، وفي ولايته غزا إبراهيم باشا (وهران) في وسط القرن الحادي عشر فهو أوَّل من غزاها من الأتراك ونصب عليها المدافع، والبونبة من المائدة، فامتنعت عليه ورجع آيسا منها إلى مملكته.

قال الحافظ **أبو راس** في (**سينيته**):

وقــيض الله الأتــراك بمزغنَّــة — لحرب وهران دار الكفـر والالـس

أتاها باشا إبـراهيم وسـط حـادي — من القرون من بعد الألف للوطس

قــام بالمائــدة حينــا يزاولهــا — ثــمَّ قفـا درجـه مـن فتحهـا آيـس

ومن حينئذ وقعت للإسبانيِّين العناية بـ (قلعة مرجاجو) ودبَّروا في إقامته وصعب عليهم الماء، فكان أوَّل من أتاهم بقرب الماء لأجل إقامته شيخ[1] حميان وقبيلته، ولا

---

(1) **قبيلة حميان**: قبيلة عربية نزحت في الحملة الهلالية، وقد خصهم عبد القادر بن عبد الله المشرفي (المتوفى سنة 1192) بتأليف ضمن المتعاونين مع الإسبان سماه (بهجة الناظر في أخبار الداخلين) تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، وقد هجاهم بعض الأدباء بعد إعانة شيخهم لإسبان وهران ومساعدته في بناء الحصن فقال:

لاتكـب المـا مـع قربـة — لمـن يقـول أنـا حميـاني

ادفـع الكلـب مـع ريبـة — وقل قلبـه مـازال نصـراني

وقال غيره:

قيـــزة وشـــافع وحميـــان — جارهم ما يتهنى وميتهم ما يدخل جنة

وهذه القبائل المذكورة في البيت كانت متعاونة مع الإسبان.

حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم، و(**حميان**) هؤلاء من بني يزيد بن عيسىٰ بن زغبة كانت لهم الإتاوة علىٰ أرض حمزة، والدَّهوص، وأرض بني حسن من قبل الموحِّدين، وسبب إتيانهم لتلك الأرض أن يغمراسن بن زيان لما تولَّىٰ مُلك (**تلمسان**) كثر عيث المعقل المجاورين له وفسادهم، وهم أهل (أنقاد) أتىٰ بـ (**بني عامر**) من صحراء بني يزيد وأنزلهم بينه وبين المعقل، لأن (**زغبة**) كانوا قبل ذلك ما بين (**مسيلة**) في المشرق إلىٰ قبلة (**تلمسان**) في المغرب، في أرض القفر، ولمَّا أتىٰ بهم من تلك الأرض، لحقتهم قبيلة (**حميان**) إحدىٰ قبائل بني يزيد واستمرُّوا ساكنين بين المعقل و(**تلمسان**) حجزًا ودرءًا ووقاية حتَّىٰ تملَّك **أبو حمو الأوسط** في حدود نيِّف وستِّين من القرن الثَّامن وكان من أعياص ملوك بني زيَّان وقد فتك أبو عنان المريني بهم وكاد أن يستأصلهم، نقلهم أبو حمو من ضواحي (**تلمسان**) القبليَّة وأنزلهم تاسالة، واتَّصلت محلَّاتهم إلىٰ (**هيدور**) جبل وهران فكان قسم حميان أحد بطون بني يزيد بتلك الأرض، الحفرة وما والاها، والأكثر منهم بقي بالقفر إلىٰ الآن، ولم ينتقل إلىٰ ضواحي (**تلمسان**) مع (**بني عامر**) من أوَّل الحال هذه أحوال، حميان بن عقبة بن يزيد بن عيسىٰ بن زغبة.

قال الحافظ **أبو راس** في (**عجائب الأسفار**): «أخبرني كثير الثِّقات بالتَّواتر أنَّ منهم المحامد أهل حدَّاد، وبنو كرز، وبنو موسىٰ، والمرابعة، والخشنة، كلُّ هؤلاء شعوب بني يزيد، ومن إخوتهم عكرمة بن عيسىٰ، وكانت الرِّياسة فيهم (**لأولاد لاحق**) ثمَّ انتقلت منهم (**لأولاد امعافا**) ثمَّ صارت في بيت سعد بن مالك من نسل مهدي بن يزيد بن عيسىٰ بن زغبة وهم يزعمون أنَّه **مهدي بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصِّدِّيق** (رضي الله عنه) نسب تأباه رياستهم علىٰ غير عصبتهم، هكذا قال **ابن خلدون** وانظر تمامه» اهـ.

ولما أقلع **إبراهيم** باشا عن **(وهران)** آيسا منها امتدَّت أيدي الكفرة أيضًا إلىٰ الإسلام، وصار المسلمون معهم بين نفرة واستقامة، حتَّىٰ إنَّ طاغية النَّصارىٰ بعث إلىٰ ولد الممدود من رؤساء غريس، وقال له: «إن كانت أمُّك عربية وتزعم أنَّك لا تخشىٰ سَطوتي فانزل بعرشك **(سراتا)** و**(ملاتة)** ترىٰ ابن النَّصرانية ما يفعل بك »، فأنف من قوله وارتحل بعرشه، ونزل من **(وادي سيف)** إلىٰ أرض **(الغمري)** وعمر سيراتا شرقية وغربيَّة وجعل عيونًا وحراسا بينه وبين **وهران** من **(زبُّوج)**[1] مولاي إسماعيل إلىٰ المقطع، واستعدَّ لحرب الطَّاغية إذا جاءه من **(وهران)**، فلما سمع الطَّاغية ذلك جمع جيشه من النَّصارىٰ والعرب المتنصِّرة، وهم حميان، وغمرة، والونازرة، وقيزة، وشافع وبني عامر، وأولاد علي، وأولاد سليمان، وأولاد عبد الله، وغيرهم، وخرج من وهران ومشوا به غربا علىٰ طريق **(مسرقين)** إلىٰ أن وصل لأولاد عبد الله، ثمَّ مشوا به أسفل جبل **(تاسالة)** إلىٰ أن وصل لجبال ماخوخ فمشىٰ لناحية ماكره، ثمَّ رجع لناحيَّة بلاد أولاد سليمان إلىٰ أن وصل لخشاب النَّصارىٰ، وكمنوا به فمن ذلك الوقت سمي بخشاب النَّصارىٰ، فطار الخبر لولد الممدود وهو دلة بن العروصي وهبط الطَّاغية مع وادي المبطوح، ولما وصل لـ **(سيف)** تركه دلة إلىٰ أن أثخن في النَّاس بالسَّبي والقتل، وقد سدَّ عليه طرق المجاز من كلِّ جهة، وقصده وأثخن فيه إثخانًا عظيما، ولم ينج من النَّصارىٰ إلا القليل، وفكَّ له جميع ما سباه ولازال في إثره بالقتل، والسَّبي، والأسر إلىٰ أن أدخله **(وهران)** ومات من الفريقين ما لا يحصىٰ، سيما العرب المتنصِّرة، لما وصل الطَّاغية لـ **(وهران)** بعث له والد الممدود وهو بضواحي **(وهران)** «لمن تكون علوٌّ

---

(1) **زبوج مولاي إسماعيل**: ويسمىٰ الآن بغابة مولاي إسماعيل شمال مدينة **سيق** بنحو 15 كلم.

الكلمة لولد العربية أو لولد النَّصرانية كلا لئن لم تنته عن محاربتها لأرجمنك».

ثمَّ تولَّى كارلوص الثاني وهو **شارل الثاني** سنة (1082هـ) وبقي في الملك خمسا وثلاثين سنة فبقيت **(وهران)** تحت حكمه، وفي أيَّامه تولَّى الغطريف الهمام، والأسد الضرغام، معزُّ الدين وأهل الإيمان: الزناقي الباي شعبان، أحد الأتراك الأنجاد، وأعيانهم الأمجاد، إيالة **(مازونة)** وغيرها من شرقي المغرب الوسط في حدود التِّسعين والألف دون شطط، فغزا **(وهران)** وطالت به معهم الحروب واتَّصلت عليهم بدولته أعظم الحروب والكروب، ومنعهم من الخروج وضيَّق عليهم إلى أن صاروا يأجوج ومأجوج، ولازموا بيوتهم والحصون وصاروا لا يفارقون الجواسيس والعيون، إلى أن غزاهم في اليوم الذي استشهد فيه، فبموته حصل لهم فرحٌ وتنزيه، ومن خبر ذلك اليوم أنَّ الباي شعبان (رحمه الله) زحف لـ **(وهران)** في أربعة آلاف فيهم نحو ثلاثة آلاف فارس، وزحف الكفرة إليه من **(وهران)** مع مردة العرب من بني عامر وقيزة وغمرة وغيرهم في أزيد من ثمانية آلاف، فيهم ألف خيل والباقي رجالة، وفي **(غريب الأخبار)** للحافظ **أبي راس**: «أنَّ النَّصارى زحفوا إليه في زهاء أربعة آلاف، أكثرهم رجالة، وهو في أكثر من ألف كلهم خيل».

قال في **(عجائب الأسفار)**: «فكان المصافُّ بكدية الخيار، وصبر الفريقان ثمَّ انفضَّت النَّصارى واختلَّ مصافهم، وقد ربط بعضهم أنفسهم بالحبال، وبعضهم طرحوا أنفسهم في الأكبال، فجعلهم الله غنيمة للمسلمين، وفيئًا للموحدين، فقتل في تلك الهزيمة أكثر من إحدى عشر مائة، ودامت عليهم الهزيمة حتَّى انتهى المسلمون إلى قبلة (برج العين) فاقتتلوا هنالك قتالا شديدا، ثمَّ هزموهم ثانيًا وهو أمام جيشه المنصور حتَّى وصل

المسلمون إلى باب (وهران) فحمي الوطيس عنده، وفي تلك المعركة قتل الباي شعبان[1] (رحمه الله) ، وأمدَّه برضوانه، وأسكنه من الفردوس ميطانه، برميه من رجل من العرب الدَّاخلين في سلك النَّصارى المسمين عندنا بالمغاطيس، وذلك سنة (1098هـ) فلقد كان أسدًا من أُسُد الإسلام، ناصرا لأهله على النَّصارى اللِّئام، حتَّى جرى لهذه الغاية المحمودة فأدركها، وأزعج سواكن المسلمين للأجر، وحركها وكذا كلُّ من أعمل في هذه الطريقة مطيَّته، رميا ورملا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠﴾ (التوبة: 120)، ولا يخيِّب لراجيه أملا، ولما قُتل (رحمه الله) بقيت جثَّته بأيديهم فحزُّوا رأسه وعلَّقوه على الباب، فرأى بعض النَّصارى باللَّيل نورا يسطع عليه فبعثوه للمسلمين فجعلوه مع جسده ودفنوه خارج **(وهران)**، وقبره للآن يعرف بقبر **(سيدي شعبان)** وكان على ضريحه قبَّة فلما سكن جواره بعض النَّصارى الآن هدمها لما بليت، ويقال إنَّ اسم الرَّجل الذي قتله أبو نصابية من النصاصيب أحد بطون أولاد عبد الله، أحد بطون بني عامر، وقيل غير ذلك، وذلك سبب غزو السُّلطان مولاي إسماعيل بن علي العلوي لـ **(وهران)** كما يأتي إن شاء الله، ولما استُشهد أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف القرطبي الأندلسي الحافظ قاضي **(بلنسية)** سنة (403هـ) بقي بلا دفن ثلاثة أيَّام، ثمَّ دفن في الرَّابع متغيِّرا (رحمه الله) وروي عنه أنَّه قال تعلَّقت بأستار الكعبة، وسألت الله الشَّهادة ثمَّ فكَّرت في هول القتل فهمت أن أرجع وأستقيل الله من ذلك فاستحييت. وكان (رضي الله عنه) في تلك الواقعة جرح وبقي بين القتلى فسمع هاتفا بصوت ضعيف يقول: «لا يُكلَم

(1) قتل الباي شعبان في معركة وقعت بوهران، وكانت قاعدة الولاية إذ ذاك مازونة، فاستشهد سنة 1098هـ. قال صاحب الثغر الجماني: إنه تكسر في يده ذلك اليوم سيفان.

أحد في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وجُرحُه يثعب دما، اللونُ لون الدَّم والرِّيح ريح المسك»، كأنَّه يعيد علىٰ نفسه الحديث، ثمَّ قضىٰ وهذا الحديث أخرجه مسلم و **لأبي الوليد** هذا أشعار حسان منها:

أسـير الخطايَـا عنـد بابـك واقـفُ ... علىٰ وجـلٍ ممـا بـه أنـت عـارفُ
يخـاف ذنوبـا لم يغـب عنـك عيبهـا ... ويرجـوك فيهـا فهـو راجٍ وخـائفُ
ومـن الـذي يرجـىٰ سـواك ويتَّقـىٰ ... ومالـك في فصـل القضـاء تخـالف
فيـا سـيِّدي لا تخـزني في صـحيفتي ... إذا انتشرت يوم الحساب الصَّحائف
وكن مؤنسي في ظلمـة القـبر عنـدما ... يصدُّ ذوي القربـىٰ ويجفـو الموالـف
لئن ضاق عنِّي عفوك الواسع الـذي ... أرجِّـــي لإسرافي فـــإنِّي لتـــالفُ

قال الحافظ **أبو راس** في (سِينيَّته):

آخـره شـعبان الزنـاقي حاصرهـا ... فامتنعـتٌ وشَمَسـت أيـما شَـمس
أوطىٰ الفليـق الجـرار لأراضـيهم ... به همت دمعهُـم مـن زكـا وخـس
دارت حروب عظيم بينهم قد أتىٰ ... آخـر أمرهـا باستشـهاده الـنفس

ويوجد في بعض النسخ بدل الشطر الأول من البيت الأول:

آخر ما بعدَه الزّناقي حاصرها

ولما مات الباي **شعبان** (رحمه الله) فرح النَّصارىٰ فرحًا شديدًا، واشتدَّت شوكتهم علىٰ الإسلام، فغزوا ولي الله الأكبر سيدي إبلاحة المهاجي، ثمَّ العلمي بوطن (تاسالة) فأخذوا زاويته، وقتلوا وسبوا وأسروه هو وبناته الثَّلاث، فبقوا بـ (وهران) سنة ثمَّ فُدي، وفَدىٰ إحدىٰ بناته عليٌّ والد دموش فزوَّجها له، ولم ينتج منها شيء لدعاء والدها

عليها بالشر، وبقيت الثالثة فكثر بكاء أمِّها عليها، فخرج أبوها لساحة بيته فتوضَّأ ودعا الله، وإذا بها مقبلة فقال لأمِّها أخرجي لبنتك، فسُئلت فقالت: إني أمشط رأسي فنقرني طير أبيض، فتبعته حتَّىٰ إلىٰ وطني.

قال الحافظ **أبو راس** في **(الخبر المعرب)**: «ويقال إنَّ الشَّيخ ابلاحةالمهاجي[1] (رحمه الله) قال بيوم قبل الواقعة لمعلِّم ولده الزَّين: «أيُّها الشيخ، إذا كان في صبيحة غد خذ تلميذك الزين وأمَّه واصعد بهما لرأس جبل **(تاسالة)** ولا ترجع بهما للزاوية إلا بعد الغروب، ودعني أنا وبناتي الثَّلاث هنا في الزاوية، ليقضي الله أمرًا كان مفعولا، ففعل المعلم ما قاله له، فنجَّىٰ الله الولدَ وأمَّه مِن الأسر، وعُدَّ ذلك مِن كرامتِه، كما عدُّ من كرامتِه إتيانه لابنته الثَّالثة مِن الأسر»، ثمَّ سمع سلطان المغرب الشريف مولاي إسماعيل بن علي بقتل العرب المنتصرة للباي شعبان، فجمع جيشًا عظيما لا يكاد يُسمع بمثله من أقاصي سوس إلىٰ بني يزناسن وحرَّك به علىٰ **(وهران)** سنة (1112هـ) وقيل أوَّل القرن الثَّاني عشر، فنزل بـ**(هيدور)** ونظر إليها، وحطَّ كلكله عليها، ووجد حولها نجع محيس أخوة سويد، فاستعان بهم أيضًا علىٰ قتالها، فقاتلها مدَّة، ولم يجد لها محلا يلحقها منه ضرره لمنعها ببرج مرجاجو، فعند ذلك صعد علىٰ المائدة ونظرها نظر ليث العريسة وعاين أحكامها، ومنعها، فقال: هذه أفعىٰ تحت حجر تَضر ولا تُضرُّ، وارتحل عنها مشرِّقا إلىٰ أن وصل لـ **(زبوجة)** الوسط فقامت عليه الأعراب هنالك، ورجع مفلولا، وتمادىٰ في فلوله إلىٰ أن وصل المغرب.

---

(1) **ابلاحة المهاجي**: مشهور بالقعدة، كان من علماء القرن الحادي عشر وله ذرية كثيرة لازالت تحتفل بذكراه.

قال الحافظ **أبو راس** في **(سينيَّته)**:

وبعـد ألـفٍ ومائـة في نقـط يـب   جهزا إسماعيل لها أقـاصي سُـوس

فحـــطَّ كلكلــه حولهـــا محتزمـــا   علىٰ النزال فلـم يجـد محـل بـؤس

قـــام بهيـــدور أيَّامـــا يحتـــال لهـــا   قد استعان بـها حولهـا مـن مخـيس

أعيتــه حيلتهـــا حزمًـــا ومنعتهـــا   عقاب جوٍّ قد ارتقىٰ مـن الحـرس

فقال هـذه أفعـىٰ تحـت صـخرتها   تضُرُّ لا الضر يـأتي لهـا مـن أنـس

ويوجد في بعض النُّسخ بدل البيت الأوَّل:

أوَّل العـــام مـــن قـــرن ثـــاني عشـــر   جمـع إسـماعيل لهـا أقـاصي سـوس

قـــد حلَّقـــت بحـــرس غـــير غافلـــة   بل يسمعون حسيس الآتي كالحسس

والسُّلطان إسماعيل هذا اختلف نقل الحافظ **أبي راس** في نسبه هل هو من ذريَّة موسىٰ الجون بن عبد الله الكامل، أو من ذريَّة محمَّد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل، فقال في **(عجائب الأسفار)**: «هو السُّلطان إسماعيل المشهور بن عليٍّ السِّجلماسي الشَّريف الحسني، من نسل سيِّدنا موسىٰ الجون بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنىٰ بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب».

وقال في **(غريب الأخبار)**: «إسماعيل هذا هو ابن عليٍّ الشَّريف، من نسل سيِّدنا محمَّد النفس الزكية، شقيق إدريس الكبير (رضي الله عن الجميع، بجاه النبي الشفيع)» اهـ.

قلت: وما في **(عجائب الأسفار)** سهو من شيخ شيوخنا، والصَّحيح ما في **(غريب الأخبار)** لأنَّه الموافق لما في كتب النَّسب والتَّاريخ.

قال الوليُّ الكبير والقطب الشَّهير سيدي **عبد الله بن عزُّوز المرَّاكشي** في **(التذكرة**

السَّنية) ـ في نسب سيدنا محمّد بن عبد الله بن إسماعيل أمير المؤمنين ـ: «سيِّدنا محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن الشَّريف بن عليٍّ بن محمد بن عليٍّ بن يوسف ين عليٍّ بن الحسن بن محمد بن حسن بن قاسم بن محمد بن أبي القاسم بن محمَّد بن الحسن بن عبد الله بن محمَّد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمَّد النَّفس الزَّكية بن عبد الله بن حسن بن حسن السبط بن علي بن أبي طالب، فوجدنا بين أمير المؤمنين محمّد بن عبد الله وبين سيدنا علي اثنين وثلاثين رجلا فإذا زدتها على سبعة وخمسين رجلا التي بين نبينا محمد وآدم يصير المجموع ثمانية وثمانين رجلا، وآدم هو التاسع والثمانون، وهذا مابين أهل هذا الجيل هو من كلِّ جنس وملَّة وبين آدم إما يزيد بخمسة أو ينقص بخمسة فهذا هو الضَّابط الذي تعرف به نسب كل جيل من آدم إلى وقتك» اهـ.

وأصل سلف مولاي إسماعيل بن علي سلطان **(المغرب)**، من ينبوع النخل ومدشرهم فيه مشهور، ويقال له مدشر بني إبراهيم، ولما حجَّ أهل سجلماسة ومرُّوا في إيّابهم بالينبوع، أتى معهم الولي الأمجد، والطالع الأسعد، سيدنا عليّ المعروف بالشَّريف، فاستوطن أرضهم ووقفوا عليه أوقافا عظيمة وذلك في حدود سنة (675هـ) كما مرَّ أيَّام السُّلطان يعقوب بن عبد الحقِّ المريني فكثر أولاده بسجلماسة، ويقال: إنَّه لما مات تنازع أهل **(تافيلالت)** عليه فكلُّ واحد يقول بدفنه عنده بمدشره لكون مداشر **(تافيلالت)** كثيرة إلى أن غلب أهل مدشر **(أبار)** فدفنوه عندهم بـ **(أبار)**، وبعض الفلاليين يقول: إنَّ التنازع لم يقع على مولاي علي الشَّريف، وإنما وقع على مولاي حسن والده، وهو الذي أتى من الينبوع، وبه قال **(صاحب جواهر الأسرار)**،

فقال لهم وليُّ الله إبراهيم: أخبروني عن وسط **سجلماسة**؟ فقالوا له: مدشر (**اقرينفوت**)، فقال لهم: ادفنوه به ليكون فضله منتشرا على جميع بلاد (**تافيلالت**).

ولما فشل ريح بني وطاس وبني سعد، وثب السُّلطان رشيد صنو مولاي إسماعيل ابن علي على المغرب فاستولى عليه واستعان على ملكه بمال ابن مشعل الذمِّي وجيش الطَّلبة في أوَّل سنة (1076هـ)، وقال: «النَّصر من الله والجيش من الطَّلبة ولذلك صار العلويُّون يعطون الحكم للطلبة على سبيل النُّزهة سبعة أيَّام في كلِّ سنة، وإلى هذا السُّلطان تنسب **تاموزونة الرشيدية**، وبقي في الملك إلى أن مات سنة (1082هـ) فمدَّة ملكه سبع.

ثمّ بويع بالملك أخوه السُّلطان إسماعيل ـ المشهور ـ يومَ الأربعاء سادس وعشرين ذي الحجة سنة (1082هـ) موافقا لثالث يوم من أفريل، وهو ابن ست وعشرين سنة لأن ولادته كانت سنة (1056هـ)، ولقبه المظفر وكنيته أبو النصر، فنهض بأعباء الخلافة وأحسن السِّيرة، وضبط الأمور، ودوَّخ الأقطار، وخلَّد الآثار، وتمهَّدت له البلاد بعد الحرب الطويل حتَّى استولى على تخوم السُّودان وبلغ فيها إلى ما وراء النِّيل، وفي المشرق إلى الزَّاب قرب (**بسكرة**) وبلغ بالتلِّ ما حول (**مازونة**) و(**بسناس**)، وشمَّر لحرب النَّصارى الذين بسواحل المغرب، فحاصر العرائش إلى أن فتحها عنوة ـ كما مرَّ ـ وحاصر (**طنجة**) إلى أن فتحها عنوة سنة (1095هـ)، وكان أخذ النَّصارى لها من أيدي المسلمين سنة (870هـ)، بعد قتال عظيم، ولما رأى المسلمون أن لا مُغيث لهم أسلموا لهم، وفي الحديث: «يبلغ هذا الدِّين بحر طنجة الذي لا عمارة وراءه» انظره في (**الشفاء**) وقال الشهاب الخفاجي في (**شرح الشفاء**): «طنجة ـ بفتح الطَّاء وكسرها وسكون النون، وقد

تفتح ـ لفظٌ بربري، مدينة عظيمة فتحت أوائل الإسلام»، وحاصر المهديَّة وهو اسمها الآن وكانت تسمى المعمورة وهي قرب (**اسلا**) نهض إليها سنة (1098هـ)، إلى أن دخلها عنوة تلك السَّنة، وأسر منها نحو ثلاثمائة، ثمَّ نهض لـ (**سبتة**) وحاصرها ودام حصاره لها إلى أن توفي سنة ست أو تسع وثلاثين ومائة وألف (1139هـ)، عن ثلاث وثمانين سنة، وعِدَّة ملكه منها قيل سبع وخمسون سنة، وقيل ثلاث وستون سنة وقيل غير ذلك، وكان يختم (**صحيح البخاري**) عن ظهره (رحمه الله).

ثمَّ تولَّى ابنه مولاي عبد الله إلى أن مات، ثمَّ تولى ابنه سيدي محمد بن عبد الله بن إسماعيل وبقي في الملك نحو الخمس وثلاثين سنة وقيل غير ذلك، وهو الذي فتح (**البرجية**) من يد الدبرقيز، ويقال لهم البرتقيز ـ كما مرَّ ـ وهم أهل مدينة (**أزبوة**) بقرب (**الأندلس**) على البحر المحيط وتوفي في أعوام الخمسة بعد المائتين والألف (1205هـ) ثمَّ تولَّى ابنه مولاي اليزيد يوم موت أبيه وقد ثار على أبيه في حياته، وبقي في الملك عاما وثمانية أشهر وحاصر (**سبتة**) سنة (1206هـ)، حصارًا شديدا وضايقها وزلزل قوائمها، فعيِّن بالثُّوار فثنى عنانه إليهم إلى أن كان قتله (رحمه الله) بمراكش بباسهم وخلا لسبتة الجوُّ بموته (**سُبحَانَ مَن لا يُسأل عمَّا يَفعَل**)، وسبتة (بفتح السِّين) نسبة إلى سبت بن يافث بن نوح عليه السَّلام لأنَّه أوَّل من اختطها فهي من مشاهير المدن التي كانت قبل الإسلام، وكانت منزل بليان بن غمارة بن مصمود، ولما زحف إليه موسى ابن نصير أقرَّه على الجزية، ثمَّ لما مرَّ به طارق بن زياد مولى موسى المذكور قاصدا غزو (الأندلس)، أعانه بليان إعانة جيِّدة ونفر معه أناس من البربر ومن المصامدة، ومن مشاهير من أجاز مع طارق للغزو يحيى بن وسلاس، ويقال لجبله الآن الذي بايفكان

جبل **أوسلاس بن شهلال** جد يحيىٰ بن يحيىٰ راوي **(موطأ مالك)**، ثمَّ تداول سبتة ملوك المغرب من الأدارسة وغيرهم إلىٰ أن أخذها النَّصارىٰ أواخر ملك بني مرين غدرًا سنة (811هـ) أيَّام السُّلطان أبي سعيد والد **عبد الحق** المخلوع.

قال الحافظ **أبو راس** في **(سينيَّته)**:

عرائش وطنجة ثـمَّ مهديَّـة　　　برجية أخذتا مـن ادبـرقس

وقال قبل ذلك:

بحربِ إسـماعيل ثـمَّ بحافـده　　　وكسفت بسبتة أضواء الشَّمس

ها هم إلىٰ الآن سـبتة بعـدوتها　　　ومليليـة ونكـور مـع بـاديس

ثمَّ تولىٰ بعده أخوه الثَّائر عليه الذي مات بـ (باسه) مولاي هشام، وبقي في الملك سنة وثمانية أشهر.

ثمَّ تولىٰ سليمان وبقي في الملك نحو الثَّماني وثلاثين سنة إلىٰ أن مات.

قال الحافظ **أبو راس** في **(رحلته)**: «ولقد سألني (أدام الله نصره) لما اجتمعت به عن مسائل منها: الملوك السَّعدية، وبني وطَّاس، وبعض أهل الزَّوايا، فأجبته بما عندي، وعلمت أنَّ له يدا في التَّاريخ والأنساب وأيَّام العرب، وذلك العلم الذي تعتني به الملوك قديما، وكان مجلسه لا يخلو من العلم والعلماء تعليما وتعلما، ثم تولىٰ مولاي عبد الرحمن بن هشام وبقي في الملك نحو الثماني وثلاثين سنة، إلىٰ أن مات وثار عليه مولاي سعيد، ولم تحصل له فائدة ثم ثار عليه ابن مولاي سليمان ولم تحصل فائدة ثم تولىٰ ابنه سيدي محمد بن عبد الرحمن وهو الذي حرك علىٰ الفرانسيس سنة (1261هـ) بالسلم حيث كان خليفة علىٰ أبيه فلم يحصل منه شيء بل كان غنيمة عظيمة للنصارىٰ وجهز

جيشا عظيما لقتال أمير المغرب الأوسط السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدين الأمير المخلص لرب العالمين سنة (1264هـ) وكان مهاجرا بأرضه فقاتله قتالا شديدا، ولما رأى الأمير أنْ لا ملجأ له إلا الله تعالى، جاء عند الفرانسيس ببعض دائرته، فتفرَّق الباقي فأكرموا مثواه، ونال منهم عزا ورفعة وحرمة، إلى أن مات بدمشق الشَّام سنة (1300هـ) وبقي مولاي محمَّد في الملك نحو الستَّ عشرة سنة إلى أن توفي، ثم تولى ابنه مولاي الحسن وهو الموجود، وله نحو الأربع عشرة سنة منذ تولَّى، ولم يدوِّخ أحد المغرب مثله من أسلافه، إلا مولاي إسماعيل، ولما ارتحل مولاي إسماعيل عن **(وهران)**، ورأى النَّصارى أنَّه لم ينتج منه شيء اشتدَّت شوكتهم على المسلمين وأكثروا من غزوهم، وأخرجت الأعراب المظاهرون لهم كل لبلده لأنَّ عادتهم مهما رأوا قائما على نصارى **(وهران)** انحازوا لها، وإذا أقلع عنها خرجوا منه، وكم لعلماء الإسلام من التَّحريض على الدِّفاع ولم ينتج شيء من الأعراب، قال الشَّيخ **عبد الرحمن الجامعي** في شرحه لـ**(رجز الحلفاوي)**: «ولما كثرت على المسلمين غاراتهم، وقلت من أهل البلاد عليهم غيرتهم، واشتدت على المسلمين شوكتهم، خاطب علماء الآفاق، على سنة الرفاق، في بني عامر وزناتة محرضين لهم على الإغاثة، يعايرونهم بالدخول تحت ذمة الكوافر، وافتراشهم بناتهم الحرائر فكأن ذلك ما قرع أسماعهم، ولا طرق رباعهم، والعياذ بالله من طبع القلوب، وغلظ الحجوب، فمن ذلك قول أبي العباس أحمد بن[1]

(1) **أحمد بن عبد الله بن القاضي**: المشهور بابن أبي محلي السجلماسي، ثار على زيدان السعدي والتحق به الشيخ سعيد قدورة على رأس وفد من تلمسان وبني راشد وأبدوه وأعان علماء الجزائر في الدعوة إلى الجهاد ومقاومة ومقاومة الإسبان، مات قتيلا في معركة سنة 1021هـ.

عبد الله أبي محلي المساوري المراكشي، صاحب القرن الحادي عشر يخاطب بني راشد وغيرهم والأتراك وهو هذا:

فهـل مبلـغ عنـي قبائـل عـامر ... ولا سيما من قد ثـوىٰ تحـت كـافر
وكـل كمـي مـن صـناديد راشـد ... بتيجانها مـع راسـها عبـد القـادر
وطلحة والأحلاف في غرب هـذه ... وشـيخ سـويد بـل وكـل مفـاخر
ويـا معشـر الأتـراك يـا كـل عـالم ... وكـل ولي حـافظ للأوامـر
أناشـدكم بـالله مـا عـذر كلكـم ... لـدىٰ الله في وهـران أم الخنـازر
أذلكـم الجبـار كيـف رضـيتم ... بسبي العذارىٰ من بنـات الأكـابر
فصرتم مـن جـور البغـاة كـأنكم ... يهـود الجـزا تعطونهـا بالأصـاغر
فـلا همـة تعلـو بكـم عـن دنيـة ... ولا غـيرة تـدعوكم للمـآثر
ولا ذمـة ترعونهـا في نبـيكم ... ولا حرمـة تحمونهـا بـالبواتر
عليكم أكاف الذل أيـن فحـولكم ... أما ابصرتم في السبي غير الحرائـر
وتحـت اليهـودي غـادة عربيـة ... يعاليهـا والخنزيـر فـوق الهزابـر
ومـا مـنكم ألا خصـي أذلـه ... بهيسـمه النصـراني يـا آل عـامر
أضـيم الملـوك أم تغلـب ظـالم ... عليكم رمـاكم في جـوار الكـوافر

وأشار بقوله: «وتحت اليهودي ... الخ »، إلىٰ أن تعيير **بني عامر** بما كان لليهود عليهم من الصَّولة من النَّصارىٰ، وذلك أنَّ اليهود كانوا نازلين بمرسىٰ هذا الثَّغر لكون تولية النَّصارىٰ لها كانت علىٰ أيديهم فكان يخرج العامل منهم علىٰ خراجات بني عامر، فينزل عليهم نزل الملك في مملكته بالأمر والنَّهي والتصرُّف التَّامِّ ـ كما مرَّ ـ وكانوا

يملكون الأسارىٰ من المسلمين ذكورًا وإناثًا ومنها قول العلامة الشَّيخ **محمد بن عبد المؤمن** قاضي المالكية بـ (الجزائر) يحرِّض أمير وقته **حسن باشا** (رحمهما الله):

نادتــك وهــران فلــبِّ نــداها   وانزل بهـا لا تقصـدنَّ سـواها

واحلل بتلك الأباطح والرُّبـىٰ   واستصـرخنَّ دفينهـا الأوَّاهـا

إلىٰ آخرها، وقد تقدَّم ذكرها، ومنها قول العلامة الشيخ محمد ابن القوجيلي الجزائري [1] مخاطبا لباشا الجزائر، في عصر السيِّد أحمد باشا خوجة من قصيدة طويلة يوصيه فيها بالعدل والالتفات لمصالح الرعيَّة والقيام بحقِّها، إلىٰ أن قال:

والتفــت نحــو الجهــاد بقــوَّة   فــالكفر اقطــع أصــله بــذكور

أضرم علىٰ الكفـر نـار الحـربِ لا   تقلــع ولا تمهلهــم بفتُــورِ

وبغربنــا وهــرانُ ضرسٌ مــؤلم   وســهل اقتنــاع في اعتنــاء سرور

كم أذت من مسلمين وكم سبت   مــنهم بضــرب أســيرة وأســير

فانهض بعزمك نحوها مستنصـرًا   بــالله في جــدٍّ وفي تشــمير

فصار كثير من العرب وزناتة إذا سمع هذه الاستصراخات يعرض عنها صفحا، وأما الأتراك فيأنفون من ذلك ويستعظمون ويسارعون لدفع ذلك جهدهم حتىٰ كان ما كان، إلىٰ أن عاد الأمر لأكثر ممَّا كان، والأمر لله العظيم الشَّأن.

---

(1) **محمد بن محمد بن علي أقوجيل**: المتوفىٰ سنة 1081هـ وجه لباشا الجزائر أحمد خوجة قصيدة يحرضه فيها علىٰ محاربة الإسبان بوهران، وذلك سنة 1067هـ، وكان من كبار العلماء، له فهرس مشهور.

ثمَّ إنَّ الإسبانيِّين لما **دام** لهم الملك بـ **(وهران)** بنوا بها بناء ضخما فبنوا سورها العظيم وزادوا في بناء البرج الأحمر وبرج المرسىٰ، وبنوا عدة أبراج كبرج مرجاجوا المار وبرج رأس العين وبرج المرسىٰ الثاني وبرج الحمارات والبرج الجديد وغيرها، وأما برج اليهود المطِلُّ علىٰ المدينة والبحر والمرسىٰ فبناه يهودي، والبرج الأحمر وبرج المرسىٰ الأوَّل فبناهما أبو الحسن المريني كما مرَّ، لكن النَّصارىٰ زادوا فيهما فاتَّسعت دائرتهما، وبرج الأصبايحية بناه الأتراك، وذكروا أن البرج الجديد أقامته نصرانيَّة وحدها بتسعين ألف ريال كبيرة وهو **الدورو**.

قال **الحافظ أبو راس** في **(غريب الأخبار)**: «وذكروا أنَّها صدقة مالها، لا تقبَّلَ الله منها إنَّما يتقبَّل الله من المتَّقين » اهـ.

ثمَّ غزا النَّصارىٰ العبيد [1] الشراقة حذو المقطع في جيش عظيم خرجوا به من (وهران) ومرُّوا علىٰ (قديل) ثمَّ علىٰ (رزيو) ثمَّ علىٰ سيدي محمد الزناقي إلىٰ أن وصلوا للمقطع وانحدروا علىٰ (الشراقة)، وكان الخبر تقدم للعبيد الشَّراقة فاجتمع معهم العبيد الغرابة [2] وهبرة والبرجية ومجاهر فاختلَّ المصاف علىٰ النَّصارىٰ ودارت الدَّائرة عليهم فكان أكثرهم غنيمة للمسلمين، ورجع كلهم لـ **(وهران)** ومن ذلك الوقت أتوا بحميان من **(ملاتة)**، وأنزلوهم بهذه الأرض التي هم بها الآن ترسا بينهم وبين هؤلاء الأعراش، فكانت **حميان** تارة مذعنين للنَّصارىٰ، وأخرىٰ مذعنين للعرب.

---

(1) **العبيد الشراقة**: مقرهم الآن ببلدة (ستيديا)، بين مستغانم و**أرزيو**، وتسمىٰ: قرية الشراقة.

(2) **العبيد الغرابة**: شمالي **وادي سيق**، وقراهم تسمَّىٰ بالغرابة، يقال: إن أصلهم من عبيد مولاي إسماعيل، رافقوه في غزوه لوهران وبقوا هنا.

ثمَّ تولَّىٰ **فليب الخامس** وولده **الوي الرابع عشر** وهو ببطن أمِّه سنة (1117هـ)، وبقي في الملك أربعا وعشرين سنة، وبقيت **وهران** تحت حكمه كسائر مملكة **إسبانيا**، واشتدَّت شوكة النَّصارىٰ علىٰ المسلمين إلىٰ أن تولَّىٰ بوقته الشَّريف النَّسب وكثير اللجَين والذَّهب، إمام جامع المجادة الأزهر، وبدر مطالع السعادة الأبهر، أبو الفتوحات الربَّانية، القائم في إيالة محروسة (**الجزائر**) المحميَّة بتصرُّفات الدَّولة العثمانيَّة، أبو عبد الله محمَّد خوجة بن عليٍّ داي **الجزائر** الدار، النكدلي المنشأ القريشيُّ النِّجار، المعروف بـ : **باكداش**، المنصور بالله علىٰ النَّصارىٰ الأوباش، (قدَّس الله روحه، وبرَّد ضريحه)، باشة الجزائر، التي هي مأوىٰ لكلِّ قاطن وزائر، يوم الجمعة منسلخ ذي القعدة الحرام، سنة (1118هـ) بلا انصرام، بعد عزل الباشة الذي قبله الصَّائر للأمور المجوجة، وهو السيد **حسين** الشَّريف **خوجة**، وكان بايًا علىٰ (**مازونة**) و(**تلمسان**) إيالة الافتخار، السيِّد **مصطفى أبو الشَّلاغم بن يوسف المسراتي ثمَّ الهواري**، فتحرَّك لـ (**وهران**) الباي المذكور، وقدم لحصارها وقتال مَن بها بجيشه المنصور، وجهَّز لها الباشا (رحمه الله) الجنود برًّا وبحرًا، فخيَّموا علىٰ أرجائها سهلا ووعرا، وانتدب للجهاد الجم الغفير، الكثير رغبة في جنَّة المأوىٰ ورهبة من نار السَّعير، فكانت الجنود التي تأتي من البحر ينزلون بمرسىٰ (أرزيو) ويذهبون منها مع البرِّ لـ (وهران) ولا يمكنهم حصارها من جهة البحر، لاحالة مراكب النَّصارىٰ بينهم وبينها، مع زيادة شدَّة بأس برج المرسىٰ، وكان الرَّئيس علىٰ الجيوش التي تأتي من البحر خليفة الباشا ورديفه وصهره ووزيره **حسن أوزن** يعني الطويل والباي **مصطفى الكبير** علىٰ محلَّته، فحاصر (**وهران**) وضايقها واشتدَّ القتال بها مدَّة، والحرب مترادف وشوهد لهذا الباي المنصور بالله في تلك الحروب أمور عجيبة، وحملات غريبة ظهرت فيها شجاعته وكفايته، ومازالت

جيوش المسلمين تحارب (وهران)، وتنال منها غنائم ومثوبة وأجرًا، وتراوحها وتصابحها وتعالجها بالقتال وتغاديها إلى أن فتحها عنوة وقهرا، وذلك صبيحة الجمعة سادس وعشرين شوال سنة (1219هـ)، (الصواب: عام 1119هـ ـ 1708م)، بعد إقامة النَّصارىٰ مائتي سنة وخمس سنين في المشتهر.

قال الحافظ **أبو راس** في (**السينية**):

لمــا أراد الله عــود الإيــمان بهــا	أقــام بــالجزائر مــذهب الــدنس
محمــد باكــداش أضــحىٰ باشــتها	قد فاق الأكفاء في الدَّهاء والرَّغس
جهــز جفنــا بــالأتراك مشــحنة	في شرقهــا نزلــوا في برِّهــا اليــبس
مــدافعًا وعــرادات أتانــا بهــا	أضحىٰ لذلك حزب الكفر مُنبئس
في كــل حــين أوزن حســن يزاولهــا	وفائق مصطفىٰ ذو البأس والفرس
ففُتحــت عنــوة في تســع عــاشره	من بعد سكنىٰ ره والدين في وكس
عاقبــة الغــدر للبــوار قــد قــررت	ســنَّة ربنــا قــد ســنَّها في جــدس
أضــحت مراتــع أمــن للأنــام وقــد	كانت بها طيِّبــات الأنــس في دنــس
قدمــه بعــد عشــر اســتقلَّ بهــا	بغايــة وجــدت كالعــدو للفــرس
حكــم الإلــه كــما قــد تــرىٰ قــدَّره	لو شــاء مــا ملكوهــا عشــر الــنّفس

وقال الشَّيخ **أبو عبد الله محمد بن التغريري**[1] **الجزائري** في (**رجزه**):

(1) وقيل: محمد بن الثغيري.

يــا ســائلا عــمَّا بــوهران ظَهــر | مــن أخــذها وفكَّهــا كــما اشــتهر
أخـــذها الكفَّـــار بالثبـــات | فـــيما رويناـــاه عـــن الثِّقـــات
ســـنة أربـــع وعشـــرة مَضـــت | مـــن بعـــد تســـعمائة قـــد كمُلـــت
فمائتـــان مـــع خمســـة ســـنين | عـــدد مُكثهـــا بأيـــدي المشـــركِينَ
ثـــمَّ بعـــد العـــزم مـــن الإلـــه | وجاءنـــا الفـــتح بنصـــر الله
ففتحـــت ســـنة تســـعة عشـــر | ومائـــة مـــن بعـــد الألـــف تُعتَـــبرُ
في ســادس العشــرين مــن شــوَّال | صـــبيحة الجمعـــة خـــذ مقـــال
عـــلىٰ يـــدي مـــن صـــيَّر الجزائـــرْ | جنـــة كـــل قـــاطن وزائـــرْ
محمَّـــد بكـــداش فخـــر الدَّولـــة | وحســـن ســـيرها عـــالي الصَّـــولة

قال الحافظ **أبو راس** في (**عجائب الأخبار**): «ظهر للنَّاس بعد فتحها حينئذ، كان هذا الباشا هو الشخص الذي كانوا يتمنَّون وجوده من غير معرفة عينه، وأمَّا الأعيان الذين كانوا يظنُّون وقوع هذا الفتح علىٰ أيديهم، فلم يصدِّق الله تعالىٰ ظنَّهم فيها، وذلك أنَّهم كانوا يزعمون أنَّ هذا الفتح لا يكون إلَّا علىٰ يد الإمام المهديِّ الفاطمي، فكانوا يترقبون لهذا الأمر وجوده وينتظرون لهذا الثَّغر وروده، واحتجَّ بعضهم لذاك بما وقع في (الحذيفية) ـ نسبة لحذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) صاحبِ سرِّ الرسول الله ﷺ ـ من أنه إذا أراد الله ظهوره، يأمر تبارك وتعالىٰ بخرائب المدائن والقرىٰ فيخرب الشَّام ومصر، وترشيش، ومديونة، وطرابلس، ووهران، وطنجة، وسبتة، وسلا، والدار البيضاء، وخولان، وزرهوني، وسوس الأقصىٰ والأدنىٰ» اهـ.

وقال بعضهم وقد اختلف في معنىٰ الخراب علىٰ أربعة أقوال: فقال المحتج بهذا

المراد بالخراب هنا أنَّ (**وهران**) و(**طنجة**) وما ذكر معهما ستخرب النَّصارىٰ أو تزول من أيديهم، فأوَّلَ الخراب بالزَّوال، وبهذا قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبي محلي المساوري ثم المرَّاكشي في كتابه: (**الاصليت في الردِّ على العفريت النِّفريت**) ثمَّ قال كنَّا نسمع في (**وهران**) أنَّها يفتحها المسلمون بين يدي ظهور الإمام المهدي أو علىٰ يديه».

- وقال بعضهم المراد بالخراب المذكور إزالة الجور علىٰ هذه الأماكن، فأوَّل الخراب بإزالة الجور.
- وقال بعضهم المراد بالخراب علىٰ بابه وهو السُّقوط لدورها وانهدام بيوتها، فأوَّل الخراب علىٰ بابه.
- وقال بعضهم المراد بالخراب المذكور خرابها من الإيمان يعني أنَّ هذه الأماكن يذهب منها الإيمان، ولم يبق بها إلا نادرا ويعمُّ الكفر علىٰ أهلها، فأوَّل الخراب بخرابها من الإيمان.

قلت: وهذا هو الموافق.

قال **الجامعي**: «إذا صحَّت هذه الحذيفية وتأويلها الأول فقد أطالنا زمان هذا الإمام المنتظر، فالكثير من هذه البقع المذكورة مطهَّرة من الكفر ولم تبق إلا (**سبتة**) مكَّن الله المسلمين من ناصيتها، وملكهم من قريبها وقاصيتها» باختصار وزيادة.

وزاد **ابن أبي محلي**: «فتح البريجة وهي مشحونة بنصارىٰ الدبرقيز، ولم تحصر إلَّا أنَّ أهلها لا يتصرَّفون في برِّها إلا تصرَّف السَّارق، ولا يمرُّون بنواحيه إلا مرور البارق، أو الحلم الطارق، لخوفهم من المسلمين».

وقال **الجامعي**: «وقد كان كثير من أهل الزَّمان يرون أنَّ هذا الفتح إنَّما يكون علىٰ يد السُّلطان إسماعيل حتَّىٰ إنَّ نصارىٰ **(وهران)** يعتقدونه ويزعمون نقله من أجفارهم وصحيح أخبارهم، ويصرِّحون به للأتراك أيَّام حصارهم وأما علماء الأخبار، ومحقِّقو الأجفار، فكانوا يرون أنَّ هذا الفتح لا يكون إلا علىٰ يد ملوك **(الجزائر)**، وأن توليتهم للجزائر علامة علىٰ فتح **(وهران)**، كما صرَّح به **ابن أبي محلي** بقوله:

ألستم أخذتم دار ملككم التي　　　من أشراط فتحها وذا في العلائم

ثمَّ إنَّ الباي مصطفىٰ أبا الشَّلاغم لما فتح (وهران) انتقل لها من المعسكر وسكنها كما يأتي ذلك إن شاء الله في ذكر بايات وهران الذين ملكوها واستقرُّوا بها ثم تولىٰ الوىٰ أبو ربو سنة (1141 هـ) وسلم في الملك في تلك السَّنة لابن عمِّه **فيليب الخامس** ـ المارِّ ـ فبقي في الملك في المرَّة الثَّانية اثنتين وعشرين سنة، وفي السَّنة الثالثة من توليته، وهي سنة (1143هـ) جهَّز لغزو **(وهران)** جيشا عظيما فدخلوها عنوة، وذلك بعد موت **الباشا بكداش** (رحمه الله) وفي حياة الباي مصطفىٰ أبي الشلاغم، وقد انتقل منها بسبب ذلك إلىٰ **(مستغانم)** وصيَّرها دار ملكه بعد مناوشة حرب قليل قتل فيه النَّزر، واستشهد فيه علي بن مسعود المحمودي الحشمي، وبعد إقامة المسلمين بها أربعة وعشرين سنة أخذها النَّصارىٰ في المرَّة الأولىٰ بمالها وأهلها، وأخذوها في هذه الثَّانية، بأكثر ما فيها من الأموال ونجت الأنفس.

قال الحافظ **أبو راس** في **(السِّينية)**:

مِن بَعدِ عشرٍ وعشرٍ ثمَّ أربعة　　　عدّوا إليها قرَّة أعين التَّعس

فملكوهــا بــلا كبــير ملحمــة لاكــن في الأولى بخدعــة منخـيس

فمــرَّتين ابتاعوهــا غــير غاليــة كيـف يبـاع ثغـر وهـران بـالبَخسِ

أتوهــا طــورين انتقــدوها عــامرة وعـد عليهـا إلـيهم غـير منخـيسِ

خلا لها الجـو صرفـا واطمـأنُّوا بهـا وقد تجلـت للكفـر جلـوة العِـرس

يا له من ثغـر أضـحى أهلـه جـزرا للنائبــات والجـــد منــه في الــتَعَسِ

مدينــة العلــم والإيــمان حــلَّ بهــا ما حلَّ بالحصن من الخَبْسِ والخبُس

مــــن كــــلِّ شــــارقة الآلام بارقــــة مــا تمهــا عــاد للأعــداء كــالعرس

تقاسـم الـرُّوم لا نالـت مقاسـمهم غــرٌّ معاقلهــا المحجوبــة الــنَّفس

... الخ

ثم تولى **فردينه السَّادس** سنة (1163هـ) وبقي في الملك تسعًا وعشرين سنة، وبقيت **(وهران)** في حكمه، ثمَّ تولى **كارلوص** سنة (1176هـ) وبقي في الملك تسعةً وعشرين سنة وبقيت **(وهران)** في حكمه، إلَّا أنَّ النَّصارى من حين الفتح الأوَّل انكسرت شوكتهم من الغزو العظيم للمسلمين، وعرفوا قدرهم لكن رعبهم لم يذهب من قلوب المسلمين بعد الفتح فأحرى بعد رجوعهم لـ **(وهران)**.

قال الشَّيخ **عبد الرحمن الجامعي** في شرحه لـ **(أرجوزة الحلفاوي)**: «كنت وفدتُ عقب الفتح على العالم العلَّامة، الدرَّاكة الفهَّامة، الدراية النقَّاد، سراج التَّحقيق الوقَّاد، منهل العلوم الأصفى، أبي عبد الله سيدي محمد المصطفى القلعي الرِّماصي[1] (تجاوز

(1) **محمد بن ميمون**: المشهور بمصطفى الرماصي، فقيه حافظ له حاشية على شرح التنائي على=

الله عنا وعنه يوم الأخذ بالنَّواصي) فوجدته يسكن بأهله بيوت الشَّعر قرب غابة في رأس جبل يأوي إليهم ليلا، ويظلُّ نهارًا في داره ومسجده يُطالع كتبه ويقرئ طلبتَه، فسألته عن ذلك فقال لي: كنَّا على هذه الحالة على عهد النَّصارى خوفا منهم لأنَّا كنَّا لا نأمن منهم في الدُّور من أن يصكُّونا ليلا، فخرجنا لبيوت الشَّعر ليسهل علينا الفرار إلى غابة الجبل فنمتنع منهم»، فانظر إلى أين بلغ بالمسلمين خوف أولئك الطَّواغيت، ولا يعرف حلاوة الأمان إلا من ذاق مرارة الخوف، وأخبرني المرابط الخير **أبو الحسن** السيد **علي بن حسون العبدلِّي** أنَّهم كانوا لا يهنأ لهم في بلادهم نومٌ إلا إذا جعلوا من يحرسُهم، ومهما ينم أحدهم تجده يهذي بإغارة النَّصارى عليهم، ويصرخ في نومه من شدَّة خوفهم، ثمَّ جهَّز **كارلوص** المذكور جيشًا عظيما في خمسمائة سفينة كبيرة مشحونة به في أعوام الثَّمانين ومائة وألف (1180هـ) لغزو **الجزائر**، وبها باشتُها الشَّريف السيد محمد باشا [1] فنزلوا بـ (**الحرَّاش**) وبنوا به برجًا عظيما في ليلة واحدة يقال له (**برج مولاي حسن**) ووافق ذلك قدوم الباي صالح من (**قسنطينة**) للجزائر لدفع لزمة الصُّوف وهي محمولة على الإبل، فقدَّم تلك الإبل أمامه وجعلها سورا بينه وبين الإسبانيِّين وقاتلهم قتالا شديدًا، واجتمعت عليه القبائل مع جيش (**الجزائر**) فاشتدَّ القتال وحمي الوطيس وكانت الدَّائرة على النَّصارى فكسرت لهم تلك السُّفن وفشا فيهم القتل

=مختصر خليل يعنمدها كثيرا الدردير في شرحه على المختصر والبناني الفاسي توفي بمعهده قرب قلعة بني راشد سنة 1137هـ، وله فتاوى تدل على شجاعته الأدبية.

(1) هذا الهجوم هو الذي خصه محمد بن رقية التلمساني بتأليف سماه (الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة) أتمه سنة 1194هـ، 1775م. وهذا الهجوم هو الذي شنه الإسبان تحت قيادة (D’Oreilly).

والجراحات إلى أن علا دمهم على البحر، وذهبوا مفلولين فرضي الله عن الباي صالح.

ثمَّ تولَّى **فردينه السَّابع** سنة (1205هـ) وبقيت **(وهران) تحت حكمه**، فجهَّز لها في وقته من قيَّضه الله لفتحها وأرشده لسعادتها ونجحها، الممتطي منصة الرضوان، ومشيد راية الإيمان، وباسط مهاد العدل والأمان، الباي السيد محمد بن عثمان، أتحفه الله برضاه، وجدد له اللُّطف وأمضاه، سنة (1205من هجرة من حاز الكمال والشَّرف) جيشًا حصل له به النَّصر والسُّرور والاطمئنان، فخرج من المعسكر قاصدا فتح **(وهران)**، وقد قدَّم أمامه البارود في عدة صناديق، وأعدَّه ذخرا لحربهم فدخره ببرج شلابي بـ **(وادي سيف)** فنزل بسيف وهو كاللَّيث الضِّرغام، وارتحل من الغد يريد قتال النَّصارى اللِّئام، فنزل بـ (وادي تليلات)، واشتاقت روحه لدخول روضات الجنَّات، ثمَّ ارتحل من الغد صباحا وهو بفعله هائج، فنزل بوطاء **(وادي الهايج)**، واجتمعت عليه الأعراش فيه بالعزِّ والتَّمكين، وجاءه المخزن والنَّصر يلوح عليه من ربِّ العالمين، وكان الوقت وقت الحصاد، الذي فيه تجمع عيشها سائرُ العباد، فتفاوضوا معه وتشاوروا، وتجاوبوا معه في القول وتحاوروا، وقالوا له يا سيدنا الرَّأي الذي لنا ولك فيه العزُّ المنيف، أن تدع هذا القتال لوقت الخريف، لتذهب النَّاس لجمع عيشها، وتتفرَّغ بقتال جيشها، فقال لهم رأيكم فيه حكمة وصواب، ولكن نحن وأنتم في رأي الأولياء والعلماء أولي الألباب، فهم أدرى منَّا بالأمور، وبإشارتهم يكون لنا الفوز والسُّرور، فبعثوا من حينهم لولي الله الشَّهير، **السيد محمد بن دية الضرير**، وهو بجبل **(تاسالة)**، فأتوا به في أكمل حالة، فاجتمع به وشاوره وتردد القول بينهما وحاوره، فقال له الولي المذكور قولته الكاملة، إنَّك لا تفتح **(وهران)** في هذه السنة، وإنما تفتحها يوم

الإثنين من رجب سنتك القابلة فسُرَّ بها الباي وفرح، واطمأنَّ قلبه وصدره انشرح، وكان هذا الباي معتمدا في فتحها على كلام سيدي **الأكحل الخلوفي**، فوافقَ ما قاله هذا الولي الصُّوفي، وكان هذا الولي يقول: مَن أبىٰ الخبار، ما بقي من يعطي الأخبار، فارتحل الباي من حينه ولأم عسكر رجع، وصار يراصد الوقت الذي هو له أنفع، ولما كان سنة (1206) قدم لفتح (**وهران**) في مائة فسطاط، ونزل بـ (**تليلات**) فجاءه ولي بهلول من أولياء الله المفتوح لهم حجاب الكشف، وصار يقول في المحلة أيُّها الباي إذا أردت أن تفتح (**وهران**) فآت لها على جنين مسكين، وكان هذا الجنين ببلاد أولاد علي فلما سمع الباي ذلك أحضره لديه، وقال: ماذا تقول يا هذا السيِّد، فقال له القول هو ذاك، فرجع الباي لأم عسكر وخرج بمحلته على أبي الحنفية، ثمَّ نزل بـ (**الزفيرف**) وجاء على القعدة فنزل بـ (**جنين مسكين**)، ثمَّ قدم (**تليلات**) فجاءه ذلك الولي وقال له الآن تفتحها بإذن الله تعالى، ثمَّ ارتحل ونزل بالضَّاية قبلتها، ثمَّ ارتحل ونزل عليها وحاصرها وضايقها مضايقة شديدة، وكان القتال عليها مترادفا، وحضر لقتاله عدد من الطَّلبة يقرب الخمسمائة، وكبيرهم الشَّيخ **محمَّد بن المولود المخيسي**، وفيهم العلَّامة وليُّ الله الشَّيخ سيدي **محمد بن أبي طالب المازوني**[1] صاحب الحاشية التي أسمها: (**دارة الحواشي في حل ألفاظ الخرشي**)، وقد باشر هذا الأمير حربها بنفسه، مدِّخرا ثواب ذلك لرمسه، ولم يكن (رحمه الله) إلَّا في محلَّته المعهودة له في سائر الأيَّام، وهي مائة فسطاط،

---

(1) **محمد بن علي أبو طالب المازوني**: عالم فقيه التحق برباط وهران سنة 1206هـ على رأس مائتي طالب وولديه وعمره يربو على 80 سنة وبنى له الأتراك مدرسة مازونة التي اشتهرت بتدريس الفقه وتوفي سنة 1232هـ.

ولم يمدُّه **محمد** باشا بمدد يظهر منه في هذا الأمر النَّشاط، وقد توفي هذا الباشا (رحمه الله) أثناء الحصار، وتولَّى بعده **حسن باشا** في صحيح الأخبار، فأقرَّ الأمر على ما كان عليه، ولم يزده حميَّة إلا ماكان لديه، حتَّى فتح الله هذا الفتح المبين الذي أضاء به الإسلام الجبين، وتبسم في الثَّغر وجه الدِّين بعد عبوسه، واستبدل النَّعيم والسُّرور بعد ضنكه وبؤسه، لا كما وقع للسّيد **مصطفى بن يوسف أبي الشَّلاغم** في فتحها الأوَّل المزيل به لكربها، فإنَّ الباشا **محمَّد بكداش** (رحمه الله) وجَّه من الجزائر الجيوش لحربها، وأمَّر عليهم من عرفت نجدته، وظهرت في المضايق شجاعته وشِدَّته، رديفه ووزيره وصهره **أوزن حسن** (رحم الله الجميع) رحمةً ليس فيها تبط، والأمير مصطفى فهو على أهل محلَّته فقط، وتحرَّك لها الأمير محمَّد في العام الثَّالث عشر من ولايته، رائما النُّجع والتَّوفيق من الله في عمله وسعيه، ورأيت في بعض التَّقاييد أنَّه من حين قصدها في العام الخامس لم يرجع عنها إلى أن كمل له الأمر، واندحض كل جالس، وقد انفرد ابنه الأمير عثمان في هذا القتال بمحلة فكثر منها على الأعداء النزال، وصار الحرب بين الأمير والنصارى سجال، وأثخن الطَّلبة في النصارى إثخانا عظيما حلَّ به على النَّصارى النَّكال، يقال: من شدَّة قتال الطَّلبة تقدَّموا للنَّصارى إلى أن سبق طالب إلى نصراني وارتمى على ظهره، فذهب به ذلك النَّصراني للمدينة، ولم ينزل عنه الطَّالب، وصار يهضم فيه بجنوه، ولما رأى ذلك بعض الطلبة تسابق إلى ذلك النَّصراني، إلى أن وصله وضربه بالسكِّين لعراقيبه، فأسقط بالأرض، وجهز عليه هو والطَّالب الذي كان على ظهره، وجاءا معا لمحلَّتهما كلُّ ذلك بمرآة النَّاس.

ويقال أيضًا: إنَّ النَّصارى ضربوا فسطاط الأمير محمَّد بمدفع من (مرجاجو) أو

من برج الحمارات فكسروا له ركيزته، ونجَّاه الله فجاء أحد الطبجية الذين بمحلَّته وصوَّب المدفع نحو ذلك المدفع ووزنه حتىٰ تحقق بأنه يعطله، وكواه فذهبت الكورة إلىٰ أن دخلت في جوف ذلك المدفع فعطله عن العمل من ذلك الوقت، ورحل من ذلك المحل ونزل بالمبرك، ولازال (رحمه الله) يحرِّض النَّاس علىٰ قتالها، وعدل (نصره الله) عن طَرق عواقبها فلم يعتبرها ولم يلتفت لقول المرجفين من أنَّها ذات بأس شديدٍ، وجند عتيد، وإنَّ اعتناءه بها من قبل اللَّعب واللَّهو، لكونها أمنع من عقال الجو، وإن عاقبة أمره معها عدم الظَّفر بها، وقتل جنده بلا طائل ولا حصول نائل، بل بشدِّ ذلك كلِّه وراء ظهره، ولم يعمل إلا برأيه وأمره، ولم يستشر أحدا في ذلك خوفا من تثبيطه، وعدم تنشيطه، لما فيه من رشده ونجحه، سوىٰ سيفه ورمحه، ومشاورته لهما، مجاز عن المساعدة والإسعاف، والانقياد والانعطاف، ودام حصاره لها بالقتل الصادر منه ومن جنوده، وشدة صواعقه ومدافعه وكوره وباروده إلىٰ أن فتحها بقتاله السريع في اليوم الرابع أو الخامس من رجب الفرد ضحىٰ يوم الإثنين سنة ست من القرن الثالث عشر (1206) في فصل الرَّبيع، وقد أقام النَّصارىٰ بها في هذه المرَّة التي بعد الفتح صارت كالسنة، ثلاثا وستين سنة، ودخلها في ذلك اليوم المبارك وأناخ بها رحله ولا له فيها مشارك، واختُلف في فتحها، فقال بعضهم: إنَّ الأمير (رضي الله عنه) فتحها عنوة ودخلها، وقال آخر: إنَّها فتحت بشدة الزلازل الحالة بها، ففرَّ منها النَّصارىٰ دون علم من المسلمين ولما ذهب لها الطلبة ليلا للاختلاس لم يجدوا أحدًا عند أبوابها ولا بها حس ولا حسيس، فتسوَّروا عليها من جهة (رأس العين) ودخلوها فوجدوها خاوية علىٰ عروشها، فرقي أحدهم المنارة ورفع صوته بالآذان، وكان جهور الصَّوت فسمع

المسلمون ذلك فأتوها، ومعهم الأمير المؤيد بالنَّصر أمامهم، فوجدوا الطَّلبة مقبلين علىٰ تلاوة القرآن، فدخلها الأمير (رضي الله عنه) وقال الحافظ **أبو راس**: «إن أمير المؤمنين السَّيد محمَّد بن عثمان باي (الإيالة الغربية) و(تلمسان) لما ضايق (وهران) سأل منه النَّصارىٰ السلم وراوضوه عليه، فأعطاهم الأمان علىٰ أمتعتهم وأنفسهم، فذهبوا منها وتركوا كلَّ ما فيها للأمير، فأخذه منهم بالقيمة، وقيل: تركوها خاوية، وهذا هو الصَّحيح.

قال الحافظ **أبو راس** في **(السِّينيَّة)**:

حتـــىٰ تـــداركها الله برأفتـــه　　　من بعد ما مضىٰ لهـا مـدَّة العـنسِ

بتقليـد المغـرب الوسـط لعمـدتِنا　　　أضاء شمسَه بعد حالِـك الغلـسِ

ولما اصطلح الأمير محمد بن عثمان مع نصارىٰ (وهران) علىٰ رفع القتال عنهم ويخرجون منها، صاروا يخرِّبون بنيانها بالألغام نكاية للمسلمين، كفعل **بني النضير** إحدىٰ فرق اليهود الذين بإزاء **المدينة المنوَّرة** لمَّا عزموا علىٰ الجلاء، لما حاصرهم رسول الله ﷺ.

ثمَّ إنَّ (وهران) لما منَّ الله علىٰ المسلمين بفتحها من الإسبانيين علىٰ يد المؤيَّد بنصر الله السيد محمد بن عثمان، طار خبرها للمشارق والمغارب، وحصل السُّرور للمسلمين الأباعد والأقارب:

قال الحافظ **أبو راس** في **(السِّينيَّة)**:

أخبارها قد طارت في الأرض قاطبة　　　لقيتنا في امـدرحات مـن ورا قـابس

أوبـــة حجِّنـــا فقلنـــا هنيئـــا لنـــا　　　وصــلنا حـج جمـع بالجهـاد الـنفس

وجدنا سوسة والمسـير قـد سـمعها　　　مدينة اللَّخمـي وجربـة مـع تـونس

ثمَّ تولَّىٰ **زوزاف** الفرانسوي أخو السُّلطان **نابوليون بنبرط** سنة (1225) وبقي في الملك خمس سنين، ثمَّ تولَّىٰ **فردينه السَّابع** مرة ثانية سنة (1230) وبقي في الملك عشرين سنة، ثم تولت **إيزابيل الثَّانية** سنة (1250) وبقيت في الملك خمسا وثلاثين سنة، ثمَّ صار حكمهم جماعة للشُّورىٰ سنة (1285) وبقوا علىٰ ذلك سنتين، ثمَّ تولىٰ **أمادي** سنة (1287) وبقي في الملك ثلاث سنين، ثمَّ رجع ملكهم لحكم جماعة الشُّورىٰ مرَّة ثانية سنة (1290) وبقوا علىٰ ذلك سنين، ثمَّ تولَّىٰ **ألفُونص الثَّاني عشر** وتُسمِّيه المسلمون **الفنش** سنة (1292) وبقي في الملك عشر سنين إلىٰ أن مات، ثمَّ تولَّىٰ ابنه **ألفُونص الثالث عشر** يوم موت أبيه سنة (1302) وهو طفل صغير في كفالة أمِّه، فأمُّه هي المديرة لملكه وهو الموجود الآن في الملك.

الدَّولة الثَّامنة
التُّـــــــرك

ويقال لهم: الأتراك، والكلام عليهم في ستَّة مَواضع:

الموضع الأول: في ذكر نسبهم وبطونهم ومسكنهم.

اعلم أنَّ نسب التُّرك يافثُ، فهم من أولاد ترك بن كومر بن يافث بن نوح (عليه السَّلام)، فإخوتهم في كومر الفرانسيس، لأنَّه أولاد أريغ بن كومر بن يافث بن نوح كما يأتي، وإخوتهم في **يافث**: الصَّقالبة، والأوس والخزرج، وياجوج وماجوج، والصِّين، لأنَّ جميعهم أولاد **يافث بن نوح** (عليه السَّلام).

وبطونهم كثيرة فمنهم التُّركمان، ويقال لهم ترك إيمان، أسلم منهم في شهر مائة ألف، ومنهم الخزر أسلموا على يد حذيفة بن اليمان كما في ابن جرير الطَّبري، وذلك أن **عثمان بن عفَّان** (رضي الله عنه) لما ولي الخلافة، وقد أذهب الله ملك الفرس فشا الإسلام في خراسان فضلا عن (العراق) هوَّن بعض أهل ذلك المحل عليه قتال التُّرك، قال **ابن جرير الطَّبريُّ**: «فجهز عثمان عشرة آلاف وولَّى عليهم سلمان بن ربيعة الباهلي، ولما دخل أرضهم أجفلوا منه، وشاع عندهم أنَّ هذا القوم لا يعمل فيهم الحديد، فأتى رجل منهم لغيظة ورمى صحابيا يغتسل فقتله، وأخذ رأسه وذهب به لملكهم، فحينئذ زحفوا لهم وقتلوهم كلُّهم، ثمَّ إنَّ عثمان بعث لهم حذيفة بن اليمان صاحب سرِّ رسول

الله ﷺ فأسلم منهم مائة ألف في شهر ولذا يقال لهم التُّركمان وهم من الخزر، أي ترك إيمان، ومنهم الزُطُّ بضم الزَّاي، ومنهم الطغرغر وهم الطرطر، ويقال لهم التَّتار أيضًا زحفوا لـ (**بغداد**) سنة (657هـ) فقتلوا آخر خلفائها من العبَّاسيين وهو **عبد الله المستعصم بالله** وقتلوا وزيره الذي كان سببا لدخولهم، وهو **ابن العلقمي** فجوزي من جنس عمله، وأطلقوا السَّيف في بغداد أربعًا وثلاثين يوما، ثمَّ أمَّنوا النَّاس وأميرهم إذ ذاك جنكزخان، ثمَّ ابنه **هُلاكو**، ثمَّ **تيمور**.

قال **الدِّيار بكري**: «وقد فشا فيهم الإسلام، وقد زحفوا للشَّام فهزمهم الله، وقد ظهرت شجاعة شيخ الإسلام **ابنِ تيميةَ** إذا ذاك، وقد هزم الله قبلهم من الشَّام (القرامطة) في القرن الرابع على يد **جوهر** قائد المعزِّ العبيديِّ »، وهؤلاء التتَّار أمَّة عظيمة حاربوا كثيرا من الدول القديمة ومنهم الغور.

قال الحافظ **أبو راس** في (**الشماريخ**): «ورأيت في بعض التَّواريخ أنَّهم المغول»، وقال في موضع آخر: «إنَّهم المغورة »، قال: «ومنهم العثامنة سلاطين إسلامبول، ويقال له الآن اسطنبول، قال **السَّخاويُّ**: هم من ولد عثمان (رضي الله عنه)، والأوَّل أصحُّ».

وقال الحافظ **أبو راس** في موضع آخر مِن (**الشماريخ**): «ورأيت في بعض الكتب المعتمدة أن آل عثمان ملوك الدنيا الآن منهم، وأغرب الحافظ **السَّخاوي** في قوله: إنهم من ولد **عثمان بن عفان** (رضي الله عنه)، ومنهم (**الفرنج**)، وقيل مِن الرُّوم، وهو الأصحُّ، وبلاد **الخزر** شمال **أرمينية**، ومنهم (**الجركس**) بجبال بحر نيطش في جزائره، ومنهم (**البلغار**) منسوبون إلى المدينة التي يسكنونها، وهي في شرقي بحر نيطش، ومنهم (**البرجان**) وهم بين **خوارزم وفرغانة** شرقي **نهر سيحون**، وإخوتهم الهياطلة

ويلقب ملكهم بالخنشوار أبادهم (**أنو شروان**) لما قتلوا جد أبيه كامور، ومنهم (**العقابلة**) وكان لهم ذكر في دولة الخلفاء العباسيِّين، ومنهم (**الأكراد**) منهم صلاح الدِّين يوسف بن أيوب بن شادي بن مرون الكردي ملك (**مصر**) في القرن السَّادس، ولذا قال **ابن الدَّهان** فيه بحضرة وزيره مؤلِّف (**الخريدة**) العماد الكاتب:

أأمـــدح الـــتُّرك لأبتـــغ نـــوالهم والشِّعر ما زال عند التُّرك مـتروك

فتبسَّم صلاح الدين وقال: إعطه حتَّى لا يقول: «والشعر ما زال ... الخ»، ومنهم أمَّة (**رهيل**) وقد حمد ذكرها، وكان تلقيب ملكهم عابه (**السَّلجوقيون**) كانت منازلهم شرقي (**بَلخ**) وأدركوا ملكا في دولة آل العبَّاس، ولكل من الذين ذكرنا أخبار مسطورة ووقائع مشهورة.

واختُلف في سبب تسميتهم بالتُّرك فقال بعضهم: «سُمُّوا بذلك نسبة لجدِّهم ترك بن كومر بن يافث بن نوح عليه السَّلام »، قال وفي قلبي منه شيء، وقال **ابن هشام** في (**التيجان**): «إنَّ أمَّةً من ياجوج وماجوج آمنوا بالله فتركهم ذو القرنين، لما بنى السدَّ بأرمينيَّة فسُمُّوا لذلك التُّرك، انظر **القسطلاني** في السفر الأخير من (**شرحه للبخاري**)، وفي (**كتاب بدء الخلق**) عنه أيضا عن **قتادة** أنَّ ياجوج وماجوج اثنان وعشرون قبيلة، بنى ذو القرنين السدَّ على إحدى وعشرين، وترك واحدة سموا الترك، ويقال أنَّ التُّرك هم ليوث بني آدم في الحروب، وملكهم يقال له **خاقان** من أوَّل دولتهم إلى الآن، وهم أمَّة قديمة تضاهي أمَّة فارس والرُّوم وغيرهما، ومُلكهم قديم من عهد الملوك الكينيَّة ومسكنهم في أقصى المعمور، وما وراءها إلى أرض الصِّين والسد الذي بنى ذو االقرنين وأن أمة طول دونهم فهم ممتدون من (**بلخ**) ونهر **سيحون** إلى أرض (**الصين**)

ومتوغِّلون في أرض المشرق وشمال (**القُسنطينية**) وبحر نيطش، ومنهم أهل (**جرجان**) و(**خزرجان**) و(**دستان**) و(**قالي قالة**) و(**برذعة**) وغير ذلك، ومن تخومهم (**بُخارى**) (**وسمرقند**) قال **القسطلاني** على (**البخارى**) «وهم أجناس أصحاب مدن وحصون، ومنهم من يسكن برؤوس الجبال والبراري ليس لهم عمل إلا الصَّيد، ويأكلون الرخم والغربان، وليس لهم دين، والأكثر يتديَّن بدين المجوس، ومنهم من تهوَّد ومنهم من تنصَّر، وفيهم سحرة، فهم في أقاصي الأرض حتَّى أن البعض لا يعرف خبرهم لكونهم خلف (**العراق**) و(**خراسان**)».

وإمامهم ـ لما فشا فيهم الإسلام ـ في الاعتقاد **أبو منصور الماتريدي** كالأشعريِّ عندنا، وكلُّهم على هدى من ربِّهم، وقد اختلفَا في ثلاثة عشر مسألة لا تؤدِّي لتبديع، فضلا عن التكفير، منها مسألة: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾، هل لعموم النَّاس أو للخصوص منهم، ومنها مسألة: (**التَّكوين**) وقد أخل بها الشَّيخ **السَّنوسي** في كتبه الخمسة غاية الاختلال، ولنذكر طرفا من ذلك فنقول: قول الشَّيخ **السَّنوسي** في (**كبراه**) (الناشئة عن صدور الأفعال ... الخ)، « إنَّ هذا هو الذي يعبَّر عنه بالتَّعلُّق التنجيزي للقُدرة، كالإيجاد والإعدام على قول، وإنَّ التَّخليق والتَّرزيق والإحياء والإماتة هي التي يعبَّر عنها بالتَّكوين وإنَّه وقع في هذا المقام نزاع بين أهل السُّنة فذهب الأشعريَّة إلى أنَّه حادث لأنَّ المراد منه صدور الأشياء عن القدرة تنجيزا وذلك الصُّدور حادث إذ لو كان قديما للزم قدم العالم وهو محال، فهو عندنا لا يكون من صفات البارئ القائم بذاته لاستحالة قيام الحوادث بذاته، فليس هو بصفة حقيقية وإنَّما هو أمر اعتباري فلا يلزم عدُّه لأن الأمور الاعتبارية عدمية لا وجودية، وذهب الماتريدية إلى أنه قديم واستدلوا على ذلك بوجوه ستَّة ذكر منها السَّعد على قول **النسفي**: «والتَّكوين صفة الله

تعالىٰ أزلية» أربعةً. وذكر في شرح المقاصد اثنين زيادة علىٰ الأربعة، فهوعندهم صفة قديمة يوصف الله به في الأزل، وهي من صفات المعاني، فتكون المعاني بها ثمانية، فهو عندهم صفة حقيقيَّة، كالعلم وعورضت أدلَّتهم في (**شرح المقاصد**) بوجهين وفي الطوالع بوجهين آخرين، ومنشأ الخلاف هل القدرة من صفات الذات أو من صفات الأفعال؟ فمن نظر في القدرة علىٰ الاقتدار علىٰ إيجاد الرِّزق قال هي صفة ذات قديمة، ومن نظر إلىٰ تعلق القدرة قال هي صفة فعل حادثة ولا استحالة في ذلك في الصفات الفعلية والإضافية بخلاف الذاتية، ومن أراد الإطناب فيها فليطلع حاشية الشَّيخ **أبي راس** علىٰ الكبرىٰ أو (**حاشية اليوسي**) عليها أو رحلة الحافظ أبي راس التي اسمها: (**فتح الإِله ومنته**) فإِنه أطنب وكشف الغطا، ولولا الخروج عن المقصود لبسطنا الكلام في ذلك، وما أتينا به فعلىٰ سبيل الانجرار للترك، والحدُّ بين الماتريدية والاشعرية نهر سيحون ولا يخطر ببال أحد أنَّ النبي ﷺ كتب للترك يدعوهم إلىٰ الإسلام لبعدهم وعدم معرفة أحوالهم وجهل العرب بأرضهم ولذا قال النَّبي ﷺ في الحديث الذي رواه الشيخان «لا تقوم السَّاعة حتَّىٰ تقاتلوا الترك صغار الأعين، حمر الوجوه، دلف الانف، كأن وجوههم المجان المطرقة » وقد ورد هذا الحديث من طرق بألفاظ مختلفة أنظر شرح الشفا للخفاجي (رحمه الله) وقال العارف بالله ابن أبي جمرة في حديث «اتركوا التُّرك ما تركوكم» فلولا أنَّهم من جملة الفتيان ما حضَّ عليه الصلاة والسَّلام علىٰ ترك قتالهم ما لم يبدؤوا به، وأمر بقتال غيرهم من الكفار مطلقا» انتهىٰ. بلفظه في حديث قوله ﷺ: «لا تقوم السَّاعة» المتقدم، ولما قال رسول الله ﷺ: «يوشك بكم أن تقاتلوا الترك...» الحديث، ربما استبعد بعض أصحابه ذلك لبعد أرضهم ولذلك بعث الحسين بن علي (رضي الله عنهما) لعبيد الله بن زياد لما حاصره بكربلاء أن يترك سبيله يذهب إلىٰ

الترك لكونهم أبعد الخلق من العراق ولا حكم للخلفاء عليهم فأبى.

وقال الشيخ أحمد بابا في (**ذيل الديباج**) وقد أتاه به جودر باشا السُّلطان **أحمد الذَّهبي السَّعدي** من تنبكت أسيرًا موثوقا وحبس بـ(مراكش) سنة (1004) وطلب يومًا لقاء السُّلطان، فلما أتى به قال له: ما ذنبي وقد نُهبت داري فذهب لي ستَّةَ عشر مائة كتاب، وأنا أقل عشيرتي كتبا ؟ فقال له: أنتم أمراء أرضكم وأردت اجتماع الكلمة، فقال له الشَّيخ أحمد: وإذا كان هكذا فما صدَّك عن غزو (**تلمسان**) وهي أقرب إليك منَّا، فقال له **الذهبي**: اقتدينا بقوله ﷺ: «اتركوا الترك ما تركوكم »، فقال له الشيخ **أحمد**: هذا الحديث قاله رسول الله ﷺ أولا، ثم روى عنه ابن عباس: «لا تتركوا التُّرك ولو تركوكم »، فلما سمع السُّلطان بهذا، أمر فسبل الحجاب، وأغلق الباب، وقام وفرق الأصحاب، وأمر برد الشَّيخ **أحمد** إلى السِّجن، وبقي به حتى مات السُّلطان سنة (1012)، ولما ولي ابنه **زيدان** سرَّحه.

قلت: وحديث ابن عباس هذا فيمن لم يسلم مِن التُّرك، وهو ظاهر، والذي في **الخفاجي** في حديث: «اتركوا التُّرك ما تركوكم» ـ المتقدم ـ أنَّ علَّة ذلك إما لبُعد أرضهم أو لشدَّة بأسِهم، والكلام في ذلك كثير، ويقال: إنَّ الشَّيخ **أبا علي بن الشَّيخ أبي الحسن علي أبهلول الوطاسي المجاجي**[1] أخو الشَّيخ **محمَّد بن علي** قال: «إنَّ التُّرك لا يجوز قتالهم، ولا تفيد دعوة الشر»، لأنَّه كان في أوَّل القرن الحادي عشر، والأتراك ملكوا

---

(1) **أبو علي المجاجي**: هو أخو محمد بن علي صاحب المعهد الشهير الذي تخرج منه سعيد قدور وأستاذه المطماطي وقد خص جل تلامذة معهد المجاجي بتأليف سماه (**النفيس في بيان شرفاء وعلماء غريس**).

المغرب الأوسط أوائل العاشر.

ثمَّ اعلم أنَّ الأمر في الحديث محمول على الإرشاد لما هو الأفضل في ذلك الوقت، لا للوجوب كـ ﴿**أقيموا الصَّلاة**﴾، ولا للإهانة نحو: ﴿**كُونُوا حِجارَةً أو حَديدًا**﴾، فالنبي ﷺ أرشدنا ودلَّنا على أنَّه يجوز لنا أن نترك مقاتلتهم ونشتغل بمقاتلة غيرهم في ذلك الزَّمان لكونه أولى، لقوة ذلك الغير أن يكون ذلك التَّركُ واجبا علينا، وإذا كان تَركُ مقاتلتهم جائزا كان قتالهم جائزا، كما رواه الشَّيخ **خليل** في (**المختصر**) بقوله: «وجاز قتال روم وترك »، فلا معارضة بين الشَّيخ **خليل** والحديث، انظر الحافظ **أبا راس** في (**الشَّماريخ**).

وأوَّل من دخل بلاد العرب من التُّرك المماليك فعَلت كلمتُهم، واشتدَّت شوكتُهم إلى أن أوقعوا بملوك العبابسة وغيرهم، ما هو مسطر في كتب التاريخ قال **ابن الخطيب السَّلماني** في كتابه: (**رقم الحلل في نظم الدُّول**) في المعتصم بن هارون الرشيد لما اشترى الأتراك وجعلهم أهل دولته واستوزر أشناس والافشين:

وهو الذي قد آلف الأتراكا فنصبوا لقومه الأشراكا

وقال الشَّيخ **سعيد بن عبد الله المنداسي** [1] (رحمه الله) في (**نونيَّته**):

بنى السدَّ ذو القرنين للنَّاس رحمة فيا ليته من شوكة التُّرك هنَّانا

قال الحافظ **أبو راس** في (**زهر الشَّماريخ**): «وكان لـ (**مراسيات**) ملك التُّرك

(1) **سعيد بن عبد الله المنداسي**: الشاعر الشعبي صاحب منظومة العقيقة، توفي في أواسط القرن الثاني عشر بسجلماسة، وهذا البيت من قصيدته التي هجا فيها حكام الأتراك بتلمسان.

حروب عظام مع ملوك الفرس (**يستاسب**) و(**لهراسب**) وغيرهما، وفي حروبهم قتل (**لهراسب**) وجرت واقعة عظيمة بين محروراسب ملك التُّرك ويستاسب ملك الفرس، فانهزم محروراسب وقتل في الهزيمة ساحرهم المشهور وهو ينوربش، ثمَّ إنَّ يستاسب ترهب وانقطع للعبادة، فغزا الفرس **جوهرُ التُّركي** أخو (**محروراسب**) فاستباح (**بلخ**) وقتل لهراسب كما مرَّ وسبىٰ كريمة الفرس يستاسب، وهي مجاني بنت يستاسب، وغنم الرّاية الكبرىٰ، ثمَّ زحف استفديار بن بستاسب إلىٰ الترك بجموع الفرس فهزمهم واستردَّ ما أخذوه وجدَّد البنوها وبيوت النيران وقتل محروراسب وأهل بيته، وغنِم وسبىٰ ودوَّخ بلادهم حتّىٰ انتهىٰ إلىٰ بلد صول، ولما ولي علىٰ الترك سبابة خاقان حارب الفرس مدَّة، وهذه كلُّها في عهد الخليل (عليه السَّلام) ودام الحرب بين الفرس والتُّرك إلىٰ أن ولي أونو شروان الذي وُلد النبيُّ ﷺ في أَيَّامه فدوَّخ السِّند والهند، وزاد بستان وطخرستان ودهستان واستلحم أَمَّة صول وأحكم بناء في البحر بصول، ووصل السور في البر ما بين جبل الفتح والبحر، وبذلك امتنع صول من ملوك الترك إلىٰ أن خرَّب ذلك التتارُ، فكان ذلك السُّور يمنع من دخول الترك إلىٰ من دونهم، حتَّىٰ كاد أن يكون كسدِّ ذي القرنين لولا تخريب التَّتار له، ولما ولىٰ المسلمون الهزائم علىٰ ملوك الفرس وهو يزدجرد بن ابريوز بن هزمر بن أَبي شروان بن قبياد، وأدخلوه (خراسان) وتحصَّن بقاعدته وهي مروالدوذ المشهورة، بعث إلىٰ يندوك ملك التُّرك فأتاه علىٰ بعد أرضه في ثلاثين ألفا نصرة له علىٰ جند المسلمين فلم يغن شيئا، ويلقب ملك الترك **بخاقان**.

الموضع الثَّاني: في سبب انتشارهم في الأرض.

اعلم أن سبب انتشارهم هو أنَّ السُّلطان عثمان خاقان ابن ارصفل بن سليمان شاه التركماني أو التراكمة، طائفة من التَّتار، وقيل من نسل أنو شروان، وتقدم ما **للسخاويِّ**، جد سلاطينهم كان جدُّه ملكا في بلد (**دهمان**) قرب (**بلخ**) مما وراء النَّهر من أقاصي (**خراسان**) فظهر عليه جنكزخان ملك التَّتار وخرب بلاده فخرج من (**بلخ**) في خمسة آلاف من أهل بيته وشيعته قاصدا أرض الرُّوم، فمات بالفرات في طريقه فتفرَّق جنده هناك، وقدّم عثمان على السُّلطان **علاء الدِّين السلجوقي**، فأذن له بالإقامة في أرض (**قرمان**) وأمره بالجهاد، وذلك سنة (676هـ)، ولازم الجهاد إلى أن تولَّى على بلاد الرُّوم، ولما ضعف علاء الدِّين انحاز جنده إليه ودخل في طاعته، إلى أن ولي بموضعه وظهرت له آثارات في الجهاد، وتوفي سنة (726هـ)، وقد غلب ولده أورخان على أرض الشَّام والمشرق، وخلفه ابنه **مراد الأول** فتغلَّب على أكثر بلاد الرُّوم واستولى على إقليم الرسنتق شرقي الخليج، وقهروا روم (**القسطنطينية**) وظهرت لهم آثارات في الجهاد، وبقوا على ذلك إلى أن ملكوا الشَّام ثمَّ ملك السُّلطان محمَّد (**القسطنطينية**) سنة (857هـ) وأجلي الروم منها، ثم ملك السُّلطان سليم (**مصر**) من أيدي الجراكسة سنة (923هـ) إلى غير ذلك من جزر البحر، ثمَّ في سنة (925هـ) ملك باشتُهم **خير الدين حسن بن المدلية** (**الجزائر**) و(**تلمسان**) إلى ضواحي (**وجدة**) وفي ذلك التَّاريخ أقربه ملك الباشة درغوث (**طرابلس**)، وفي سنة (971هـ) بعث السُّلطان أبو الرَّبيع سليمان شاه وزيره سنانا إلى افريقية في خمسمائة مَركب فأخرَج الإسبانيين من حلق الوادي وملك (**تونس**)، وملكوا (**بغداد**) وما وراءه سنة (1028) و(**بجاية**) من النَّصارى سنة (968هـ) فهذا سبب انتشارهم، ويأتي ذلك مفصَّلا إن شاء الله تعالى.

الموضع الثَّالث: في سبب مجيئهم إلى الجزائر وأيّ وقت جاءوا وكم مكثوا بالجزائر.

اعلم أنَّ سبب مجيئهم للجزائر على ما في (**دوحة الناشر**) لأبي عبد الله محمد بن عسكر الشريف، و(**الذَّيل**) لأحمد بابا، و(**غريب الأخبار**) للحافظ أبي راس، هو تغلب النصارى على السواحل، ولما رأى ذلك العلامة ولي الله أبو العباس الشَّيخ **أحمد بن القاضي الزواوي**[1]، كتب إلى السلطان سليم بذلك، فبعث للجزائر الباشة خير الدين حسن بن المدلية وشقيقه عروجا، وإسحاق، ولما قتل إسحاق بالقلعة وعروج بجبل بني يزناسن، تخوف خير الدين من الشيخ أحمد بن القاضي، وقتله فمات شهيدا (رحمه الله)، والقصة مشهورة فلا نطيل بها.

واختلف في وقت مجيئهم للجزائر على خمسة أقوال:

1. فقال بعض المؤرِّخين: إنَّهم ملكوا الجزائر سنة (899هـ) واستولوا على **تلمسان** سنة (941هـ)، ولا يخفاك ضعفه.

2. وقال الحافظ **أبو راس** في (**زهر الشماريخ**)، والحافظ أبو عبد الله محمد بن عسكر الشَّريف في (**دوحة الناشر**): إنَّهم ملكوا الجزائر في أول القرن العاشر، يعني في العام الأول من القرن العاشر.

---

(1) أحمد بن القاضي تولى قضاء بجاية في عهد الحفصيين وقيل: إنه منهم، واتصل بعروج وخير الدين وكاتبهما صحبة ابن التومي الثعالبي أمير الجزائر وسهلا عليهما احتلال الجزائر، وقيل: إنه كاتب الخليفة بعد احتلال الإسبان للشواطئ الجزائرية، أسس إمارة بالقبائل الكبرى كانت قاعدتها جبل كوكو، وقتل في بعض المعارك بثنية بني عائشة.

3. وقال الشيخ **عبدالرزاق الجزائري**: ملكوا الجزائر في خمسة عشر من القرن العاشر، وبه قال شيخنا.

4. وقال **اليفرني** في (**نزهة الحادي**): ملكوا الجزائر في ثلاث وعشرين من القرن العاشر، وبه قال الحافظ **أبوراس** في (**عجائب الأخبار**).

5. وأما الشيخ **عبد الرحمن الجامعي** فإنه قال: في بعض وعشرين من العاشر، فقد أجمل، وقال الحافظ **أبو راس** في موضع آخر من (**زهر الشماريخ**): إنهم ملكوا الجزائر في العام الخامس والعشرين من القرن العاشر كما مر، وبه قال السيد **مسلم بن عبد القادر الحميري** في (**رجزه**) بقوله:

في عام كه مــن القــرن العــاشر   كــان ابتــداء الــترك للجزائــر

ومكثوا في بر **الجزائر** مالكين على الأول ثلاثمائة وستا وأربعين سنة وعلى الثاني ثلاثمائة وخمسا وأربعين سنة وعلى الثالث ثلاثمائة وثلاثين سنة وعلى الرابع ثلاثمائة واثنتين وعشرين سنة وعلى الخامس ثلاثمائة وعشرين سنة.

قال الشيخ **مسلم بن عبد القادر الحميري** في (**رجزه**):

امتد ملكهــم بهــا كافــا وســين   حتى إذا كمل الوعد كان البين

الموضع الرابع: في ذكر ملوكهم في الإسلام ومن ملك منهم وهران.

اعلم أن ملوك الترك من أولهم إلى الآن هنا أربعة وثلاثون سلطانا: أولهم الغازي عثمان خان بن أرصفل بن سليمان شاه التركماني المار قريبا، ولد سنة (656هـ) وتولى سنة (699هـ) وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وتوفي سنة (726هـ) كما مر قريبا وهو

ابن سبعين سنة، وبقي في الملك سبعا وعشرين سنة، فأورث ذلك في بنيه.

ثم تولىٰ ابنه الغازي أورخان خان سنة (721هـ) في حياة أبيه وهو ابن إحدىٰ وأربعين سنة وهو الذي تغلّب علىٰ أرض الشام والمشرق، وكان ميلاده سنة (680هـ) ووفاته سنة (761هـ) وهو ابن إحدىٰ وثمانين سنة، ومدته خمس وثلاثون سنة.

ثم تولىٰ ابنه الغازي مراد خان الأول سنة (761هـ) يوم وفاة أبيه، وهو ابن خمس وثلاثين سنة، ولد سنة (726هـ) وتوفي سنة (791هـ) وهو ابن خمس وستين سنة، ومدته ثلاثون سنة، وهو الذي قهر روم القسطنطينية، وتغلب علىٰ أكثر بلادهم واستولىٰ علىٰ إقليم (الدستنق) شرقي الخليج.

ثم تولىٰ الغازي يلدرم بايزيد خان سنة (791هـ) وهو ابن ثلاثين سنة، ولد سنة (761هـ) وتوفي سنة (805هـ) وهو ابن أربع وأربعين سنة، ومدته أربع عشرة سنة.

ثم تولىٰ الغازي محمد خان جلىٰ الأول سنة (805هـ) وهو ابن أربع وعشرين سنة وكان ميلاده سنة (781هـ) ووفاته سنة (824هـ) وهو ابن ثلاث وأربعين سنة ومدته ثماني عشرة سنة.

ثم تولىٰ الغازي مراد خان الثاني سنة (824هـ) وهو ابن ثماني عشرة سنة ولد سنة (806هـ) وتوفي سنة (857هـ) وهو ابن تسع وأربعين سنة، ومدته إحدىٰ وثلاثين سنة.

ثم تولىٰ الغازي أبو الفتح محمد خان الثاني سنة (857هـ) وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وكان ميلاده سنة (835هـ) ووفاته سنة (857هـ) وأجلىٰ الروم منها، وصيرها دار ملكه.

ثم تولى الغازي بايزيد خان الثاني وهو ثامن سلاطينهم سنة (886هـ) وهو ابن ثلاثين سنة وولد سنة (856هـ) وتوفي سنة (918هـ) وهو ابن اثنتين وستين سنة، ومدته اثنتان وثلاثون سنة.

ثم تولى الغازي ياوز سليم خان الأول سنة (918هـ) وهو ابن أربع وأربعين سنة، فهو تاسعهم ولد سنة (874هـ) وتوفي سنة (926هـ) وهو ابن اثنتين وخمسين سنة، ومدته ثمان سنين، وهو الذي ملك مصر وجزر البحر من يد الجراكسة سنة (923هـ) وجهز جيشا لخير الدين حسن بن المدلية وشقيقه عروج وإسحاق لغزو الجزائر سنة (925هـ) فغزاها الباشا خير الدين وأخرج الإسبان من مرساها وملك المغرب الأوسط إلى وجدة في تلك السَّنة على ما قيل، ثمَّ جهَّز لباشا درغوث وأمره بغزو (طرابلس) تلك السَّنة أو قربها، فغزاها وملكها في سنته، وكل ذلك بمكاتبة العلامة سيدي **أحمد بن القاضي الزواوي** له على ذلك لما رأى النَّصارى ملكوا السَّواحل فأجابه، وخلُص لهم المشرق كلُّه والمغرب إلى **(وَجدة)** بعد فتحهم لـ **(مزغران)** و**(وهران)** كما مرَّ. قال الحافظ **أبو راس** في **(رحلته)**: «ولما اجتمعتُ بسلطان المغرب مولاي سليمان، سألني عن حدِّ المغرب الأقصى، فقلت له قال: **ابن خلدون** حدُّه (وَجدَة)»، وجُدِّد ذلك الحد أوَّل القرن الثاني عشر مع جدِّك السُّلطان إسماعيل وأتراك (الجزائر)، فقال لي إنّي رأيت حده (تافنا) فسكت. اهـ. قلت: «وما قاله مولاي سليمان هو الذي ذكره الزَّيَّاني في **(رحلته)**».

ثمَّ تولى عاشرهم الغازي أبوالربيع شاه خان سنة (926هـ) وهو ابن خمس وعشرين سنة، وكان ميلاده سنة (901هـ) ووفاته سنة (974هـ) وهو ابن أربع

وسبعين سنة، ومدته سبع أو ثمان وأربعون سنة، وهو الذي جهز لوزيره سنان سنة (971هـ) خمسمائة مركب مشحونة بالجيوش، وأمره بغزو إفريقيا، فغزا تونس وأخرج الإسبانيين من حلق الوادي، وملك (تونس) تلك السنة، وفتح باشته بالجزائر (بجاية) من النَّصارىٰ سنة (968هـ).

ثم تولىٰ حادي عاشرهم السلطان الغازي مراد خان الثاني سنة (974هـ) وهو ابن خمس وأربعين سنة، ولد سنة (929هـ) وتوفي سنة (982هـ) وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، ومدته ثمان سنين.

ثم تولىٰ ثاني عاشرهم السُّلطان الغازي مراد خان الثالث سنة (982هـ) وهو ابن تسع وعشرين سنة ولد سنة (953هـ) وتوفي سنة (1003هـ) وهو ابن خمسين سنة ومدته إحدىٰ وعشرين سنة.

ثم تولىٰ ثالث عاشرهم السلطان الغازي محمد خان الثالث سنة (1009هـ)، وهو ابن تسع وعشرين وكان ميلاده سنة (974هـ) ووفاته سنة (1012هـ) وهو ابن ثمان وثلاثين سنة ومدته تسع سنين.

ثمَّ تولَّىٰ رابع عاشرهم السلطان الغازي أحمد خان الأول وهو ابن أربع عشر سنة ولد سنة (998هـ) وتوفي سنة (1026هـ) وهو ابن ثمان وعشرين سنة ومدته أربع عشر سنة.

ثم تولىٰ خامس عاشرهم السلطان الغازي مصطفىٰ خان بن محمد خان سنة (1026هـ) وهو ابن خمس وعشرين سنة، ولد سنة (1001هـ) وخلع أول سنة (1027هـ) ومدته ثلاثة أشهر.

ثم تولىٰ سادس عاشرهم السلطان عثمان خان الثاني سنة (1027هـ) وهو ابن خمس وعشرين سنة ولد سنة (1012هـ) وتوفي سنة (1031هـ) وهو ابن تسع عشرة ومدته أربع سنين، وهو الذي استولىٰ علىٰ (بغداد) وما وراء النهر سنة (1028هـ) وهو ابن إحدىٰ وثلاثين سنة ومدته سنتان وثلاثة أشهر.

ثمَّ تولىٰ سابع عاشرهم السلطان الغازي مراد خان الرابع سنة (1032هـ) وهو ابن إحدىٰ عشرة سنة، ولد سنة (1021هـ) وتوفي سنة (1049هـ) وهو ابن ثمان وعشرين سنة، ومدته سبع عشرة سنة.

ثم تولىٰ ثامن عاشرهم السلطان الغازي إبراهيم خان سنة (1049هـ) وهوابن خمس وعشرين سنة وكان ميلاده سنة (1024هـ) ووفاته سنة (1058هـ) وهو ابن ثلاث وأربعين سنة ومدَّته تسع سنين.

ثمَّ تولىٰ تاسع عاشرهم السُّلطان الغازي محمد خان الرابع سنة (1058هـ) وهو ابن سبع سنين ولد سنة (1051هـ) وتوفي سنة (1099هـ) ومدته أربعون سنة وخمسة أشهر.

ثمَّ تولىٰ موفىٰ عشرينهم السلطان سليمان خان الثاني سنة (1099هـ) وهو ابن سبع وأربعين سنة، ولد سنة (1052هـ) ووفاته سنة (1102هـ) وهوابن خمسين سنة، ومدته ثلاث سنين ونصف.

ثم تولىٰ حادي عشرينهم السلطان أحمد خان الثاني سنة (1102هـ) وهو ابن خمسين سنة ولد سنة (1052هـ) وتوفي سنة (1106هـ) وهو ابن أربع وخمسين سنة ومدته أربع سنين ونصف.

ثم ولي ثاني عشرينهم السلطان مصطفىٰ خان الثاني سنة (1106هـ)، وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة ولد سنة (1074هـ) وتوفي سنة (1115هـ) وهو ابن إحدىٰ وأربعين سنة ومدته تسع سنين.

ثم تولىٰ ثالث عشرينهم السلطان الغازي أحمد خان الثالث سنة (1115هـ)، وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة، ولد سنة (1083هـ) وتوفي سنة (1143هـ) وهو ابن ستين سنة، ومدته ثمان وعشرون سنة وفي وقته سنة (1119هـ)، وفي السَّنة الرابعة من توليته فتحت (وهران) من الإسبانيين الفتح الأوَّل علىٰ يد باشة الجزائر السيد **محمد بكداش** الشريف، ووزيره **أوزن حسن** وباي الإيالة الغربية الجامع بين (مازونة) و(تلمسان) السيد مصطفىٰ أبي الشَّلاغم بن يوسف المسراتي، ثمَّ الهواري وعاد لها الإسبانيون سنة وفاة هذا السُّلطان، وبعد وفاة الباشا المذكور بمدة، وفي حياة الباي المذكور كما مر، فهذا السُّلطان هو أول من ملك (وهران) من سلاطين التُّرك، وقيل إنّه لم يملك (وهران) كغيره من سلاطينهم لكون (الجزائر) خرجَ حكمها عن سلاطين التُّرك واستقلَّ به من يكون بها باشة.

ثمَّ تولىٰ رابع عشرينهم السلطان الغازي محمود خان (الأول) سنة (1143هـ) وهو ابن خمس وثلاثين سنة، ولد سنة (1108هـ) وتوفي سنة (1168هـ) وهو ابن ستين سنة، ومدَّته خمس وعشرون سنة.

ثمَّ تولَّىٰ خامس عشرينهم السُّلطان عثمان خان الثالث سنة (1168هـ) وهو ابن ثمان وخمسين سنة، ولد سنة (1110هـ) وتوفي سنة (1171هـ) وهو ابن ستين سنة، ومدَّته خمس وعشرون سنة.

ثمَّ تولَّىٰ سادس عشرينهم السُّلطان مصطفىٰ خان الثالث سنة (1171هـ) وهو ابن إحدىٰ وأربعين سنة وكانت ولادته سنة (1129هـ) ووفاته سنة (1187هـ) وهو ابن ثمان وخمسين سنة وستة أشهر، ومدَّته ست عشرة سنة.

ثمَّ ولي سابع عشرينهم السُّلطان الغازي عبد الحميد خان الأول سنة (1187هـ)، وهو ابن خمسين سنة، ولد سنة (1137هـ)، وتوفي سنة (1203هـ) وهو ابن ستٍّ وستين سنة، ومدَّته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر.

ثمّ تولَّىٰ ثامن عشرينهم السُّلطان الغازي سليم خان الثالث سنة (1203هـ) وهو ابن ثمان وعشرين سنة، ولد سنة (1175هـ) وتوفي سنة (1223هـ) وهو ابن ثمان وأربعين سنة ومدَّته تسع عشرة سنة.

ثمَّ تولىٰ تاسع عشرينهم السُّلطان مصطفىٰ خان الرابع سنة (1223هـ) وهو ابن ثلاثين سنة، وكان ميلاده سنة (1193هـ)، ووفاته سنة (1223هـ)، وهو ابن ثلاثين سنة ومدته سنة واحدة.

ثمَّ تولَّىٰ موفي ثلاثينهم السُّلطان الغازي محمود خان الثاني سنة (1223هـ)، وهو ابن أربع وعشرين سنة ولادته سنة (1199هـ) ووفاته سنة (1255هـ) وهو ابن خمس وخمسين سنة وستة أشهر، ومدته اثنتان وثلاثون سنة، وفي وقته بويع أمير المغرب الأوسط السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدِّين الشَّريف الحسني المخلِص لربِّ العالمين بالإمارة علىٰ المغرب الأوسط ثاني عشر رمضان سنة (1248هـ)، **وخرجت الجزائر عن ملكهم يوم الاثنين ثالث عشر المحرم فاتح سنة (1246هـ)** ودخل بيد الفرنسيس كما يأتي.

ثمَّ تولَّىٰ حادي ثلاثينهم السُّلطان الغازي عبد المجيد خان سنة (1255هـ) وهو

ابن سبع عشرة سنة، وكانت ولادته سنة (1237هـ) ووفاته سنة (1277هـ) وهو ابن أربعين سنة، ومدته اثنين وعشرين سنة وستة أشهر، وكانت له حروب سجال مع (الموسكوا) سنة (1271هـ)، آل الأمر فيها إلىٰ الصُّلح بين الفريقين.

ثمَّ ولي ثاني ثلاثينهم السُّلطان عبد العزيز خان سنة (1277هـ) وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة ولد سنة (1245هـ) وتوفي سنة (1293هـ) وهو ابن ثمان وأربعين سنة، ومدَّته خمس عشرة سنة وخمسة أشهر.

ثمَّ تولىٰ ثالث الثلاثين السلطان مراد خان الخامس سنة (1293هـ) وهو ابن سبع وثلاثين سنة ولد سنة (1256هـ)، وخلع لما خلط في عقله سنة (1293هـ) لما رأىٰ عمه عبد العزيز مات فجأة، حين فَصدَ وقَهره الدمُّ وييبس ذلك، خلط في عقله كثيرا، وسلم في الملك للسلطان عبد الحميد، ومدته ثلاثة أشهر وقيل ثمانية أشهر.

ثمَّ تولَّىٰ رابع ثلاثينهم السُّلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني سنة (1293هـ) وهو الموجود الآن، ولم أقف علىٰ تاريخ ازدياده، ومدحه أبو الهدىٰ العلامة **أفندي الصيَّادي** في كتابه (**قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرافعي وأتباعه الأكابر**) بقصيدة رائية من بحر البسيط مشحونة بجوهر كلِّ معنىٰ وسيط فقال:

طابَ الزَّمان وطاب الوقت والعُمر ... بطل ركن لديه الزَّهر تنحدرُ

ركن الخليفة سلطان البريَّة من ... بباب علياه لاذ البدو والحضر

عبد الحميد إمام الدِّين سيِّدنا ... ومن به أمَّة الإسلام تفتخرُ

رئيس جحفل حزب المسلمين أمير ... المؤمنين حماهم إن دعت غير

... الخ.

وكلٌّ واحد من هؤلاء نقش اسمه في السِّكَّة، وخُطب به علىٰ المنابر في المشارق والمغارب.قال الحافظ أبو راس في (**زهر الشَّماريخ**): «وخطب لهم في المشارق والمغارب وما بَعُد وما قارب، ولم يخرج عن ملكهم إلا المغرب الأقصىٰ من وجدة إلىٰ آخره، فهم مهنَّؤون ممتعون منصورون في الأقطار، والمغارمُ تُؤدىٰ لهم آناء اللَّيل وأطراف النهار»، قلت: كان ذلك في وقته، وأمَّا الآن فخرج عن يديهم جميع المغرب ـ أقصىٰ وأدنىٰ ـ ولم يبق لهم الحكم إلا في (برِّ طرابلس) وما قارب (الأستانة)، فخرج عن يدهم (مصر) و(تونس) و(برُّ الجزائر)، ولقب النَّصارىٰ سلطانهم بالميت، والأمر لله وحده.

الموضع الخامس: في ذكر باشاتهم بالجزائر (ومنهم من يجمعهم على باشاوات) ومن ملك منهم وهران.

اعلم أنَّ الباشاوات الذين ملكوا برَّ الجزائر وقع للشَّيخ عبد الرَّزاق بن محمَّد بن حمدوش الجزائري صاحب (**القاموس في الطب**)، ولصاحب (**الزَّهرة النَّائرة**) في ذكر الباشاوات الجزائرية وغيرهما من الأئمة اضطراب واختلاف في ترتيبهم وعددهم وأسمائهم وتاريخهم.

ولنذكر في كتابنا هذا ما وقع عليه الاتِّفاق، وتوضَّح ما غلط فيه سادتنا السُّبَّاق فنقول: لا جرم أنَّ الباشة هو الذي يولي البايات بالإيالات الثَّلاث وهي (تيطري) و(الإيالة الشرقية) و(الإيالة الغربية)، ولذا يقال له باي البايات، ويقال له: (باشالار) وكلمة (لار) هي للتعظيم والتَّنويه عندهم فهي بمعنىٰ جميع، وإنَّ عدد ممن تولَّىٰ منهم بالجزائر بين ما كان يبعثه السُّلطان من (اسطنبول) وبين من تسَّمىٰ بالجزائر فقط علىٰ الصَّحيح المتفَّق عليه محققو المؤرخين كالحافظ **أبي راس** وغيره "خمس وسبعون باشا".

أولهم: خير الدين باشا بن المدلية، تولَّى على الصحيح من الأقوال سنة (925هـ) وتوفي سنة (966هـ)، وبقي في الملك إحدى وأربعين سنة، فهو أوَّل باشا بالجزائر من الأتراك، فكان واسطة عقدهم، وباب سعدهم، حتى انتشر صيتهم وعمَّ، واشتدَّ ملكهم بالجزائر إلى أن تمَّ، والذي بعثه للجزائر هو السُّلطان ياوز سليم خان الأول ـ كما مرَّ ـ وقدم معه شقيقاه (إسحاق) و(عروج) فبعث إسحاق لقلعة بني راشد خليفة عنه إلى أن مات شهيدا بها، وبعث عروجا لتلمسان خليفة عنه إلى أن كثر فساده فقام عليه أهل (تلمسان) وفرَّ لـ(بني يزناسن) فمات هناك كما مر، ولما قدم خير الدِّين للجزائر وجد برج مرساها بيد الإسبانيين في جزيرة حيث برج الفنار اليوم يؤدُّون لهم (متيجة) الضَّرائب، فأدام معهم في الحرب إلى أن فتح **برج المرسى** سنة (948هـ)، وجعلت في البحر طريقا تصل إليه، فمِن أجل ذلك غزا الرُّومُ **الجزائر** الغزوات المشهورة، وفي **الشيخ عبد الرزاق** وصاحب (**الزَّهرة النَّيِّرة**) مِن أنَّ أوَّل باشا بالجزائر **إسحاق**، وبعده **عروج**، فذلك غلط صُراح، وبعث ولده **حسن بن خير الدين** لتلمسان خليفة عنه، وغزا رحمه الله (**مزغران**) ففتحها مِن الإسبانيين زوال يوم الجمعة خامس عشر ذي القعدة سنة (965هـ)، حتى جمع رؤوس النَّصارى إلى أن صارت تلًّا، وأذَّن المؤذِّن عليها للصَّلاة، ورأى تلك الصومعة نصارى **وهران** لارتفاعها في السَّماء، وتعرف تلك القصَّة بـ: **قصة الفرطاس**، لأن بطريق النصارى الذين بـ: **مزغران** اسمه: **الفرطاس**، كما مرَّ، وما وفي **الشيخ عبد الرزاق** و(**صاحب الزَّهرة النَّيِّرة**) من أنَّ خير الدِّين توفي في إحدى وأربعين وتسعمائة، وتولَّى بموضعه تلك السنة حسن باشا، ثمَّ تولى بعده حسن بن خير الدين سنة (952هـ)، ثمَّ تولى بعده حسن آغة سنة (958هـ)، ثمَّ تولى بعده حسن بن خير الدين أيضا سنة (969هـ)، ثمَّ تولى بعده صالح باشا تلك

السنة فهو غلط صراح، والصَّحيح أن خير الدين توفي في خمس وستين وتسعمائة ـ كما قدَّمنا ـ وأنَّه هو الذي فتح برج مرسىٰ الجزائر، وفتح[1] مزغران كما في الحافظ **أبي راس** والشيخ أبي عبد الله محمد بن التغريري الجزائري والشيخ أبي محمد عبد الله قاضي نهر بني راشد والشيخ الأكحل بن عبد الله الخلوفي شاعر النَّبي ﷺ صاحب قصيدة **(قصة مزغران)** معلومة التي من الملحون لأنه أقعد بالقضية لحضوره، وقد مدح هذا الباشا أديب هذه الإيالة، الذي أدب عصره علىٰ أدبه عياله، وسلب يد البديع ووفق كل كلام بليغ وجاله، المقيد بفرس ذكائه المعاني الأوابد، والغرائب الشوارد، أبو زكرياء يحيىٰ بن أبي راشد، فإنه أجاد في وصفه غاية الإجادة، وحلىٰ عاطل جيد المجادة، فلله دره من أديب وذكي لبيب بقوله:

سقىٰ المطر الهطال أرضا تشرفت ... بمصر غدت للفضل والفخر جامعة
بمزغنة الفيحاء تظهر من مدا ... ترىٰ كسقيط الثلج بيضاء ناصعة
بروج السما أبراجها قد تبلغت ... تروقك من أفق الأجنة طالعة
تراها علىٰ وجه البسيطة أنجما ... وأشجار أغصان ترنح يانعة
وحيث بدا كسا الرياض متوجا ... بتاج نوار فهي صفراء فاقعة
ذوائبها تسقي الغصون فتنثني ... حمائمها تشدو علىٰ الغصن ساجعة
فتبصر أغصان الحدائق سجدا ... تمد من الصوت الحنين وراكعة
سقىٰ روضها وبل السحائب فانتشت ... أزاهره بالماء تضحك دامعة
وما هي إلا جنة قد تأرجت ... مباخرها بالطيب والمسك ساطعة

---

(1) وقع الحديث عنه في الصفحة الأولىٰ من هذا التعليق.

وأنشد الأديب الشيخ عبد الرحمن الجامعي شارح **(رجز الحلفاوي)** فقال:

لقد فتكت بالقلب فتك البواتر	عيون الظباء الانسات الخوادر
رعى الله ظبيا قد رعى حب مهجتي	ولم يرع في نجد غوارا وحاجر
ومازلت أرعاه ويحسب أنني	أخون له عهدا فيصبح هاجري
ويظهر إحساني إليه إساءة	وبالعكس ما يبديه بين النواظر
بذا حكم الحسن البديع له ولي	وما حكم الحسن البديع بجائر
أيحسن عذل في ظباء عيونها	ظبي قطعت أحشا أسود خوادر
تمر قدود في دعوص كأنها	بنود تشت في جنود الجزائر
حوى بالصحاح البيض من كل عابث	حماه فلم تعبث به كف فاجر

وهي طويلة، **ثانيهم** صالح باشا تولى سنة (966هـ) وبقي في الملك أربع سنين وهو الذي غزا (بجاية) وفتحها من النَّصارى عنوةً يوم الأربعاء سابع وعشرين شوال سنة (968هـ) بعد حصاره لها سبعة عشر يوما، ثالثهم ابنه محمد باشا بن صالح باشا تولى سنة (970هـ) وبقي في الملك أربع سنين وغزا المغرب الأقصى فدخل فاسا عنوة يوم الأحد ثاني صفر سنة (971هـ)، وما وفي **الشيخ عبد الرزاق** و**(صاحب الزَّهرة النَّيِّرة)** من أنَّ صالحا باشا تولى سنة (959هـ) وبعده قرطالجي سنة (963هـ) وبعده حسن بن خير الدين سنة أربع أو ثمان وستين وتسعمائة وبعده أحمد بسطانجي سنة (969هـ) وبعده حسن بن خير الدين سنة (974هـ) وبعده محمد بن صالح سنة (974هـ) فذلك وهم فاحش في التَّرتيبِ والتاريخ معًا. رابعهم حسن آغة تولى سنة (974هـ) وبقي في الملك إحدى عشر سنة. خامسهم حسن بن خير الدين تولى سنة

(985هـ) وبقي في الملك ست سنين وهو الذي حرضَّه العلامة السيد محمد بن عبد المؤمن الجزائري على قتال (وهران) بالقصيدة الهائية التي أوَّلها:

نادتك وهران فلبِّ نداها

إلى آخرها كما مر. سادسهم محمد قرطالجي تولَّى سنة (991هـ) وبقي في الملك خمس سنين ثم تولى أحمد بسطانجي سنة (996هـ)، ثمَّ تولّى علي العلج الملقب بالفرطاس سنة (1000هـ)، ثمَّ تولى أعراب أحمد سنة (1002هـ) ثم تولى رمضان سنة (1003هـ) ثم تولى حسن بن قبطان سنة (1003هـ) ثم تولى جعفر سنة (1004هـ) ثمَّ تولى يونس سنة (1007هـ)، ثم تولى مامي سنة (1009هـ) ثمَّ تولى دالي أحمد سنة (1011هـ) ثمَّ تولى أخضر سنة (1012هـ)، ثمَّ تولى الحاج شعبان سنة (1013هـ)، ثم تولى مصطفى سنة (1015هـ)، ثمَّ تولى سليمان سنة (1017هـ)، ثمَّ تولى رضوان سنة (1019هـ)، ثمَّ تولى كوسة مصطفى سنة (1021هـ) ثمَّ تولى حسين باشا سنة (1023هـ)، ثمَّ تولى مصطفى خزناجي حسين سنة (1025هـ)، ثمَّ تولى سليمان سنة (1026هـ)، ثم حسين الشيخ سنة (1028هـ)، ثم سليمان أيضا سنة (1028هـ)، ثم مصطفى حفيد كوسة سنة (1030هـ)، ثمَّ تولى حسين بن إلياس سنة (1032هـ)، ثم مراد سنة (1032هـ) ثم إسراف باشا سنة (1034هـ)، ثم حسن باشا سنة (1035هـ) ثم حسن سنة (1036هـ) ثم إسراف مرة ثانية سنة(1037هـ) ثم يونس سنة (1039هـ)، ثم تولى حسن باشا سنة (1041هـ)، ثم يوسف سنة (1044هـ)، ثم علي باشا سنة (1050هـ)، ثم قرطالجي يوسف سنة (1050هـ) ثم محمد برسالي سنة (1052هـ) ثم أحمد سنة (1054هـ) ثم أبو شناف أحمد باشا سنة

(1061هـ)، ثم محمد أيضا سنة (1063هـ)، ثم إبراهيم سنة (1066هـ)، ثم الحاج أحمد باشا سنة (1067هـ)، وهو الذي خاطبه العلامة بوقته السيد **محمد بن القوجيلي الجزائري** بقصيدة طويلة يوصيه فيها بالعدل والالتفات لمصالح الرعية والقيام بحقها إلى أن قال فيها:

والتفت نحو الجهاد بقوة ... الخ

ثمَّ إبراهيم باشا سنة (1069هـ)، ثم إسماعيل سنة (1072هـ) ثم حسين موزمورط سنة (1076هـ) وفي وقته حاصر الباي شعبان الزناقي (وهران) إلى أن مات شهيدا ـ كما مرَّ ـ ثمَّ مصطفى باشا سنة (1100هـ) ثم عمر سنة (1102هـ) ثم مصطفى باشا سنة (1103هـ) ثم موسى سنة (1105هـ) ثم علي باشا سنة (1112هـ) وفي وقته جاء سلطان المغرب مولاي إسماعيل بن علي حاركا لوهران وحاصرها فلم ينتج له شيء، وذهب مشرقا ورجع مفلولا كما مرَّ، ثم مصطفى باشا (1116هـ) ثمَّ الشريف حسن سنة (1117هـ) ثم الشريف محمد باكداش باشا سنة (1118هـ) وهو الذي جهز الجيوش لـ(وهران) على يد وزيره أوزن حسن وبايه مصطفى أبي الشَّلاغم إلى أن فتحت عنوة، ثم كوسة باشا سنة (1120هـ) ثم أوزن علي سنة (1124هـ) ثم دالي إبراهيم سنة (1124هـ) ثمَّ أوزن علي شاوش سنة (1130هـ) ثمَّ عبدي باشا آغا الصبايحية سنة (1136هـ) ثم إبراهيم بن رمضان أفندي سنة (1144هـ) وهو الذي بنى قنطرة الحرَّاش، ونقش اسمه وتاريخ بنائها على لوح من رخام مركبا فيها أربع أبيات من الرجز نصها:

تـــمَّ بناؤهـــا البـــديع البـــاهي	عـــن إذن بانيهـــا لوجـــه الله
وهـو إبـراهيم باشـا بـن رمضـان	فصـار قنطـرة كـما تـرىٰ العينـان
جعـــل الله ســـعيه مـــذكورا	ثـــم جـــزاه جـــزاء موفـــورا
ســنه تســع ربعــين مائــة ألــف	من هجرة من لـه العـز والشـرف

ثمَّ إبراهيم خوجة سنة (1158هـ)، ثمَّ تولىٰ علي أبو صبع يوم الأربعاء سادس عشرين صفر سنة (1161هـ) بعد طلوع الشمس بنحو الساعتين وتوفي سنة (1168هـ)، ثم تولىٰ علي باشا سنة (1168هـ)، ثمَّ تولىٰ الشريف محمد باشا سنة (1179هـ) وفي أيامه حرك الإسبانيون للجزائر في خمسمائة مركب وقاتلهم صالح باي وظفر بغنائمهم كما مر وحرك الباي محمد بن عثمان لفتح وهران سنة (1205هـ)، فلم يمده بشيء من الجيش إلىٰ أن مات هذا الباشا أثناء الحصار سنة (1205هـ)، ثمَّ تولىٰ حسن باشا سنة (1205هـ) وفي أيامه فتحت وهران الفتح الثاني وبنىٰ الجامع الأعظم بوهران الذي يقال له جامع الباشا ثم تولىٰ مصطفىٰ سنة (1212هـ)، وفي أيامه توفي القطب الكبير سيدي محمد بن عبد الرحمن الجرجري ودفن بـ(جرجرا) فنقله للجزائر ودفنه بها بقصد التبرك ثم تولىٰ أحمد خوجة سنة (1220هـ)، ثمَّ تولىٰ علي داي سنة (1223هـ)، ثمَّ تولىٰ الشريف الحاج علي داي سنة (1224هـ) ثمَّ تولىٰ محمد داي سنة (1230هـ) وقتل بالحمام ثم تولىٰ عمر آغا باشا سنة (1230هـ) ثمَّ تولىٰ علي برسالي سنة (1230هـ) ثمَّ تولىٰ الحاج محمد (1232هـ)، ثمَّ تولىٰ علي خوجة باشا سنة (1232هـ) ومات بالوباء الذي حدث قبله وبقي لتوليته ثم تولىٰ احساين باشا سنة (1233هـ) وهو الذي لطم وجه سفير الفرانسيس فكان ذلك سبب مجيئهم للجزائر

وهو آخرهم.

واعلم أن الذين ملكوا (**وهران**) من الباشاوات: محمد باكداش، وكوسة، وأوزن علي شاوش، وعبدي. هؤلاء في الفتح الأول، وحسن باشا، ومصطفى، وأحمد خوجة، وعلي داي، والحاج علي داي الشَّريف، ومحمد داي، وعمر، وعلي برسالي، والحاج محمد، وعلي خوجة، واحساين باشا داي، هؤلاء في الفتح الثَّاني.

الموضع السَّادس: في ذكر معنى الباي وكيفيَّة تصرُّفه وعمله بالعوائد وأسماء بايات الغرب ومن ملك منهم وهران.

اعلم أنَّ الباي عند أتراك **الجزائر** لقب لمن ولي إيالة تلمسان أو تيطري أو قسنطينة فقط، والباشا لقب للذي يولي البايات ولذا يقال له باشا باي.

قال **أبو عبد الله محمد الصَّغير اليفرني** في كتابه (**نزهة الحادي في أخبار أهل القرن الحادي**): «ومعنى الباي بلغة الأتراك قايد القياد، ويختص به قايد الاصبايحية» اهـ.

ولما يعظِّمونه يقولون له: الباي لار.

وقال الحافظ **أبو راس** في (**الخبر المعرب**): «والباي هو الذي يوليه الباشة ناحية كبيرة في عرفنا، والحاصل أنَّ أمراء الإسلام أعلاهم الخليفة ـ وقد انقطع هذا الاسم أوائل القرن العاشر ـ ثمَّ السُّلطان ـ وهو الموجود الآن في اسطنبول والمغرب ـ، ثمَّ الوزير وهو المتولي الحروب باسطنبول، ثم الباشا وهو الذي يوليه السُّلطان قاعدة كالجزائر، وتونس، وطرابلس، ومصر، والشام، وبغداد في عرفنا الآن، ثمَّ الباي وهو عندنا من يوليه باشة الجزائر جهة مثل قسنطينة والمغرب الأوسط وغير ذلك، ولار

بمعنى جميع، ومن ذلك يولداش لار، فيولداش بمعنى جندي، ولار بمعنى جميع ودأب العجم إضافة المضاف إليه للمضاف لأنَّ معناها بالعربية جميع يولداش، والانقشرية العسكر الجديد، وذلك أنَّ السُّلطان مراد خان عثمان اتخذ مماليك سنة (94هـ) فسمَّاهم بهذا الاسم فهو أوَّل من سمي به، والراي بمعنى الرئيس، والأودباشية لار الواحد أودباش، ومعناه راس الدَّار على عادتهم في الإضافة، فلفظ أود هي الدَّار وباشي هو الرأس، وأعلى منه البلكباشية، فالبلك اسم الجماعة، والباشي الرأس كما مرَّ معناه رأس الجماعة، وأعلى منه آغة، ومراتب الباي ثلاثة:

أولهم **باي تيطري**[1] وهو أكبر البايات اسمًا لأنَّه أوَّل من ولته الدولة التُّركية بذلك المحل وقاعدته (**المدية**). وثانيهم **باي الشرق** يعني الجهة الشَّرقية وقاعدته (**قسنطينة**) وثالثهم **باي الغرب** يعني الجهة الغربية، وقاعدته (وهران)، وكان هذا الثالث منوعا على نوعين أحدهما (**مازونة**) وثانيهما (**تلمسان**)، ثمَّ جمعا في الثامن عشر من القرن الثاني عشر لواحد وصارت القاعدة (**قلعة بني راشد**) ثم صارت (**أم عسكر**) ثمَّ صارت (**وهران**) في الفتح الأوَّل ثم صارت (**مستغانم**)، ثمَّ صارت (**المعسكر**) ثم صارت (**وهران**) في الفتح الثَّاني، واستمر الحال على ذلك إلى انقطاعهم.

ولبايات هؤلاء القواعد الثَّلاث: التَّصرف المطلق في الرَّعيَّة بالقتل للعرب، والضَّرب، والسِّجن والعقوبة بكل وجه، والخطية للعرب وغيرهم، دون تعرُّض أحد لهم في ذلك، غير أنَّ الباي لا يقدر أن يقتل أحدا من الأتراك إلا بمشاورة الباشا بالجزائر.

---

(1) وفي الأصل: أولهم باي قسنطينة، ولعله سهو من طرف المؤلف أو الناسخ.

وللباي خليفتان **أحدهما** ينوب عنه في الخروج للرَّعية لأخذ مال الدَّولة منها، وفي القدوم إلى الجزائر عند الافتقار، و**الآخر** يقال له خليفة الكرسي ينوب عنه في قاعدته إن غاب.

وله كاتبان عربيان يكتبان له جميع الأوامر أحدهما كاتب السر ويقال له **باش تافتار** وهو الكبير، والآخر يكتب الرَّسائل ويسجلها إلى غير ذلك وهو الصغير.

وله وزيران من العرب ويقال لكل منهما آغة يشتريان هذا المنصب من الباي بمبلغ وافر من المال، وهما يقبلان دعاوي العرب، ثمَّ يعرضانها على الباي، ولهما مدخل عظيم في ذلك، فلا بدَّ للباي من مشورتهما كل منهما فيما يليه، وتارة يجمعهما للمشورة.

وله أربعة شواش أعوان تركا لباسهم مخالف للباس شواش الباشا، فهم كسائر العسكر لكون خدمتهم ليست موظفة لهم، كشواش الطرطورة والقبطان، وإنَّما توظيفهم من عند الباي خاصَّة فله أن يأخذ من شاء لقطع الرَّأس ونحوه، وتسميتهم شواشا ماداموا عند الباي، وآخرون من العرب لتقديم الناس وتأخيرهم وضبط أحوال الباي، يقال لهم شواش بني عرب.

وله سبعة طبول وغوائط ونغارات وعدة سناجيق يجمعهم معه حال ركوبه وفسطاطه، وهو الوتان تحمله اثنا عشر جملا فضلا عن البغال.

ولابد للباي في كل ثلاث سنين من دخوله للجزائر إن لم يلحقه عذر من مرض ونحوه، وإلا بعث خليفته الأوَّل عوضا عنه، ويسمى هذا الدُّخول عندهم بالدنوش وعلة دخوله في كل ثلاث سنين هي إعطاؤه مال الدَّولة بيد الخزناجي وإعطاؤه

للعوائد، ويقع يوم دخوله مهرجان عظيم وتخرج أكثر النَّاس لملاقاته وصفته أنه إذا قدم للبلد وبقي بينه وبينها نحو الأربع ساعات، نزل في محل منسوب له يقال له **حوش الباي** ومنه يقدم للجزائر فيصل قبل الفجر لمحل يقال له: (**عين الربط**)، فينزل فيه إلى ارتفاع النَّهار، وانفتاح أبواب المدينة، فيركب أرباب الدَّولة من الخزناجية والآغات وخوجة الخيل والدِّيوان وغيرهم، ويخرجون لملاقاته، ومعهم نوبة الباشا تضرب عليهم فإذا وصلوا لقربه، ركب الباي ومن معه تحت الرَّايات، وتضرب نوبته، ويتوجه نحوهم، ولما يقربُ منهم تسكت نوبته وتبقى نوبة الباشا تُضرب، ثمَّ ينزل الباي ومن معه على خيولهم، ويمشي خطوات ثم ينزل الخزناجي ومن معه، ويسلم كلٌّ من الفريقين على صاحبه، ويجلسون في مكان مرتفع، فتجري الخيل أمامهم، عليها فرسانها ويضربون البارود، ويسمى هذا بالملعب، ثمَّ يركبون جميعا ويقصدون الباشا، ومن حين الرُّكوب يشتغل الباي برمي الدراهم على رؤوس النَّاس الواقفين يمينا وشمالا، إلى أن يصل لمقر الباشا، فينزل ويدخل على الباشا ويؤدي له الطَّاعة، ويجلس معه هُنَيئة ثمَّ ينصرف إلى المحل المُعدِّ من طرف الدَّولة لنزول البايات، فينزل فيه، ويباشر خدمته وكيله المقيم بالجزائر، المسمى بوكيل الباي، وتلك الخدمة لا تعطى إلا لمن هو أهل لها، فتأتيه في ذلك اليوم الأطعمة بما يتبعها، وفي اليوم الثَّاني يشتغل بتوزيع العوائد فيبدأ أوَّلا بالباشا، فإن كان باي الشَّرق، فيدفع بعد مبلغ من المال البرانيس، والحياك والمصوغ، وإن كان باي الغرب، فيعطي بعد المال العبيدَ والحياك وريش النّعام وبيضه والزرابي[1] القلعية، ثم يعطي لأرباب الدَّولة، وكل ذي منصب حتى الشوَّاش وغيرهم

---

(1) **الزرابي القلعية**: كانت قلعة بني راشد مشهورة بنسج الزرابي ولا زالت إلى الآن ينسجها نسوة

عوائدَهم، وبعد دفع العوائد، تضيفه أكابر أرباب الدولة، ويعطي فيها مالا آخر لخدام المحل على سبيل الإكرام، زيادة على ما يدفعه للخزنة، ويمكث في البلد ثمانية أيَّام فقط، ويرجع لمحلِّه، وعند خروجه لمحله، لا يخرج معه أحد من أرباب الدَّولة إلا آغة، فإنَّه يشيعه نحو السَّاعتين أو الثلاث، ويعود ويدفع له في تشييعه قدرا من المال إكراما له، ثمَّ إنَّ الباشا إذا أراد أن يقتل الباي، يبعث في إثره، وفي الطَّريق يفعل به ما اقتضاه أمر الباشا، ولا يتولى بايا إلا من هو تركي أو (**قُرغلي**).

وعدد بايات الإيالة الغربية من أوَّلهم إلى آخرهم ثلاثة وثلاثون بايًا:

أوَّلهم: حسن بن خير الدينتولي بايا بـ(**مازونة**) سنة (971هـ) قبل توليته باشا بالجزائر، ولم يظهر له في ذلك وسلم في وظيفه لأبي خديجة.

ثمَّ تولى أبو خديجة سنة (971هـ) وجعل قاعدة ملكه (**مازونة**) فهو ثانيهم.

ثالثهم: الباي صواق ولم أطَّلع على تاريخه، وسقته زوجته فمات.

رابعهم: السَّايح المازوني ولم أقف على تاريخ توليته، وبقي في الملك إحدى عشرة سنة ومات، ولم أقف على تاريخ موته أيضا.

خامسهم: ساعد ولم أقف على تاريخه، ومن ساعد إلى الباي محمد بن عيسى تولى عشر بايات، وبحثت على أسمائهم، وخدمتهم، وتاريخهم، بحثا شديدًا، ولم أجد ذلك منصوصًا في كتاب، ولا مشى به التَّواتر، ومن وجد ذلك فليلحقه بمحلِّه.

سادس عاشرهم: محمَّد بن عيسى، ولم أقف على تاريخ توليته، ولا على عمله.

البلدة، ونواحيها بأيديهن، وهي مشهورة في الأسواق ومعروفة، ويرى بعض المؤرخين الأثريين أن هذه الصناعة قديمة جدا أي قبل الإسلام ويستدلون على ذلك بزهرة عليها.

سابع عاشرهم: الغطريف الهمام الأسد الضرغام معزُّ الدين، وأهل الإيمان الزناقي **الباي السيد شعبان** أحد الأتراك الأنجاد وأعيانهم الأمجاد تولّى إيالة **(مازونة)** وغيرها من مشرق المغرب الوسط في حدود التسعين بعد الألف بلا شطط، فغزا **(وهران)** وطالت بينه وبين الإسبانيين الحروب، ودام حصارهم فعظمت عليهم الكروب، وقاتلهم قتالا شديدا، ودام على ذلك إلى أن مات (رحمه الله) شهيدا، أمد الله رضوانَه، وأسكنه من الفردوس ميطانه، وذلك عام ثمانية وتسعين وألف كما مر.

ثامن عاشرهم: الباي مصطفى أبو الشَّلاغم بن يوسف المسراتي، ثمَّ الهواري تولى بايا على **(مازونة)** و**(تلمسان)** فهو أول من جمعت له الإيالة الغربية سنة (1098هـ)، ونقل كرسي المملكة من **(مازونة)** للقلعة ثم لـ **(المعسكر)**، وجعلها قاعدته لكونها وسطا بين تلمسان ومازونة، فغزا **(وهران)**، وأمدَّه الباشا الشَّريف السَّيد محمد باكداش بالجيوش، تحت نظر وزيره، وصهره ورديفه السيد أوزن حسن، فنزل (وهران) وحاصرها إلى أن فتحها عنوة صبيحة الجمعة سادس عشرين شوال سنة (1119هـ)، فنقل كرسي المملكة من **(المعسكر)** لها، وسكنها وجعلها قاعدة ملكه، وتقدمت قصة فتحها باختصار، وما في ذلك من الأنظام والآثار، وهو الفتح الأوَّل المشهور، تقبَّل الله سعيه، وأسكنه أعلى القصور، وحيث سكن **(وهران)** بنى بها قبَّة جليلة، وروضة جميلة، في آخر شعبان سنة (1126هـ) وحبسها على عقبه، وعقب عقبه، وكتب فيها اسمه، وتاريخ بنائها، وتحبيسها، ونصه: «حبس هذه القبَّة المباركة والرَّوضة المرونقة، أمير المؤمنين العاشق المحب في سيد المرسلين، الباي مصطفى بن يوسف محيي الدين، رزقه الله كمال اليقين، وأفاض عليه من كرامة الصالحين، وحشره مع الذين أنعم عليهم من النبيئين، والصِّديقين،

والشهداء والصالحين يا رب العالمين، على عقبه، وعقب عقبه، بأن لا يدفن فيها غيرهم، ومن بدل أو غير، فالله حسبه ،ويتولى الانتقام منه، وأتممت وكملت هذه القبة على يد المعلم أسطى أحمد أعراب الجزائري، بتاريخ أواخر شهر الله شعبان عام (1126هـ).

يـــا داخـــل القبـــة الله يرعـــاك　　أبشر بما ترتجي من خير ما أولاك

كتب هذه الأسطر أسطى أحمد النجَّار».

ثم بنى الأقواس التي بالبلانصية، وكتب عليها اسمه وتاريخ البناء ونصُّه: (الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أمر ببناء هذه الأقواس المجاهد في سبيل الله السيد مصطفى بن يوسف عام (1138هـ). ولا زال (رحمه الله) بوهران إلى أن دخلها الإسبانيون مرة ثانية سنة (1143هـ)، فانتقل منها إلى (مستغانم) وسكنها وصيَّرها قاعدة ملكه، إلى أن توفي بها سنة (1146هـ)، بعد ما ملكها سبعا وأربعين سنة، ودفن بها وعلى ضريحه قبَّة، بجواره بها آغته السيد البشير بن أحمد بخدة، جد البحايثية، ولما حل بها بنى بها البرج الذي يقال له برج الترك.

تاسع عاشرهم: يوسف بن مصطفى أبي الشَّلاغم بن يوسف بن محمد بن إسحاق المسراتي ثمَّ الهواري تولى بعد موت أبيه ومكث في الملك سنة واحدة ومات بالوباء بتلمسان سنة (1147هـ)، ودفن بها، وجد أبيه مصطفى وهو محمد بن إسحاق هو الذي بنى قصبة القلعة، وتعرف الآن بقصبة المسارتية، ويقال لها: قصبة بني يوسف وهي بالكروكوري.

موفي عشرينهم[1]: **مصطفى الأحمر المسراتي** تولى (1147هـ) وسقي فمات، ودفن بـ(**مستغانم**)، وكان آغة الجواد الذي في العطاء لا يعرف العدد، بل فيه يحث.

السيد **ابن عودة بن البشير بن أحمد البحثوي** مات بـ: **مستغانم**، ودفن مع أبيه.

حادي عشرينهم: قائد الملقب بقايد الذهب المسراتي، ولقب بذلك لكثرة جوده وإعطائه الذهب للناس، وهو الذي يقال له: باي المحال، ثمَّ قام عليه عصمان ففر منه لـ(**وهران**) عند الإسبانيين واستقرَّ إلى أن لحقه المحال بنجعهم، فرارا من عصمان، ولما حصل بينه وبينهم الصُّلح، رجعوا لموضعهم بين (**مينا**) و(**شلف**) وأتوا معهم بقايد، وولَّوه عليهم وخرجوا عن حكم عصمان، ووافقهم على ذلك الباشا بالجزائر، ثمَّ إنَّ قايد سمع ما يكرهه من الباشا، فسلم في الملك وفرَّ لتونس، وسكن بها إلى أن مات هنالك، فقبره بها ولم أقف على تاريخ ذلك، وهو الذي غزا حناشا، شيخ المهاية، وأتى بفرسه المعروف عند الناس بعود حناش، وكان فرسا طويلا مع الأرض يسابق ثلاثة مشالي، ويعلف برشالة من الشَّعير، وقيل: إنَّ الذي أتى به هو الباي إبراهيم الآتي، ثاني عشرِينهم **محمَّد** المجاجي، وبقي في الملك تسعة أعوام، إلى أن قتل.

ثالث عشرينهم: الحاج عثمان، ويقال له عصمان وهو جدُّ العصامنية ملوك (**وهران**)، تولَّى في المرَّة الأولى بـ (**تلمسان**) وقام عليه أهلها مع الباي يوسف المسراتي المتقدِّم، وتولَّى في المرَّة الثَّانية على جميع الإيالة الغربية في أواسط محرم سنة (1160هـ)، ومكر بأهل (**تلمسان**) و(**المحال**) مكرا كبيرا أفنى به أكثرهم، وسببه أنه كان بايا

---

(1) كذا في الأصل.

بتلمسان في المدة الأولى، وجاء بموضعه يوسف المسراتي المار لم يطل في المدة، فلذلك لم تحسب تلك الولاية ولم تعد، فتعصب عليه أهل **(تلمسان)** ونقموا عليه، وصاروا يرمون ساحته في اللَّيل بكل ميتة ودم، فاغتاظ لذلك وذهب إلى **الجزائر**، ولما مر بـ **(المحال)** سأل منهم ماء لما عطش، فأتوه بلبن، وحين شرع في شربه أهرقوه عليه، وضحكوا من ذلك، فأسرَّها في نفسه، ومشى للجزائر، ولما وصل إلى **(الجزائر)** واجتمع بالباشا، سأل منه أن يوليه بايا، ويطوع له **(تلمسان)** و**(المحال)** ويعطيه عددا من المال، فولاه، وجاء مغربا بالجيش معه فأوقع بأهل تلمسان إيقاعا كثيرا، وصال على المحال إلى أن أفناهم، وأجلاهم لـ **(وهران)**، ثمَّ رجعهم لمحلهم على أن لا يرفعوا رؤوسهم، فحل بهم ما هو مشهور بينه وبينهم على ألسنة النَّاس، ومذكور في كلام الفصحاء، كـ: **ابن السويكت**[1] وغيره، ويحكى أنه قتل في يوم واحد أربعين رجلا، فضلا عن غيرهم، وتوفي بالمعسكر، ودفن بها بعد أن ملك تسعة أعوام، وهو الذي بنى الجامع الأعظم بالمعسكر سنة توليته، ونقش على حجارة اسمه وتاريخ البناء ونصه:

«الحمدلله حمدا لا نهاية لطوله، وصلى الله على سيدنا محمد نبينا عبده ورسوله، أما بعد، فقد أمر ببناء هذا المسجد المبارك المحمود المعظَّم الأرفع القامع للعدا، من جمع بين الشَّجاعة والندى، وطلع على النَّاس بدر هدى، صاحب لواء الحمد الأسمى، ومالك أزمة المجد الأحمى، حاج الحرمين، الشَّريف أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل ربِّ العالمين، صاحب الرُّتبة العالية وتحفة الملوك العثمانية، مولانا الحاج عثمان باي، ابن

(1) **ابن السويكت**: شاعر شعبي من قبيلة سويد المعروفة بالمحال وثار قومه على الأتراك، وخاضوا معهم معارك سجلها هذا الشاعر، ثم جلى سويد إلى الصحراء، ولازالت بقاياهم هناك.

السيد **إبراهيم** خلَّد الله ملكه ملك عاليا، وهو على الأمة واليا ساميا، وكان ذلك في شهر شعبان عام (1160هـ)».

ثمَّ بنى الدار والقبَّة الملاصقة للجامع الأعظم بالمعسكر، المعروفة عند النَّاس بقبَّة الباي إبراهيم، لكونه مدفونا فيها، وإلا فهي قبة الشيخ عبد القادر الجيلاني نفعنا الله به، وأمر بكتب اسمه، وتاريخ بنائها فكتب بحجارة ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد، أما بعد فقد أمر ببناء هذه الدار المباركة، الأمير الأجل، العدل الشهير الأكمل، الرفيع الحظ، المجاهد المرابط المقسط، عدله في الجوائز مزن الناحية الغربية عبد الله أمير المؤمنين، مولانا الحاج **عثمان بن إبراهيم**، خلد الله ملكه، ونصره، حسبما أمر، أيده الله، بتشييد هذه القبة العظيمة، حرمة للشيخ الجليل، سلطان الصالحين سيدي **عبد القادر الجيلاني**، أدركنا الله رضاه، قصد بذلك وجه الله العظيم، وثوابه الجسيم، بتاريخ فاتح المحرم الحرام عام (1167هـ)، وأمر بتحرير العلامة السيد **محمَّد بن حواء** وإخوانه، وبني عمِّه، من جميع التَّكاليف المخزنية».

وكتب لهم بذلك، ونص ختامه: «بأمر المعظَّم الجليل، المجاهد الكفيل، ابن سعيد السيد الحاج عثمان، باي الإيالة الغربية، وتلمسان، في أواسط جمادى الأولى عام (1167هـ)».

وكم له (رحمه الله) من غزو ورباط على **(وهران)**، ولم يمنَّ الله بفتحها على يديه، بل دخر فضل ذلك لمن هو محبوب لديه، وكانت وفاته سنة (1170هـ).

رابع عشرينهم: حسن باي تولى سنة (1170هـ) وهرب من ملكه لاسطنبول لما أهانه باشا الجزائر، وشدد عليه وأذله، ثم خلفه أبو إسحاق إبراهيم الملياني باي، تولَّى عام (1170هـ) فكان محبا للعلم وأهله وبنى برج العسكر بالمعسكر، وأمر بكتب اسمه وتاريخه عليه نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على مولانا وسيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، أما بعد، أمرَ بتشييد هذا الفندق المبارك الظريف، الجامع لعسكر الجزائر المنتصر، سيدنا أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين مولانا إبراهيم باي الإيالة الغربية، وتلمسان خلد الله ملكه، وأعزه، ونصره آمين، وكان الفراغ منه، أول شهر الله المعظم رمضان عام (1176هـ)، عرفنا الله خيره، وكفانا ضيره، وشره آمين يا رب العالمين، وصانع هذا التاريخ محمد بن الحسين بن صرماشيق) وتوفي في عام (1185هـ)، ودفن بالمعسكر بالقبَّة التي بناها الباي الحاج عثمان للشَّيخ عبد القادر الملاصقة للجامع الأعظم، وبقي في الملك أربع عشرة سنة، وكان آغته الفارس الأعظم والشُّجاع الأفخم، والجواد الأكرم، السيد إسماعيل بن البشير البحثاوي الذي تسمَّت باسمه مدينة العرقوب بالمعسكر، وكان هذا الباي من شدة محبته للعلماء، يشتري لهم الجواري الحسان، وجعلهم طبقات بحسب تفاوتهم في العلم، وكان يكثر من جلوسهم والمذاكرة معهم، ومن تعرض منهم لحاجة عنده، قضاها له فورًا، وقال لي العلامة السيِّد **أحمد بن حم الدبي** [1]: إنَّ الباي إبراهيم لما اشترى لعمك السيد أحمد بن يوسف الزياني الجارية، قال

(1) **أحمد بن حم الدبي**: ينتسب إلى قرية الدبة قرب قلعة بني راشد وهو من أسرة لها معهد يتوارثه أفراد الأسرة إلى يومنا هذا.

لي العلماء: قد وقفت النَّوبة فيك، لأن رتبتك بعد رتبته، فقلت لهم: لا أحب ذلك لأني متزوج بـ (**القلعية**) ففيها فوق الكفاية، ولو كانت تقبل التجزي لجزأتها على مائة جزء، فنأخذ منها لنفسي جزءا واحدا، ونعطي لبايِنا تسعة وتسعين جزءا مكافأة له، على عمله مع العلماء، قال: فلما سمع الباي ذلك ضحك كثيرا، وأراد أن يشتري لي فسألته أن يدفع ذلك عنِّي لكون (**القلعية**) غيور، وخشيت من الضَّرر فعفاني.

سادس عشرينهم: الحاج خليل، ويعرف عند النَّاس بالباي خليل، تولى في السَّنة التي توفي فيها الباي **إبراهيم الملياني**، وهي سنة (1185هـ) وكان لا يحب الأولياء ولا غيرهم وتوفي بـ(**تلمسان**) سنة (1192هـ)، فدفن بقبة سيدي محمد السُّنوسي خيرة ضريحه الكريم، وسبب موته دعاء الشَّيخ سيدي المدني ابن اعطاء الغريسي، شاعر الرسول ﷺ وأصحابه والأولياء (رضي الله عنهم) عليه بالهلاك، ودعاء شيخ الطَّلبة ولي الله أبي ترفاس محمد بن محمد، فالشَّيخُ المدني كان الباي خليل واعده بالقتل، حال رجوعه من سفره، فاشتغل بالاستصراخ في ملحونه بالشَّيخ عبد القادر الجيلاني، وكان له صديق في الله العلامة السيد الحاج الموفق الكبير بن سعيد الشقراني ثم البوشيخي، فسأل منه الإعانة بالدعاء، فقام السيد الحاج الموفق وتطهر، وشرع في تلاوة القرآن قائما على رجل واحدة إلى أن ختمه، فدعا على الباي فاستجاب الله دعاءه، ولما نام جاءه هاتف بمنامه وقال له قل لصديقك قد استجاب الله لكما، قال: الباي يموت في سفره هذا ولا يرجع للمعسكر، فبعث مبشِّرا للسيد المدني يخبره بما رأى، وكان الشَّيخ المدني رأى ذلك أيضا، فبعث رسولا بالبشارة للسيد الحاج الموفق ليعلمه، فاجتمع الرسولان برأس الماء وأخبر كل منهما صاحبه بقول صاحبه، فرجع كلُّ رسول لصاحبه، وكان من

جملة القصيدة التي هي من الملحون قوله:

الباي خليل لا ترد من ذا التغرابا   يـــــا الجـــــيلالي بابـــــا

أحلف في قالي مع السور اندليك

ومنها:

أولداتي أصغار ما يقدرو لمضـاربا   يـــــا الجـــــيلالي بابـــــا

... الخ

والشيخ أبو ترفاس[1] غزاه الباي وأخذ قيطنته وفرق الطلبة عنهم وهمَّ بقتله فعصمه الله منه، فقال له الشَّيخ نحن مساكين لا معرفة لنا بالملوك وشؤونهم، وفضحتنا فضحك الله وعجَّل بهلاكك، فرجع الباي خليل ولما وصل لحمام أبي غرارة، بأرض دوي يحيى ابتلاه الله بعلَّة يقال لها الشهدة، وهي حبَّة عظيمة أصابته بين كتفيه وتخرقت مثل الشهدة، فحملوه من هناك لـ **(تلمسان)**، ولما وصلها مات بالبيت التي بها دون علم أحد، ولما دخلوا عليه وجدوه ميتا، وتوفي الشيخ أبو ترفاس بعده بقليل، في فصل الشتاء، ليلة الجمعة حادي عشر ذي الحجة الحرام عام (1192هـ) وفيها توفي الشيخ المشرفي[2] (رحمه الله) وتوفي تلميذ أبي ترفاس سيدي البشير بن احساين شعشوع ثاني عشر ربيع الثاني سنة (1205هـ).

سابع عشرينهم: أبو عثمان السيد محمد بن عثمان الذي قيَّضه الله لفتح **(وهران)**

---

(1) أبو ترفاس له زاوية مشهورة بنواحي العين الكبيرة (ندرومة) لا زالت آثارها.

(2) يقصد بالشيخ المشرفي عبد القادر بن عبد الله المشرفي صاحب "بهجة الناظر في أخبار الداخلين في ولاية الإسبان بوهران كبني عامر" أستاذ أبي راس، سبق التعريف به.

وأرشده إلى السَّعادة والغفران، المتطي منصَّة الرِّضوان، ومشيد راية الإسلام والإيمان، وباسط مهد العدل والأمان، أتحفه الله برضاه، وجدد له اللُّطف وأمضاه، تولى سنة (1192هـ)، على الصَّحيح فكان (رحمه الله)[1] من أهل البلاغة واللِّسان الفصيح فهو ثاني ملوك العثمانية خلافا لما في (**أنيس الغريب**) من أنه هو أولهم وتلك القولة غير جالية، وبه رفع ذكرهم، وانتهى إليه خيرهم، فلقد دوَّخ الأتراك والأعراب، وهابته الأباعد والأقارب، وذلت له الملوك والجبابرة، وخشيته الفراعنة والأكاسرة، وأطاعته الرعايا، وخصَّت به المزايا، ووفدت عليه الوفود، ودارت به العساكر والجنود، فحاصر مدينة (وهران)، وضيق عليها من كل فجٍّ نزهة الزَّمان، ودام عليها إلى أن فتحها صبيحة الاثنين خامس رجب، سنة ست من القرن الثالث عشر دون ثلب، وكان رجلا جسيما بالتَّجدير، أسمر[2] اللَّون لا بالطويل ولا بالقصير، محبا للعلماء والصُّلحاء والفضلاء والأدباء، والشُّجعان والنُّبلاء، قريب الغضب، سريع الرضا، شديد الأوامر والامضا كثير الغزو على أهل الصَّحراء، دائم الارتحال والإسراء، ففتح بني **الأغواط** و**الشلالة** و**عين ماضي** ومزابا وأبا الضروس، ونزل شراعة، وهمَّ بفتح بني يزناسن وأبي عروس وبلغ مبلغا لم يبلغه أحد من ملوك الأتراك، ووصل المواضع التي صعبت على غيره، وسهل عليه بها الإدراك وأعظم فتوحاته فتح (**وهران**) التي صيرها الله على يده للمسلمين دار إيمان وأمان، ولما فتحها وارتحل إليها للسكنى قصدته الأدباء بالشِّعر الأسنى، فمن ذلك قصيدة العلامة السيِّد **المصطفى بن عبد الله الدَّحاوي** المارة أول

(1) الباي محمد بن عثمان الفاتح لوهران.

(2) والدليل على سمرته أنه كان يعرف عند العامة بالباي الأكحل.

الكتاب ومنها قول الحافظ **أبي راس** في (الحلل السندسية) البارعة الانتخاب:

فــردَّ ربُّنــا الكــرَّة عليهــا لنــا ... قضينا دينا منها قد كان في تنس

بجهبـذ شـمر للحـرب متـزرا ... بحلل النصـر ومرتـد بـالربس

ومنها قول الحافظ المذكور:

خليلي قد طـاب الشـراب المـورد ... لمـا أن صـار الأمـر بـالثَّغر يقصـد

واجفت رحل الوافدين أم عسكر ... وقد كان مـأوىٰ للوفـود ومقصـد

... الخ

وقال الحافظ **أبو راس** في منظومة أخرىٰ:

سـلطان وهـران مـا خُيِّـب قاصـده ... زهــت بــه وعلــت أقــاليم الأمــم

شــد قواعــدها بحزمــه فغــدت ... مكفولــة بــه لم تيــتم ولم تــيم

يرثهـــا أولاده بعـــده أبـــدا ... كــإرث آل شــيبة مفتــاح الحــرم

فالــدنيا ألبســت إليهــا بطلعتــه ... رشـيدها الثـاني جـاءت بـه للعلـم

عــم بإحســانه بــدوا وحاضرهــا ... كالغيـث للهضـبات يـروي والأكـم

في قبة من نوىٰ قد شيدت عن حسب ... وجعفـر بـن يحيـىٰ بهـا مـن الخـدم

وابـن أمامـة وابـن سـعدىٰ تابعـه ... وحـــاتم وأبودلـــف مـــع هـــرم

تعـودت كفـه بسـط الحسـام فلـو ... أراد قبضـــه لم تعطـــه بـــل تهـــم

ســـار مســـير زحـــل في منازلـــه ... وهب كـالريح في الأراضي والأطـم

شمس بدت في أعلىٰ الأفـق سـاطعة ... أضاءت الخلق من عرب ومن عجـم

ملـوك أقطـار الأرض هـم كواكبهـا ... شــعاع أنــواره وأراهــم كــالظلم

بشـرى فقـد أنجـز الإقبـال موعـدة   بالكوكـب السـعد لم يفـل ولم يـرم
ذو المفـــــاخر أعيتــــه مـــــآثره   مـن دون أدناهـا وقفـوا عـلى العـدم

قال الحافظ **أبو راس** في **(عجائب الأسفار)** عقب هذه القصيدة: «ولما أنشدت مثلها على هذا الروي بين يدي شيخنا سيدي محمد بيرم (مفتي الحنفيَّة بتونس)، وذكرت فيها البدو كهذه، وكنت كسرت واو بدو ونوَّنته في ظنِّي أنه منقوص، فقال لي: انصبه فليس هو من الأسماء المنقوصة، فقلت له: رأيته مرَّات بالياء، فقال لي: لعلَّ الياء التي رأيتها فيه جيء بها للنسب، فتنبهت مِن الغفلة عن هذا الأمر المعلوم كانتباهي من النوم».

وقال فيه أيضا (رحمهما الله):

فقـد سـدَّ ثلـما كـان يخشـى اتسـاعه   ورقـــع خرقـــا مـــا عليـــه مزيـــد
وأصـــلح مـــا قـــد أفســـدته صروفـــه   وأذاب مـــا أثنـــى فخـــاب حســـود
وقـــوم معوجـــا مـــن الثغـــر فاســـتوى   وبلغـــه مـــا كـــان منـــه يريـــد
نفى عنه خبث الشرك والرجس والأذى   وكـــم مـــن رمـــيم عـــاد وهـــو جديـــد

... الخ

وقال فيه ـ أي الشيخ **أبو راس** ـ أيضًا القصيدة البارعة التي لما شِئتَ مِن المحاسن جامعة:

ولا كـــن أحســـن الملـــك محمـــد   دلنـــي إلى شـــعر في مدحـــه بـــارع
فسار مسـير الشـمس في كـل بلـد   وهب كـريح يجلـب الغيـث نـافع

ففاق ملوك الأرض طرًا كأنهم نجوم وهو بينها البدر طالع

فقد سادهم حلما وجودا ونجدة وبالجود والإقدام للكل جامع

... الخ

ومنها قصيدة العلامة السيد المصطفى بن عبد الله الدحاوي مؤلف (**فتح وهران**):

ولما أراد الله جبر قلوبنا وبرء ضناها من معالجة العنا

وفتحها لأبواب السعادة إذ دنت وظفرا بأكمل المبرة والمنا

ونيلا لنا بكل ما قد طلبناه ورمنا به انجاز وعد يسرنا

... الخ

وما قيل من المدح فيه حال سكناه للمعسكر، وحال فتحه لوهران، وبعد فتحه لها وسكناه بها كثير يقل حصره وتضيق به الدفاتر، وقصَّة فتحه لوهران مشهورة، أَلَّف فيها العلماء كالحافظ **أبي راس** والحافظ السيد **المصطفى بن عبد الله الدَّحاوي** وغيرهما عدة تآليف، وصنف فيها ما بين النثر والنظم، جملة تصانيف، وقد مرَّ لنا طرف من ذكرها، حسبما نتجته القريحة من بنات فكرها.

ثمَّ إنَّ الباي بنصر الرحمن السيد محمد بن عثمان لما استقل بـ(وهران) قدمه جمع لسكناها الناس من كل مكان، فبعضهم باع له الأماكن، وبعضهم أقطع له أمير المؤمنين، وثمن المبيع عمر به بيت مال المسلمين، ويوم دخوله لوهران بأهله، ومخزنه بغاية نيله، قدم أمامه العلماء والصُّلحاء، وبيدهم **صحيح الإمام البخاريِّ** تبرُّكا وتيمُّنا بفضله، فحقَّق الله رجاءه، ونشر صيته ودمَّر أعداءه، وفي اليوم الحادي والعشرين من

فتحه لها، وقيل من دخوله فيها، أمر بإلهام من الله تعالیٰ بهدم الأبراج الموالية للبر وهو (برج مرجاجو) وبرجا (رأس العين) الكبير والصغير وبرج الويز وبرج فراندو ووبرج كارلوص وأشباههم من الأبراج الموجهة للبر، ومن عادته (رحمه الله) أنه مهما أشار برأي إلا كان فيه الخير والسَّداد، وغرضه بذلك رفع الضَّرر عن المسلمين وحسما لمادة النَّصارىٰ فإن الباي أبو الشَّلاغم لما فتحها عليها أوَّلا ترك الأبراج بلا هدم، ولما رجع لها النَّصارىٰ وكان أوَّل ضرر حصل للمسلمين من تلك الأبراج، فلذلك أمر بهدمها، وبنىٰ بالموضع الذي وقف به فرسه عند الباب للمواقف مسجدا لصلاة الخمس والجمعة، ويعرف عند الناس للآن **بجامع بالناصف** ثمَّ بنىٰ في السَّنة السَّابعة والمائتين والألف قلة البرج الاحمر، فزادت له رونقة لصعودها للسَّماء مشرقة، والقلة لغة عربية موجودة في كلام شعرائهم، فمن ذلك قول مولانا علي الهدىٰ ويعرف بعلي التقىٰ بن محمد الجواد بن علي الرِّضى بن موسىٰ الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) حين سعىٰ به إلىٰ المتوكل العباسي، إنَّ عنده كتبًا وسلاحا، فأرسل المتوكِّل له جماعة من الأتراك، وهجموا عليه ليلا علىٰ غفلة، فوجدوه في بيت مغلق وعليه مدرَّعة من شعر، وهو مستقبل القبلة، يترنَّم بآيات من القرآن، في الموعد والوعيد ليس بينه وبين الأرض بساط إلا الرَّمل والحصا، فحمل علىٰ هيئته للمتوكل، والمتوكِّل يستعمل الشَّراب، وفي يده الكأس فلمَّا رآه المتوكل، أعظمه وأجلسه إلىٰ جانبه وناوله الكأس فقال: يا أمير المؤمنين ما خامر لحمي ودمي قطُّ فأعفني منه، فأعفاه. وقال: أنشدني شعرًا، فقال: إنِّي لقليل الرِّواية للشعر، فقال المتوكل: لا بد من ذلك فأنشده:

باتوا علىٰ قُلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلل

واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم فأودعوا حفرا يا بيس ما نزلوا

ناداهم صارخ من بعد ما قبروا أين الأسرة والتيجان والحلل

أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الأستار والكلل

فأصفح القبر عنهم حين سائلهم تلك الوجوه عليها الدود ينتقل

قد طال ما أكلوا دهرا وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

فبكىٰ المتوكِّل، ثمَّ أمر برفع الشَّراب، وقال: يا أبا الحسن أعليك دَين، قال: نعم أربعة آلاف دينار، فدفعها إليه وردَّه إلىٰ منزله مكرما، وكانت ولادته (رضي الله عنه) في رجب سنة أربع عشرة ومائتين، وقيل ثلاث عشرة، ووفاته لخمس بقين من جمادىٰ الأخيرة عام (254هـ) بـ(سر من رأىٰ كما مر)، ولما أكمل (رحمه الله) بناء القلة، ويقال لها أيضًا: **القنة** بالنُّون، كتب علىٰ صالة مركز جلوسه بأمامه الأبيات التي أنشدها العالم الجليل المتفنِّن الجميل، العدل الماجد، البارع الفارد، الكاتب، النَّاظم، النَّاثر، ذو المعالي والإعراب والفنون، والآداب والكرم والفضائل، والأخلاق والشَّمائل، مع الحسب الأصيل، والنَّسب والمعارف والتَّحصيل، الشَّريف الجميل، أنجب مع كل من حثوا في طلب العلم، ولجوا السيد مصطفىٰ بن عبد الله ابن دحوا مؤلف (**فتح وهران وجامع الجواهر الحسان**) وهي:

يا غافلا عن أمور زانها ذهب ولونها لجين وتمرها رطب

نورها مضيء وجودها دائم وصوتها منشد بالحسن مرتقب

اقصد إيوان أمير المؤمنين أبي عثمان تلفىٰ الخيرات كلها كوعب

بــه تشــارك مــن نــوىٰ لمقصــده   فهــو منــافع للــورىٰ فــما أرهــب

به اشتباه الزهر في صـبحتيه حكـىٰ   فكيـف بالعشـائر المقـيم صـوحب

وحكـىٰ كيـف الأهـالي بـه يتقـون   وكيـف يسـلكون بكلهـم مـذهب

فعنـد ذا خـاطبوني وابتسـامي بـدا   منه جواب عن سنوىٰ يظل المنجب

كيف انساب الأمور للواتي ارتبطت   بـرضى مـن يسـر قـدرا وينتصـب

أهكذا عقال عصرـي قـد التصـقوا   بالـذي نصـر القـدير عـلاه رحـب

اظهــر بــه كيــف الــذي ترونقــه   محبـة الصـديق عنـد الأهـلي ركـب

تجــدهم بــاختلاف في الــدعاء إلىٰ   مــن واحــد لواحــد بالنــدا رتــب

إلىٰ كــمال العطــا مــن غــير مبتخــل   لأحـــد ولعطائـــه قـــد قـــرب

وبنىٰ المدرسة العظيمة بخنق النِّطاح التي بها ضريحه، وتعرَف للآن **بالمدرسة**، وبنىٰ أيضا الجامع الأعظم المعزو للباشا حسن، وكل ما صرفه عليه هذا الأمير فمن عند الباشا المذكور (رحمهما الله)، يحكىٰ أن الباي محمد لما فتح (وهران) ثمَّ أعلم الباشا حسن بفتحها ففرح، ولما رأته زوجته فاطمة وخالتها جال به الطَّرب قالتا له كان اللائق بك لإعلام سرورك تبني بها جامعا عظيما يبقىٰ ذكرك مخلَّدا في الألسنة فعند ذلك أمر الباي محمدا ببنائه، وبعث له صندوقين مملوءين مالا، واحدا بعد واحد ليصرف ذلك علىٰ البناء، وبعث أمين البنَّائين محمد الشَّرشالي بن تدبيرت ليحضر لذلك، ولما شرع في بنائه حفر أساسه في بستان تحت البرج الأحمر، وجمعوا لمنارته حجرا ضخما أربعة أيام، أتوا به من برج الصبايحية وكان السخارة هم الذين يحملون تلك الحجارة، وقد ذكر الباي ما صرفه علىٰ الجامع مفصلا ومجملا في دفاتره، وضربنا علىٰ ذلك صفحًا وابتداءً

بنائه عام (1207هـ) السَّابع من القرن الثالث عشر، وتم في الثَّامن أو التَّاسع فاني نسيت ذلك، وكان تاريخ ذلك مكتوبا بالحجارة التي به، مع جملة الأشياء المحبسة وبنىٰ الجامع الأعظم بـ(عين البيضاء) من بلد (**المعسكر**)، وتاريخ البناء له ولمدرسته مكتوب بجانب محرابه ونسيته لطول العهد، كما بنىٰ جامع الكرط والجامع الأعظم بالبرج إلىٰ غير ذلك من شعائر الإسلام وكتب علىٰ بعض حوائط الأحمر تاريخ فتح (**وهران**) ومن فتحها وأي سلطان وباشا كان الفتح في وقته بما نصه:

الحمد لله فتحت وهران وأعادها الله للمسلمين، وخرج الكفار منها أذلة صاغرين، في سعادة المعظم، السُّلطان الأعظم، والخاقان الأفخم، الخائف من مولاه الطائع الأوَّاه، السيد سليم (نصره الله) في دولة المعظم الأرفع والهمام الأنفع، حسن باشا أيَّده الله علىٰ يد محيي الدِّين كثير الغزو والجهاد، وقامع أهل البغي والفساد، محمد باي وفَّقه الله بتاريخ يوم الاثنين الرَّابع من رجب سنة (1206هـ)، وفي كثير النَّقل خامس رجب، وربُّك أعلم بالصَّواب، وإليه المرجع والمآب، وتوفي (رحمه الله) ببلاد أصبيح حال إقباله من الجزائر سنة (1213هـ) وبقي في المملكة علىٰ ما لصاحب (**درِّ الأعيان**) وصاحب (**أنيس الغريب والمسافر**) ثماني عشرة سنة وهو سهو شديد، والصَّحيح أنَّه بقي في المملكة عشرين سنة، لما قد علمت أنه تولىٰ سنة (1192هـ) كما مر وتوفي سنة (1213هـ)، وبينهما عشرون ولما طار خبر موته لأهل (الجزائر)، بعث رؤساؤهم لابنه عثمان، وهو أكبر أولاده بالمملكة، فركب عجلا وسار حثيثا إليهم، بعدما بعث أباه لـ (وهران) وأوصىٰ بدفنه بالمدرسة بالموضع المسمىٰ بـ (**خنق النطاح**).

ولما وصل الجزائر ولي مكان أبيه تلك السَّنة، وكان للباي محمد بن عثمان ويقال له:

الباي محمد الكبير، والمجاهد والاكحل كنيَّ منها أبو عثمان وأبو علي وأبو أحمد وأبو محمد وأبو الفتوحات وأبو النصر وأبو المواهب وأبو الربيع وأبو الفتح إلى غير ذلك، وكان محبا للطلبة، ولذلك بنى لهم المدرسة، يحكى أنَّه لما رفعت له الشِّكاية بالطَّلبة، وتكرَّرت أمر بإخراجهم من (**وهران**) لينظر في ذلك فخرج الطَّلبة منها، وانصرفوا عنها، وصار ينظر في الطلبة من محلِّه، فلم ير من يلحقهم، ورأى لنساء درجن على الأسطاح وأعينهم شاخصات نحو الطلبة أسفا عليهم، فجاءه بعض آغاته وهو الأسد الضرغام، البطل الهمام، الشهم الكامل، الجواد العاقل، الكمي الباسل الشجاع الفاضل، مبدد الأعداء، وفاصل الدَّعاوي، آغة السيِّد قدور الكبير بن إسماعيل البحثاوي، وقال له لا يليق بك ولا بنا طرد الطلبة لأنهم يدعون ربَّهم بالغدوة والعشيِّ، وإنَّما اللَّائق من فعل ذنبا يستحق به العقاب، عوقب ومن لا فلا، والذين اشتكوا لك بهم، يحفظون أهلهم من الإذاية، التي ادعوها دون إثبات، فقبِل منه وأمر بردِّهم لمحلِّهم، فرجعوا ولما استقرُّوا بمواضعهم ذهب لهم على فرسه بشواشه، ولما وصلهم، دفع لهم مالا كثيرا زيادة، وقال لهم أيُّها الطلبة اشتغلوا بالقراءة وكفُّوا أنفسكم عن إذاية النَّاس، فما في المدينة من يحبكم إلا أنا وآغة الفلاني والنساء، قال في (**در الأعيان في أخبار وهران**) و(**أنيس الغريب والمسافر، في ظريف الحكايات والنوادر**): وحدث بأوَّل مملكته بالمعسكر مسغبة عظيمة، هلك بها أناس كثيرون، إلى أن أكلت فيها الميتة والدم ولحم الإنسان والخنزير، والعياذ بالله من ذلك، ثمَّ حدث الطَّاعون الذي لم يحدث في هذا الإقليم قبله قط، فمات به جلُّ النَّاس بدوًا وحضرًا، آل الأمر فيه إلى أن انتقل أهل الحضر، والباي بأهله ومخزنه، إلى البدو في خيام الشَّعر ظاعنين، ظعون الأعراب

البادية، زمانًا طويلا، وقد جعل الباي خيمةً حمراء من الوبر، وأدار بها الزَّمالة ثمَّ الدَّوائر، فسمِّي العام بعام الخيمة الحمراء، ثم حدثت الزَّلزلة العظيمة، التي لم تحدث قبل ذلك، واشتدَّت بـ(وهران) أكثر من غيرها، إلى أن سقط بها الدُّور والأبراج على أمم من النَّصارى فأُهلكوا بذلك، إلى أن اتَّخذ النَّصارى بيوتا من اللَّوح، قيل وتلك الزَّلزلة هي سبب فتحها ـ كما مرَّ ـ.

ثامن عشرينهم: عثمان بن محمد بن عثمان بن إبراهيم تولى سنة (1213هـ) بعد موت أبيه بأيام قلائل، وبقي في الملك ثلاث سنين غير شيء، ولما تولى نقل دار الحكم إلى القصبة التي بأعلى البلانصة من (وهران)، واشتغل ببناء المعالم المرونقة، والغرف المزوَّقة، والقصور المشيَّدة، والأساطين المعدَّدة، وغرس الأشجار ذات الفواكه الطيبة المختلفة، وأجرى المياه في القوارير المؤتلفة، وأعرض عن المملكة باللُّبِّ والقلب، وأقبل على اللَّهو والطَّرب، فانهمك فيه انهماك بعض ملوك العرب، وكان مجلسه لا يخلو من الأدباء الظُّرفاء، والسادات الأعيان الشُّرفاء، ولم يلتفت لما كلفه الله به من أمور الرَّعية، بل جعل ذلك نِسيا منسيا بالكلية، وكان من جملة ندمائه حقًا، وأظرفهم خَلقا وخُلُقا، الفقيه اللَّبيب، الكعب الأريب، الآخذ من كل علم أوفر نصيب، الحائز للأدب بالكمال المرعيِّ السيد **محمد بن الجيلالي الخرُّوبي القلعي**، واتخذ مجلسا للخُلوة باحتكام، فلا يخرج منه إلا بعد أيَّام، وصرف أمر رعيته إلى أرباب دولته، فانتفعوا نفعا كثيرا، ونالوا مالا غزيرا، ولا يلتفت لهم في تذكر وسهو لما شغف به من أمر اللَّهو، فجاءه يوما بعض قواده للمحاسبة على ما بيديه، فطرده وقال له إنّ المحاسب هو الله، وبين يديه ارجع إلى سبيلك وأمرِك فإنِّي لست ملتفتا لما بيدك ويد غيرك، ودام على ذلك إلى أن أدَّاه

حاله إلى العزل، ورجعه أمره من السمن إلى الهزل، وذاك أنه بعث مع بعض التُّجار إلى تونس مالاً يشتري به بعض الجواري المغنيات، فأتاه بجاريتين بارعتي الجمال والغناء تذهبان عن القلب النصب والعناء، فتسلَّى بهما أيَّاما وليالي ولغيرهما محاشا، إلى أن بلغ خبره بـ (**الجزائر**) للباشا فغضب لذلك غضبا شديدا، وعزله، ونهب ماله، وسمَّر داره، وكبَّله قيدا حديدا، ونقله إلى (**البليدة**) على غير الحالة المرضيَّة، فنزلها بأهله، وولده وحشمه، نزلته الكلية، إلى أن تولى بايا بقسنطينة، وحاله يتشوش، إلى أن قام عليه ثائرا ابن الاحرش فتى مغربي مالكي مذهبًا، درقاوي طريقةً درعي نسبًا، جاء لتلك القبائل وادعى أنَّه الإمام المهدي المنتظر، وكان صاحب شعوذة وحيل وخبر، فرأت منه النَّاس العجائب، وأظهر لهم الأمور الغرائب، التي هي قلب العين، لا حقيقة لها دون مين، فنصروه وعقدوا له البيعة حزبا حزبا، وجندوا معه وأمره كذبا، فحرك بهم قسنطينة، وحاصرها يوما كاملا، وكان الباي خارجا عنها لقضاء شؤونه فأتاه عاجلا، فألفاه هزم وأصيب بالرصاص في فخذه فكسرت، لكن حاله لا زالت مجتمعا غير متشتت فبات بداره ومن الغد خرج لطلبه، وهو بوادي الزهور، فلحقه هناك، وأثخن فيهم بالقتل والسبي، والأسر، والحرق، أمنه من شوكتهم الغرور، وقد ترك وراءه معقلا صعبا ومضيقا وعرا، وكان أمره منشورا، ففر القبائل للمعقل، وأجروا فيه الماء وداروا بعسكره من كل جانب دحورا، واشتد القتال وحمي الوطيس وكبر النهار فهزم الباي هزيمة شنيعة، وولى الأدبار فوجد المعقل على غير ما تركه، فحل به المكر بالقتل والأسر والكسر والسبي إلى أن كب به فرسه في الطِّين وشركه فقتل هنالك، وفرح ابن الأحرش بذلك. قال صاحب (**درّ الأعيان**): «وحدث في أيَّامه الطَّاعون الذي ذهب قبله فمات

الجلُّ من النَّاس والعلماء، كالعلامة الإمام والفهامة الهمام الشيخ سيدي عبد القادر بن السَّنوسي ابن دح بن زرفة، وأخيه الفقيه السيد الهاشمي، وابن عمهما الفقيه الأديب الألمعي صاحب تأليف **(فتح وهران)** السيد المصطفى بن عبد الله وغيرهم، وظهر الجراد الكثير فأفسد الزَّرع والثِّمار فسادًا عظيمًا».

تاسع عشرينهم: الحاج مصطفى بن عبد الله العجمي تولَّى سنة (1215هـ)، وكان عاقلا جبانا هاجت في أيامه عامة درقاوة، فكانت عليه نحسًا وشقاوة، وفي السنة الثانية من ولايته وهي سنة (1216هـ) غزا أهل انقاد فهزموه هزيمة عظيمة، مات فيها رؤساء مخزنه، وأسروا وسلبوا، وهي أوَّل واقعة وقعت في المخزن، فدخله بها الوهن، وكثر طمع الرعايا في سبب ذلك، وقد مس المخزن بعض الجبن والكسل من ذلك، لا سيما إذا كان الأمير جبانا خولا، فلم يزدهم إلا جبنا وكسلا، وقد أشار عليه بعض الأولياء بقوله:

سـيأتي الحـاج مصـطفى العصـي   هو فوق الكرسي والناس تعصـي

وسبب قيام السيد عبد القادر بن الشريف من أولاد سيدي بالليل الكساني قاطن وادي العبد، أنه لما ذهب للمغرب ببني زروال عند السيد محمد العربي بن أحمد البوبريجي الدرقاوي، وأخذ عنه الذكر، قال له: يا سيدي إن بوطننا قوما يقال لهم: الترك، لا شيء لهم من دعائم الإسلام، ويظلمون الناس، ولا يعبؤون بالعلماء والأولياء، نسأل منك أن يكون هلاكهم على يدي، لتستريح منهم العباد، وتطهر منهم البلاد، فقال له: عليك بجهادهم وقتالهم، وإن الله ينصرك عليهم بكمالهم، فظن أن تلك القولة هي عين النصرة وأنه أدرك لا محالة فخره، وكان أخذه ذلك أستاذا يقرئ الطلبة

القرآن ويعز أهله، ولما أخذ عنه ذلك، أجازه في إعطائه للناس، فرجع لبلده وترك تعليم القرآن للطلبة ولبس المرقعة، وركب الكلخ، وعلق الببوش والقرون معه، ولذلك قال فيه فصيح البرجية وهو امساهل في ملحونه:

لا مـــن جـــاب اخبـــار الخـــير كداروا للـدرقاوي انهـار النطحـا

دايـــــر ملبـــــوش ازريــــــر وايحمش فوق العكاز باني الطرحا

وابتدع أمورا يمجها الطبع، وينكرها الشرع، واقتدى به كثير من الناس، وأخذوا عنه عامة خصوصا أهل الصحراء، وبقي هو وأصحابه على ذلك ينتمون إلى التصوف والصلاح، فسيقت إليه الهدايا من كل فج، وظهر صيته بين أظهر الأعراب، فدعا أهل الصحراء للبيعة، كالأحرار وغيرهم، فأجابوهم لذلك، وأقام بالأحرار يأمر وينهى فسمع به الباي مصطفى، فجهز له جيشا عظيما وقصده به، فابن الشريف هابط للباي وهو صاعد له، إلى أن تلاقيا بفرطاسة، بين وادي مينا، ووادي العبد، وشعلت نار الحرب بينهما، وحمي الوطيس، فانهزم الباي بجيشه، وأخذ ابن الشريف بجيشه أدبارهم يقتلون ويؤسرون ويسبون إلى قرب المعسكر، وبقيت محلة الباي بما فيها غنيمة للدرقاوي، فصار الباي في نكد، والدرقاوي في رغد، ودخل الباي للمعسكر على غير الحالة المعهودة، وعساكره خلفه مطرودة، قال صاحب (در الأعيان): وكان ذلك يوم الأحد ثامن ربيع الأول سنة (1219هـ)، وقال غيره: كان ذلك يوم الأحد ثالث ربيع الأول سنة (1219هـ)، ثم خرج الباي من المعسكر عشية اليوم الثاني ورجع لوهران فدخلها في فله، فاجتمع عليه أعيان مملكته من المخزن، وسهلوا عليه الأمر، وهونوا عليه المصيبة، وقالوا له: لا تجزع من الدرقاوي وأعرابه وجيوشه وأصحابه، فنحن

سيوفك الماضية، ورماحك النافذة القاضية، وشجعانك الداهية، وفرسانك الضاربة الدامية، فإن كان الأمر من الله، فلا يليق إلا التسليم والرضى بما قضاه الحكيم العليم، وإلا فلا ترىٰ إلا ما يسرنا ويسرك إن شاء الله بغير خلق، ألم تعلم أننا فحول هذه البلاد وأبطالها نتوارث ذلك خَلَفًا عن سَلَفٍ قال الشاعر:

إذا قالــت حــذامي فصــدقوها   فــإن القــول مــا قالــت حــذامي

وننكر إن شئنا علىٰ النـاس قـولهم   ولا ينكـرون القـول حـين نقـول

فعند ذلك اتفق أمرهم تحصين البلد، وإقامة آلة الحرب، وما يؤول إليه الحصار.

قال في (**در الأعيان**): «ثم إن الدرقاوي لما استولىٰ علىٰ المحلة، وعز جانبه، كتب للرعايا بالبشائر يقول لهم: قد نزعنا عنك مظلم الترك، والذل والمسكنة، والمغارم والمكوس، فالواجب عليكم مبايعتنا، فوافقه جم غفير، وخلق كثير، فاجتمع عنده ضحىٰ يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الأول تلك السنة ما لا يحصىٰ عده، ولا يستطاع دفعه ورده، فمر بغريس الشرقي، وسمع امرأة تنادي أخرىٰ باسمها وكان اسمها تركية، فأنف من ذلك، وأبدل اسمها بعربية، ثم دخل المعسكر وأطاعوه، محبة أو كرها بايعوه، فصيَّرها دار سكناه، وجمع بها أهله وولده وخاصته، واتخذها محل مثواه، وهزم خليفة الباي **مصطفى** وهو حسن ببلاد **امجاهر**، في ربيع الثاني من تلك السنة هزيمة شنيعة.

ثم خرج **ابن الشريف** منها بجيوش كالجرذان، تملا الخراب والعمران، قاصدا بها فتح وهران، ولما حل بسيق بأرض الغرابة، ذهب بعضهم لجبالها، وبعضهم دخل بغيط الجيزة، التي هي طريقة فأوقع بهم إيقاعا عظيما، قتلا، وسبيا، وأسرا حتىٰ عرف الموضع

الذي حل به ذلك للآن، بـ(**شعبة النواح**)، لكثرة نوح الناس بالبكاء على أنفسهم وأهلهم، وصارت جنوده ما تمر بموضع الا وتركته وحشا مهانا، ووجهه وخشا، وكان قدومه لوهران في إبان الحصاد، فسارت إليه وأطاعته جميع العباد، لا عربي ولا مخزني، ولا شريف القدر ولا دني، مخافة على زرعهم وضرعهم، كما ذلك عادة الجنود السلطانية، المتوجة بالتيجان الشيطانية، فلم ينفع ذلك من دخل في طاعته، وقد سلط على مزارع المخزن أتباعه في بضاعته، فحرقوا، ونهبوا، وقتلوا، وأسروا، وكذبوا، ورجع المستغيث بهم كالمستغيث في الرمضاء بالنار، والسفينة في القِفار، قال الشاعر:

فالمستغيث بسيفه في كربة كالمستغيث في الرمضاء بالنار

ثم ارتحل ونزل ضواحي **وهران** بقربها، وصبحها بجنوده الجراد المنتشر، طامعا في دخولها لضعف أهلها، فلاقته أهلها وقاتلوه قتالا شديدا، وهم أقل عددا منه، فكان النصر لهم عليه، وهزموه بجنوده، و﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ (البقرة: 249)، وصار يومهم باكورة سعدهم ونجحهم، وعلامة ظفرهم وربحهم، فما من يوم بعده حاربوه إلا كان لهم النصر والظفر، والمهابة والنصرة تجري على القدر، ولازالت الحروب بينهم وبينه شديدة، والمكايد بينهما مديدة، وانسدت السَّبل البرية بين (**وهران**) و(**الجزائر**) أياما، وإذا بالسفن مع البحر تخفق بها أعلاما، مشحونة بعساكر الأتراك الشداد، تحت حكم باي آخر على حسب ما يراد، قال في (**در الأعيان**): وقد مات يوم فرطاسة من المخزن خلق كثير، ومات كاتبا الباي العالم العلامة السيد الحاج **أحمد بن هطال التلمساني**، والعالم الأديب السيد **أبو عبد الله محمد الغزلاوي**. وفي ذلك يقول العلامة السيد **حسن خوجة** التركي مؤلف (**درُّ الأعيان في**

أخبار وهران) هذه الأبيات:

فرطاسة يومها ترى الجنود به ما بين قتلى وأسرى غير ناجينا

فالباي جاء بجيش لا نفاد له به يريد لقاء العدو باغينا

فلم يحقق له سعي ولا أمل بل جاء جنده صفر الكف باكينا

فاليوم لابن الشريف عز فيه على باي الأعاجم لولا الدين دينا

ثلاثونهم[1]: محمد بن محمد بن عثمان لقبه **المقلش**، كان انتقل مع أخيه عثمان إلى البليدة كما مر، وأقام بها إلى أن أقام ابن الشريف الدرقاوي على مصطفى بن عبد الله المار وحاصره بـ (وهران)، ولما رأى أهل الجزائر عجزه عن دفاع العدو، عزلوه هو وخليفته حسن وولوه مكانه، لرياسته وشجاعته، وسعادة الوطن بولاية العثمانية، تولى سنة (1220هـ) وهو ابن ثماني عشرة سنة على ما قيل، وقيل غير ذلك، وبقي في المملكة ثلاث سنين غير شيء، وكان من خبره أنه لما قدم وهران وجد **الدرقاوي** محاصرا لها والناس في أشد ضيق من طول الحصار، وقلة القوت البري، لما استولى على الضواحي العدو، ووجد أبواب المدينة الخمس كلها مغلوقة، ولا من يدخل من الضواحي ولا من يخرج إلا بالإذن، فأمر بفتح الأبواب ونادى المنادي من قبله: أيها الناس من أراد الدخول فليدخل، ومن أراد الخروج فليخرج، ولا حرج على أحد، فتفسح الناس وانفرج المضيق، وأمنت من حينه الطريق، وهبت رياح النصر وخفقت أعلامه، وضاق متسع العدو، وأظلمت لياليه وأيامه، وصار الحرب لأهل وهران عيدا، وعدوهم بين أيديهم صيدا، فكان قدوم هذا الباي عليهم سعدا، وملاقاتهم إياه فوزا ومجدا، قال

(1) كذا في الأصل.

الشاعر:

بشرىٰ فقد أنجز الإقبال ما وعـدا وكوكب المجد في أفق السما صعدا

ثم إن **الدَّرقاوي** صار يعد جنوده كل يوم بفتح وهران، وهو مستحوذ عليه الشيطان، ويمنيهم بالأماني الكاذبة، ويطمعهم بأقواله الجالبة، ويعدهم المواعيد العرقوبية، ويقاولهم بالأقاويل المكذوبية، إلىٰ أن جاءه شيخه من المغرب، وحضر للمقاتلة وشدة الحرب، مع جيش تلميذه فرأىٰ بالعيان، ما لا يقدر عليه بكلمة البهتان، فأطرق برأسه إطراق مغلوب حيران، لا يملك شيئا من شيء قدره المالك الديان، بعد أن أمرهم بحمل الشواقير والفيسان، وأنهم في يومهم يدخلون وهران، ويصيرونها بالهدم والتخريب مغارات الفيران، فباؤوا شرذمة بغضت من الله، إلا أن الجاهل كل الجهل من أراد أن يحدث في الوقت ما لم يحدثه الله، عالم الغيب والشهادة، ومقدر الشقاوة والسعادة، وحدثني المسن آغة الغرابة الحاج عبد القادر بن ونان[1] بأنَّه سمع من أبيه القايد بلقاسم بن ونان مشافهة أنه قال له: كنت قايدا علىٰ الغرابة وقت ابن الشريف تحت الأتراك، ولما قدم لبلدنا خشيت علىٰ أهلي وقرابتي ومن كان قريبا لي، فسرت له بعد أن نزل أهلي بأعلىٰ الجبل المجاور لي في موضع يقال له: أحواض السماء، ثم ركبت معه وقدمنا لوهران، ولما وصلنا للكرمة ودام القتال بيننا وبين أهل (وهران) رأيت في بعض الأيام رِجله خارجةً من الركاب، وهي ترتعد شديدا حتىٰ يرتعد لها جميع جسده، وكان رجلا جسيما، غليظ القوائم، طويل القامة، متسع الوجه، مدوره

(1) **الحاج عبد القادر بن ونان**: من أسرة توارثت قيادة قبيلة الغرابة المذكورة في ص 143، ولازال كثير من أفرادها بمقر الأسرة.

شديد البياض، كثيف اللحية طويلها فقربت منه، وقلت له: ما هذا الجزع الذي بك حتىٰ اعتراك الارتعاد ... فقال لي: «يا خالي بالقاسم، والله لقد ذهب جميع ما عندي من السر الذي جئت به، وأنا اليوم خاوي كالجعبة، من جملة أرذال الناس»، فقلت له: «إن شيخك عن قريب يكون عندك، وتنصر علىٰ غيرك»، فقال لي: «لما ذهب سري والله لا يفيدني في هذا الوقت شيء، لا شيخي ولا غيره»، قال: ولما جاء شيخه، تزاحمت الناس علىٰ لقائه، وفرحوا بالظفر، والاستيلاء علىٰ وهران، ولما نزل قال لهم: عليكم بالفيسان وغيرها لتخريب وهران غدا، ولما بات سمع الأذان واعتكاف الناس علىٰ العبادة في المدينة، ورأىٰ جيوش ابن الشريف فيها فساد كثير، قال له سيدي عبدالقادر بن الشريف: إنك قلت لي: إن الترك ومن تبعهم نصارىٰ ولا يصومون، ولا يصلون وليس لهم من الدعائم الشرعية شيئا، وسألت مني الإذن في جهادهم فأذنت لك، وإني لما رأيتهم وجدتهم أشد إيمانا وعبادة مني ومنك وأتباعك، وإن أتباعك هم المفسدون في الأرض، فلا شك أن الجهاد فيك وفي قومك جائز، لا في أهل (وهران)، ولا شك أن الدائرة عليك لا لك، وإني أرىٰ القتال في هذا اليوم، وهو الفراق بيني وبينك، وإني بريء مما أنت مرتكبه. فعند ذلك أيقن درقاوة من أنفسهم بالعجز والخذلان وأيسوا بحمد الله من فتح (وهران).

قال في (**در الأعيان**): «﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (المجادلة:19)، ألا إن أهل وهران هم حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون»، قال: «فاتفق رأيهم علىٰ الارتحال عنها لحصنها، والذهاب لغيرها، فأصبحوا ظاعنين رائمين مدائن المشرق، وكان بالغرابة ولي من أولياء الله

الكاملين، يقال له: السيد عبد القادر بن أبي عمامة، تلميذ الضرير السيد محمد بن أبي دية، وكان هذا الولي مأذونا له في الكلام بأمور الكشف، كشيخه، ويسكن في عبادته بغابة مولاي إسماعيل، ولما رجع الدرقاوي من وهران مشرقا، صار يقول: "يا سيدي داود، غير هذه ولا تعاود، يا سيدي مبارك، نوض الجمل الحارك". وقبل قدوم ابن الشريف لبلاد الغرابة كان يقول: "مزينكم يا أحواض السماء لو كان فيكم الماء".

ولما وصل ابن الشريف قرب سيدي داود مشرقا قام عليه الغرابة، فنالوا منه بعض الشيء من المال وغيره، وابتدأ في النقص، ثم لما وصل لسيدي مبارك [1] لقيتهم فرسان **البرجية** مع ما انضمَّ إليهم، فتعرَّضوا إليهم وهم سائرون، وتكلم المدفع الرباني من سيدي مبارك، سمعه من كان غائبا، وشاهده خارجا من القبة من كان حاضرا، ولا زالت طاقة من حيث خرج بسيدي مبارك للآن، فنصرهم الله على درقاوة، وهزموهم هزيمة شنيعة، وأخذوا بظهورهم وأدبارهم، ووضعوا السيف والبارود في أخيارهم وأشرارهم، فكان ذلك اليوم عظيما على درقاوة، قتل فيه من قتل، وجرح من جرح، وأسر من أسر، وغنم الحاضرون لهم كالبرجية وبني شقران منهم غنائم كثيرة، لم يفتقر بعضهم بعدها قط.

فلله در فرسان البرجية ومن انضم إليهم لقد أشفوا العليل، وأبردوا الغليل، وذهب الدرقاوي مفلولا في شرذمة قليلة، قاصدا دخول المعسكر لأهله ووخاصته، فمنعه المعسكريون من الدخول لبلدهم، وأطردوه عنها، وتمكنوا من أهله وأولاده، وجميع درقاوة الذين بها، ومكنوهم من السيد الحاج محمد بالحضري بن إسماعيل

(1) ضريح سيدي مبارك مشهور شرقي مدينة المحمدية (وهران).

البحثاوي، لأنه كان هناك مسافرا فتقبض عليه الدرقاوي وقواد آخرين وسجنهم، ولما وقع به ذلك بسيدي مبارك، نهض إليهم المعسكريون وأخرجوهم من السجن، وخلوا سبيلهم، ومكنوهم من أسلحتهم وفوضوا إلى بلحضري فصار حاكما عليهم وأميرا، بعد أن كان في السجن أسيرا، ولما خلص من أسره قبض على جميع درقاوة الذين بها، فمنهم من قتله، ومنهم من أسره ومنهم من جرحه، والمرء يدان بما دان، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: 140). وقال ﷺ: «يوم لك ويوم عليك»، وقالت العرب: «يوم سمين ويوم هزيل»، وقال الشَّاعر من الطويل:

ثمانيــة تجــري عــلى المــرء كلهــا   وكل امــرئ لابـد يلقـى الثمانيـة
سرور وحــزن واجــتماع وفرقــة   ويسر وعسـر ثـم سـقم وعافيـة

ثمَّ إنَّ الباي لما بلغه الخبر بتشتيت شمل **الدَّرقاوي** نهض من ساعته، وجمع أرباب دولته، وأمرهم بالخروج لطلب عدوِّه، وفتح ما تيسَّر له من البلدان. فقال له وزراؤه لأهل الضَّواحي من المخزن بالقدوم، ولا تعاقب أحدا بما فعل لأنهم لم يروا ذلك سابقا، وظنوا عند الرؤية أن لا تقوم لنا قائمة، فأساء الله ظنَّهم. فقال لهم رأيكم هو عين الصَّواب وهو الذي يقع به الكتاب، وأمر كاتبه بمُكاتبة ما أشار به أعيان المخزن، ثم بعث للمعسكريين ليأتوه بنساء الدرقاوي، وأولاده، وذخائره، ولما وصلهم ذلك خرجوا بنساء ابن الشريف، وأولاده، وقدموا بهم على الباي بوهران، فأركبهم من حينهم في الفلك، وبعثهم إلى الجزائر، وطارت إلى كل مكان صحائف البشائر، ثم خرج نحو المعسكر فنزل بلد البرجية ومعه خليفته أخوه أحمد، وأقام بها أياما ينتظر الأخبار، فبينما هو كذلك، إذ جاءه الخبر بأن الدرقاوي جمع جموعا كثيرة من قبائل

الصحراء، بموافقة بني عامر والمجاهر، وأن المجاهر عزموا على الغارة على الباي، فتحير وضاق به المتسع ونادى نديمه الأديب، وصاحبه الحبيب، السيد محمد بن الجيلاني[1] وأخبره بالحال، فقال له اجمع أعيان مخزنك واستشرهم في ذلك، فإن الرأي هم أهله، والحرب هم أصله، فأحضرهم وأخبرهم بالخبر، فاختلف أمرهم في الرأي، فبعضهم رأى الرجوع لوهران أحسن، وبعضهم رأى غير ذلك، إلى أن سمع رأي الجميع، وكان الفارس الهمام والأسد الضرغام، والبطل الشجاع، والصنديد المطاع، من أسعد الله به البلاد، وأقامه لنفوذ مصالح العباد، القايد الأنجد، والفاضل الأمجد، والجواد الأسعد، السيد قدور بن إسماعيل البحثاوي آغة[2]، مكن الله من الجنة إن شاء وصله وبلاغه، حاضرا ساكتا، وعارفا بالرأي وصامتا، فلما رأى ذلك الاختلاف، وعدم ما يحصل به الائتلاف، قال له سيدي الذي أشير به عليك لابد من لقاء العدو ولا محالة، ولا تضرنا كثرته فإنه حثالة الحثالة، بمنزلة الضباب والنخالة، ولا يبلغ المجد إلا بالصبر، ولا يحصل الظفر بالعدو إلا بعد أكل الصبر والمر، قال الشاعر:

لا تحسب المجد شهدا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

والحكماء يقولون: فاز باللذة الجسور، وبالنصر يتميز الأمير من المأمور، ومن طلب المعالي سهر الليالي، وأنت أيها الملك إنما بعثك أهل الجزائر لتفتتح لهم البلاد، وتدوخ

---

(1) **محمد بن الجيلاني الخروبي**: من أسرة علمية توارث أفرادها القضاء بقلعة بني راشد في عهد الأتراك.

(2) **قدور بن إسماعيل البحثاوي**: هو والد أو أخو الجنرال مصطفى بن إسماعيل قائد الجيش التركي المعروف بالمخزن، ثم انضم إلى الفرنسيين وحارب في صفوفهم رغم كبر سنه (80سنة) وقتله المجاهدون ببلاد فليتة قرب غيليزان.

لهم الأبطال الشداد، فلا تخيب لهم ظنا أصابوه فيك، ولا تكسر لهم قلبا يسر حين يوافيك، فإنهم على غيرك اختاروك، وأنت أولى بذلك لما اختاروك، واياك أن تكون كمن بأول غزواته انكسرت قناته، وانفصمت أوثق عرواته، حتى تكالبت عليه العدا، وطمعت في أكله الحدا ـ وأنَّ الأعراب لا يخفى علينا حالهم وما لديهم، كما لا يخفى حالنا عليهم، فلا رجوع لنا عن تدويخهم، إلا إذا متنا عن آخرنا، والرَّأي أن تبعث من أعيان المخزن من يكشف لنا عن حال (**بني عامر**) وما هم عليه، ويأتوك بالخبر الصَّحيح كما تبعث لكبراء الحشم، ورؤسائهم، والبرجية الجبلية، يجتمعون بكلهم ويلقون الدرقاوي، ونحن نكون في مقابلة **امجاهر**، ونحارب بحول الله وقوته كل واحد وحده، ويكون النصر لنا لا علينا، لأننا نريد الصلاح وهم يريدون الفساد، فهم فرقة باغية في ظاهر الأمر، فوقع الاتفاق على هذا الأمر.

قال فظهر كذب أمر بني عامر واجتمع الحشم والبرجية كما أمرهم، ولقوا الدرقاويَّ وهزموه بعد حروب كثيرة، وطردوه عن تلك النَّواحي، وقدم مجاهر إلى بلد (**البرجية**) فأثخنوا فيها، وصاروا ينقلون الزَّرع من المطامير، وأكثروا من الحوص، ولما بلغ ذلك الباي أمر المخزن بالركوب إليهم فامتثلوا قوله، وشنُّوا الغارة عليهم، فلم يكن إلا قليل وإذا بالمخزن قطع منهم نحو التِّسعين رأسًا، وفرَّ الباقون إلى حللهم، ثمَّ رحل الباي في صبيحة الغد ونزل بطرف (**البرجية**) في الحدِّ بينهم وبين (**امجاهر**) ثمَّ رحل بعد الغد إلى مجاهر فلقوه بالضريوة وحاربوه ساعة فهزمهم، بعد أن مات من الفريقين خلق كثير، ونزل بماسرة وأقام أيَّاما، واذا بـ (**مجاهر**) قد اجتمعوا وغاروا على محلة الباي وقت الصَّباح غفلةً، ودارت جنودهم بـ (**المحلة**)، فخرج المخزن إليهم

وتراجعوا، فما لبث (**المجاهر**) غير ساعة إلا وانهزموا، وولَّوا الأدبار بعد ما مات من الفريقين خلق كثير، وكان من جملة من مات من المخزن القايد المشهور، والفارس المذكور، الصِّنديد الأمين، السيِّد عدَّة بن الحاج محيي الدِّين، ثمَّ ارتحل في صبيحة غد ونزل بلاد (**المجاهر**) وزاد في الغد إلىٰ (**وادي مينا**) فهناك أتته جموع مخزن الشَّرق بالمسيرة، ومن الرَّعايا بني أوراغ، ثمَّ ارتحل وصعد مع وادي مينا إلىٰ أن نزل بوادي المالح، وأقام به أيَّاما، وإذا بالدَّرقاوي جمع جمعا أيضًا وقصد به (**المحلة**) علىٰ غفلة من النَّاس فنادىٰ المنادي: «الرّكاب، الرّكاب» ففزعت النَّاس لذلك، وركبوا خيلهم، وخرجوا من المحلَّة، فلم يكن إلا هُنَيْئَة، وإذا بالدرقاوي بجيوشه قائم شارد، وللنَّجاة سائل ناشد، وأظلم الغبار، وكبر النهار، وغصبت فرسان المخزن وصارت كأنها الطيور، تخوض بين أسراب الزرزور، فلا ترىٰ في جيش الدرقاوي إلا القتيل والمأسور، والمسلوب من اللباس، والمقطوع الأعضاء والرأس وزادوا عليهم إلىٰ قرب قرية الولي الكبير، القطب الشهير، ذي المناقب المعدودة، سيدي محمد بن عودة، فرجع المخزن عنهم، ثمَّ رحل الباي في صبيحة غد متوجِّها للقرية المذكورة، في طلب الدرقاوي، ونزل بموضع هنالك، ثمَّ زحف إلىٰ القرية بجنود لا قبل لهم بها، وكان بالقرية أمم كثيرة، فلم تفد شيئا، ودخلتها العساكر، وجالوا فيها وجاسوا خلالها، وأخذوا في القتل والسَّبي والأموال.

قال مؤلف (**در الأعيان في أخبار وهران**): «وإنِّي رأيت امرأة قُطع رأسها كسائر الرِّجال، ولم ينج إلا من فرَّ بنفسه أو لجأ إلىٰ ضريح الولي سيدي محمد بن عودة (أدركَنا الله برضاه دنيا وأخرىٰ)، لأنَّ الباي أوصىٰ بحرمته وعدم التَّعرُّض لمن لجأ إليه، قال:

وركزت الأتراك سناجقها لدىٰ الضريح، وشرعت في القتل والنهب، إلىٰ أن فرغت من ذلك، فرجعت لزيارة الولي المذكور، قال: ولقد أخبرني من أثق به أنَّهم قدّموا قبل الزيارة صدقة تنيف علىٰ المائتي ريال دراهم. هذا ما كان من خبر الأتراك.

وأمَّا ما كان من خبر أعيان المخزن، فإنهم لاقوا جموع درقاوة خارجًا من القرية، فقاتلوهم قتالا شديدا، إلىٰ أن جرح أكثرهم، من كبرائهم ورؤسائهم، وكان النَّصر لهم علىٰ درقاوة فهزموهم هزيمة عظيمة، وأطردوهم من تلك النَّاحية، وافترق الحرب فأمر الباي بجمع الرُّؤوس فجمعت.

قال مؤلف (**درّ الأعيان**): «ولقد رأيت الجندي يأتي بثلاثة رؤوس أو أربعة ويضعها بين يدي الباي كما يضع البصل في الإهانة، ولما جمعت الرُّؤوس بعثها الباي للمعسكر مع بشائر الظَّفر والنصر، ثمَّ ارتحل في إثر ذلك قاصدا المعسكر إلىٰ أن دخلها وأقام بها أيَّاما، ثمَّ أتاه الخبر بأنَّ خليفة الدَّرقاوي جمع جمعا ونزل به بلد بني مريانن، فذهب الباي لطلبه، وقد أوتي له في بعض الأيام بفرس الخليفة المذكور وسلاحِه ولباسه، بعد أن جرح في تلك الواقعة التي ببلد بني مريان من أعيان الجند قطبُ رحاه، وشمس ضحاه، الفارس الباسل الصنديد الفاضل، العاري من جميع المساوي، المكرَّم آغة السيد **قدور بن إسماعيل البحثاوي** فلم يزده جرحه إلا تقدُّما، ولعدوُّه تعبُّسا ولصديقه تبسُّما، وإنه صال علىٰ العدوِّ صولة الأسد الهايج، ففعل العدو كأسد وفعله رابح وقد مدحه مؤلف (**درّ الأعيان**) بأبيات غاب عني حفظُها، وقال فيه بعض الفضلاء هذه الأبيات من الطَّويل:

جــزىٰ الله جــلَّ النَّــاصر بــالبواتر قــدُّور بــن إســماعيل راس الــدَّوائر

لحزب الأتراك في جميع المعارك   فإنَّه ليثُ الحرب ليس بقادر

تراه إذا حمي الوطيس مقدما   لقتل العدو الوارد ثمَّ الصادر

ولا يولِّي الأدبار ولو تراكمت   عليه العدا ولا يخاف من ضائر

كميٌّ شجاع شهم الحرب يوم الوغىٰ   وكم له من حزم علىٰ العدا ظاهر

وكم له من كرٍّ وليس له فر   وكم له من طعن وقطع الحناجر

وكم له من صول علىٰ العدا دائم   وكم له من فخر علىٰ كلِّ فاخر

وكم له من دفع لكلِّ مزاحف   يردُّه أعقابا مولىٰ بالأدابر

وفي بني مريانن زادت شجاعتُه   فكرَّ علىٰ الأعدا بغيظ مواتر

وزاد اندفاعا لما رأىٰ رأس العدا   خليفة ابن الشَّريف بالقرب جائر

يحاول قبضه وهو في شهامة   فحلت به الجراح ذي العزِّ الباهر

فلم يلتفت لها وزاد في حمله   إلىٰ أن نجا العدوُّ بين الحوافر

وخل فرسه سلاحه لبسه   فأتىٰ به اللَّيث لباي المفاخر

ودمه مهطل وهو غير جازعِ   فغم له الباي وصار كالحائر

فقال له بِعهَّد علىٰ رؤوس الملا   إنني لفي خير من كل المضائر

فسرَّ به الباي وعزَّ جنابه   وأدناه منزلا في كلِّ الأوامر

فلا غرو أنَّ الله زاده رفعة   وخيرًا واحسانًا وكل البشائر

فلا تلد اللُّيوث إلا الضّراغم   ولا تلد الفهود سوىٰ القصاور

ولا تأتي الصقور إلا بمثلها   ولا تلد البزاة سوىٰ الأصاغر

فبيت هذا اللَّيث الزَّعيم بقوة   فإنّها أعلىٰ من بيوت الأكابر

قال: ثمَّ إنَّ الباي ارتحل من مكانه ونزل ببلد أولاد سليمان أحد بطون (**بني عامر**)، ورحل في غد ونزل بالمبطوح، ثم رحل ونزل بثنية ماخوخ بلد أولاد علي، أحد بطون بني عامر أيضًا، وقد اجتمع (**بنو عامر**) كلُّهم ببلد أولاد الزاير مع الدَّرقاوي منتظرين لقاء الباي وفي قلبه منهم شيء، بسبب أن (**القُرغلية**) أهل تلمسان ضاق عليهم الحال، حتَّىٰ عدموا القوت والمال، بمنازلة العدوِّ عليهم بالغدوِّ والآصال، ورسلهم تتعاقب علىٰ الباي بأنهم في النَّكال والوبال، وافترق التلمسانيون علىٰ فرقتين (**قرغلية**) و(**حضر**) وشعلت بينهما نار الحرب في البلد، حتَّىٰ ذهل الوالد عما ولد، ولسان حالهم يقول، وهم في أشدِّ عذاب ونكول، أبياتًا من المتقارب:

ألا فأدركونـــــا وإلَّا فلــــــم   تجـــدوا منَّـــا بحيـــاة فتـــىٰ

فقوَّتنـــا قـــد نفـــدت ضررًا   خزائنـــه مـــذ عـــدو أتـــىٰ

وحـــرب عظـيم يُـرىٰ أبـــدا   إلىٰ أيـــن تبـــدو لنـــا أو متـــىٰ

قال: ولما بلغ الباي خبر بني عامر والدرقاوي أقام بموضعه أيَّاما إلىٰ أن جمع آلات حربه، وسادات حزبه، واعتمد علىٰ طعنه للعدو وضربه، ورحل نحوهم فنزل (**تسالة**) ثم رحل بغد يريد واد الحد ببلد (**أولاد الزَّاير**)، وعيونه ذاهبة وراجعة بأخبار الدَّرقاوي كما هو شأن أولي العزم والحزم من الملوك، إلىٰ أن تحقَّق بأن الأعراب بالوادي المذكور يريدون لقاءه مقدمين زياداتهم بين أيديهم، قال: والزيادات في عرف العرب بالجزائر بوازل الجمال عليها الهوادج، بداخل كل هودج امرأة تُولوِل بين صفوف الحرب، يزعمون أنَّ ذلك يشجِّع الجبان، ويزيد في زعامة الشجعان، وهذا فيما بينهم، وأمَّا المخزن فعادته المعهودة أنَّه إذا رأىٰ العدو يصدمه كائنا ما كان، فوقف الباي بعد الخبر

ساعة يحرِّض عساكره ومخزنه، ويثني عليهم ويشكرهم. وقال لهم: « لم يبق إلا هذا اليوم الكبير، فعليكم بالصَّبر والثَّبات، ولا يصيب الإنسان إلا ما كتب عليه »، ثمَّ زحف للعدو، وانضمت النَّاس لبعضها بعضا، وانحاز كل حزب لحزبه، فأشرف المخزن على العدو، ومن ثنية هناك فألقى مقدمة بني عامر، وأجلَّة معسكره، مشبهة بعساكر الأتراك، وحين تراءى الجمعان، وانتهت الآمال، وبعدت الحياة، وقربت الموت وحضرت الآجال، وأنشد منشدٌ لسان الحال، يقول هذه الأبيات على التَّوالي:

أيــا عســكر الأعــراب جمــيعكم	وسوف تــروا مــاذا بكــم سيصــير
فلا تعجلوا للموت ها هي دونكم	غداة اللِّقــا منهــا الــرُّؤوس تطــير
فتَــبَّ امــرؤ غــر افــتراؤه جمعكــم	وبيس فصوب الرأس منــه عســير
فيــوم الفــراق الآن حــان مجيئُــه	ونــادى غــراب البــينِ يــومٌ كبــير
ولكـــن أمـــر الله لا مـــردَّ لـــه	فيعمــى المــرء فيــه وهــو بصــير

قال: ولما تلاقى الأعراب والمخزن صال عليهم المخزن صولة جامدة، ومال عليهم ميلة واحدة، وحمل عليهم حملة قوية، وزاد عليهم فيها بقوَّته الكلية، فأول المخزن نال بعض الضرب، وثانية لم يجد ما يضرب، وترادفت على الأعراب الأمكار، فما لبثوا غير ساعة وإذا بعسكرهم فرَّ وولَّى الأدبار، وأخذ عسكر الباي ظهورهم بالقتل والنَّهب والأسر والغصب، ولم ينج منهم إلَّا من نجَّاه الله، وغرَّتهم المواعيد العرقوبيَّة، فتشتَّتوا على ولهاصة وترارة وغيرهما، وفرَّ الدرقاوي في شرذمة قليلة لليعقوبية، ونزل الباي في الوادي المذكور، ولاح عليه الفرح والسُّرور بتشتيت تلك الأمم، وشدَّة ثبات مخزنه الأفخم، فجمعت لديه الرُّؤوس المقطوعة في ذلك اليوم، ما بين الدَّرقاوي وبني عامر،

فكانت ستمائة رأس فبعثها الباي كلُّها للجزائر، قال الشَّيخ **حسن خوجة** في كتاب **(درُّ الأعيان)**: «ويحكى عن الجندي أنَّه كان يقبض على الأربعة والخمسة والستَّة رجال ويأمرهم بقتل بعضهم بعضًا إلى الآخر منهم فيقتله هو، وقال بعض الجنديِّين لأسيره اصبر للموت أما مت قطُّ؟ وأحوالهم كثيرة، وقصَّة ذلك اليوم كبيرة »، قال: «وفي صبيحة غد ارتحل الباي وتوجَّه لتلمسان فنزل بساحاتها، وأتاه قائدها وكبراء القرغلية، وقصوا عليه مكابدة الأهوال وإساءة الحال، فأجابهم بكلام السِّياسة وخطاب الرِّياسة: لا يضرُّكم الأمر العسير فإنَّ الله تعالى قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: 29)، وأنشد لسان حاله أبياتَ الشَّاعر التي تغنيهم عن لسان مقاله:

إذا كان عون الله للمرء نـاصرًا تهيَّأ له من كـلِّ صـعب مـرادُه

... الخ

ثمَّ إنَّه أعطى الأمان لكبراء الحضر، وأرسل إليهم ليأتوه فأتاه جماعة منهم، وأصلح بينهم وبين **(القرغلية)**، وألَّف بين الفريقين تأليف المودَّة الدَّائمة، وأوصاهما أن يكونا عباد الله إخوانا، ودخل المدينة فأقام بها أيَّاما، ثمَّ ارتحل راجعا إلى **(وهران)** ومعه صهره قائد **(تلمسان)** أبو الحسن علي قارة باغلي منتقلا بأهله، وصار يجد السير وأعلام النصر تخفق على رأسه، وتحيَّات البشرى توضع على رأسه، إلى أن دخل **(وهران)** مبرورا وسالما مأجورا، وفرحا مسرورا، ولسان حاله ينشد شعرا مأثورا:

فـتح الفتـوح آب أوبـةَ ظـافرٍ بـــالله كـــان رحيلـــه وإيابُـــهٌ

يلقى العِـداء ولا يمـلُّ لقاءهـا فكــــأنَّما أهــــواؤه أحبــــاؤه

قال: فدخل **(وهران)** وأقام بها نحو الشَّهر إلى أن استراح، وصار كلَّما سمع

بالدَّرقاوي جمع الجمع قصده، وشتَّت شمله، وفضَّ جمعه، فأذل الأعراب ودوخَّهم، وأخلى بعض البلدان وأجلى أهلها عنها كـ (**بني عامر**)، فإنَّهم ذهبوا وتركوا بلادهم قفرا، وزهرها غبرا، ليس فيها أنس ولا أنيس، ولا حس ولا حسيس، إلَّا البوم والذئاب تعوي فيها وهي خراب، وافترقوا على أماكن المغرب ما بين (**فاس**) وغيره من مبعد ومقرب، ولم يرجعوا إلَّا في تولية أبي كابوس محمد بن عثمان، فحينئذ حصلت لهم الرَّاحة والأمان، ولما استراح الباي وقلبه اطمأنَّ، وفاز بالسعادة فلم يكن من أهل الوهن ولا الجبن، وجمع جيشا عظيما، وجندا عرمرمًا جسيما، وبادر لغزو (**امجاهر**) لكونهم في السَّابق نهبوا (**محلَّة خليفته**) وقتلوا رؤساءها وأعيانها المشاهير، وهي واقعة مشهورة، وفي كتاب (**درء الشَّقاوة**) للحافظ **أبي راس** مذكورة، فلا نأتي بها لطولها وشهرتها، وتحقيقها في رسم جفرتها، فخرج لهم من (**وهران**) بالأمم الكثيرة، والجيوش الغزيرة، وبلغ الخبر لـ (**مجاهر**) بأنَّ الباي غار عليهم ليقطع لهم الأدبار، فبعثوا للدَّرقاوي على المدد بأنواع الشَّدائد، فبعث لهم خليفته ابن المجاهد، وكان بطلا شجاعًا، شديد القسوة، قلَّ مثله في طائفة درقاوة، وزاد الباي في سيره لهم إلى أن دخل بلدهم بغاية ما يبتغيه، وقد انحاز (**مجاهر**) كلُّهم لـ (**وادي الرُّمان**) واجتمعوا فيه فطلبهم الباي في ذلك الموضع، وحملت عليهم عساكره حملة واحدة، ففرُّوا منها فلقيهم البحر، فرجعت دماؤهم سائلة بعد أن كانت جامدة، واشتدَّ بهم القتل من ورائهم وأثخن فيهم إثخانًا شديدًا، لا طاقة لإحصائه، ودام عليهم إلى أن وصل دم قتلاهم للبحر، فاختلط بمائة وأفناهم إفناء عظيما، أذعنوا به للطَّاعة، ولا ملجأ لهم من أمامهم، فكان هذا اليوم من أنحس الأيام عليهم، ومن شرور أيَّامهم، فأفناهم الباي ورجع

منهم سالما ومسرورًا بجنوده، ولمال عدوه غانما، ثم استقر بـ (**وهران**) أيَّاما قلائل، قد جمع الله له الأحوال والشَّمائل، وجهَّز جيشًا وخرج به لتدويخ المشرق، فأتته النَّاس طائعة، مذعنين له ولأوامره ونواهيه سامعة، ولا زال سائرا إلى أن نزل بأبي خرشفة، فأتاه هنالك للطَّاعة من هو طائع، ومن هو داوي، فبينما هو كذلك وإذا بالخبر بلغه بقدوم الدَّرقاوي، وأنَّه حل من أراضي غريس بـ (**عين السَّدرة**) ومعه درقاوة كافَّة بنجوعها، ونسائها، وأولادها، ومواشيها، وأثقالها، ظاعنين معه بالقوة والقدرة، وقد جالوا بغريس فأفسدوا زرعه، واحتطبوا أجنَّته، وهم كالجراد المنتشر، ولم يبق لهم إلَّا يوم أو أقلُّ لدخول بلاد المعسكر، وجاء أهل غريس للباي بذلك الخبر، وتردُّدوا عليه واحدا بعد واحد، على ما قال الرَّاوي، محرِّضين له على القدوم إليهم، ليخلِّصهم بجيشه المنصور من الدرقاوي، فركب الباي عجلا، وسار حثيثًا، سائلا من مولاه عزَّ وجلَّ أن يكون له ناصرًا ومغيثًا، إلى أن وصل لذلك الموضع على التَّحقيق، وكان ابن الأحرش في ذلك اليوم من المشرق على درقاوة، فازدادو بقدومه من الفرح والسُّرور، وعلموا أنَّه هو الرَّفيق، فقسم الباي جيشه ثلاثا دون مين، وجعله قلبا وجناحين، فالجناح الأيمن جعل فيه أعيان الزَّمالة وأتباعهم، والحشم باحتكام الأوامر، وأمرهم أن يكونوا في مقابلة (**بني عامر**)، والجناح الأيسر جعل فيه الخليفة بجيشه، والبرجية الدَّائرين للمساوي، وأمرهم أن يكونوا في مقابلة الدَّرقاوي، والقلب فيه الباي وأعيان الدواير وأتباعهم وعساكر الأتراك وأصحاب المدافع، فكانوا في مقابلة عامَّة العامة من غير منازع، ولما تراءى الجمعان، تزاحفت لبعضها بعضا الصُّفوف، وكان الدَّرقاوي في ألوف الألوف، فاشتدَّ القتال وحمي الوطيس، ولا تسمع إلا الحس والحسيس، وأظلم

الجوُّ بالغبار، وعظمت فيه المصيبة وكبر النَّهار، فبينما النَّاس في تلك الشَّدائد وإذا بالجناح الأيسر قام على ساق واحد، وصبر رجال البرجية صبر الكرام، واشتدَّ ضربهم بالبنادق والحسام، إلى أن ذاق أربعة من كبرائهم كأس الحِمام أحدهم مصطفى بن المخفي والد الآغة السيد قدور بن المخفي[1]، و الثَّلاثة أبناء عمِّه الأماجد وداموا على ذلك إلى أن قام درقاوة على ساق واحد، فانهزموا هزيمة كبيرة تقشعوا فيها تقشع الغمام إذا طلعت فيه شمس منيرة، وركب المخزن ظهورهم ونال دخورهم، ولا زال يقتل ويسبي ويأسر إلى وقت الظُّهر، ودرقاوة كما هي، فأخذ المخزن أموالهم، وسبى نساءهم وقتل رجالهم، فاضمحلُّوا من ذلك اليوم، وفشل ريحهم، وبطل رِبحهم، وخاب نجيعهم.

قال: ولولا فرسان (**البرجية**) ورجالهم الكرام في تلك الواقعة لكانت الدَّائرة على المخزن، بالجمع والتمام، فسبحان من يجعل الخذلان في العدد الكثير والنَّصر بالأقل، فهو المالك، ودخل لـ (**وهران**) وجمعه محترم، وأيَّامه مقبلة، وشمله منتظم، ثمَّ سمع بالدَّرقاوي قد جيَّش جيوشا قوية، وإنَّه نازل بها بجديوية، فجمع له الباي عساكره المنصورة، وجيوشه المؤيَّدة المبرورة، وخرج له بالبحور الزَّواخر، وبالرجال السَّادات الكرام الزَّواجر، وأسرع لقتاله وطلب محاربته ونزاله، إلى أن وصل للموضع المسمَّى باجديوية، وقاتله وحاصره إلى أن أتى المخزن على عامَّة درقاوة في الأقاويل المروية،

(1) **قدور ولد المخفي**: من أسرة موالية للأتراك كانوا بمدينة البرج (**معسكر**) وقد عرفت المدينة بهم (**برج ولد المخفي**) إلى زماننا هذا، وأصله (**برج عياش**) وقد حاربوا الأمير عبد القادر، وانتقم منهم، وتوارث أفراد أسرته الوظائف الإدارية طيلة عهد الاحتلال الفرنسي.

فأفنىٰ المخزن عامَّة درقاوة، أهل الضَّلالة والشَّقاوة، وخمدت شوكة باقيهم، وفاز بالغنيمة لاقيهم، قتل للعدو المقتَلَة الجسيمة، فاستقرَّ بها واستراح، وحصل له الطَّرب والانشراح، وبقي علىٰ ذلك أيَّاما عديدة، وليالي مديدة، فبينما هو في إيوانه مع أرباب دولته جالس، ومستيقظ لأموره وليس عنها بغافل ولا ناعس، إذ جاءه الخبر بأنَّ الدَّرقاوي بـ (تافنة) في جيش جديد، كأنه البحر المديد، أو الجراد المنتشر، مغطيا للسَّهل والوعر، وهو الرَّجل المنفش المسمىٰ بابن الأحرش، ومعه أمَّة من الطلبة سالكين معه اقتحام العقبة، لما شاهدوا عنده علوم الخنقطرة، ظنًّا منهم أن ذلك من الأسرار الإلهية، ولم يعلموا أنَّها من الأسرار السِّحرية الواهية، فخرج له عجلا في جيشه بالأزواج والفرد، واجتمع به بتلك النَّاحية، وقاتله قتالا شديدا في تلك الضَّاحية، فبدَّد البايُ شمله ومزقه تدميرا وفرقه، وقتل منه أمة كثيرة، وغنم له أموالا عظيمة في عدها عسيرة، ولهذا الباي مع درقاوة أياما غيرها مشهورة، وهي مسطورة في الكتب علىٰ الألسنة مذكورة، أعرضنا عنها صفحا، وطوينا لها كشحا.

قال: ولما دوَّخ هذا الباي المغرب الأوسط ومهَّده وأمَّن سبله وضواحيه، وسدَّده، عزله أهل (**الجزائر**) بالقوَّة والشِّدَّة، وأمروا بقتله فقتل شرَّ قِتلة، بعد أن ذاق أنواعا من العذاب خارجة عن الحدِّ، وسببه أنَّه سرح المحلة للجزائر، كما هي عادتها القديمة، فيما حكي من الخبر، ولما عدم الدواب، أَمَر بحمل الأثقال علىٰ البقر، فبلغ خبره للباشا فأنف من فعله، وأمر فورا بعزله وقتله، وكانت أيامه كلُّها حوادث، ولا حادثة أشدَّ من غلاء الأسعار، وفناء الأعمار، وكثرة الفساد، والعوابث، والأمر لله الواحد القهَّار، العالم بالظَّواهر والأسرار.

ثمَّ تولَّىٰ الباي مصطفىٰ بن عبد الله مرَّة ثانية آخر السَّنة الثَّانية والعشرين والمائتين والألف من هجرة من له العزُّ والفخر والشرف، وبقي في المملكة تسعة أشهر، ولما تولىٰ قام عليه ابن الشريف الدرقاوي فقال: «يا عجبا من هذا الدَّرقاوي الذي مهما تولَّيت يقوم عليَّ، لقد عرف اسمي واعتقد أنِّي جبان، فوالله لأذيقنه كأس الرَّدىٰ، ولأجعلنَّ شمله مبدَّدًا».

وقد قام عليه الدَّرقاوي في التَّولية الثَّانية مرَّتين، وكرَّ عليه كرَّتين، ولما سمع بأنَّ الدَّرقاوي جيَّش الجيوش وهو بالثَّعالبة من بلاد **(فليتة)** قال: «سأخرج له وأريه الفشوش»، فخرج الباي في جيشه العزيز، الذي هو كالعسجد والإبريز، وتلاقىٰ معه بالثَّعالبة فكان ذلك اليوم فيه الدَّرقاوي مغلوبا، والباي غالبا، وقدمُه عالية بالمطالبة، فهزمه هزيمة شنيعة، وعادت جيوشه للباي مطيعة، ورجع لـ **(وهران)** في عزٍّ وسرور، بغنيمة وحبور، فاستراح بها وأقام.

فبينما هو بها إذ جاءه الخبر في بعض الأيَّام، بأنَّ الدَّرقاوي في جيوشه بمدغوسة من بلد خلافة، فخرج له الباي بجيوشه، من غير جزع ولا مخافة، وجدَّ السَّير نحوه وكاده كيدا، وترك المسير نحوه رويدا رويدا، إلىٰ أن وصله بالمحل المذكور، وحمل حملة منكرة بجيشه المنصور، فلم يكن غير ساعة وإذا بالدَّرقاوي مهزوما، ومفلولا مذموما، وقتل المخزن من أتباعه خلقا كثيرا، وأفنىٰ منهم جمعا غفيرا، وغنم الأموال العظيمة، فرجع الباي لـ **(وهران)** مسرورا بتلك الغنيمة، فمكث بها أيَّاما كثيرة، وانقطع عنه الدَّرقاوي مدَّة شهيرة، ثمَّ سمع بأنَّ **(مجاهر)** سعوا في الفساد، وحملوا أنفسهم علىٰ اتباع الدَّرقاوي وراموا العناد، فخرج لهم حاركا، وللمقام بوهران تاركا، ونزل بوادي الخير أحد أودية

(**شلف**)، فأتاه الخبر بأنَّ الباشا ولاه خزناجيا بالجزائر ففرح بعد ما تأسَّف، فبمجرَّد وصول الخبر له ذهب للجزائر، وترك (**وهران**) للباي الآخر، وهو الذي بنى للعالم العلامة، القدوة الفهامة، شيخ أهل غريس على الإطلاق، ومجدد القرن الثالث عشر باتفاق، شيخ شيوخنا، من هو بعين العناية ملاحظ، العلامة أبو راس محمد بن الناصر الحافظ، المصرية ذات العلو الأرفع، وبيت المذاهب الأربع، قال فيه الحافظ أبو راس في كتاب (**فتح الإله ومنته**): وهذه المصرية قد بناها لنا الملك الأصفى، والخليل الأوفى، والمحب الأصفى، السيد الباي مصطفى، برد الله ضريحه، وأسكنه من الجنان فسيحه، وإني بعثت إلى ضريحه بـ(المدية) مع بعض تلامذتنا بما نصه: عليك أتم السلام، أيها المولى الهمام، الذي عرف فضله الإسلام، وخفقت بنصر عزه الإعلام وتنافست في إنفاذ أمره ونهيه السيوف والأقلام، قسمت زمانك بين حكم فصل، وإمضاء نصل، وإحراز خصل، وعبادة قامت مِن اليقين على أصل، السلام عليك يا مقرِّر الصدقات الجارية، ومكتب الكتائب والسَّرايا السارية، السلام عليك يا حجة الصبر والتسليم والقلب السليم، وسامع الحديث والذكر الحكيم، كرَّم الله تُربتك وقدَّسها، وطيب روحك وآنسها، فلقد كنت للمستجيرين مجيرا، وللمظلوم وليا ونصيرا، ولقد كنت في المواكب بدرا، وللمواهب بحرا، وعلى العباد ظلا ظليلا وسترا، بنى الله لك بيتا في الجنة، كما بنيت لنا بيت الكتب بلا أذى ولا مِنَّة، نفعك الله بصدق اليقين، وأعلى درجتك في علِّيِّين، وحشرك مع الذين أنعمَ الله عليهم من النبيئين والصدِّيقين والشهداء والصالحين».

حادي ثلاثينهم: الباي محمد بن عثمان الملقب بالرقيق، والمسلوخ، والمكنى بأبي

كابوس، لقتله للسائح بن خضرة [1] بالكابوس، ويقال له الباي محمد الصغير فهو صنو الباي محمد الكبير، تولى في آخر السنة الثانية والعشرين والمائتين والألف، وبقي في المملكة خمسة أعوام غير شيء، ولما تولى اشتغل في أيامه بطلب الدرقاوي، وأفصم محالمه، وقطع آثاره ومعالمه، وبغاته ومظالمه، حتى إن من حسد أحدا وشى به عنده وادعى عليه محبة الدرقاوي، فإنه ينتقم منه فورا، وصار مهما ظفر بأحد من درقاوة بادر للانتقام منه بأي نوع شاءه ولا يقبل فيه شفاعة شفيع، وابتدع قتلا لم يبتدعه أحد مِن الملوك قبله، وهو فعل شنيع، ونوَّع عذابَ مَن يظفر به إلى أنواع، فمنهم من يأمر بإخراجه للسوق ودق أعضائه حيا شيئا فشيئا بالمعاول، إلى أن يموت بانفضاع، ومنهم مَن يأمر بإقلاع عينه ويتركه أعمى مِن حينه، ومنهم مَن يأمر بقطع أعضائه، فإن مات وإلا جُهِّز عليه فيموت في سجنِه، ومنهم مَن يأمر بذبحه، ومنهم من يأمر بقطع رأسه وفضحه، ومنهم من يأمر بخنقه، ومنهم من يأمر ببقره، ومنهم من يأمر بشنقه، إلى غير ذلك من الأنواع المختلفة، والمعاطب المتلفة.

وقد نجا الدرقاوي بنفسه وفشل ريحه، وتراكمت عليه الهموم والغموم، وضاق به فسيحه، وافترقت عليه أتباعه، وتبرأت من عمله، ولم يبق من ينضم إليه لما نالهم من العطب لأجله، فصار مهما جاء عند أحد فرّ منه ولم يمِل لمصحبه، وخاصمه وشتمه، واستخف بجاهه ومنصبه، ما عدا مرة واحدة، جاء عند أهل اليعقوبية واستقر،

---

(1) **السائح بن خضرة**: رئيس قبيلة سويد التي صارت تعرف بأولاد أقصير، كما عرفت في الناحية الغربية بالمحال، له مواقف مع الأتراك، ومعارك سجَّلها الشعراء الشَّعبيون، ولا زال أفراد هذه الأسرة بأولاد أقصير (بلدية الأصنام) محتفظين باسم آبائهم: (ابن خضرة).

فاجتمعوا عليه يرومون وقعه، فقصده الباي فورا هنالك، وشتت شمله وبدد جمعه، فانتقل إلى الأحرار فطردوه، ثم انتقل إلى عين ماضي فطردوه وعنهم أبعدوه، ثم انتقل إلى بني الأغواط فطردوه لما علموا مقصده عندهم، ثم انتقل إلى بني يزناسن، وهو في ذلة ومسكنة، فأقروه عندهم، وترك ما سولت له نفسه ودام ذله وبخسه، ولم يقم لشيء مما كان عليه لعدم طاقته، وفقد مساعده، وكثرة فاقته، وصار لفظ الدرقاوي يقال لكل عاص مخالف، فتبرأت الناس من ذلك، وبقي سوى ذلك اللفظ بينهم متعارف.

ويُحكى أن قوما من درقاوة كانوا بالقلعة بين أيديهم كسكسا ممتزجا بالزبيب فيه يأكلون، فظفر بهم قائد القلعة، وأمر بقطع رؤوسهم فورا، ولما قطعت ألفيت أمريتهم بذلك مملوءة، وأن رجلا أتى به آخر إلى قايد المعسكر، وقال له هذا درقاوي، فقال للقايد: وحق سيدي دح منذ عقلت لم أقل: لا اله الا الله على ما قال الراوي، وغرضه النجاة لنفسه خشية أن يجعل فورا برمسه، فضحك القايد ومن حضر لقوله، وتركه، وقال له: يا هذا لا تعد لقولة الكفر، فقال له: قد جعلها الله لي مسلكة. وغزا الباي الحشم الغرابة بغريس، فقتل أجوادهم، وكبراءهم، وقيادهم، وفتك بها فتكا جسيما، وأوقع بهم موقعا عظيما، وقصتهم مشهورة لا نأتي بها.

ثم إن الباي لما تمهَّد له الملك، غزا بأمر الباشا عريبا قبيلة عظيمة بادية، وشوكتهم قويَّة وهم رعية آغة الجزائر، ووطنهم ما بين حمزة والدهوص، في الحد بين باي **قسنطينة** وباي **المدية**، وسبب ذلك أنَّ شيخ عريب خالف برأيه **آغة الجزائر** لما أراد الله أن يتلاشى، فبلغ خبره آغة فأعلم بذلك الباشا، فلم ير الباشا من ينتقم منهم ويهتكهم هتكا، ويصيرهم هباء منثورا، ويفتك بهم فتكا، إلا باي الغرب لجرأة جنده بالطعن

والضرب، فإن مخزنه أشداء علىٰ العدو في الحروب، وشدة بأسهم عند تلاقي الصفوف، فلا يعرفون إلا الموت، ولا يعرفون الحياة، وليس من شيمهم الهروب، فالقاصي عندهم قريب، والصعب عندهم سهل، وكل واحد منهم لبيب.

والمخزن ما هي قيل به، فهو خمسة أعراش جالية، الدوائر والزمالة والغرابة والبرجية والمكاحلية، فهم نجوع شداد في الحرب، ولبعضهم بعضا متوالية، وباقيهم كالحشم، ومجاهر، وبني شقران، وبني عامر وغيرهم، فهم أعراب ليست لهم جرأة في الحروب وظفر الظافر، وإن كان عددهم كثير، لكن المخزن أهل جرأة وتدبير، فأمره الباشا بالغدو علىٰ عريب، وكان ذلك لا يتعقل لعدم تصرف باي الغرب في غير رعيته بكل وجه، بعيد أو قريب، وبعد مكانهم عنه بالأحوال السوية، إذ بينه وبينهم باي المدينة، فنهض من ساعته وكان ذا حزم وجزم وعزم وكياسة، ووزراؤه ذوي تدبير ورأي، وشجاعة وسياسة، فجمعهم وعرفهم بالخبر، فأشاروا عليه بأنه لا بد له من فعل هذا الأمر، لأنها مزية عظيمة إن بلغوا منها ممها مناهم، وفرحة شديدة لهم إن وصلوا لمنتهاهم، فاتفق رأيهم علىٰ ذلك، وتواصلوا بعدم إفشاء هذا السر، بل يجعل ذخرىٰ.

وخرج الباي بجيشه من (وهران) يجر الأمم، فتعمر به أرض، وتخلىٰ منه أخرىٰ، إلىٰ أن وصل إلىٰ وادي دردر، وما به من خشفة، أمر برد أثقال المحلة وضعيفها إلىٰ أبي خرشفة، وركب أول نهاره، وسار في الفيافي طول نهاره، وبات يسير سيرا شديدا، ومخزنه بالظفر طامعة، إلىٰ أن طلع النهار وعيونه ذاهبة وراجعة، إلىٰ أن بلغ لحيهم ونجعهم، فأرسل عليهم مخزنه يجمعهم، وأوقعت فيهم جنوده أسرا، وقتلا، ونهبا،

وزادوهم طعنا وضربا، ولا عرفت (عريب) من أين تلك الجنود أقبلت، لاختلاف ملابسها وأشكالها، وشجاعة فرسانها وقوة أحوالها، فأخذوهم أخذة رابية، وصارت أموالهم لهم مجابية، ثم تحققوا بأنه باي الغرب، لما رأوا فرسانه من زيادة لطعن والضرب، لا تكل لهم سواعد، وليس لهم في الحرب إلا الطعن والضرب للقوائم والقواعد، فكان من جملة ما سباه الباي بجيشه نساء شيخ عريب وأولاده، وأقام ببلدهم يومه ذلك، والسرور في ازدياده.

ثم كرَّ راجعا للمدية في طرب وابتسام، فنزلها بعد ثلاثة أيام، وقد تعرضت له في الطريق قبائل الطمع الذي يؤدي بصاحبه النجع، وهو سائر بين جبلين لأناس يقال لهم: أولاد علان، وإذا بهم ابتدروا الجيش بالضرب في السر والإعلان، فلما سمع الباي ضرب البارود وجيوشه حشود، لا تفعل شيئا إلا بأمره سأل عن ذلك تبليغا لمرادهم، فأخبروه بأمرهم، وأنهم يريدون منه الزطاطة لمروره ببلادهم، فقال: عليكم بهم، وإتوني بمن ظفرتم به منهم، فغير ساعة وإذا بالمخزن يجر في رؤوسهم، ويقتل لمسعودهم ومنحوسهم، وأتوه بعدة رجال فأمر بقطع أيديهم، وقال لهم: تلك الأجرة فخذوها وانصرفوا، وهو يريد مزيدهم، وحين نزل بـ(المدية) أقام بها وبعث السبي والمال إلى **الجزائر** صاحب الإحسان، فرفعت مكانتهم عند الباشا رفعا عظيما، وكرَّ راجعا إلى **(وهران)**، فلما وصلها مكث بها سائلا من مولاه الإعانة والسلامة والعافية، وهو في فرح شديد بمخزنه السادة الأسود الضارية، فصار لا يقدح ناره زناد، وإنما تأججها على الدوام في ازدياد، بجنده العزيز ومخزنه الإبريز.

ثم أنه تحرك لأهل يبدر من أهل الساحل، لقطع ما سمع به من جموع الدرقاوي،

الذي ببني يزناسن نازل، فغزا صهره الشيخ أبا ترفاس، لما سمع بالدرقاوي عنده على غفلة من الناس، ولما سمع الدرقاوي بنهوض الباي إليه، فرّ هاربا متذللا وأخلى الأرض بين يديه، وافترقت من حينها جموعه، وجاءته عجلة قواطعه وقمعه، فزاد الباي للساحل، وأخلى منه ما أخلى، وقتل ما قتل، وأجلى ما أجلى، وخرب قرية أبي ترفاس، واحتطب أجنتها، وسلط عليها أذاها ومنتها، ولما فعل ذلك بقرية الشيخ أبي ترفاس، قال له: أيها الباي لما فعلت بنا هذا ونحن من ضعفاء الناس؟ فقال له: إنَّ صهرك درقاوي، فأنت مثله، وأحوالك ببداية، فقال له: إني شيخ الطلبة، وعايرتني بالتَّدرُقي ولستُ مِن أهله، وخرَّبتَ مكاني، خرَّب الله عن قريبٍ مكانك، ولبَّس لك عباية، وهذا **أبو ترفاس** من ذرية الشيخ **أبي ترفاس** الذي غزاه الباي **خليل** فأهلكه الله في رجوعه لـ : **تلمسان** في السبيل.

ثمَّ إن الباي كرَّ راجعا إلى أن وصل لوادي تافنة، فحل به البلاء وانحط، وأصابه الثلج العظيم الذي لم يمطر مثله قط، فمات به كثير الخيل، وتعب كثير الجند ودخل الباي اضطرارًا منه لتلمسان، وافترقت المحلة افتراقا مختلفا، هامت به في البلدان، فمنهم من مات جواده، ومنهم من تمزق خباؤه، ومنهم من تلف سرجه ومنهم من انكسرت بندقيته، ومنهم من تورمت أعضاؤه، وانهدمت بسببه الديار، وانكسرت منه الأشجار، فسبحان الواحد القهار، وعرفت تلك الواقعة بحركة الثلج واشتهرت عند الناس بقصة عام الدلج، وبقي الباي بتلمسان إلى أن صفا الحال، وأمن على نفسه فضلا عن جيشه من الضرر والنكال، رجع لـ **(وهران)** واستقامت له الأحوال، اقتدت به الناس في الأفعال والأقوال.

قال: فبينما هو في فرح وانبساط وسرور واغتباط، وإذا بالباشا بعث له بالحركة لتونس التي كانت سيئة وخطيئة، ولها كان هلاكه وسخيطته، وعذابه وزوال الملك عنه، وإهانته والانتقام منه، وسبب الحركة أن أهل الجزائر وقعت بينهم وبين التونسيين مقاتلة ومشاجرة، ومواقفة ومحاصرة، ودام ذلك بينهما زمانا طويلا، سرا وجهرا، وقد تهيأ الجزائريون لهم بالحركة برا وبحرا، فبعثوا للباي أن يتهيأ للحركة في محلة جليلة، من أجناد مخربة ذوي الجلالة، لاتصافهم بالشجاعة والشدة، والحزم والبسالة، ومآثرهم في الحروب مشهورة، ليس لهم خفاء دون محالة، وكان يضرب بمخزنه المثل في كل بلدة، فالواحد منهم بمنزلة العشرة فاعلا في الثبات والشدة، والشجاعة والفراسة، والمعرفة والكياسة، والتقدم لإزالة الجماجم عند الطيش والوحشة، والثبات للزحف، وقمع العدو عند الذهول والدهشة، فهم رجال الوفاء والخجل، وهم السادة الذين لا يعتريهم طمع ولا وجل، بل شأنهم التقدم للنزال بين الصفوف، وجولانهم في الحرب بالبنادق والسيوف، ولهم معرفة بمكايد الحرب، وتخلقوا بأخلاق الطعن والضرب، فلا يخشون من قتل يوم ترجف الراجفة، ولا يفرون من موت حين تتبعها الرادفة، فإن ذهل غيرهم فهم ثابتون، وإن انهزم غيرهم فهم ثابتون، فهم الذين صدق في وصفهم الشاعر لما وصف قومه ونفسه لما هو صائر:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه　　فكـــــل رداء يرتديـــــه جميـــــل

... الخ

قال فامتثل الباي لذلك، وتزود زادا كثيرا، وجمع جيشا عرمرما غزيرا، وخرج من **(وهران)** بمخزنه، يروم تونس وفقا لما أمر به، وصاحب الغيب أعلم بها في غيبه، ولما

نزل وادي يلل حدثته نفسه رفض أمر الباشا، والخروج عن الأتراك في خفضه وعلاه، والدخول في سلك ملك المغرب بوقته، مولانا سليمان بن محمد بن عبد الله، فأصبح معلنا بقتل الأتراك يا للعجب، جازما بالدخول في طاعة سلطان المغرب، فقتل كل من كان قريبا له من الأتراك ولو أصهاره، وأمر بني عامر بقتل المحلة التي عندهم، فقتلوها خديعة، بحيث فرقوهم على الخيام بالانفراد، ولم ينج من قتله، إلا من نجاه الله واختاره، وتمادى على ذلك، ولما سمع الباشا، غَضِب وحَزِن.

ثم إن عليا الملقب قارة باغلي خليفة الكرسي، صهر الباي المذكور، لما سمع بفعله دخل (مازونة) بما معه من الأتراك وسكن، وارتحل الباي راجعا لـ(وهران) بمشورة أعيان مخزنه، خديعة منهم له حيث فعل بلا سبب ما لا يليق، وغرضهم القبض عليه، وللتوثيق بأشد توثيق، فبينما هم لوهران داخلون، وإذا بالسفن مشحونة بعسكر الجزائر، في البحر وبالمرسى هم نازلون، جاؤوا ليتطلعوا أمره، وكشف خبره، وما سبّبه، فدخل الباي محله وسمع بذلك، فجزم بإلقاء النار في خزنة البارود، لتصير المدينة عاليها سافلها، ولا ينجو طالح ولا مسعود، وأنه ميت معهم لا محالة، فصعب ذلك على المخزن وأهل البلاد، واشتد بهم القلق والوجالة، فصعد له المخزن للدخول عليه، للقبض عليه ونهيه على فعله، فلم يدع أحدا يدخل عليه وزاد في قوله وفعله، فصرخت الناس بالاستغاثة وهرب من يطيق الهروب، وأيقنوا بالهلاك بغتة دون الحروب، فعند ذلك صعد له العلماء وبأيديهم مصاحف كلام الله العزيز، وصحيح البخاري ومسلم، وناجوه من بعيد وأروه ذلك ووعظوه وعظا بليغا، فأمرهم بالدخول عليه وأمنهم، وقال لهم: من شاء تأخر ومن شاء تقدم، فدخلوا عليه وصبروه ووعظوه، وبقضاء الله

ألزموه، وللموت لحظوه، فثبت يقينه، وزال ما به من الغضب، وعلم أن ذلك حيلة من مخزنه، فعلوها لنجاة أنفسهم فاطمأن قلبه ورضي بالموت، وذهب عنه النصب، وأذن للعلماء في قبضه فأبوا ذلك، وقالوا له: هذا شأن المخزن لا شأننا، لأنهم أولى بذلك، ثم أذن للمخزن ورؤساء الحضر في الدخول فدخلوا عليه وكبلوه، وشددوا عليه ورحلوه، وأخبروا العساكر التي في السفن، وأدخلوهم المدينة، وكتبوا لعمر آغة بذلك، ليدخل كمن كان بالسفينة.

وقد قدم عمر بالقفطان المعد للملوك والبايات لار، فألبسه لخليفة الكرسي علي قارة باغلي باشتهار، وولاه من حينه بابا على الإيالة الغربية، لا من صهره أبي كابوس ذي الأحوال الحربية، فظهرت فيه دعوة الشيخ أبي ترفاس المارة في الرواية: «عايرتني بالتدرقي لبس الله لك عباية»، ثم قدم عمر وعلي قاصدين بجنودهما وهران، فدخلاها وألفياه مكبولا في سجنه، نادما على فعله الذي حسنته له نفسه، وشياطين الإنس والجان، وهو صابر لما ساقته له المقادير، فحق فيه قول الشاعر:

يغمى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

ولما رآه عمر ووقف عليه، خرج هو والباي علي بمحالهما، يجوسان بلادهما ويتفقدان أحوال الرَّعية، وما عملت وقدمت فوصلا لجبل **(ترارة)** وكانت بها دار لابن الأحرش الدرقاوي، فأمرا بهدمها فهدمت، وصعدا مع الجبل إلى تاجرا، ثم رجعا لتلمسان بعد خلوها، وفرار أهلها عنها، ثم رحلا نحو الحشم، ونزلا بالمعسكر خارجا عنها، وأمر عمر آغة بقتل رؤساء العثامنة وغيرهم، فقتلوهم عن آخرهم، ولم ينج إلا من فر بنفسه، وعصمه ربه من مكرهم.

قال: ثمَّ رجعا لـ **(وهران)** فدخلاها وقتل عمر الباي بأشرِّ القتل، ونكَّل به أشدَّ النكل، فأمر بسلخ رأسه وهو حيٌّ، ففعل فعلا شديدا، ولما سلخ أحشوه قطنا، وبعثه للجزائر فعلقوه على عود طويل زمنا عديدًا، وقتل أولاده وهم صبية صغار، ولم يخش الله ربَّ العالمين، وقتل بعض خدمه، فصار بهم ما صار بالبرامكة مع العباسيين، وقد قال فيه السيد حسن خوجة مؤلف **(درّ الأعيان في أخبار وهران)** أبياتا وغابت عني وقتئذ، قال: وطلع في أيامه نجم لم يعهد طلوعه سابقا وكان طلوعه من الشَّمال، وله ذنب طويل شعاعي، وأدام في الطُّلوع أيَّاما، ثمَّ أفل ولم يُر بعد ذلك.

قال الحافظ **أبو راس** في كتاب **(فتح الإله ومنَّته)**: «ولما افتقرت مصريتنا بيت المذاهب الأربعة للترقيع، وأردت تجديد تبييضها ذكرت ذلك للباي الأسعد الأقعد الأمجد، الأنجد والأوحد، عزيز النَّصر، ونخبة العصر، وريحانة الدَّهر، السَّادل على الرَّعية الأمن والأمان، الباي السيد **محمد بن عثمان** أتحفه الله بالرِّضى والرِّضوان، وأتحفه مطاريق التَّكريم في الجنان، فبعث لي مع ساقه مائة ريال بوجهها، قامت أوفى إقامة بترميمها وتبييضها، وذلك قبل أن أحجَّ عنه (رحمه الله) فوفَّرني أحسن وفارة، جعل الله ذلك القتل له كفَّارة، ولما أويت من الحج سنة (1227هـ) (سبع وعشرين ومائتين وألف) أعطاني مائة محبوب، جعله الله يوم القيامة مقرب ومحجوب، آنس الله غربته، وأزكى ذريته وتربته، وجعل ذلك الحج المبرور في ميزانه، وراجع أوزانه، وتقبل الله دعاءنا له في تلك المشاهد، التي ينتفع بها الغائب والشَّاهد، وما أنفقنا من نفقة هناك كبيرة أو صغيرة، إلا عوضه الله عنده حسنات كثيرة أثيرة، ولما قُبِرَ قمت وذهبت إلى

ضريحه وترحمت وبكيت، وقلت [1]: السَّلام عليك أيها الإمام، الثَّاوي في دار السَّلام، كأنَّك لم تعرض الجنود، ولم تُنتشر على رأسك البنود، ولم تبسط العدل الممدود، ولم تعامل بفضلك الركع والسجود، توسدت الثرى، وأطلت الكرى، وشربت الكأس التي يشربها الورى، وأصبحت ضارع الخد، كليل الجد، سالكا سنن الأب والجد، ولم تجد بعد انصرام أملك، إلا صالح عملك، ولا صبحت لقبرك، إلا رابح تجرك، فنسأل الله أن يؤنس اغترابك، ويصلح في الآخرة ما في الدنيا أرابك، أعطاك الله الوسيلة، وتمَّم مقاصدك الجميلة، ومنحك الزُّلفى الجزيلة، ولم أجد مكافأة لك، إلا التَّقرُّب بدعاء الله برحمتك، وتغفير الوجنات في تربتك، والإشادة بعد الممات بمجدك وكرمك، منحك الله المغفرة الصيِّبة، والتَّحيَّات الطيِّبة، مدى الدَّهر وباديه، وتراوحه وتغاديه، وأسكنك من الجنان بحبوحة، وأعطاك فيها فسوحة، آمين يا رب العالمين، ولا أرضى بواحدة حتى أقول ألفَ ألفِ ألفِ آمين».

ثاني ثلاثينهم: الباي علي المعروف **بقارة باغلي**، نسبة إلى بلدة التُّرك، يقال لها **(باغلة)** كان أتى إلى هذا الوطن في وقت الباي محمَّد الكبير بن عثمان ثاني ملوك العثامنة، وكان موصوفا بالعقل والرِّياسة، والمعرفة والكياسة، فزوَّجه الباي محمَّد ابنته، وأدناه منه إلى أن ارتقى للمملكة، فتولَّى بايا بالإيالة الغربية في نصف السَّنة الثَّامنة والعشرين والمائتين والألف، ورجع يتعمل بالأعمال المخزنية، ويتوظَّف بالتَّراتيب

---

(1) هذه الخطبة مأخوذة من خطبة لسان الدين بن الخطيب السلماني خاطب بها الملك أبي الحسن المريني لما زار ضريحه بشالة **(الرباط)** ونشرها صاحب نفع الطيب في الجزء الرابع (ص: 136)، المطبعة الأزهرية، 1302هـ.

السِّياسية، فألفىٰ بالمخزن تخليطا كثيرا، بسبب أمر الباي محمد أبي كابوس الذي كان قبله، اتَّهم به كثير من النَّاس ولشدة عقله ورياسته ودينه وميثاقه، غفر جميع ذلك لمن اتُّهم به وعفا عنه، وكان لا يقبل الوشاة فإذا وشىٰ أحد بغيره لا يقبل منه، ولا يسم منه ما يؤذِي به أخاه المؤمن، وهو قليل الخطية للنَّاس، فلا يخطىٰ إلا القليل، لا سيَّما المخزن وأهل الحضرية، عكس ما كان عليه من كان قبله، وقد انقطع في أيَّامه ذكرُ **(درقاوة)** حتَّىٰ صار لا يذكر إلا علىٰ وجه الحكاية.

قال: وحدث في وقته جراد منتَشر غير معهود، أفسد الزُّروع والثِّمار، وعمَّ بالشرق والغرب سائر النَّواحي والأقطار، ولم يخل منه مكان، إلا مدينة **(وهران)**، وكان من لطف الله الواقع بهذا الباي، أنَّ عمر آغة لما فعل بأبي كابوس ما مرَّ أخذ في نهب ما في بيت المال من الأموال، ولما رأىٰ إبراهيم خزندار ذلك، علم أن الباي الآتي لابد أن يكون من عدم المال في ضرر وإنكال، بادر إلىٰ الخزنة وأخذ منها غفلة جملة من المال، وصعد به إلىٰ أعلىٰ المملكة وجعله هنالك، ولم يطلع ذلك أحد إلا الخالق المالك، ولما تولىٰ الباي علي واستقر بالإيوان نظر لبيت المال فوجدها خاوية علىٰ العروش، فتحير من ذلك وتألم كثيرا، وقال كيف أفعل بنفسي مع هؤلاء الجيوش، فدخل عليه إبراهيم خزندار فوجده مع نفسه في هم وحزن، وتأسف صاعد ومحن، فقال: يا سيدنا ما أطرقك حتىٰ صرت في هذا التَّأسف، والضَّرر والتقشُّف، فقال: يا إبراهيم وكيف لا أتأسَّف وبيت المال خاوية، فما أصنع مع هؤلاء الجنود الضَّارية، فقال له إبراهيم: يا سيِّدنا لا تجزع ولا تتأسَّف ولا تفزع، فأنفسنا لك وقاية، وأموالنا لك حماية، وإنِّي قد ادَّخرت لك شيئا من الذخائر والأموال لتستعين بها علىٰ ما أنت فيه من الأحوال، فقال

له: ايتني بها فقام إبراهيم وبادر، وأحضر له ما كان تحت يديه من الذخائر، ففرح الباي وظهر عليه السرور، واستبشر ولاح على جبينه النور.

ثم إنه غزا على بني مناد، الذين بنواحي شرشال لأمر ظهر عليهم من أمور الفساد، فأوقع بهم إيقاعا وهتكهم هتكا جسيما، أفنى منهم عددا من الأبطال وسبى الأموال والنِّساء والصِّبيان وأسر الرجال، ومات في تلك الوقعة من أعيان جنده القائد الأنجد، الفاضل الأمجد، الشهم الشجاع، الجواد المطاع، الصنديد الباسل، الحليم الكامل، ذو اليد الواسعة، والمآثر الساطعة، رئيس الدوائر، محيي الدين بالنواهي والأوامر، صاحب المحاسن والمعارف، وحائز المعالي والعوارف، جالب الإحسان ودافع المساوي، مفتخر النسب البحثاوي، السيد **قدور بن إسماعيل آغة** واصل الله بروحه إلى الجنة وأحكم بلاغه، كما مات الطالب اللبيب، الحاذق الأديب، كامل الإحسان والأجور، الفقيه السيد **محمد بن قدور** (رحمهما الله) بمنِّه، وفضله وكرمه، آمين، وجعل في الفردوس آخر دعواهما أنَّ الحمد لله رب العالمين.

وقد قال في آغة المذكور بعض الأدباء أبياتا مرثية نصها:

يحق لنا البكا على أسد الوغى	وناصر مظلوم وقامع من طغى
وقاهر جبار عنيد ومارد	وجامع أشتات ومغن لمن بغى
ودامغ أعداء طالت لهم الأيدي	وباذل أموال ومعط لمن صغى
وحائز أوصاف الكمال بأسرها	مهذَّب أخلاق ومصغٍ لمن لغى
ومعطي العطايا دون منٍّ ولا أذًى	كافل أرامل أيتام بما ابتغى
ولكل عالم وصالح طالب	محبٍّ لله في الله حبه ما التغى

وذلـــك ســيد الـــدوائر قـــدور نجل إسماعيل البحثاوي منصبه آغا

فــلا رحـــم الـــرحمن آل منادهـــا لمـا قتلـوا المرحـوم نــال لمـا ابتغـىٰ

بشرىٰ لك بالجنان يا قدور الـرِّضى بشرىٰ لك بالغفران والخـير ابلاغـا

وقد خرج ابن الشَّريف في أيَّامه من بني يزناسن، ونزل بالأحرار وراودهم علىٰ الباي في الإشهار، فأنكره جلهم، ولباه أقلهم، فسمع به هذا الباي، فخرج حاركا إليه بأحوال مستقيمة، فألفىٰ محلة الطريق يمينا، فأخذها وصعد بها مع الوادي ومعه عساكر عظيمة، وأمر جميع نواحي القبلة بالظعون معه والتقدم أمامه بأهاليهم وأموالهم وهو في إثرهم، مخفقة عليه أعلامه، فامتثلوا أمره وأجابوا دعوته وذهبوا معه إلىٰ أن نزل ببلاد الأحرار، فأفسد زرعهم وشتت لهم (الأقوار)، ولم ينازعه أحد، وانحل عقد الدرقاوي وانتثر نظمه وافترقت أتباعه، وتركه وحيدا منفردا أشياعه وجاءت شيوخ الأحرار بأجمعها لدىٰ الباي تلتمس منه الرِّضى، فأكرم نزولهم، وأعظم مثواهم، وزال عنه الغضب، وجاءه الرِّضى، وذهب الدرقاوي إلىٰ فجيج، وقام أياما وقد ضاق به فسيحه، ثم انتقل إلىٰ (**بني يزناسن**) وهو محله الأول، فخمدت ناره، وسكن ريحه، ثم رجع الباي لـ (**وهران**) مسرورا في غاية المفاخر، وذهبت محلة الطريق وهي محلة الغرب لموضعها، ولما وصلت (**للجزائر**)، قاموا علىٰ عمر باشا فقتلوه، وقالوا إنَّه لم تسعد عليه الأيَّام والبلدان، ولم يكن بوقته راحة ولا أمان، وقد مات **الرايس حميدو** المجاهد في سبيل الرَّحمن، وغلت الأسعار بوقته، وظهر الطَّاعون، وقام النَّصارىٰ الانقليز عليهم بـ(**الجزائر**) ومنع الماعون، وذلك أنَّ الانقليز جاؤوا لـ (**الجزائر**) ودخلوا مرساها بسفنهم علىٰ وجه الخديعة، من تعرية رؤوسهم علىٰ مثل المبايعة بالصَّنيعة، وبأيديهم

سجل عظيم يرقاني، زعموا أنَّهم أتوا به من عند السلطان الأعظم أمير المؤمنين **محمود الخاقاني**، ولما جازوا رماية مدافع المسلمين، وكان ذلك وقت العصر واستمروا على ذلك الحال بغاية التمكين، كان مدافعهم واحد إلى تمام عشر ساعات، فأبطلوا الضرب وملوا لما لحقهم من المجاهدين.

قال: ثم اصطلحوا مع أهل (**الجزائر**) بإعلان، على المنِّ بأسارى النصارى الذين بـ (**الجزائر**) و(**وهران**)، فأسلموهم لهم كلهم باعتبار المقاصد، حتى إنه لم يبق ببر الإسلام من عمالة (**الجزائر**) نصراني واحد.

قال: والذي تواترت به الأخبار تواتر المصدع، أنهم أرسلوا على (**الجزائر**) أربعين ألف مدفع، ولما قتلوه أقاموا مكانه السيد **علي باشا** إقامة الأكابر، وأجلسوه على كرسي مملكة (**الجزائر**)، ولما استقلَّ له ذلك واستقر بالملك قدمه، غير الصرف في الدراهم تغييرا كان به عدمه، فالريال دورُ كان فيه خمس عشرة أوقية، حطه إلى اثنتي عشرة أوقية، فقد أنقص خمسه، وأضاع فلسه، والريال الجزائري كان فيه ثمان أواق، فحطه إلى ستّة أواق، فأنقص منه ربعه، وغير من حينه جمعه، وأحدث أمرا لم تحدثه الملوك قبله بالأوامر، فقد ولى خليفة الشرق من (**الجزائر**) وولى قائد (**تلمسان**)، وكان قبل ذلك لا يولي من (**الجزائر**) إلا الباي بالبرهان، وعزل الباي **علي** من منصبه، وأزاله عن مقامه ومرتبه، وسببه أن هذا الباشا المذكور بالبيان لما تولى الملك نفى بعض الأتراك من أصحاب عمر باشا لـ (**وهران**)، وبعث في أثرهم للباي علي بقتلهم قتلة الشرة، ولما أحسوا بذلك فروا لمحلة الشتاء التي بهبرة، فبلغ الخبر للباشا فاستغاظ شديدا على الباي، واتَّهمه بأنه هو الذي صدر منه لهم ذلك الرأي، وبقي في غيظة بلا ناكثة، وقد

ذهب الباي مدنشا للجزائر كما العادة عندهم من الدنوش على رأس السَّنة الثَّالثة، ولما نزل المشرع موضعه بأسفل (**مليانة**)، أرسل الباشا إليه من عزله، ثمَّ قتله عيانة، وولى من حينه **حسنا بايا** لكثرة جفائه، وأمر بطبع داره، وسجن أولاده وتثقيف نسائه، وتلك عادة الأتراك في الأصل، يوم طبل ويوم حبل، وذهب حسن مدنشا بجميع ما دنش به الباي علي، من الأموال الكثيرة، والذخائر النفسية الغزيرة، والخيول المسومة، والأمتعة المثمنة المقومة، وزاد متماديا إلى أن دخل (**الجزائر**)، فلقيته الناس بالمبايعة والبشائر، فقضى به أربه، وأكمل مطلبه، وخرج منها قاصدا (**وهران**) وأعلام النصر على رأسه شقائق النعمان، والجنود به دائرة، والجيوش خلفه سائرة، تقف بوقوفه وتذهب بذهابه، وتتمثل لأمره ونهيه وتخشى من عقابه، ولازال سائرا إلى أن دخل مدينة (**وهران**)، وقال الحمد والثناء لله سبحانه الملك الديان، الغافر الرحمن.

ثالث ثلاثينهم: وهو آخرهم الباي حسن بن موسى المعروف **باهج حسن** تولى في منتصف ذي الحجة الحرام سنة (1232هـ) وهو اليوم الذي مات فيه الباي علي، ومن خبره: أنه كان في أول أمره يبيع الدخان، ويتعاطى بيعه في السر والإعلان، قال مؤلف (**درّ الأعيان في أخبار وهران**): وكان ذا عقل وافر وسياسة ورأي ناجح ورياسة، ولما رآه الباي محمد الرقيق على تلك الحالة شغف بحبِّه، إلى أن أخذ بمجامع قلبه، لحسن خَلْقه وخُلُقه وأدبه ومعرفته، وعفوه ومغفرته ورحمته، وظهر له أنَّه لا يصلح لمصاهرته إلا هو، وأنَّه هو الذي يوافقه في التذكُّر والسَّهو، فقرَّبه منه وأدناه، وأولاه سرَّه ومعناه، وزوَّجه من ابنته وصيَّره من جملته، وشور له ابنته، بما لا قيمة له، مثل الدرة اليتيمة، والذهب والحرير، والدراهم والدنانير، وغير ذلك من الأمتعة، فصار من حينه في غاية

السعة، وولاه قائدا بفليتة، وانضبطت أموره فليس لها فليته، قال السيد **حسن خوجة في (در الأعيان)**: «وقد ولاني كاتبا للأمور الشَّاملة، ولازمته سنة كاملة، فلم أسمع منه قط جناحا، ولا كلمة فحش ولا مَنًّا ولا فخرا ولا مزاحا، وإنَّما يظهر منه من محاسن الأخلاق، ما يرضى الملك الخلاق.

قال: وكان قليل الغضب كثير الرِّضى، يمسح برؤوس اليتامىٰ ويعيد المرضى، كثير الترحُّم والتودُّد إلىٰ الفقراء والمساكين، محبا للعلماء، والشرفاء والصالحين، مواظبا علىٰ الطهارة لا يتركها أصلا، محافظا علىٰ الصلوات فرضا ونفلا، مجالسا لأهل الفضل والعناية، مجانبا لذوي السفاهة والجناية»، ثمَّ ولاه خليفة الشرق لكنه لم يبلغ فيها مناه، ولا توصل إلىٰ مرغوبه ومنتهاه، وافق فيها مخالفة صهره الباي محمد الرقيق لأهل الجزائر، كما مر فعاقه العقوق عن تلك المشاعر، ثمَّ كان من أمر الله أنه بلغه إلىٰ مكانه، أرفع منها وأرقاه بايا، والأولىٰ أعرض عنها، وقد قحط الورىٰ قبل ولايته فلم يمطروا، ودام عليهم ذلك فتضرروا، ولما ولي عليهم، أمطرهم الله بفضله، وخف بعض غلاء الأسعار الصادر بعدله، قال السيد **حسن خوجة التركي في (درِّ الأعيان)**: «وكذلك قلت هذه الأبيات والله يقول الحقَّ وهو يهدي السَّبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل وهي من الطَّويل:

أيا معشر الإسلام دام سروركم بدولة من في النَّاس دولته ترضى

أمير أتانا بعد ما قحط الورىٰ فأمطرنا ربُّ العباد به أرضا

تراها وقد أبدت من الغيث أبحرا فمن هائم طولا ومن هائم عرضا

كما حسنا كان اسمه حسنت به ليال وأيَّام وطفت به مرضا

إذا ذُكــر البايــات كــان أعفَّهــم وأكثرهم جـودا وأوظـبهم فرضـا
وإن ذكــر الفرســان كــان أكــرّهم وأفرسهم خيلا وأرمـاهم غرضـا
وإن ذكــر الأبــرار كــان أبــرّهم وأوسعهم صدرا وأعظمهم غيظـا

ولما استوثق له الملك وأذعنت له الرَّعيَّة رفض ما كان عليه من الوصف السَّابق وكثر ظلمه وغضبه، وبغضه وعبثه بالرعية، وحدث بوقته الوباء العظيم، وتكرر رجوعه بعد ذهابه، فمات به خلق كثير، وفي وقته مات مجدد القرن الثالث عشر ذو التآليف العديدة، والتصانيف المديدة، الشريف الأمجد، العلامة الفرد، الحافظ **أبو راس** محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم، ابن **معروف بن عبد الجليل الراشدي المعسكري**، الذي ليس له نظير ولا مثيل، يوم الأربعاء خامس عشر شعبان سنة (1238 من هجرة من له العزُّ والشَّرف) وصلَّى عليه العلامة الأسد الهايج فريد وقته السيد **أحمد الدَّايج**، ودفن بعقبة (**بابا علي**) من (**المعسكر**)، فنسبت له العقبة وبها اشتهر، وعلى ضريحه قبَّة، نفعنا الله به وأورثنا منه محبَّة وقربة، وفي تلك السنة نفسها رفع المطر عن العباد في إبَّانه، فتركت الناس الحرث في وقته وأوانه، ولما بقي للصيف نحو الشهر الواحد، أمطر الله العباد بالمطر النافع المتزايد، فحرثت الناس فيه وحصدوا، وبلغت مناهم فشكروا مولاهم وحمدوا، فسميت تلك السنة بصابة شهر، وتعاطى اسمها في البدو والحضر، ثمَّ كثر عبث هذا الباي وظلمه وتعدِّيه، واجتراؤه على العلماء والأولياء والرعية بغاية تعديه، وبان منه الظُّلم والتعدي، وكثر منه الضلال والتردي، فأكثر من سفك الدماء في العباد، وتكرر ظلمه والفساد، فقتل في سنة (1239هـ) السيد محمد بن أحمد الصدمي من أولاد سيدي (**ابن حليمة**)

لما سعىٰ به خاله أبو ذريع عنده، بأنه يريد أن يقوم عليه فبعث له من أتىٰ به، وجعل له ساجلا من حلفاء ظليلة علىٰ رأسه، علىٰ عمود إلىٰ أن وصل لـ **(وهران)** فعلقه مع خشبة، وأكثر من الخطية للرَّعايا حتىٰ صار يقول لعماله: من قتل حجلة فله جناحها، يريد بذلك أن من سعىٰ بأحد، فإنَّه يأخذ من الخطية حظَّه، وهي أجرة الخَلاص، لكثرة ظلمه، أمر كتابه بأن يكتب لمن يخطيه: اعلم أنك استوجبت العقوبة لخدمتك الرادية، ولا يبين سبب الخطية، ثمَّ إنه في بعض الأيام رأىٰ ضعف الرعية، وغناء قياده، وآغاواته وأراد أن يأخذ منهم الأموال، فقال لهم: حاجيتكم: إني هزلت من اليدين والرجلين، وبقي لي الشحم في الأذنين والعينين، فتحير الناس في فهم أحجيته، فقال لهم آغته المعظم الوجيه المحترم، من غاص في الفهم ببحور المعاني، إلىٰ أن أظهرها لكل قاص منهم وداني، المعتصم بالباري، الشجاع الأفضل، السيد الحاج المزاري: أيُّها النَّاس إن باينا يريد بيديه، ورجليه الرعية، لما رأىٰ ضعفهم، ويريد بأذنيه وعينيه قياده وأغواته لما كثر مالهم في نظره، فعليكم بإعطاء المال، وبادر الحاج المزاري، وأتىٰ بما ظهر له من العدد فدفعه له، وقال له هذا جواب أحجيتك، فإني واحد من أذنيك وعينيك، فقال له إنك لخبير بفكها، ثم شرع كل واحد في دفع ما قدر عليه، فسر بذلك وقال لوزرائه: إن المزاري لفهيم، وإنه لآغة جسيم، ولامه بعض أصدقائه علىٰ كثرة الخطايا التي ضعفت بها الرعايا، فقال له إن أهل **(الجزائر)** قد أكلوني بالكلية، ولذلك تراني أكلت الرعية، ثم صار مهما مات أحد وهو ذو مال ونفوس، إلا صير نفسه واحدا من ورثته، فيأخذ حصة معهم علىٰ عدد الرؤوس، وبنىٰ في سنة (1240هـ) رحبة لبيع الحب بـ **(المعسكر)** وكتب علىٰ رخامتها ما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة

والسلام على أفضل رسله محمد الكريم، وعلى آله وأصحابه المرشدين للصراط المستقيم أما بعد فقد أمر ببناء هذه الرحبة الماسوسي، صاحب الخيرات والحسنات السيد حسن باي بن موسى، زاده الله تعالى خيراته وعفا عنه سيئاته ولوالديه، آمين، ثم كتب هذه الأبيات:

بناها حسبة لله حسن باي	بوحسمة ايلد عن بنيادای
صفحه خطرا يله اجنلن	صحة عافيته أولسون
أول بارئي غدا ايكن	جهاتك ايلسون شادان
وهم ايلسون رحمة أبا	واجد أدنه رب غفران

صوره أحمد بن محمد سنة (1240هـ).

ثم قام عليه في سنة (1242هـ) السيِّد محمَّد نجل القطب العلامة السيد أحمد بن سالم التجيني، وجاء معه ستمائة رجل من التجانية، أهل عين ماضي وعدد من العرب مع قوم الحشم، إلى أن وصل للمعسكر، ودخل باب علي منها، ثم خرج منه ورجع لغريس، فمات بعواجة مع أصحابه كلهم، وكان من الخبر في سبب مجيئه أن الباي حسن دخله تخمين بأن التجيني سيقوم عليه كقيام ابن الشريف الدرقاوي، على الباي مصطفى ونوى أن يكسر شوكته قبل تزايدها، ويهدم قوته قبل تعاهدها، فجمع جيشا عظيما، وعددا كثيرا جسيما، وغزا به على السيد محمد بن أحمد بن سالم التجيني بعين ماضي وحاصره بها شهرا كاملا، إلى أن حصل الصلح بينهما، على يد السيد الحاج محمد بالخروبي القلعي كاتب الباي حسن، على أن يعطي التجيني للباي لزمة في كل سنة قدرها خمسمائة ريال، ويعطيه حالا عشرين مائة ريال وذلك عام (1241هـ)، فأخذ

الباي تلك الغرامة الحاضرة، ورجع لـ **(وهران)** ثم إن التجيني لما رأىٰ ما حل به بغير موجب، ظهر له مقاتلة الأتراك والغزو علىٰ الباي حسن في محله، كما جاءه لمحله ودس ذلك في قلبه، وصار يجمع الجنود ويحشد الحشود، ويكاتب من يظن به الإذعان له، ومن جملة ذلك الحشم، وأخبرهم بما يريده فوافقوه علىٰ ذلك، ولما دخلت سنة (1242هـ) ظهر للباي حسن السفر من **(وهران)** للجهة الغربيَّة ليتفقَّد أحوالها، فذهب بجيوشه العديدة التي رأسها المخزن، سيَّما أعيانهم، قاصدا **(تلمسان)**، ولما نزل بالحناية جاءته ثلاثة مكاتب في وقت واحد، أحدها من عند الهواري الحشمي، وثانيها من عند قدور بن سفير قايد المعسكر، وثالثها من عند مرة أحمد التركي الذي نفاه الباشا حساين من الجزائر لـ **(المعسكر)** وجعله بها بمنزلة ناظر الأحباس، يخبرونه فيها بأنَّ الحشم قد اتفقوا مع التَّجيني علىٰ القيام عليه، ولما قرأ الباي حسن المكاتب وفهم ما فيها أعلم كافة من معه من الجيش، وقال للقياد الذين معه لابد لكم تأتوني بجيوشكم الباقية، والجمع بيننا وبينكم في واد مكرة، ثمَّ رحل بالغد من الحناية وقصد المعسكر فنزل بـ **(وادي يسَّر)** ثم رحل ونزل بـ **(غريس)** بـ(عواجة) فأتاه الحشم كافة للضيافة فضيفوه غاية وهم لا علم لهم بما أراده، ثمَّ بعد الأكل استشار آغة الدواير وهو السيد الحاج محمد المزاري بن قدور بن إسماعيل، آغة الزمالة، وهو السيد قدور بن وارد علىٰ شأن الحشم، فأشار عليه بقتل قيادهم الاثنا عشر، وهم محمد ولد عبد الله وابن أخته الحبيب محمد بن زكموط ومحمد بن نكروف وغيرهم، وكان الكبير في هؤلاء القياد الاثنا عشر سنًّا ورأيا، وتدبير وشجاعة، محمَّد ولد عبد الله فأمر الباي بقبض القياد فقبضوا أحد عشر، وفر القايد الحبيب ابن أخت محمد ولد عبد الله لكونه لما سمع بما

يفعله الباي بهم لم ينزل على فرسه، ووقف من بعيد ينظر ما يفعله الباي مع القياد، فلما رآهم ذهبوا بهم لبشوظة وهي محل القتل، هرب حيث شاء، ثمَّ إنَّ القياد الإحدى عشر لما عاينوا القتل، وتحققوا به نطق منهم كبيرهم محمد ولد عبد الله، وقال: يا هذا لو تاق ظلمتنا من غشك، سلط عليك الغش، فقال له محمد بن زكموط: يا هذا المختل في عقله حلفك لا ينفع، ومن تحلف له لا ينظر ولا يسمع، فالشاه فيك على القساوة، حيث كنت من أهل السعادة، فصرت من أهل الشقاوة، ولما وصلو لبشوظة، وصارت جموعهم مفضوضة، قال محمد بن زكموط لطربيز، وهو الموكل بقطع الرأس بأمر الأمير، سألتك بالله أن تبدأ في القتل بمحمد ولد عبد الله لتحصل منه الراحة، لقلة رأيه الذي فسد، وعدم سماعه لقولنا، حيث أصم بعد أن كان من أهل السمع، وأبكم بعد أن كان من أهل الفصاحة، ثم اقطع رؤوسنا بعده واحدا بعد واحد، ففعل طربيز ما قاله ابن زكموط الماجد، قال ولما قتل الباي الإحدى عشر قائدا وبعث برؤوسهم لـ (**المعسكر**) بعثا متواردا، أنكر عليه فعله كافة الترك الذين معه في المحلة والغائبين، كما أنكر عليه ذلك آغاواته المنعزلين، وقالوا له استشرت صغارا على فعل ذميم، سينتج منه لك ولنا ضرر عظيم، ثم إنَّ **الباي حسن** لما قتل القياد وحاله استبشر، رحل من (**عواجة**) ودخل (**المعسكر**)، وكان في قلبه وجل من القايد عبدي وأبي الأقدار، لعلو كلمتها عند العرب والترك في السرِّ والإجهار، ولما قتل كبراء الحشم ضرب خطية كبيرة على الحشم، فبعث عبدي وأبا الأقدار لقبض تلك الخطية، وغرضه قتلهما لتكون لهما نكية، ويتهنى منهما ويستريح، وينفرد في ملكه من المليح والقبيح، فذهب عبدي وأبو الأقدار ولما وصلا للحشم، قالوا لهما لم تستحيوا من العار، بالأمس قتلتم قيادنا، والآن

جئتم لأخذ الخطية منا، وقد جرحتم أكبادنا، وغرضكم أيها الأتراك أمام النكاية، فستريان مالكما فيه نكاية، وهموا بقبضها ففر القايد عبدي وأتبعه الحشم إلى أن دخل في خيمة سيدي الأعرج أحد أولاد سيدي محمد بن يحيى للحرم، فدخلوا عليه في الخيمة وأخرجوه جبرا على السيد المذكور، وقطعوا رأسه كما قطعوا رأس أبا الاقدار وبعثوا بالرأسين للتجيني، وقالوا له: على رأس عبدي هذا رأس الباي حسن وعلى رأس أبي الأقدار هذا رأس خليفته، فاستراح الباي بفعله من التركيين والحشم، ولم يبال بما سيأتيه من الهم، ثمَّ إنَّ الحشم حثوا على التجيني في القدوم معهم لقتال الأتراك، ولما رجع الباي حسن لـ **(وهران)** ومكث بها مدة، قدم التيجيني قائما عليه في جيش عظيم من أهل الصحراء واليعقوبية وستمائة من التجانية، ووصل لغريس في خريف (1242هـ) فنزل بفروحة في يوم الأحد، فبعث الهواري للباي بذلك فلذلك جعله قائدا على الحشم، وأطاع الحشم للتجيني لما أحل ببلادهم، بجيوشه العديدة، ثمَّ إنَّ التجيني كاتب **(بني عامر)** و**(بني شقران)** و**(البرجية)** و**(الغرابة)** و**(الزمالة)** و**(الدوائر)** وسائر النَّواحي الشَّرقية والغربية بالإذعان له، فأما **(البرجية)** و**(الغرابة)** و**(الدوائر)** و**(الزمالة)** هؤلاء الأعراش الأربعة المتوالية الذين هم مخزن الباي فأبوا من الإذعان له، و أما **(بنو عامر)** و**(بنو شقران)** وغيرهم فقد توقفوا، وصاروا يترقبون الغالب من الفريقين يتبعونه، ثمَّ رحل التجيني في يوم الاثنين للمعسكر، وكانت على سبعة أقسام وهي: **حومة العرقوب** وعليها السُّور، و**حومة سيدي علي محمد**، و**حومة عين البيضاء**، و**حومة الباب الشرقي**، و**حومة باب علي**، و**حومة سيدي محمد أبي جلال**، وهذه الخمسة لا سور عليها، و**حومة المدينة الدَّاخلة** وهي وسط البلاد وعليها السُّور،

ونزل علىٰ **الحومة الغربية** وسط النَّهار المذكور، وهي **(حومة العرقوب)**، فتلقَّاه أهل البلاد كلُّهم بالقتال، وصار الحرب بينهم وبينه سجال، وأعان المعسكريِّين **بنو شقران** في ذلك القتال، وقد مات فيه خلقٌ كثير مِن الفريقَين، وبات في تلك الليلة بأعلىٰ الحومة البحرية ـ وهي: حومة باب علي ـ وفي يوم الثلاثاء بعثَ لهم بالدخول تحت طاعته والإذعان له، فأبوا وفدَوه بالقتال، فكان مِن حالهم أنه قتلَ منهم خلق كثير، وخرب كثيرا مِن تلك الحومة، وجاس خلالها، فلما رأوا ذلك ساروا له بفرسٍ أشهب اللون، ودخلوا في طاعته وتحت حكمه، وأتوه في تلك الليلة بمؤونة الجيش مِن المأكول والمشروب والعلف للدواب، واندرج في ذلك أهل الحومة الشرقية ـ وهم أصحاب الباب الشرقي ـ وكذا أصحاب سيدي محمد أبي جلال، ثمَّ في الغد الذي هو يوم الأربعاء، ارتحَل مِن مَوضعه ونزل بخصيبية، علىٰ الحومة القبيلية ـ وهي: **حومة سيد علي محمد**، و**عين البيضاء** ـ وبعث لهم يخاطبهم بالدُّخول في طاعته والإذعان له، أو يحلَّ بهم ما حلَّ بأهل **(الحومة البحرية)**، فساروا له بفرس ودخلوا في طاعته، وفي الغد الذي هو يوم الخميس تهيَّأ بجيشه لقتال (حومة المحيط) بها السور وهي (حومة العرقوب والمدينة الداخلة)، وقد دخل سابقا أصحاب سيدي محمد أبي جلال لعرقوب وأصحاب سيدي محمد علي للمدينة الداخلة **(حومة المدينة الداخلة)**، ثم ظهر لهما في الخروج فخرجا، وسدَّت أبواب المدينتَين، فبينما هو يحاول القتال مع أهل المدينتَين إذا بالباي **حسن** قد سمعَ وخرج من **(وهران)** بجيشه ومخزنه ووالىٰ السير بـ**(الكرمة)** و**(تليلات)** و**(سيق)** و**(وادي الحمام)**، وهو **(مشرع حسين)**، سمي بذلك لكون حسين التركي تعدىٰ علىٰ بعض العرب بفعل المنكر بذلك المشرع، وقتلوه به وذهب دمه هدرا

وكان من عادة الباي دخوله للمعسكر يمشي مع طريق عقبه الملاحة، سميت بذلك لنكبة الملاحة بها، فنكب عن تلك الطريق، وذهب مع (**تيفرورة**)، وأخذ طريق سيدي علي بن أحمد (نفعنا الله به)، ولما قرب منه طوىٰ سناجيقه، وأبطل ضرب طبوله وغوائطه ونواغيره، توقيرا للولي، وبعث لضريحه زيارة تدفع بيد مقدِّمه، وسأل مِن الله الإعانة علىٰ عدوِّه، مقدِّما في دعائه التوسُّل بذلك الولي، ولما جاوزَه قال له آغة ليث الضراغم، ومن كثرت منه للأعداء المقاصم، السيد مصطفىٰ بن إسماعيل وسائر الآغات: «أيُّها الباي، لا تخش من عدوِّك، فانشر سناجقك، واضرب طبولك كالعادة، حيث جاوزت الولي، والنصر لنا لا لغيرنا».

ولما وصل **الباي** لـ (**خروبة الصيادة**) المطِلَّة علىٰ (**غريس**)، هبط علىٰ قرية (**الكرط**)، ومر علىٰ سيدي علي قطني، ولما طلّ الباي علىٰ التَّجيني رأىٰ عنده الجراد المنتشر، وقد سمع التّجيني به فتأخَّر عن **المعسكر**، وهبط ناحية **أولاد رح**، حين رأىٰ الباي ذلك دخله الخوف والجزع، ولحقه الرعب والفزع، وظن أن الدائرة عليه لا له، فثبَّته أعيان مخزنه ووعدوه بالنصر، وقال له آغة السيد عبد الله بن الشريف الكرطي: رأي الصِّغار ومشورتك للأولاد هو الذي أوصَلك وأوصلَنا معك لهذا الأمر، فضحك آغة السيد الحاج محمد المزاري مِن قوله، وقال للباي: يا سيدنا سترىٰ ما يصدر من الأولاد وما ينتج مِن فعل الصِّغار، وقد كان ابن يحيىٰ بن حمود القلالي التجيني للمعسكر ومقاتلتهم له، لكون هذا ابن يحيىٰ كان خليفة لقايد المعسكر، وخليفة القايد يقال له آغة القايد، وبعث الكتاب مع ابنه، فجاء الإبن بالليل ولما وصل لمحلة الباي قبضه أهل المحلة عن الدخول، وسلبوه من كل شيء وهو يقول لهم أوصلوني عند آغة

السيد مصطفى، فأمرهم بإتيانه له، و لما وصله سأله عن نفسه ونسبه فعرفه بذلك وناوله مكتوب أبيه، فعند ذلك أمرهم أن يردوا له كل شيء فردوه فورا ولم تضع له قلامة، و ذهب آغة مصطفى بمكتوب خليفة القايد للباي حسن وعرفه بالواقع، وقال له: أيها الباي إن ما تراه من الجراد فضباب على رؤوس الجبال، وستطلع عليه الشمس الحارة فينصرف عن آخره وأن العرب ستأكل بعضها ويقتل بعضها بعضا فانشر ألويتك، ونقر طبولك، ولا حرج عليك، فنشرت السناجيق في الحين، ونقرت الطبول والغوائط، والناغرات بصوتها الحنين، والتقى الجمعان بعواجة من بلاد أولاد رح ونشأت الحرب بين الفريقين وتزاحفت الصفوف، وحمي الوطيس وترادفت الردوف.

قال: فلم يكن غير ساعة وإذا بالحشم وسائر الأعراب قامت على ساق واحد وبقي وحده في تجاجنته، ويقال: إن الباي أعطى لأعيان الحشم وكافة العرب أموالا كثيرة، فأوقعوا الهزيمة، وفروا عنه وتركوه في جيشه الخاص به منفردا، فصار جيشه يذبون عن أنفسهم، ويسارعون في مشيهم نحو بستان أولاد رح، وهو بستان عظيم من الهندية، ليتحصنوا به فحال بينهم وبينه جيش الباي، وأوقفوهم بموضع يقال له السمار، وأداروا بهم دور مقياس، واشتد القتال بين الفريقين إلى أن قتل التجيني بجميع جيشه، ولم يفلت منهم واحد، ومات خليفته السيد إبراهيم بن يحيى من أولاد سيدي محمد بن يحيى، ومن جيش الباي عدد كثير، منهم محمد ولد قدور البحثاوي وقايد غمرة، وخلق كثير، وتكسر آغة السيد الحاج محمد المزاري من ركبته اليمنى، وكان عدة بن قدور آغة الزمالة المتقاعد في النوبة عن الخدمة، حلف أنه إذا ظفر بالتجيني ليضربنه بسيفه حيا كان أو ميتا، ولما ألفاه ميتا ضربه بالسكين للصدر إلى أن هضمه من صدره

تهضيما كبيرا بتلك الضربة، ولما تم القتال أمر الباي حسن بقطع رأس التجيني، ويده ورؤوس سائر التجاجنة، فقطعت الرؤوس وأتي بهم للباي فبعثهم أمامه للمعسكر، ورحل ودخلها فارحا مسرورا، ومؤيدا مغتبطا منصورا، و بمخزنه العظيم نال عزا وشكورا، ثم رجع لـ(وهران) في عزه وإكرامه وفضله وإنعامه، وألوية النصر تخفق على رأسه إلى أن دخل (وهران) في أنيسه وأنسه.

وفي أول سنة (1243هـ) وقع غلاء عظيم، وقحطَ فيه النَّاس إلى أن صار الباشا يفرق خبزًا صغيرا كالرَّغيف على الناس، فسمِّي العام بـ : **عام خبز الباشا**، وكانت الأولياء تقول: آخر التُّرك من يسمى حسن، ومنهم مَن قال: سيأتي حسن يأكل الرتغة ويزيد الرسن، فكان الأمر كما قالت الأولياء، وقتل السيد الحاج محمد البوشيخي بأن علقه بالخشبة بوهران، وقتل العلامة السيد ابن عبد الله بن حواء التجيني شيخ درقاوة، وقتل معه السيد فرقان الفليتي، لما سعى في قتلهما عند قاضي المحلَّة، السيد محمود بن حواء، فقتلهما بمقبرة سيدي البشير ودفنا بقبر واحد ذا لَحدَين، ومنع العلامة السيد الحاج محيي الدين والد الأمير السيد الحاج عبد القادر من الحجِّ، وأسكنه بـ(وهران) بمنزلة المثقف ولم يخل سبيله إلا بعد مدَّة طويلة، ثم جمع جيشا عظيما وذهب به لزاوية الشيخ بالقندوز القداري بمينا، وليس عند هذا الشيخ سوى الطلبة، يتعلَّمون القرآن ليقتله، ولما رآه قال: مِثلُ هذا لا يثورُ علينا، ورجع، ثمَّ رجع له في عام (1245هـ) في جيشٍ عظيم، ولما وصله قال لمن بعثه يأتي به إذا امتنع مِن الإتيان، وأراد الطلبة الحرب فارجع لي بذلك، وكان عددهم كثيرا، وأوصى جيشه من الأتراك بقوله لهم اعلموا أني إذا ضربت البارود بالكابوس فعليكم بالأقباب التي بها الطلبة وشيخهم، فاقتلوهم ولا

تحاشوا أحدا، وكان من عادته إذا أراد المكر بأحد يعض لحيته، فصار يعضُّ فيها وبيده الكابوس، فلما رأىٰ ذلك آغة مصطفىٰ بن إسماعيل أتاه فورا، وقال له: أيها الباي ماذا تريد أن تفعله أردت أن يتكلم فيك البارود من جيشك الذين معك ؟ فقال له: وأي سبب ؟ فقال له: إن هؤلاء الطلبة كلهم من الجيش الذين معك، بعضهم من **الدوائر والزمالة والغرابة والبرجية**، وبعضهم مِن **بني عامر**، وبعضهم مِن **الحشم**، وبعضهم مِن **المجاهر**، إلىٰ غير ذلك مِن النواجع، فمنهم مَن هنا ولده، ومنهم مَن هنا أخوه، إلىٰ غير ذلك، وإذا رأوا القتل فيهم لا جرم أنهم يقاتلونك علىٰ قرابتهم، والحقُّ عندهم، والرأي الذي أقوله لك: أترك ما نويته، وابعث مَن يأتي لك بهذا السيد الذي جِئت لأجله، حيث لم يهدِك الله في شأنه، واترك الطلبة يذهبون لأهلهم، قال: فقال له الباي: رأيك صواب، فترك ما أمر به، وأدخل كابوسه في غمده، وبعث له أولا؛ السيد **المزاري** ليأتي به، فذهب له ورجع بلا شيء، وقد أعطاه زيارة ولم يحتم عليه الأخذ، ثم بعث له ثانيا؛ السيد **قدور بن المخفي** ففعل كفعل **المزاري**، ثم بعث ثالثا؛ رجلا عامريا يقال له: **ابن دهما**، فذهب له ودخل لقبَّته ولطمه لخدِّه وأخذه بشدَّة وجرَّه علىٰ الأرض إلىٰ أن أوصله للباي وهو يسحب فيه، فأمر الباي بوضع الكبل عليه، فكبل وافترقت الطلبة من حينهم وكلٌّ واحدٍ ذهب لأهله.

ثم ارتحل الباي مِن ذلك الموضع وذهب مشرقا، فقتله خنقا بطريقه، ولما مات الشيخ **بالقندوز** دون علم أحد، صار يقول السيد الحاج **محمد أبو قراب**: أتىٰ أمر الله يا عباد الله، فسلَّط الله علىٰ المحلَّة ريحا عظيما كسرت به ركيزة وثاق الباي وأزالته عن موضعه وضجَّت الدَّوابُ بالصَّهيل، وماجت الناس في بعضها بعضا، ثمَّ زال بعد

ساعة فعلموا بمَوت السيد، فحفروا له ودفنوه، وكان أبو قراب مِن أولياء الله الكاملين، وكان على الأبد بيده قرابه، ويمشي مع المحلة حيث ذهبت على رِجلَيه، اشتهر بهذه الكنية، وقد أمات الله **ابن دهما** شرَّ موتة، ولما قتل بالقندوز صار الشيخ الكامل والقطب الواصل السيد مولاي **محمد الوهاصي** يقول: يا للعجب **!** التُّرك يقتلون بالقندوز، ومولاي محمد يموت فيه، وبموته يحصل الفرج للإسلام، ويحل بالترك الانتقام، ثم رجع يراقب البحر، ويقول جهرا: يا لمركيش أرواح تعيش، في لحم البقر والدشيش، ويكرر ذلك إلى أن مات، وبموته انقطع الأتراك.

ومن الأولياء من كان يقول في أيام السمائم، ماذا يقع بأهل العمائم، إلى غير ذلك من كلامهم، ولم ينج من الباي **حسن** أحد من الأولياء إلا السيد **محمد بن عبد الله** البوشيخي المعروف عند الناس بالشيخ **ابن سحنون،** فإنه لم يتصرف فيه بالقتل، وكان ساكنا بضواحي تلمسان، وسعى به الوشاة عنده بأنه يريد أن يقوم عليه، فبعث له عِدَّة أناس، واحدا بعد واحد ليأتوا به، فكلُّ مَن يَصِله منهم لا يقول له شيئا، ويرجع للباي ويقول له: إنه عصى القدوم عندك ولا يأتيك إلا إذا ذهبت له بجيشك فنظفر به، ثم إن الباي دبَّر في حاله فقال: لا أذهب لرجل واحد بجيوشي، وإنما أبعثُ له محمد المزاري، ونَنظر بعد ذلك ما يكون به الأمر، و كان المزاري ليس بآغة، ولم يتولَّ ذلك المنصب أصلا، فأمره الباي بالذَّهاب لهذا السيد والإِتيان به، فامتثلَ أمرَه، وقال: لا حول ولا قوَّة إِلَّا بالله العظيم، ما هذه المصيبة التي بُليت بها، وأوصاه بأن يأتي به مكبولا على برذعه، فذهبَ المزاري متأَسِّفا، ولما وصله نزل عنده ونظر في أحواله، فوجدَه مِن أولياء الله المتعبِّدين، المقرّبين للفقراء والمساكين وغيرهم، وأنه ليس من أهل الثَّوران، فبات عنده وهو يقول في نفسه: كيف يكون الخلاصُ مِن هذا الأمر يا مَن بليتني به، و لما

أصبح الصَّباح أراد أن يقول له علىٰ القدوم معه لـ(وهران) مكبولا علىٰ برذعة، فقال له: خذ الكبل وافعل ما أمرت به لا خوف عليك، وكل من جاءني قبلك لم يقل لي شيئا، فقال له المزاري: يا سيدي نفسي لا تحب أن آخذك معي مقيدا علىٰ برذعة، وإنما تحب أن تركب معي علىٰ فرسك مسرجا، ونذهب معا لوهران لدىٰ الباي ويفعل الله ما يريد، فقال له السيد: يا مزاري لا تعصِ أمر الباي فإِنَّه أمير المؤمنين، وطاعته واجبة عليَّ وعليك وعلىٰ كافة الرعية، فقال له: يا سيدي، لا يليقُ بنا إِلَّا ما قلتُ لك، فقال له: خُذ القيدَ مِن بيتي لكي أذهب معك، وإِلَّا فلا، فأتىٰ له السيد بِقَيد وأمرَ صاحبَه أن يُبرذِعَ له بغلة ويسرج فرس المزاري وفرسه، ففعل، فركب المزاري والسيد كلٌّ منهما علىٰ فرسه، وركب الخدم علىٰ البغلة المبرذعة، وجاؤوا إلىٰ أن قربوا من مدينة (وهران)، فأقسم السيد محمد بن عبد الله علىٰ المزاري أن يكبله ويركبه علىٰ تلك البغلة ليدخل المدينة علىٰ تلك الحالة، فقال له المزاري: يا سيدي، إِنِّي أخشىٰ علىٰ نفسي مِن ضررك، فضرر الباي ولا ضررك، فقال له: يا ولدي لا خوف عليك، لأنك مأمور بذلك، وتظهر الطاعة منك ومني، ففعل به المزاري ما أراد وأدخله وهران، وقصد به بيتَه فأنزلَه فيها وبات، ومن الغَد ذهبَ للباي حسن، وقال له: يا سيدي، إِنَّ الذي أمرتني عليه قد جئتُ به علىٰ الحالة التي أردت، وإنه بِبَيتي، وإِنَّ كلَّ ما قيل فيه كذب، والآن نسأل منك الأمان عليه، فإِنِّي أتيتُ به دون مخالفة منه لك، وإِنَّ كلَّ مَن بعثته له قبلي وصلَه ولم يقل له شيئا، وحكىٰ للباي جميع الواقع، فقال له الباي: وما تريد يا مزاري ؟ فقال له: الدية أو الخطية التي نلزمه بها نؤدِّيها لك، وهو في ضمانتي، فنحب يا سيدي أن تعطيه أمان الله أن لا تنتقم منه بالقتل أو السجن، لأنه في حرمي، فقال له: عليه الأمان أن لا شيءَ عليه، والله شاهدٌ علىٰ ذلك، غير أني أختَبره ببعضِ الأمور، فذهب المزاري وأَحضرَه

لدىٰ الباي، ولما مثل بين يدَيه حصلت للباي منه هيبة، ثم قال له: يا هذا الرجل، ما الذي يسمع عنك؟ فقال له: إذا أخبروك بأني جاعل بيتا للطلبة ولضياف الله، وللمخزن إذا جاء، فذلك حق، وإذا أخبروك بغير هذا فذلك كذب عليَّ، ولستُ مِن أهله، فقال له: إني نخايل فيك بعض الأسرار، وأردتُ أن أختبرك بأمور لك فيها ضرر، فإن كنتَ مِن ذوي الأسرار الربانية فتخلص مِن ذلك، وإن كنتَ مِن الأحزاب الشَّيطانية فذلك آخر عمرك، فقال له: اِفعَل ما تريد لكني أقول لك قولا، إن أنتَ أهلكتني فإنك تهلك، وإن أنتَ أنقذتَني فإنك تنقذ، فإن بعثتني مع البر فإنَّك تبعث برا، وإن بعثتني مع البحر فإنك تبعث معه، فبادِر بالاختيار، فألقاه الباي علىٰ مخاطف الحديد فصار يلعب عليها والباي ينظر، ثمَّ أخرجه وألقاه بين يدي السِّباع فلما رأته بصبصت له واطمأنَّت إليه ولم تهلكه بشيء، فصار يركب عليها واحدا بعد واحد وهي مُذعنة له، والباي بمن معه ينظرون، ثمَّ أخرجَه وألقاه في الكوشة فطفيت النَّار كأنها لم توقَد أصلا، واتكأ السيد فيها طولا، والناس ينظرون ويتعجَّبون مِن أمر الله، ثم أخرجه وردَّه لبيتِ المزاري، وقال له: غدا نبعثك لبني يزناسن مع البحر ويلحقك أهلك مع البر في الأمان، فأخذه المزاري وذهب به إلىٰ بيته، فقال للمزاري: اعلم أنِّي ضمنتُ لك مِن الآن الرِّياسة، ولأولادك مِن بعدك مؤبَّدة، وإنه لا يتصرَّف أحدٌ فيكم بسوء، وإنَّكم علىٰ الأبد في أمن مِن الضَّرر المخزني، ثمَّ من الغد بعثَه الباي لبني يزناسن في السَّفينة، وأمر أن يلحق به أهله في أمن وأمان، فكانت دعوته بالخير علىٰ المزاري هي سبب توليته لمنصب آغة، فإنَّه في تلك الأيام صار آغة وذلك سنة (1242هـ).

وكذا خلص مِن شرِّه الضَّرير السيد إبراهيم الخروطي، فإنَّه بعث له السيد محمد بن المختار الزمالي ليأتيه به، ولما وصل لـ(وهران) نظر في حاله فوجدَه من الذين لا يثورون

فسرَّحه لأهله، ويقال: إنه دعا بالشرِّ علىٰ محمد بن المختار، ومقامه خارج (وهران) وفي أيامه (1244هـ) مات العلامة السيد بن قريد بـ(وهران) شهيدا ببيته، قتله بعض من تسلَّط علىٰ زوجتَيه، وقام ليدافع ذلك ليلا فقتل، ومن الغذ أُخِذت زوجتاه وذُهب بهما للباي، فقال: شكروهما وارموهما في البحر، فقيل له: إن إحداهما حامل، فقال: ليست تأتي بابن قريد، ففعل بهما ما أمر به الباي، وأمر بحرق نوايل تلك الحومة، ونجا الظالمان إلىٰ أن قبض أحدهما في ولاية الأمير السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدين، ورفع له فبحث في أمره، ولما ثبت القتل عليه مكَّنه مِن قرابة الشيخ بن قريد فقتلوه قصاصا ـ لا رحم الله قاتل ابن قريد أبدا ـ

وكان مِن عادةِ الباي حسن أنَّه لا يؤرِّخ مكاتبه بالسَّنة وغيرها، ولما له في تلك التواريخ من الفائدة، فمن ذلك بعض مكاتبه لباشا الجزائر نصُّه بعد الحمدلة والتَّصلية:

« أمدَّكم الله بمدد الهداية والتكريم، ودرَّعكم بدروع الحماية والتعظيم، مقام من أنام الأنام في مهد الأمان، وأفاض عليهم سجال العدل والإحسان، حامي بيضة الإسلام، وناصر دين محمد عليه الصَّلاة والسَّلام، والمالك العادل، المجاهد الحافل، مولانا الدولاتلي أبو المعالي سيدنا حسين باشا، لا زالت الأعداء البرية والبحرية من سطوته تضمحل وتتلاشىٰ.

السلام علىٰ مقام سيدنا الكريم، المحفوف بالتبجيل والتعظيم، والرحمة الشاملة، والبركة الكاملة، ما غرَّد الحمام، وأذَّن المؤذِّن وكبَّر الإمام.

أمَّا بعدَ حمدِ الله الذي نصر عباده علىٰ أهل الصليب وعُبَّادِه، وفتحَ علينا بغنائم منهم وسبي وأسارىٰ، وأمكن رعب المؤمنين في قلوب أعدائه أعراض النصارىٰ، حتىٰ

كان القليلُ مِنَّا يظفر بالقويِّ منهم، ويتمكَّن بناصية مَن أخرج عنهم، فضلا منه ومنة، وقد وعد الشَّهيدَ منَّا بدخول الجنة، فله الحمد على هذه النعمة العظيمة، والمنحة الكاملة العميمة.

هذا ما نعرف به سيادتكم ـ أدامها الله ـ إننا خرجنا من (وهران) يوم السبت الثامن عشر من صفر الخير بِقصد تسريح المحلَّة المنصورة ـ بلطف عناية الله تعالى ـ وفي يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر التاريخ لحِقتنا مكاتب مِن عند قائد الدار وقايد مرسى وهران اثنان: أحدهما لسيادتكم، والثاني لأخينا وابنكم المعظَّم السيد إبراهيم وكيل حرج باب الجهاد، وذلك من عند الرايس علي البوزريعي، فها نحن وجهناهما لحضرتكم العالية بالله، والذي أخبرنا به قايد المرسى في كتابه أن الرايس المذكور دخل عندهم يوم الاثنين، الذي هو قبل هذا اليوم، ففتح الله عليهم بغنائم ثلاثة مراكب، الأول موسوق بالقهوة والسكر، والثاني موسوق بالقماش، والثالث موسوق بالزواق وأصناف العطرية، وأسروا تسعة وعشرين روميًّا، أتى منهم الرايس علي البوزريعي بواحد وعشرين رأسا، وبقيت ثمانية خلفهم عند رفيقهم الميورقي مع المراكب المغنومة، وأوصاه إِن أدخله الرِّيح بجبل طارق فيبيع جميع ما بيده، لأن الريح فرق بينهما.

وأخبرنا أنَّ الرايس علي البوزريعي عنده القدوم إلى محروسة الجزائر عند مهب ريحه فالله يصحبه السلامة بمنِّه وفضله آمين.

هذا كلُّه مِن فضل الله وبركة مقامكم ـ أمدَّكم الله بنصره، وأمنحهم بظفره ـ وثم السلام، في البدء والختام.

وكتب عَن إِذن ابنكم المعظَّم السيد حسن باي ـ أمَّنه الله ـ آمين ».

ولا زال حسن بايا بـ(وهران) إلىٰ أن دخلها الفرانسيس فحملوه للمشرق إلىٰ أن مات به.

واعلم أن الأتراك لما تمهَّد لهم المُلك بالجزائر كثر ظلمهم وفسادهم بحيث لا يليق أن يذكر ما كانوا فيه من الظُّلم والمناكر، وتواتر ذلك علىٰ الألسنة بغاية التَّواتر، فاشتغلت العلماء في ذكر ذلك في نظمهم، فمن ذلك قول العلامة الشَّاعر، الدَّرَّاكة الماهر، **أبي عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني** في **(نونيته)**:

بنىٰ السدَّ ذو القَرنَين للنَّاس رحمة　　　فيا ليتَه مِن شوكة التُّرك هنَّانا

ومنها قول الشَّاعر السيد **مسلم بن عبد القادر** في **(رجزه)**:

صناديد لولا الفساد في الورىٰ　　　لقُلنا قلَّ مثلهم فوق الثَّرىٰ

عاتوا عتوًّا علىٰ الخلقِ وجاروا　　　فكانوا أكثر العبادِ وباروا

فرفع الكل الأكفَّ ودعَوا　　　بما به أجاب الله ورجَوا

أمهلهم له بلغ الوقت الأجل　　　أبدلهم بغيرهم ثمَّ العمل

كأنهم ما كانوا في عزٍّ وما　　　تملَّكوا دهرا طويلا منتما

وقال قبل هذا:

أدَّبهم ربُّهم لما طغَوا　　　عرَّفهم بقَدرهم لما بغَوا

فاشتغلوا بالظُّلم ليس من عدل　　　فأُخِذوا أَخذًا وبيلا بالمهل

لما نسُوا ما ذكِّروا به ختَم　　　علىٰ قلوبهم الله وانتقَم

الدَّولة التَّاسعة
الفرانسيس

ويقال لهم: **الفرنج**، والكلام عليهم في سبعة مواضع: اهـ[1].

(1) هنا انتهى التأليف، أي: أنهاه صاحبه ولم يتعرَّض للاحتلال الفرنسي.

فهرس الموضوعات

PUBLICATION DE LA BIBLIOTHÈQUE NATIONALE
TEXTE ET ETUDES HISTORIQUES – N° 2

MUHAMED IBN YUSUF AZ-ZAYYANI

DALIL al – HAYRAN
WA ANIS AS – SAHRAN
FI AKHBAR MADINAT
WAHRAN

Texte établi par
Mahdi BOUABDELLI

INTRODUCTION

L’ouvrage que nous mettons aujourd’hui à la disposition du public, est une histoire inédite de la ville d’Oran, intitulée Dalil al – hayran wa anis as – sahran fi akbar madinat wahran, qui fut écrite à la fin du siècle dernier par Muhammad B. Yûsuf Az-Zayyâni.

Nous ne connaissons que peu de choses sur l’auteur, qui semble appartenir à une famille de lettrés, puisque son oncle Ahmed B. Yûsuf Az-Zayyâni figurait, en 1170/1756, parmi les savants occupant les postes de conseillers auprès du Bey Ibrahim Al-Malyâni.

Quand l’auteur lui-même, on sait qu’il a occupé le poste le poste de cadi, en1861, à Bordj El-Mokhfi, prés de Maskara ; puis il a assuré les mêmes fonctions, en 1883, a Oued Tlelet, puis, plus tard, a Sig. Il était encore en vie au début de ce siècle, comme en témoigne une lettre que lui a envoyée Ali B. Abd-ar- Rahmân Al-Djazâ’iri, muphti d’Oran, en1901.

Pour ce qui est de l’ouvrage, Dalil al-hayrân, il se divise en deux tomes, et comprend quatre sections :

- La première est consacrée à une explication lexicographique du toponyme « Wahrân » et aux différentes opinions émises par les historiens à ce sujet.
- La seconde traite de la fondation d’Oran.
- La troisième est consacrée aux savants et saints d’Oran, et notamment Muhammed b. Umar al-Hawwârî, mort en 843/1438, et son disciple et successeur Ibrâhim at-Tâzî.
- La quatrième, qui est la plus longue et la plus importante, puis

qu’elle comprend la plus grande partie du premier tome et tout le seconde tome, passe en revue les dynasties qui en établi leur domination sur la ville d’Oran depuis sa fondation jusqu'à l’époque de l’auteur. Commençant par celle des Maghrâw, à l’époque de laquelle remonte la fondation d’Oran, l’auteur traite, ensuite, des Ubaïdide, puis des lamtûna(Almoravides), et poursuit son récit par des développements sur l’occupation espagnol d’Oran et la période turque.

Le premier tome est surtout intéressant par son exposé sur la ville d’Oran et ses savants. Quant à la partie relative aux dynasties ayant régné sur la ville, il s’agit généralement d’une compilation, l’auteur gayant emprunté l’essentiel de son récit à l’ouvrage d’Abû Râs, intitulé Adjâ’ib al-asfâr wa latâ’if al-akhbâr, ce dernier s’étant lui-mêm, d’ailleurs, largement inspiré du kitab al-ibar, d’Ibn Khaldûn. Aussi, a-t-on estimé qu’il était plus indiqué de supprimer purement et simplement les chapitres relatifs au Almohades et a la première partie de l’époque ziyanide, ces passages n’apportant aucune documentation de quelque intérêt.

Quand au second tome, il début par les relations entre le sultan ziyânide Abû Hammû Mûsâ II et les princes mérinides, et les conflits qui ont surgi entre les deux dynasties rivales. Puis, l’auteur traite de l’occupation espagnole, et pour ce, il fournit au lecteur des indications sur les Espagnole, et pour ce, il fournit au lecteur des indications sur les Espagnols, la situation de leur pays, leur origine et les différentes phases de leur occupation d’Oran. Enfin, il accorde une large place à la période turque, et, à ce propos, aborde des sujets tels que ceux de l’origine de la race turque, de leur histoire avant puis après la

fondation de l'Empire Ottoman, illustrée par une liste des sultans Ottomans jusqu'à l'époque de la rédaction de l'ouvrage ; cet aperçu général est suivi de développements sur les frères Arûdj et Khayr ad-dine et leur installation en Algérie, sous la bannière du Califat Ottoman, puis sur les pachas et deys de la Régence d'Alger, l'organisation politique et administrative en Algérie, à cette époque, notamment pour ce qui est de la région occidentale, sur la charge de Bey, ce qui entraîne l'auteur à donner d'intéressantes indications sur les institutions beylicales, le cérémonial en usage à la cour des Beys, lesquelles sont suivies par une liste des Beys de l'Ouest, cités un par un, avec des détails sur le gouvernement de chacun d'entre eux et les événements marquantes qui ont eu lieu à son époque. Cette liste comprend, tout fois, une lacune allant du 6^{e} au 15^{e} bey, remontant à l'époque où la résidence des Beys de l'Ouest était Mazouna (fin du XVI^{e}- milieu du XVII^{e} siècle), lacune que l'auteur n'a pu combler malgré les nombreuses recherches qu'il a effectuées en se sens. Par contre, la période des derniers beys d'Oran est traitée avec des détails revêtant un grand intérêt, notamment pour ce qui est de la révolte de la confrérie des Darqâwa et des graves conséquences qui en ont résulté.

A cet égard, il convient de signaler un curieux opuscule, intitulé Aqwâl at-ta'sîs ammâ waqa'a wa sayaqu'u min al faransîs, et attribué à l'historien abû Râs an-nâsirî. Les événements relatifs à l'occupation française, jusqu'à la fin du siècle dernier, et la situation précaire des populations algériennes sous le régime colonial sont relatés sous la forme de prophéties, de révélation faites au célébres savant Abû Râs. Or ce dernier, mort en 1822, c'est-à-dire plusieurs années avant l'occupation française, ne peut valablement être considéré comme l'auteur de ce livre.

Mais alors, on peut se demander pourquoi cet ouvrage a-t-il été attribué à Abû Râs par celui qui en est la véritable auteur. Autrement dit, ce dernier avait-il à craindre un danger quelconque s'il révélait sa véritable identité ?

Il se trouve que tel était en effet le cas de Muhammad b. Yûsuf Az-Zayyânî, auteur du Dalîl al-bayrân, qui exerçait les fonctions de cadi sous l'occupation française, et d'un certain nombre de lettrés, qui avaient dû, eux aussi, accepter de servir dans l'administration coloniale. Ces fonctionnaires ne pouvaient traitait de la période coloniale d'une manière objective, sans risquer de perdre la faveur des autorités, et même d'être considérés comme des agitateurs.

La situation de ces fonctionnaires était d'ailleurs, très délicate, puisqu'ils ne bénéficiaient guère du respect et de la confiance de leurs coreligionnaires. A cet égard, l'anonymat ou l'attribution d'un ouvrage à un auteur renommé, tel Abû Râs, peut se justifier également par le souci d'émettre des idées par l'intermédiaire de personnages irréprochables aux yeux des populations. Le précédé de révélation adopté par l'auteur semble destiné à faire admettre cette attribution à Abû Râs, puisque ce dernier a vécu avant les événements mentionnés.

Ce petit ouvrage mériterait, certes, une étude approfondie, car il concerne une période de l'histoire de l'Algérie sur laquelle nous avons très peu de témoignage parmi les auteurs algériens de l'époque. En tout cas, son attribution à l'auteur du Dalîl al-hayrân très plausible, et expliquerait la suppression du dernier chapitre de l'ouvrage.

Le Dalîl al-hayrân, de Muhammad b. Yûsuf Az-Zayyânî, s'ajoute à un certain nombre d'œuvres connues, qui ont été également consacrées à l'histoire d'Oran, telles que le Durr al-ayân fi akhbâr madinât wahrân de Hassan Khûdja, les Anîs al-gharîb wa lmusâfir de Mussalim b. Abd

al-qâdir, dont la traduction française, par a. Delpech, a paru dans la revue Africaine, année 1874, ainsi que plusieurs ouvrages d'Abû Râs, notamment son Adjâ'ib al-asfâr wa latâ'if al akhbâr. Ces ouvrages, qui ont été écrits vers la fin de la période turque, nous fournissent que fort peu d'informations sur l'histoire d'Oran après 1792, date de la fin de la seconde et dernière occupation espagnole. Ces information faut totalement faut pour la période sur du dernier Bey d'Oran.

Le grand mérite du Dalîl al-hayrân est d'avoir comblé cette lacune, en fournissant des détails intéressants sur les dernières années de la Régence, période sur laquelle nous ne disposons que de rares sources.

L'auteur ne se contente pas, d'ailleurs, de relater les événements qui ont pour théâtre le beylik d'Oran, mais il fait également allusion à des faits importants qui concernent le reste de l'Algérie. D'autre part, lorsqu'il traite du soulèvement de la confrérie des Darqâwa, dans la partie Ouest du pays, il s'appuie sur toutes les sources disponibles en son temps, ainsi que sur divers documents et témoignages oraux, et relate ces événements dans leur totalité, observant une attitude impartiale, que nous ne rencontrons pas chez les historiens officiels de l'époque, favorables aux autorités turques, ni chez les autres historiens, qui ont pris parti pour les Darqâwa.

Par ailleurs le portrait que le Dalîl al-hayrân trace du Bey Hassan b. Mûsâ, dernier Bey d'Oran diffère considérablement de celui qu'on trouve dans le miroir de Hamdân Khûdja. Pour ce dernier, le Bey Hassan était un exemple de piété, de charité, de justice et d'intégrité. Par contre, le Dalîl al-hayrân le présente sous les traits les plus noirs : tyran sanguinaire, il avait érigé la corruption en principe, incitait les fonctionnaires placés sous son autorité à présurer les populations, et allait même jusqu'à prendre une part d'héritage, à la mort de personnes

connues pour leur richesse, aux côtés de leurs héritiers. Ces informations nous permettant, en particulier, de comprendre le profond mécontentement des populations et la corruption et le déclin de l’administration, dans la Régence, au cours de la période qui a immédiatement précédé l’occupation française.

Aussi, en dépit des défauts que comporte le Dalîl al-hayrân, et qu’il partage en général, avec les œuvres de son temps, notamment les faiblesses de style et un recours trop fréquent à la compilation, il reste que cet ouvrage apporte des éléments nouveaux dans la connaissance historique de l’Algérie, et une documentation d’un grand intérêt.

Texte traduit par Abdelhamid HADJIAT